لقطات حية من المجتمع المصري المعاصر

هي لقطات أخذت في ظروف ومناسبات وأحداث معينة، وكتبت في وقتها، ونحن ننشرها هنا – كما هي بدون أي تعديلات- لعلها تعطي صورة لبعض جوانب الحياة المصرية المعاصرة بحلوها ومرها، بمزاياها وعيوبها، وقد يكون فيها مصارحة ونقدا شديدا أحيانا، وذلك بدافع الرغبة في إصلاح الذات وليس جلدها

شايف العصفوره؟!

(لعبة الإلهاء والإحتواء)

عصفور من الماضى:

ربطت حزام الأمان فى الطائرة وهممت أن أنام بعض الوقت لكى أستعيد نشاطى بعد يوم مجهد لأكون قادرا على إلقاء بحث فى أحد المؤتمرات الدولية، ولكن صراخ طفل فى المقعد المقابل حرمنى من ذلك، فهو يريد أن يجرى ويلعب فى طرقات الطائرة وأبوه يحاول أن يجلسه فى المقعد المخصص له ويثبته بالحزام، وباءت كل المحاولات بالفشل وفجأة وجدت أباه يشير بإصبعه إلى سقف الطائرة ويقول للطفل «شايف العصفورة» وراح الأب ينقل إصبعه يمينا ويسارا والطفل مشغول بمتابعة إشارات أبيه يحاول أن يرى هذه العصفورة الشقية كثيرة الحركة، وتعجبت أن يكون من بين ركاب الطائرات فى عام ٢٠٠٦ من يتذكر هذه اللعبة ويستخدمها مع طفله، وحمدت الله على أن أبواى لم يستخدماها معى وأننى لا أستخدمها مع أبنائى وبناتى. وأيا كان الأمر فبعد دقائق سكت الطفل، ولكن النوم راح من عينى وحل محله فى عقلى تساؤلات كثيرة، فهذه العبارة «شايف العصفورة» استدعت الكثير من الذكريات والأحداث وقد مرت سنوات طويلة لم أسمعها إلا فى تلك اللحظة، ولمن لا يعرف هذا الأمر أقول أن الآباء والأمهات قديما كانوا إذا أرادوا أن يسكتوا طفلا يبكى أو يتعلق بشئ يريده يقولون له «شايف العصفوره»

ويشيرون بأيديهم إلى اتجاهات مختلفة فيتبع الطفل الغرير إشارات أصابعهم علّه يرى العصفورة، وبعد دقائق ينسى الطفل موضوعه الأصلى فيحتويه الكبار فى أحضانهم أو يجلسونه فى حجرهم أويسيرون به إلى حيث يريدون. وكثيرون يرون أنها لعبة بريئة وتعتمد على قانون علمى أكيد وهو أن الطفل يسهل تشتيت أو جذب انتباهه بسرعة وبسهولة، والبعض الآخر يدّعى بأن للعبة استخدامات طبية مفيدة خاصة فى الماضى قبل شيوع استخدام البنج فى عمليات الختان (الطهور) والخصاء (فى عصور الأغوات) وفى خلع الأسنان أوالعمليات الجراحية حيث كانت هى الوسيلة الوحيدة لتشتيت الإنتباه وتخفيف الشعور بالألم، أو على الأقل التخلص من بكاء الطفل المؤذى له وللمحيطين به (على حد زعمهم).

ولم أكن متأكدا من العلاقة بين لعبة «شايف العصفورة» وعادة دق العصافير على جانبى الجبهة أمام الأذنين، تلك العادة التى كانت منتشرة فى قرى وصعيد مصر إلى عهد قريب نسبيا، ولكننى الآن أستطيع وضع احتمال بأن الكبار كانوا يريدون أن ينشغل حامل العصافير أمام أذنيه بمحاولة رؤية العصافير طول الوقت (دون جدوى) بدلا من أن يتعبوا أنفسهم بالإشارة بيدهم (عصافيره منه فيه)، ويبدو أن هذا الهدف كان يتحقق بفاعلية عالية بدليل أن أصحاب العصافير كان يضرب بهم المثل فى الغفلة والسذاجة والقابلية للإستهواء والإحتواء، وربما يكون هذا هو السبب فى إقلاع الكثيرين عن هذه العادة.

سر اللعبة:

تذكرت هذا وأنا أشاهد العصافير تملأ صفحات الجرائد وشاشات التليفزيون والكومبيوتر، وكل عصفورة تحمل عنوانا مثير ا فهذه عصفورة الختان وتلك عصفورة النقاب تليها عصفورة الحجاب يتبعها عصفورة العرض العسكرى (أو شبه العسكرى أو الرياضى) لطلاب جامعة الأزهرالمصابين بالأنيميا وفيروس سى ، يسبقها عصفورة جواز التدخين فى نهار رمضان. وهكذا تملأ زقزقات العصافير أذاننا وتتبعها أعيننا فى كل مكان فلا ندرى أين نحن ولماذا جئنا إلى هنا وأين نذهب وماذا نريد.

ولعبة الإلهاء لها أصول ومراحل فهى تبدأ بافتراض الغفلة والسذاجة لدى الضحية ثم تتطور إلى محاولة جذب انتباهه عن مشكلته الأصلية إلى شئ أقل أهمية لكنه أكثر إثارة، وبما أن الضحية يفترض فيه ضعف الذاكرة وتشتت الإنتباه وعدم وضوح واستقرار الهدف الأصلى، لذلك يتوقع القائمون على اللعبة أنه سينسى وينشغل بوسيلة الإلهاء، وإذا لم يتأكد هذا الإحتمال فإن الضحية يحتاج إلى عملية استهواء، وهى أكثر تعقيدا وإبهارا من الإلهاء فهى تستدعى مقالات وندوات ولقاءات تليفزيونية ومنتديات على الإنترنت ورسائل على البريد الإلكترونى، وإذا لم تفلح عملية الإستهواء يتم اللجوء إلى الإستلاب أو الإغواء، وفى الإستلاب يحتاج أصحاب اللعبة إلى شخصيات كاريزمية لها صفة السحر على الجماهير وقد تكون هذه الشخصيات من رجال السياسة أو رجال الدين أو رجال الإعلام أو نجوم الفن أو لاعبى الكرة، يقومون بتمرير اللعبة لدى الضحايا المستهدفين وهم فى حالة بين النوم واليقظة (أشبه ما يكون بعملية التنويم المغناطيسى) وربما يحتاج الأمر إلى مهارة مخرجى التليفزيون أو منظمى الندوات أو مديرى المنتديات لخلق جو أسطورى أو شبه أسطورى يساعد الشخصيات الكاريزمية على إتمام عملية الإستلاب دون أن يشعر الضحايا أو يتألمون أو ينتبهون، أما الإغواء فهو عملية تحتاج لرشوة الضحايا، والرشوة هنا إما أن تكون مالية (مكافآت أو إكراميات أو علاوات أو انتدابات أو سفريات) أو وظيفية (تعيينات أو ترقيات) أو اجتماعية (تلميعات وصناعة نجوم) أو سياسية (مناصب حزبية أو تسهيلات انتخابية) أو دينية (وعد بالجنة لمن يسمع كلام أولى الأمر ويطيع أوامرهم دون سؤال) أو جنسية (فيديو كليبات على فضائيات عارية أو شبه عارية). وإذا نجحت كل الخطوات السابقة تكون النتيجة النهائية هى الإحتواء حيث يجلس الضحايا فى حجر القائمون على اللعبة أو يرتمون فى أحضانهم أو يغطون فى نوم عميق بينما تتم عمليات أخرى بلا مقاومة أو ألم، أو ينظر الضحايا إلى العصافير من حولهم أو من فوقهم أومن تحتهم فى دهشة وانبهار حتى تتم عملية الختان أو الخصاء أو الإغتصاب فى سهولة ويسر على الطرفين.

من المصرية إلى العالمية وبالعكس:

وقد تعتقد أن لعبة «شايف العصفورة» هى لعبة مصرية بالأساس، خاصة أنها نشأت وترعرعت فى البيئة المصرية، ولها شاهد لا يحتاج للكثير من الأدلة العلمية ألا وهو عادة «دق العصافير» والتى أتشرف بالشهادة بأننى رأيتها بعينى أمام آذان عدد غير قليل من قاطنى قرى وجه بحرى والصعيد، ولم تختف إلا منذ سنوات قليلة حين أصبح البعض يتساءل فى مواقف الإلهاء والإستهواء مستنكرا ومحتجا: «هو انت فاكرنى داقق عصافير؟!!!». ثم استبدلت العصافير بعد ذلك برقم ١١١ يكتب فى نفس المكان أمام الأذنين، ولست أعرف السر فى اختيار كتابة رقم ١ ثلاث مرات إلا أن أحد المعارضين المشاغبين الظرفاء الذى خرج لتوه من السجن قال لى مازحا: إن هذا يمثل الملك (أو الرئيس) وابنه (ولى العهد) وزوجته، ولم آخذ الأمر حتى الآن على محمل الجد وآثرت أن أترك الأمر مفتوحا لمزيد من الإجتهادات العلمية الأكثر دقة. ولكن يبدو أن اللعبة أصبحت عالمية فقد رأينا بوش حين همّ أن يغزو أفغانستان حاول أن يرينا عصفورة بن لادن وطالبان، وحين نوى غزو العراق أرانا عصفورة صدّام وعصفورة أسلحة الدمار الشامل فى العراق، وحين انفتحت شهيته لغزو السودان لوّح بمشكلة دارفور، وهو يذكرنا بالحاوى الذى يحمل فى جرابه الكثير من العجائب يخرجها واحدا بعد الآخر وهو يحرك يديه حركات سريعة تشتت انتباه المشاهدين حتى يتم الخدعة أو اللعبة بمهارة، ويذكرنا أيضا بلاعبى الثلاث ورقات الذين يحركون الورق بخفة بين أيديهم ثم يظهرون الورقة التى يريدونها فى الوقت المناسب فيصدقهم الرائى بناءا على براعتهم وسرعتهم فى خلط الأوراق. والغريب أن هذه اللعبة رغم انتشارها عالميا على يد بوش وتابعه بلير إلا أنها كثيرا ما تمارس مع العرب بوجه خاص، فكلما أرادت أمريكا أو إسرائيل عمل شئ، قاموا بتغطيته بأى عصفورة ننظر إليها حتى يتموا هذا العمل فى سهولة ويسر وبأقل قدر من الإزعاج لنا ولهم.

هل أكلت البرتقالة؟؟:

وقد ذكرنى هذا بموقف حدث منذ سنوات حيث كنت أتدرب على طريقة العلاج

بالتنويم المغناطيسى على أيدى معالج نفسى أمريكى، وكان يحضر التدريب عدد من المعالجين النفسيين بينهم مصريين وعرب، وبدأ المعالج المدرب يطلب من الحضور عمل بعض أشياء ليست لها علاقة مباشرة بالموضوع، وأنا أعرف من خبرتى السابقة كمعالج نفسى أن المقصود منها تشتيت الإنتباه لتقليل الدفاعات النفسية وتسهيل اختراق الجهاز النفسى وتوصيل الرسائل المطلوبة إليه، ومن هذه الأشياء أنه طلب أن نتخيل أننا نمسك ببرتقالة فى أيدينا ثم نقشر هذه البرتقالة ونأكلها ونستشعر طعمها، وقد هالنى اندماج المصريين والعرب فى هذا الدور بشكل ملفت للنظر مقارنة بغيرهم من الجنسيات (ربما لأن المدرب أمريكى ينطق على الهوى)، وبعضهم خرج يقسم أنه استشعر فعلا طعم البرتقالة، وبعضهم ذهب أبعد من ذلك فجزم بأنه استشعر وجود برتقالة أخرى فى يده الثانية قام بوضعها فى جيبه (والجيب هنا له معان كثيرة فى اللغة العربية اختر منها أيها شئت)، ومن يومها وأنا أتوجس من البرتقال، وأدركت كم نحن أمة قابلة للإلهاء والإيحاء والإستهواء والإستلاب والإغواء إلى درجة الإحتواء، وقررت أن لا أمارس هذا النوع من العلاج التنويمى وفضلت أن أعالج مرضاى وهم فى كامل وعيهم وعقلهم دون استخدام البرتقال أو الموزعلى الرغم من زيادة المشقة.

غربان عبرية:

وقد عرفت إسرائيل هذه الصفة عنا فتجدها تطلق فى كل مرحلة عصفورا (أو بالأصح غرابا) ننشغل بالكلام عنه والهرولة للتباحث بشأنه (آخر هذه الغربان الميتة خارطة الطريق)، ثم تطلق غربان أخرى، وتتوالد الغربان فى الجو ونحن ننظر إليها جميعا ونحاول تتبعها جميعا حتى ننسى الموضوع الأصلى ويصبح تتبع الغربان ومعرفة ألوانها وأحجامها وجنسها هو الهدف، وأثناء هذا الإلهاء والإستهواء تكون إسرائيل قد حققت كل مشروعاتها التى خططت لها منذ البداية فتغلق الملف ونفاجأ نحن باختفاء الغربان وانسحاب المفاوض الإسرائيلى الذى أطلقها انتظارا لدورة غرابية أخرى.

زقزقة مصرية:

وحين نتابع الصور فى المشهد المصرى بوجه خاص نرى بيع شركات القطاع العام

بأبخس الأسعار، ونرى السكوت عن احتلال العراق وابتلاع فلسطين، ونرى تدمير لبنان أمام أعيننا، ونرى تزوير انتخابات مجلس الشعب وتزوير انتخابات اتحاد الطلاب ونشأة اتحادات موازية تدفع للصراع الدامى بين أبنائنا الطلاب أيا كانت انتماءاتهم داخل الجامعات، ونرى غرق العبارات، وحوادث السكة الحديد، وتعديل المادة ٧٦ من الدستور ثم الشروع فى تعديل التعديل بتعديل يحتاج فيما بعد إلى تعديل، ونرى البطالة والفساد والمظالم الإجتماعية والتوحش الأمنى لسد الفراغ السياسى، كل هذا يجرى ونحن نتلهى أو نستهوى أو نستلب أو نغوى بالعصفورة، ففوق كل حدث من هذه الأحداث كانت تطير عصافير فوق رؤسنا ننشغل بها حتى تتم الصفقة أو العملية أو تمر الكارثة، والجميع يراهن على ضعف ذاكرتنا وقابليتنا العالية لتشتت الإنتباه والإستهواء وأحيانا الإستلاب.

الترفيه غير البرئ وترسيخ الوضع الراهن:

وعمليات الإلهاء والإستهواء والإستلاب والإغواء والإحتواء لا تحتاج فى كل المرات إلى فرقعات ساخنة (كقضية النقاب أو الحجاب أو الإساءة للرسول بالرسوم الكاريكاتورية أو الإستعراض الرياضى أو العسكرى أو شبه العسكرى لطلاب الأزهر، أو التحرش الجنسى فى وسط البلد) بل أحيانا يتم ذلك بواسطة الإتاحة الهائلة لعدد كبير من البرامج الترفيهية والتى تبدو محايدة وبريئة مثل مباريات كرة القدم أو الأفلام والمسرحيات والمسلسلات والكليبات والأغانى، وكل هذه الأشياء تخدر الوعى وترسخ للوضع الراهن وتقتل الرغبة فى التغيير الإيجابى وتوحى بأن الحياة جميلة ومستقرة وبأن مظاهر الرفاهية متاحة على الأقل فى التليفزيون، إضافة إلى أن ملايين البشر يقضون ملايين الساعات أمام التليفزيون وهم فى حالة استرخاء وتلق سلبى تستقبله الحواس ووسائل الإدراك ولا تتحرك بموجبه الجوارح، وهكذا شيئا فشيئا يتعلم الشخص المشاهد ذلك التعامل الأحادى حيث يرى ويسمع وليس مطلوب منه أن يفعل شيئا، ومع استمرار وطول ساعات المشاهدة يصاب بالهمود الجسدى والفكرى فينام ساعات قليلة ليصحو فى حالة إعياء لا تسمح له بممارسة تفكير نقدى أو عمل منهجى فيصبح مرة

أخرى أكثر قابلية للإيحاء فالإستهواء فالإحتواء.

من الحلم البديل إلى الطب البديل... ياقلبى لا تحزن:

وربما يعتقد بعض الناس أن البرامج الحوارية أو الثقافية بريئة من لعبة «شايف العصفورة» وهذا بعيد جدا عن الحقيقة فكثير من هذه البرامج يدفع بعصافير تخطف عقل المشاهد الذى أدمن الإستهواء والإستلاب، ويكفى أن تتابع برامج تفسير الأحلام أو الطب البديل لترى كيف تشغلنا هذه البرامج التافهة المضللة عن صنع أحلامنا المستقبلية وعن الطب الأصيل الذى لم نبرع فيه حتى نبحث عن الطب البديل، ويبدو أن التركيبة النفسية للناس أصبحت ترغب فى هذا الإلهاء والإستهواء بدليل الكثافة العالية لمشاهدى هذه البرامج التى تقوم على الفكر الخرافى التعميمى الإختزالى المشوه، وقد سمعت من كثير من الناس عن أحد مفسرى الأحلام العظام فجلست أتابعه عدة حلقات فوجدته يمارس الدجل والشعوذة متسترا بالدين ومتسترا بما يسميه علم تأويل الأحلام ويدّعى انتسابه زورا بالأزهر والأزهر منه براء، ثم تتبعت أحد مشاهير الطب البديل وهو طبيب (أو يدّعى أنه طبيب) فوجدته يمارس هرطقة يلبسها ثوبا شبه علمى فيصف البرطقوش لشخص مصاب بتضخم الطحال ثلاث أضعاف حجمه ويجزم له أن الطحال سيعود لحجمه الطبيعى بتأثير البرطقوش بعد أسبوعين فقط دون أن يسأل ويتقصى عن سبب تضخم الطحال، والغريب أنه يتكلم بثقة عالية يحسد عليها وهى إحدى صفات الدجالين والسيكوباتيين، والأعجب من كل هذا أن ملايين البشر يصدقونه ويتابعونه على الرغم من وضوح دجله وشعوذته ونصبه واحتياله، ويحضر له فى ندواته آلاف البشر وهم مشدوهين وكأن على رؤسهم الطير، فى حين إذا دعى عالم موضوعى يقول الحقيقة ويوقظ العقل لممارسة التفكير النقدى المنهجى الجاد لا يحضر له أحد.

الطوفان وسفينة نوح:

وقد ينصرف ذهنك إلى أن لعبة «شايف العصفورة» تنجح فقط مع الأطفال الصغار أو مع ضعاف العقول أو القابلين للإلهاء أو الإستهواء أو الإستلاب أو الإغواء (أيهما أسهل)، ولك الحق فى ذلك، إلا أن المدهش فى هذه الأيام أن هذه اللعبة أصبحت تمارس

مع شعوب بأكملها، والمدهش أكثر أنك ترى عددا كبيرا من كبار المثقفين والمفكرين ورؤساء تحرير بعض الصحف يجولون بأعينهم فى كل الإتجاهات بحثا عن العصفورة المجهولة، حيث تغيب منهم وعنهم الفكرة المركزية ويندفعون جريا وراء العصافير وبالونات الإختبار وتكثر الثرثرة المملة على الفضائيات وفى صفحات الجرائد حول تفاصيل تافهة وهامشية تستهلك فيها الطاقات فى حين تمر الصفقات بليل.

وربما تظن أن القلة الناجون من «شوفان العصفورة» من العلماء الجادين المنهجيين أصحاب العقلية النقدية، هم من المحظوظين والسعداء فى مجتمعات تعج بالمتلهين والمستهوين والمستلبين والمغوين والمحتوين، ولكن للأسف الشديد هؤلاء القلة يعانون غربة ووحشة وربما نبذ واستبعاد لأنهم يحاولون إيقاظ النائمين، وعلى رأى الشاعر الساخر «اللى يصحى الناس يا ناس أكبر غلط!!».

ولقد فهمت فى هذا السياق إعلان الروائى الكبير بهاء طاهر توقفه عن قراءة الصحف أو متابعة وسائل الإعلام المصرية حفاظا على نقاء أجوائه من العصافير والغربان.

وأكثر وأخطر ما أخشاه أن أكون أنا وأنت عزيزى القارئ قد شاركنا فى البحث عن العصفورة فى وقت من الأوقات، أو ربما نكون الآن «شايفين العصفوره»!!!!!

❋ ❋ ❋

ماذا حدث للفلاح المصرى؟

قليلا ما يفكر أحد فى الفلاح المصرى وماذا جرى له من تحولات بسبب الظروف السياسية والإقتصادية والإجتماعية، ربما لأن من يكتبون أغلبهم يعيشون فى المدينة، وحتى لو كانت أصولهم قروية إلا أن علاقتهم بالقرية وبأهلها اقتصرت على زيارات عارضة أو موسمية لحضور فرح أو عزاء أو عيد، وسرعان ما يعودون إلى مدينتهم وهم يحمدون الله على النعمة التى هم فيها وينسون الموضوع برمته بقصد أو بغير قصد. وحتى فى الأعمال الدرامية لا يظهر الفلاح الحقيقى غالبا وإنما يظهر فلاح تخيلى ذو صورة نمطية يعيش فى رأس المؤلف وتفصله مسافات شاسعة عن الفلاح الحقيقى. ويخطئ من يظن أنك لكى ترى الفلاح فلابد أن تذهب إلى القرية، فالقرية وإن كانت هى الموطن الأصلى للفلاح إلا أنها أصبحت بيئة طاردة له إلى المدينة فى داخل مصر وخارجها، فأصبح الفلاح يظهر فى كل مكان وبكثافة يحمل معه كل موروثه القروى بعدما أضيف إليه من تعديلات أوتشوهات، وهذه الصورة لا تغرى أحدا بتأمله وإنما يكتفى بتسخيره (أو استخدامه) لأداء بعض المهام المطلوبة لساكنى المدن. والفلاح المصرى ليست له إرادة سياسية تغرى أصحاب القرار بالإقتراب منه ودراسة أحواله ورصد تغيراته، وليس له ثقل اجتماعى يغرى الباحثين بالتعمق فى أحواله وتحليل جوانب حياته، ولهذا بقى هو وبقيت القرية المصرية منطقة غائمة فى الوعى العام. وهناك مثل شعبى شديد القسوة يصور هذا الموقف بقوله: «الفلاح ريحته زفره». وقديما كان الباشا التركى المتعالى والمتغطرس يصف المصرى عموما بأنه «فلاح خرسيس»، حتى ولو كان ذلك المصرى زعيما شعبيا بحجم أحمد عرابى. وليس فقط الباشا التركى هو الذى يستخدم لفظ الفلاح بهذا الشكل السلبى وإنما اعتاد المصريون أنفسهم أن يستخدموه كأداة سب وتحقير فى حوارهم اليومى. ولم يظهر الفلاح فى صورة إيجابية حقيقية إلا فترة قصيرة فى بدايات ثورة يوليو وهو يسلم على الزعيم عبدالناصر ويتسلم منه عقد ملكية الأرض الجديدة التى اقتطعتها الثورة ممن أسمتهم إقطاعيين فى ذلك الوقت.

العلاقة بالأرض:

كانت هناك أورجوزة فى التراث الشعبى وردت فى أوبريت غنائى إذاعى شهير هو «عواد باع أرضه» وكلمات الأورجوزة تقول:

عواد باع أرضه
يا ولاد
شوفوا طوله وعرضه
يا ولاد
يا ولاد غنوا له
يا ولاد
على عرضه وطوله
يا ولاد

كان الإرتباط بالأرض قيمة بل كان طين الأرض نفسه قيمة ورائحته قيمة، بحيث أن التفريط فى أى شئ من ذلك يساوى التفريط فى الشرف والكرامة، وكان الفلاح يأنف من بيع أرضه ويجده عيبا يستحق الخجل والتوارى من الناس كما يتضح فى الأورجوزة السابقة.

والآن لم تعد للأرض نفس القيمة والقدسية عند الفلاح المصرى فبيعها لم يعد عيبا كما كان، وتجريفها وتبويرها والبناء فوقها أصبح شيئا مستحبا بل مرغوبا بشدة لديه. وربما يرجع ذلك لأن الأرض لم تعد تستر الفلاح أو تسد احتياجاته، فقد تفتت الملكية الزراعية مع توارثها جيل بعد جيل، ولم تتوسع رقعتها لتواكب الزيادة السكانية، ومن المعروف أن العائد الزراعى أبطأ وأقل من العائد الصناعى أو التجارى، ولكى تتوازى هذه العوائد أو حتى تقترب من بعضها لا بد من وجود مساحة أرض زراعية واسعة، وهذا مالم يحدث لأسباب كثيرة بالشكل المناسب والمتناسب مع أعداد الفلاحين، لذلك ارتبطت مهنة الفلاحة بالشقاء والفقر والحاجة والوضع الإجتماعى الأدنى، ولهذا وجدنا الفلاح يكره أن يورث مهنته لأبنائه لذلك يسعى بكل يملك لتعليمهم حتى يلتحقوا بوظائف حكومية

أو غير حكومية أو صنعة من الصنائع تبعدهم عن مهنة الفلاحة والزراعة ، وهو لا يرضى لأحد أبنائه بالبقاء معه فى الأرض إلا مضطرا، وكأن الفلاحة أصبحت مهنة اضطرارية يلجأ إليها من فشل فى التعليم وفشل فى التجارة وفشل فى أن يتعلم صنعة معينة، وهكذا يتم تجريف هذه المهنة العظيمة من النابغين والنابهين، وتكون النظرة إلى الفلاح نظرة دونية لا تشجع أحدا على أن يكون فلاحا، على الرغم من عظمة هذه المهنة وأهميتها. وعلى الرغم من قدم الزراعة والفلاحة فى مصر أكثر من أى بلد آخر إلا أن تطور هذه المهنة قد توقف فى مصر فما زالت هي هي نفس الأساليب المتبعة من أيام الفراعنة وما زالت هى هى نفس الوسائل البدائية وقطع الأرض الصغيرة التى لا تتجاوز عدة أفدنة بل قد تقاس بالقراريط فى كثير من الأحيان، وما زالت سلعة الفلاح تشترى بأسعار زهيدة. كل هذا يكمن وراء ضعف انتماء الفلاح المصرى لأرضه وضعف تمسكه بها، ورغبته فى هجرها.

وهذه العلاقة الفاترة أو السلبية بالأرض ربما تكمن وراء الرغبة المحمومة لدى كثير من الفلاحين لتبوير أرضهم وتحويلها إلى أرض بناء تدر عليهم ربحا سريعا، وربما تكمن أيضا وراء التراخى فى استصلاح الأراضى المتاحة فى الصحراء والصبر عليها حتى تصبح صالحة للزراعة.

تآكل الأسرة الممتدة:

كانت الأسرة الممتدة من خصائص المجتمع القروى، وهى الأسرة التى تضم ثلاث أجيال يعيشون فى بيت العائلة الكبير: الجد (والجدة)، الأبناء (والبنات)، ثم الأحفاد. ومع التغيرات الإقتصادية والإجتماعية قل عدد الأسر الممتدة وتزايد عدد الأسر النووية الصغيرة (الأب والأم والأبناء) يعيشون فى شقة صغيرة أو بيت صغير. وقد تظل الأسرة الصغيرة على اتصال يومى بالأسرة الكبيرة ولكنه فى الغالب اتصال وظيفى وليس اتصالا عضويا. وقد أثر هذا على علاقة الأبناء والأحفاد بجيل الأجداد فلم تعد كلمة الكبير لها نفس المكانة كما كان فى الماضى حين كان الكبير يملك الأرض والبيت ومن فيهما، وأصبحت الروح الفردية أكثر شيوعا فكل إنسان يحاول أن يدير حياته كما يريد ويرى، والجيل القديم يقاوم هذه النزعة الفردية ويحاول قدر استطاعته الإبقاء على حالة الوصاية

القديمة والتى كانت سائدة فى عهدهم، وقد أدى هذا إلى صراع بين الأجيال يبدو أكثر حدة فى هذه الأيام.

وفكرة غياب الكبير انتقلت إلى المستويات السلطوية والإجتماعية فلم يعد للعمدة أو شيخ الخفراء أو شيخ البلد نفس التقدير، بل كثيرا ما تتعرض هذه الرموز للسخرية والإستهزاء بشكل مباشر أو غير مباشر.

ولم تعد لدى الفلاح المصرى رغبة فى إنجاب عدد كثير من الأولاد، ولم تعد فكرة العزوة تراوده بنفس الدرجة التى كانت موجودة لدى الآباء والأجداد، فهو الآن يعلى من قيمة الثروة وقوة المال والنفوذ الوظيفى.

الهجرة إلى المدينة:

حين ضاقت الرقعة الزراعية وافتقرت أو أفقرت أصبح أحد أحلام الفلاح المصرى الهجرة إلى المدينة حيث أحلام الثروة والحياة المدنية الحديثة، وحين ذهب إلى المدينة نقل إليها خصائص الحياة الزراعية فبنى العشوائيات، وأضفى ذوقه الريفى على المساحة التى يشغلها ، ونقل أخلاقيات المجتمع الزراعى إلى المدينة كالبطء والتراخى والإحساس الممتد بالزمن، وعدم تقدير أهمية المواعيد، وعدم تحرى الدقة، وضعف الإهتمام ببروتوكولات العلاقات الإجتماعية. وقد أثر هذا تأثيرا سلبيا على مجتمع المدينة، ذلك المجتمع الذى يحتاج إلى خصائص نفسية واجتماعية تناسب سرعة الحياة ومتطلبات الدقة فيها، ومراعاة مستويات أعلى من الذوق العام فى الأماكن ذات الطابع السياحى أو الجمالى، وتقدير احتياجات المجتمع الصناعى من الدقة والسرعة واحترام الوقت.

السفر إلى الخارج:

كان معروفا عن الفلاح المصرى ارتباطه الشديد بأرضه وقر يته وعزوته وقد ظل على هذا الحال قرونا طويلة على الرغم مما كان يمر به من مشكلات فقر واحتياج، ولكن حدث فى النصف قرن الأخير تغير ملحوظ حيث بدا السفر إلى الخارج حلما يداعب خياله، ويسعى إليه بكل ما أوتى من قوة، وإذا نجح فى السفر فإنه يقضى سنوات طويلة

هناك، ويأتى لزيارة أهله لمدة شهر أو شهرين كل عام أو عامين، وتصبح علاقته بزوجته وبأولاده علاقة موسمية مؤقتة وعلاقة تمويل أكثر منها علاقة أسرية متينة. ويفسر البعض إقبال الفلاح المصرى على السفر بهذا الشغف إلى ما تعرض له من إغراء استهلاكى عن طريق وسائل الإعلام حيث نقلت له أنماطا من الحياة الرغدة المرفهة فى مجتمعات أخرى لم يألفها من قبل، وفتحت شهيته للتطلع إلى مثل هذه الأنماط المعيشية ما دام ذلك ممكنا. وفى بعض الإحصائيات تبين أن ٢٠٪ من الأسر المصرية بلا أب نظرا لسفره بالخارج. ومن الناحية النفسية والإجتماعية فقد أثر ذلك الوضع كثيرا على بنية الأسرة، فالزوجة محرومة من حقوقها الزوجية الطبيعية، وهذا يجعلها فى حالة غير سوية فى الأغلب حتى وإن تظاهرت بالسواء، والزوج كذلك، والأولاد والبنات فقدوا صورة الأب، تلك الصورة الهامة تربويا ونفسيا لهم، وبهذا تغيرت التركيبة النفسية والقيمية لهذا الجيل فلم يعد منتميا للأب أو متأثرا به، فصورة الأب لديه باهتة أو منقوصة أو منعدمة. والأم تورطت فى دور مزدوج (أب وأم) تحاول القيام به فيرهقها ويفقدها أنوثتها الطبيعية خاصة حين تحاول أن تستلهم الصفات الرجولية لكى تسيطر على أبنائها الذكور الذين دخلوا فى مراحل المراهقة أو الشباب، وهى تشعر بعدم الأمان وتشعر بالخوف من الفشل فى القيام بمهمتها فتبالغ فى حماية أبنائها أو السيطرة عليهم، فيواجهون هم ذلك بالعناد والتمرد.

والأب يشعر بالذنب والتقصير تجاه زوجته وأبنائه فيحاول تعويضهم ماديا بإغداق الإنفاق وكثرة الهدايا (قدر استطاعته) وتلبية طلباتهم بشكل فورى وهو لا يعلم أن ذلك فى النهاية يفسدهم لأنه يفتح شهيتهم الإستهلاكية الإعتمادية، ويعودهم على الأخذ الدائم، ويعطل لديهم قيم العمل والإجتهاد والعطاء والسعى وراء الإحتياجات.

وعلى الجانب الإجتماعى نرى الفلاح المسافر يعلو ببنائه على جاره المقيم ويتباهى بما حققه من ثروة (أو تتباهى أسرته) ويثير روح المنافسة أو الحقد لدى من لم يسافر، ونتيجة هذا حالة من عدم التوازن الإجتماعى ربما تصل إلى نوع من الطبقية تدفع المقيم إلى السفر أو إلى تحقيق الثروة بأية طريقة لكى يلحق بمستوى من سافروا.

وعلى الجانب الثقافى والدينى فإن من سافروا قد عادوا بقيم البلاد التى سافروا إليها

وثقافتها وحاولوا نقلها إلى مجتمعهم الريفى فحدث تغير نوعى فى التركيبة الدينية والثقافية فى الريف المصرى.

النمط المعمارى:

اختفى النمط المعمارى المميز للقرية (البيوت المبنية من الطين ذات الطابق الواحد أو الطابقين على الأكثر والتى تحوى غرفا صغيرة وحظيرة للحيوانات ثم حظيرة للطيور)، وحل محلها مبان بالطوب الأحمر ذات طوابق متعددة وليس لها أى نمط مميز بل هى تبنى كيفما اتفق، ولذلك أصبح شكل القرية عشوائيا يحوى بعض البيوت القديمة الطينية مع الكثير من الكتل الأسمنتية والطوب الأحمر الذى يخلو من البساطة والجمال، وبجانب هذا بعض البيوت الفارهة على نمط المدينة، وكل هذا يشكل مسخا لا ينتمى إلى القرية أو إلى المدينة، وربما هذا المسخ المعمارى يقابله مسخا ثقافيا وأخلاقيا فى نفوس الناس فلاهم ينتمون إلى قيم القرية ولا هم استوعبوا قيم المدينة.

الإنتاج الغذائى:

كان الفلاح المصرى فيما مضى ينتج غذاءه من أرضه ومن حظيرة مواشيه وكانت زوجته تقوم على تربية الدواجن التى تغطى احتياجات البيت من اللحوم. ففى البيت القمح والأرز واللبن والبطاطس والكوسة والبامية والملوخية، وكلها أشياء منتجة محليا، أما الآن فهو يشترى الخبز من الفرن أو من محلات البقالة، وقد عزفت زوجته عن «الخبيز» وعزفت عن تربية الدواجن، وعزف هو عن تربية المواشى (ربما لغلاء تكلفة هذه التربية على المستوى الفردى)، وأصبح الفلاح مطالب بشراء الكثير مما يأكله. وبما أن دخل الزراعة ضعيف مقارنة بدخل الصناعة أو التجارة لذلك وجد الفلاح نفسه متأزما أمام احتياجات غذائية لا يملك القدرة عليها، خاصة مع تقلص الرقعة الزراعية بشكل مستمر بسبب البناء عليها أو تبويرها أو تجزئتها بالميراث.

ولم يعد فى كثير من البيوت فرنا تقليديا كما كان واستبدل ذلك بفرن البوتاجاز، وكان هذا وراء الإستغناء عن قش الأرز كوقود تقليدى، واستتبع هذا حرقه فى الحقول مع ما تخلف عنه من خلق سحابة سوداء ودرجة عالية من التلوث فى القرية والمدن المجاورة لها.

أخلاقيات القرية:

تغيرت كثيرا أخلاقيات القرية فتقلصت روح العائلة الواحدة واتسعت مساحة الفردية، وانسحبت الكثير من قيم المروءة والشهامة والنجدة وحلت محلها قيم أنانية ونفعية، ولم تعد الغيرة على العرض والشرف بنفس الدرجة فأصبح الفلاح يتقبل أشياء وسلوكيات من أبنائه وبناته لم يكن يتقبلها من قبل، وأصبحنا نرى ونسمع عن العلاقات العاطفية المتعددة والمفتوحة فى المجتمع القروى، وعن حالات حمل غير شرعى بنسب ليست قليلة، وانتشر تعاطى المخدرات بأنواعها، وكثر عدد المقاهى، ومحلات الإنترنت، واختفت الأزياء الريفية وظهر خليط من الأزياء المدنية المختلطة ببعض اللمسات الريفية. ولم يعد احترام الكبير قائما، واهتزت صورة الزوج فلم يعد يحظى بنفس التقدير العالى كما كان وأصبحت المرأة قادرة على أن تعنفه وتلومه وأحيانا تضربه، ولم يعد المراهقون والشباب يطيعون أوامر الآباء والأمهات بل أصبحوا مصرين على خياراتهم ورؤاهم الشخصية بشكل أكثر وضوحا وجرأة.

حالة التدين:

كان يغلب على أهل القرى نوع من التدين البسيط حيث كان المسجد يتوسط القرية ويشكل مركزا جغرافيا وروحيا لأهلها، والناس يبدأون يومهم بصلاة الفجر وينهونه بصلاة العشاء، وتسرى فى حياتهم روح دينية مبسطة وبسيطة، وأحيانا يغلب عليها الطابع الصوفى المشبع بالرضا والتسليم والمتمثل فى انتشار الموالد والأضرحة والتبرك بالأولياء. ولم يخلو التدين القروى من بعض المعتقدات الأسطورية والمبالغة فى تأثير الجن والسحر والحسد فى حياتهم.

وفى النصف قرن الأخير بدأ التدين يأخذ منحى آخر حيث نشطت الجمعيات والجماعات الدينية فى مجتمع القرية فتغيرت مفاهيم وطقوس دينية كثيرة طبقا لتفسير الجمعية أو الجماعة للدين، ونشأت خلافات عميقة وحالات استقطاب بين أنصار الجمعيات والجماعات الدينية المختلفة، وتوارت الطقوس والمظاهر الصوفية. ومن أشهر الجمعيات والجماعات المؤثرة على الجانب الدينى فى القرية نجد الجمعية الشرعية

والإخوان المسلمين وجماعة أنصار السنة ثم التبليغ والدعوة. وفى الوقت الحالى تحتل جماعة أنصار السنة بمنهجها السلفى مساحة واسعة فى التأثير، وهو ما نلحظه من انتشار اللحى الطويلة والثياب القصيرة للرجال والنقاب للنساء، والإهتمام بالعودة إلى نمط حياة السلف بكل تفاصيله. وقد تقبل مجتمع القرية هذه المفاهيم نظرا لقرب عهده النسبى بها ونظرا لجذوره المحافظة التى يحاول العودة إليها لحمايته من غزو القيم الحياتية الجديدة الواردة إليه عبر الفضائيات والإنترنت وعبر أبنائه العائدين من الخارج. يضاف إلى ذلك كثرة عدد الريفيين الذين سافروا إلى الخليج حيث يسود هناك المذهب السلفى، وقد تأثروا به وتوحدوا معه، وربما ربطوا بينه وبين الثروة والرفاهية والحياة الرغدة، أو نظروا إليه من موقعهم الأدنى فتوحدوا معه على أنه الأقوى والأفضل.

مجتمع القرية والشاشة:

لقد أحدثت الشاشة بكل تنويعاتها (التليفزيون والكومبيوتر والموبايل) تغيرات نوعية فى المجتمع الريفى، فالفلاح يجلس أمام التليفزيون لوقت متأخر فلا يتمكن من الإستيقاظ مبكرا كما كان، وقد انفتح عقله على عوالم جديدة يراها أمام عينه فترفع من مستوى طموحه وربما مستوى شراهته الإستهلاكية، وقد أدى هذا إلى تقلص حالة الرضا التى كان يتسم بها الفلاح والتى كانت سمة مميزة له فلم يعد الآن راضيا أو قانعا. وغيرت شاشة التليفزيون وشاشة الكومبيوتر والإنترنت من قيم الفلاح حيث انفتحت عينه على الكثير من المحظورات والمحرمات، واتسعت مساحة رؤيته فى المناطق الإيجابية والسلبية على السواء، ولكن هذا أحدث شرخا هائلا بداخله، حيث يرى هذا العالم الواسع الذى يعد بالثروة والمتعة وفى ذات الوقت حين يغلق الشاشة يصحو على واقعه الفقير المؤلم.

وهذه الشاشات قد أثرت على القدرة الإنتاجية للفلاح المصرى تأثيرا سلبيا حيث استنزفت جزءا كبيرا من قوته وطاقته (بالسهر أمام التليفزيون والإنترنت) وماله (من خلال الإنفاق المتزايد على التليفون المحمول).

وحين تزور قرية مصرية تفاجأ باختفاء مخازن الغلال التى كانت تعلو السطوح بشكلها المميز، وقد حل محلها أعداد هائلة من أطباق الفضائيات، وهذا يعنى الإنتقال من

الإنتاج والتخزين إلى السهر والرفاهية.

وثمة صورة كاريكاتورية تراها الآن كثيرا فى القرية فى شكل فلاح يمتطى حماره ويتحدث فى تليفونه المحمول إلى زوجته الجالسة أمام التليفزيون أو إلى ابنه الجالس فى مقهى الإنترنت حيث يقضى معظم وقته.

الطقوس الإجتماعية:

مر زمن طويل على القرية المصرية اتسمت فيه بالبساطة فى طقوس الأفراح والمآتم، أما فى السنوات الأخيرة فثمة سباق محموم فى التظاهر والتفاخر فى مثل هذه المناسبات، حيث المبالغة فى تجهيز أساس العروسين بما يتجاوز بكثير قدرة ألأسرتين، والمبالغة المستفزة أحيانا فى طقوس الأفراح بإقامتها فى قاعات النوادى وبتكلفة هائلة نسبيا (بدلا من إقامتها قبل ذلك فى البيت أو فى الشارع بتكلفة بسيطة). وفى بعض القرى تقام وليمة ضخمة لأهل العريس فى الأيام التالية للخطبة تتكلف مئات وأحيانا آلاف الجنيهات، وقد تستبدل هذه الوليمة بسيارة تحمل مؤنا غذائية وهدايا من أسرة العروس إلى أسرة العريس تمشى فى موكب يشق شوارع القرية فيستفز الآخرين ويدفعهم إلى التسابق للمزيد. ونفس الشئ يحدث فى «الصباحية» حيث تتكون من عدد من السيارات تحمل موادا غذائية ولحوما ودواجن وأحيانا بقرة أو جملا تزف إلى بيت العروسين فى اليوم التالى للزفاف. وفى بعض القرى ظهر تقليد أن تذهب العروس فى فترة خطبتها إلى بيت العريس من وقت لآخر لتقضى يوما بأكمله عندهم، وقد حدث من هذا التقليد مشاكل كثيرة بعضها يمس الشرف وأخلاقيات القرية التى كانت سائدة مما استفز خطباء المساجد وراحوا يدعون إلى مقاومة هذه العادة المستحدثة.

وأصبحت المآتم فرصة للتباهى وإظهار القدرة المادية والمكانة الإجتماعية، حيث تقام السرادقات الضخمة وتذبح العجول أو الأبقار أو الجمال وتقدم المشروبات، ويأتى الناس من كل حدب وصوب لإظهار المكانة الإجتماعية للمتوفى وأسرته.

وانتشرت فى القرية عادة التصييف وهى عادة جديدة عليها لم يعرفها الآباء والأجداد من قبل ربما بسبب جو القرية المعتدل وطبيعتها الجميلة، وقد أصبح القرويون يصيفون

كل عام، ويضعون ميزانية خاصة لهذا الأمر ربما لا يتحملونها.

وقد يقول قائل بأن هذه التغييرات هى من صميم التطور والتغيير فى الحياة فليس معقولا أن تسير الحياة فى المجتمع القروى أو المدنى على وتيرة واحدة دون تغيير، وهذا صحيح فالحياة بطبيعتها متغيرة، ولكننا دائما ننظر إلى التغيير: هل هو فى الإتجاه الإيجابى البنّاء؟ هل هو فى اتجاه تأكيد الخصوصية وتقوية الإنتماء؟ هل هو فى اتجاه النمو الإقتصادى والإجتماعى والثقافى؟.. أم أن التغيير ضد كل هذا؟

يبدو أن التغيير فى حياة الفلاح المصرى قد حدث فى ظروف سياسية غير مواتية جعلت هذا التغيير يأخذ شكلا استهلاكيا ترفيا مغتربا فرديا أنانيا، وهذا ما يدعو للقلق ويحفز للمراجعة والتصحيح والإصلاح.

***

قانون الطوارئ الممتد والمتمدد

(أن ترى الإشارة حمراء دائما)

حين عدت من الخارج عام ١٩٩٧ ظللت فترة أعاني من إشارات المرور في مصر، فقد كنت تعودت في سنوات الغربة أن أقف فورا حين ألمح الإشارة حمراء، وحين فعلت ذلك في شوارع القاهرة كادت تحدث أزمة في كثير من المرات حيث كنت أتوقف أمام الإشارة الحمراء في حين أن الجميع من حولي يتجاوزونها، وأسمع من خلفي «كلاكسات» السيارات بتنغيمات صارخة وممتدة مع تعليقات ساخرة تشير جميعها إلى سذاجتى وقلة خبرتي بالقيادة وبالمرور في مصر. وبعد فترة تعلمت أنه في مصر ليست هناك علاقة مؤكدة بين الإشارة الحمراء وبين السير أو التوقف، وإنما هي إشارة من يد الجندي (الذي ضربت رأسه أشعة الشمس وامتلأ صدره بعادم السيارات) تحدد لك إذا ماكنت ستتحرك أم لا، ونسيت طبعا مع الوقت الإشارات الأوتوماتيكية التي تنظم المرور في الخارج بسلاسة دون أن ترى عسكري المرور، ومع ذلك فهو يظهر وكأنه خرج من تحت الأرض حين تحدث أي مشكلة فيتخذ الإجراءات بسرعة وحزم ولا يمكن أبدا إثناءه عن قراره أو شراء ذمته أو استعطافه أو الضغط عليه، فكأنه مثل الإشارة المرورية الأوتوماتيكية المبرمجة.

وبعد فترة من التحسر والألم على الإنضباط المروري في بلاد الدنيا الأخرى، بدأت أتأقلم مع الوضع الجديد (القديم)، وبدأت أقتنع بأن الإشارات الأوتوماتيكية لا تصلح في مصر حيث لن تقدر بالضبط أن هذا الإتجاه مزدحم أكثر من ذاك فتفتح هنا مدة أكثر نسبيا، ولكن العسكري المروري على الرغم من أن الشمس تضرب رأسه فيقف تائها حائرا منهكا إلا أنه من وقت لآخر ينتبه إلى الشوارع من حوله ويفتح الإشارة حسب درجة الضغط واتجاهه. وبدأت أتعلم (بعد أن كنت نسيت) بأن عسكري المرور المصري لديه مرونة هائلة وطيبة أحيانا كثيرة فهو يمكن استعطافه ويمكن مداعبته ويمكن التفاهم

معه، ومع هذا فهو يملك إيقافك ومحاسبتك إذا تجاوزت والإشارة حمراء وساعتها لن تستطيع أن تفتح فمك فالقانون قانون واللون الأحمر هو اللون الأحمر له معنى واحد في كل الدنيا، وهنا تقع في ورطة: أأمشي تبعا للإشارة فأربك المرور وأسمع كلاما لا يعجبني أم أقطع الإشارة وهي حمراء بناءا على إشارة يد عسكري المرور، أم أفعل ماذا؟!!.

آسف للإطالة في هذه المقدمة، ولكنها ضرورية لكي تفهم فلسفة قانون الطوارئ، فالسلطة هنا تشعل اللمبة الحمراء منذ ٢٧ عاما وستمد اشتعالها إلى ماشاء الله، وهي تقول لك لا تقلق واعبر الإشارة فلسنا نقصدك أنت بهذه الإشارة نحن نقصد فقط الإرهابيين والعابثين بأمن الوطن والمهددين لاستقراره والمتربصين به، ثم فجأة ترى من حولك أناسا يختطفون ويعتقلون ويموتون تحت وطأة التعذيب وتحت غطاء قانون الطوارئ فتقلق وتنزعج وتطالب بتغيير الإشارة طبقا لمنطق واضح ومحدد حتى تأمن على نفسك وعلى من تحب، ولكن الشرطي يقول لك:اطمئن لست أنت المعني بذلك، فيزداد قلقك لأنك رأيت بعينك أناس ظنوا أنهم غير معنيين ومع ذلك أصبحوا معنيين في لحظة ما وفي موقف ما طبقا لتقديرات الشرطي.

وهنا تتحول السلطة من كائن منطقي نعرف ما يغضبه وما لا يغضبه إلى كائن غير منطقي يرضى ويغضب ويعطي ويمنع طبقا لمعايير خاصة به هو، لا تنضبط بالقوانين المعروفة أو المعتادة، وبهذا تصبح سلامتك مرهونة برأي الشرطي فيك ورضاه عنك.

حالة الطوارئ من النفس إلى المجتمع:

ربما تسألني: وما علاقتك بقانون الطوارئ؟.. أقول لك لقد سألت نفسي هذا السؤال حين اتصل بي أحد الصحفيين يسألني: ما هو التحليل النفسي لإعلان حالة الطوارئ طوال هذه السنين (سبعة وعشرون سنة وما زالت ممتدة إلى حيث لا ندري فنحن لا نعرف بالضبط لماذا تعلن ولماذا تلغى وكيف تلغى ومن الذي سيلغيها؟).. وقد «استسخفت» هذا السؤال منه أو استهجنته أو «استغبيته» إذ كيف نحلل حالة الطوارئ نفسيا؟.. ومالنا نحن كأطباء بحالة الطوارئ بمعناها السياسي؟.. ألا يكفينا طوارئنا الطبية التي تشغلنا ليل نهار؟.. وهنا بدأ يحصل الربط في عقلي بين الطوارئ بمعناها

السياسي والإجتماعي والطوارئ بعناها الطبي، وبدأ الحديث ينساب تحت إلحاح أسئلة الصحفي المثابر والمشاكس، وعلى الرغم من قصر المكالمة، وعلى الرغم من شكي في أنه سوف يكتب ما قلت فقد اعتدت في مثل هذه الظروف أن يسألني الصحفي عن شئ وأرد أنا بما تيسر ثم أفاجأ به وقد كتب ما يريد هو أن يقول، ولكنه فقط وضع إسمي ليمرر به ما يشاء من أفكار، وقد سبب لي هذا ضيقا وحرجا في كثير من الأوقات. على الرغم من كل هذا راحت تداعيات كثيرة تدور برأسي حول معنى الطوارئ في النفس وفي المجتمع وفي الحياة، وإليك بعض هذه التداعيات ولك أن تقبلها أو ترفضها أو تعدلها أو تلغيها كيفما شئت، فما هي إلا اجتهادات شخصية من عقل يحب هذا الوطن وأهله بكل طوائفه وطبقاته ولا تحكمه عقلية الموالاة أو المعارضة.

إن الجسد الحي تحكمه قوانين ثابتة ومرنة طوال الوقت، ولكن هناك أوقات تتغير الأحوال ويفاجأ الجسد بظروف مغايرة تستدعي حالة من الطوارئ لمواجهتها وهنا يتغير الإيقاع ويتم سحب كميات كبيرة من الدم من الأطراف وذلك لضخها في العضلات التي يحتاجها الجسسم لعمليات الكر والفر، ولهذا يظهر الوجه والأطراف في حالة شحوب، ويتم إفراز مواد مثل الأدرينالين والنورأدرينالين والكورتيزول، كل هذا بهدف مواجهة حالة الطوارئ. أما جهاز المناعة فإنه يقوى في مرحلة من المراحل، ولكنه يضعف إذا استمرت حالة الطوارئ أكثر من اللازم. وفي ظروف بعينها قد يقوى جهاز المناعة لدرجة أنه يتوحش ويبدا في مهاجمة عوامل الغزو الخارجي، ولكنه نظرا لتوحشه يهاجم أيضا أجزاء من الجسد نفسه (فكرة النيران الصديقة)، ومن هنا ينشأ الروماتيزم والروماتويد نتيجة مهاجمة جهاز المناعة لمفاصل الجسد وبعض أجزائه الأخرى. وقد تختفي الظروف التي أدت إلى التغييرات الطارئة في الجسد ولكن عمليات الطوارئ تظل مستمرة فيؤدي ذلك إلى تراكم مواد كيميائية سامة للجسم وإلى توحش أجهزة المقاومة فتتصلب الشرايين وتتصلب المفاصل ويرهق الكبد وترهق الكليتين وتتقرح المعدة ويضطرب إيقاع القلب، ويتعرض الجسد لجلطات تسد شرايينه وربما تؤدي إلى إحداث حالات من الشلل هنا أو هناك. والسؤال الآن: ماالذي يجعل حالة الطوارئ تستمر في

الجسد على الرغم من انتهائها في الواقع؟.. والجواب هنا في الرأس، وبالتحديد في المخ، حيث يستمر في بث إشارات للجسد بأن حالة الطوارئ مستمرة فيطيع الجسد الأوامر، ويرتب أولوياته طبقا لاحتياجات الطوارئ فيسحب الدم من الجسم ليوفره للعضلات ويعيد ترتيب الطاقة، ويؤجل مطالب كثيرة لأجهزة الجسم على أساس أنه «لاشئ يعلو فوق صوت المعركة» وأننا الآن في حالة دفاع عن البقاء فلا يصح أن نتحدث في أشياء تبدو كمالية أو ثانوية أو أقل أهمية في معركة البقاء. ثم يعاود السؤال إلحاحه بشكل آخر: ومالذي يجعل المخ يستمر في إضاءة اللمبة الحمراء ودق صفارة الإنذار أكثر مما يجب؟.. والإجابة هنا هي أن المخ لديه مشكلة في سلاح الإشارة والتنبيه حيث يرى أخطارا هائلة في أشياء هي في الأصل طبيعية ويمكن التعامل معها بالقوانين العادية للجسد، ولهذا يبالغ في التعامل بحذر وشك وسوء طوية خاصة إذا تمت برمجة هذا المخ في ظروف مرضية جعلته شديد الإحساس بالخوف من أي شاردة وواردة، ولهذا يبالغ في الأخذ بالأحوط.. واستمرار حالة الطوارئ – من هذا المنظور الطوارئي – تمثل الأحوط حتى ولو أدت إلى هلاك الجسم وتأجيل أو إلغاء احتياجاته الأخرى أو أدت إلى تيبس مفاصله وركود عملياته الحيوية الأخرى لحساب احتياجات الطوارئ. والجانب النفسي وراء هذه البرمجة الخاطئة يكمن في مشاعر عدوان داخلية يسقطها المخ على الواقع الخارجي ويستقبلها كعوامل تهديد قادمة من الخارج فينشط الهاجس الأمني وتتحفز آليات الهجوم فتصطف الخلايا المقاومة وتنتشر في أماكن توقع الخطر بكثافة أكثر من اللازم (إذ القانون هنا أن الإحتياط واجب) ثم تنقض على أي نبضة أو حركة لتشلها في الحال مهما كانت النتائج. وطالما توجد مشاعر العدوان بالداخل وتؤدي إلى إحساس مزمن بعدم الأمان فلا سبيل إلى إطفاء اللمبة الحمراء ولا سبيل إلى إيقاف صفارة الإنذار حيث ستوجد مبررات خارجية لاستمرار ذلك.

وإذا انتقلنا من الجسد إلى النفس نجد نموذجا مشابها.. فهناك بعض الناس يتنابهم اضطراب مفاجئ في بعض الوظائف النفسية مما يستدعي عمل أشياء لمواجهة هذا الوضع فيعطى المريض علاجا طبيا لضبط الوظائف النفسية، وقد يؤدي العلاج إلى فرط الضبط

في مرحلة ما وذلك بهدف الحفاظ على سلامة الشخص وسلامة من حوله، وقد يكون هذا مقبولا بقدر لفترة ما، ولكن بعض الأطباء النفسيين قد يشعرون بالأمان في الإستمرار في فرط الضبط فيستخدمون علاجات كيميائية قامعة أو مثبطة لفترات طويلة، ومبررهم في ذلك هو الوقاية من نوبات اضطراب محتملة، وقد تستمر هذه الإحتياطات المفرطة لسنوات طويلة يفقد فيها المريض نبضه الحيوي ويفقد تموجاته المزاجية الطبيعية ويفقد جولات فكره وسبحات روحه مقابل الحفاظ على حالة استقرار جامدة ومتجمدة وممتدة، والطبيب هنا قد يشعر بالأمان وبالفخر إذ هو قد نجح في قمع النوبات المرضية لسنوات طويلة، ولكنه لايدري أنه قمع أيضا النوبات غير المرضية، وأنه مثل الدواء الذي يعطى لمهاجمة الخلايا السرطانية فيهاجم معها كل الخلايا بلا تمييز، فهو وإن أوقف (أو تخيل أنه أوقف) نمو الخلايا السرطانية إلا أنه أو قف معها نمو كل الخلايا الهامة. أما الطبيب النفسي الواثق من مهنته والمواكب لحركة مريضه فهو يعلو ويهبط بجرعة الدواء بما يسمح باستمرار النبض الحيوي واستمرا المسيرة الإنسانية المتطورة لمريضه، ولا يزعجه جنوح بعض الوظائف مالم يكن فيها تهديدا لسلامة وسلام المريض وبيئته، وقد يغامر بإيقاف العلاج لفترات لإعطاء الفرصة للفطرة الطبيعية أن تعود، وقد يكون في ذلك مغامرة فيها احتمالات عودة بعض الأعراض، ولكن الأمر يستحق ذلك من وجهة النظر الإنسانية الأشمل. ومن فضل الله أن العلماء والمصلحين والأنبياء قد أفلتوا من مقصلة الأطباء النفسيين الخائفين والمهتمين بالتسكين الكيميائي المفرط لكل ما هو مختلف عن السائد من الأفكار والتوجهات والمشاعر، وإلا لتعرضوا لمحاولات إطفاء نبض إبداعهم وإيقاف حركة تطورهم، ولدفعت البشرية ثمنا هائلا لذلك.

بعد هذا الإستعراض البيولوجي والنفسي، هل يمكن تعميم هذه النتائج على الوضع السياسي والإجتماعي بشكل عام وفي المجتمع المصري بشكل خاص؟؟... قد يغري الأمر بإجراء مقابلات بين ماهو بيولوجي ونفسي وبين ماهو سياسي واجتماعي، وذلك بسبب مساحات التشابه وبسبب النظرية التي تقول بأن قوانين الحياة واحدة، تلك التي تحكم نشاط الخلية وتلك التي تحكم حركة الكون في أوسع مداراته، ولكن هناك آراء أخرى

يجب احترامها تحذر من الربط بين قوانين النفس وقوانين المجتمع الأوسع ودليلها على ذلك هو وجود ما يسمى بعلم النفس ووجود ما يسمى بعلم الإجتماع، ولكل قوانينه وآلياته التي تحكمه. إذن لك الحق عزيزي القارئ في أن تجري بعض التعميمات أو المناظرات أو ترفضها، ولكن فقط مارس فريضة التفكير فيما يجري في جسدك ونفسك ومجتمعك بل وكونك الأوسع.

الحياة في الخنادق أكثر أمنا:

إذن دعونا نخرج من دائرتي الجسد والنفس لنجول في دائرة المجتمع، فحين وافق أعضاء مجلس الشعب «الموقر من الحكومة» على مد قانون الطوارئ لمدة عامين (هو نفس المجلس الذي وافق على غلاء الأسعار وعلى تفصيل الدستور ومستعد للموافقة على استمرار إمداد إسرائيل بالغاز الطبيعي بسعر مدعم ولمدة ١٥ عام)، رحت أتابع آراء المدافعين عن مد هذا القانون الممتد والمتمدد طولا وعرضا وعمقا على أرض مصر دون أن يقول له أحد «توقف»، وذلك إيمانا مني باحترام الرأي الآخر حتى وإن خالفته، ووجدت أن هذا الرأي الآخر المنشور والمنتشر والمستنشر في الصحف القومية السيارة يدور حول معنى بسيط أوجزه لك عزيزي القارئ في الصورة التالية حتى تعلم أن وراء كل شئ منطق: تخيل أن صفارة الإنذار راحت تعلن عن وقوع غارة فنزل الناس إلى الخنادق والبدرومات اتقاءا لشر الغارة وبأمر من السلطات، ولكن الناس استبطأوا صفارة الأمان حتى يخرجوا، واستمرت صفارة الخطر تعمل بلا انقطاع لمدة ٢٧ عاما وهي ما زالت تعمل، وكلما حاول أحد من الناس أن يخرج من الخندق ليسأل عسكري الدورية: متى تكف صفارة الإنذار كي نخرج ونمارس أعمالنا ونرعى مصالحنا، صاح فيه العسكري قائلا: عد إلى مكانك فلا زال الخطر مستمرا. ثم يرسل العسكري من وقت لآخر من يقنع الناس بأن بقاءهم في الخنادق أكثر أمانا من وجودهم على سطح الأرض فالخطر متربص دائما، والبلد محاطة بالمتآمرين، بل إن المتآمرين داخل البلد نفسها. وشيئا فشيئا تعود الناس الحياة في الخنادق وبدأوا يمارسون شئونهم في حدود ما يسمح به العسكري، وهو ينظر إليهم بشك ويتوقع الغدر منهم أو من بعضهم في أي لحظة فيقرر

بقاءهم في هذا الحيز الضيق مدعيا بأنه يحافظ على حياتهم. وقد تكون الحياة في الخنادق فعلا أكثر أمنا ولكنها ليست أكثر سعادة.

الأمان الزائد للحكومة ولا أمان لأعدائها:

لقد أدى هذا الوضع الخندقي أمانا هائلا للحكومة التي تعيش فوق سطح الأرض وحدها، وأعفاها من سماع صراخ وأنين ومشاغبات الشعب «النمرود» والمتمرد، فاسترخت الحكومة ولم تعد تشغل بالها بأي أعمال سياسية بهدف إرضاء أحد أو رعاية أحد أو استمالة أحد أو إقناع أحد، فالأمر في النهاية تحت السيطرة الأمنية، وإذا ظهرت أي بادرة لخروج أحد من هذا الشعب الخندقي، فإن الحكومة تضع جدارا عازلا من سيارت الأمن المركزي الزرقاء مدعومة بصفوف متراصة من الخوذات والدروع السوداء، ويظل هذا الإستعراض قائما في الشوارع والميادين إلى أن يعود المتمردون إلى خنادقهم بجوار إخوتهم القابعين في ظلام الخندق حتى فقدت عيونهم القدرة على الرؤية في الضوء. وانتشرت الأمراض والأوبئة داخل الخنادق وخارجها حتى زكمت روائحها الأنوف، ولكن هذا لم يثن عزم الحكومة في استبقاء وضع الطوارئ حيث يحقق لها أمانا أبديا ومطلقا، خاصة وأن تلك الحكومة لديها هاجس أمني مزمن، ولديها مخاوف لا يبددها مائة قانون طوارئ أو قانون إرهاب، إضافة إلى مالديها من شك وسوء ظن بالشعب المصري النمرود والمتمرد، ولديها فلسفة خاصة في الحكم تعلمتها على مدى السنين وهي أن الشعب المصري لابد وأن يساق بالعصى وأن يحكم بالكرباج (هي نفس الصورة لدى المملوكي القديم والباشا التركي)، وأن من يتحدثون عن الحرية لهذا الشعب لا يعلمون أنه شعب له خصوصيته، وأن حكامه أدرى به وبكيفية إدارته وحكمه.

وهناك نظريات في علم النفس السيلسي مفادها أن أي حكومة في الدنيا تشعر بالأمان الزائد تفقد مع الوقت دافعها وحماسها لإرضاء شعبها ورعايته، فهي لا تحتاج لرضاه وليست معنية برأيه أصلا، فهي ليست مضطرة لأن تسلك سلوكا تلاؤميا تسعى فيه إلى تحسس نبض شعبها أو استرضاؤه أو إقناعه أو التحاور معه. وحين يزول الخوف تماما لدى الحكومة، ويحول الجدار الأمني العازل دون وصول النبضات أو الإحتجاجات أو

التهديدات الشعبية فإن السلطة تعمل في صناديق مغلقة تعتقد أنها آمنة، وتلك الصناديق تحجب عنها الضغط الشعبي فتفعل ما تشاء دون الحاجة إلى استشارته أو انتظار موافقته.

حالة الخصاء العام:

ولمزيد من الأمان المطلوب قد يتطلب الأمر قتل الذكور الذين يولدون في الخندق، وتجفيف الأنهار حتى لا يوضع طفل في التابوت ويلقى في اليم فينجو من البطش، ثم إخصاء كل الرجال حتى نضمن ضبط النسل الشعبي المتزايد. ولما كانت النساء قد نجت وأصبحت في حماية المجلس القومي للمراة الحديدية فقد انتقلت المرأة من عصر التحرير إلى عصر التمكين إلى عصر التوحش، وطالت قامتها حتى لم تعد ترى الرجال المخصيين المتآكلين من حولها، وازدادت نسبة العنوسة حيث لم تعد المرأة تجد رجلا تتزوجه. وظهر فرويد يتحدث عن عقدة أوديب وعن خوف الأبناء من آبائهم من أن يجروا لهم عملية خصاء نظرا لما يحملونه من مشاعر مرفوضة تجاه أمهاتهم، وهنا زاد الحديث عن الختان بصورة غير مسبوقة، وتم منع ختان الإناث وزاد التأكيد على ختان الذكور، وخوفا من أن تتوحش النساء تنادى البعض ممن علا صوتهم بتغطيتهن غطاءا شاملا لا يدع شيئا ظاهرا وخاصة العينين فهما محل الرؤية والفتنة. وهرب بعض الذكور من هذا الجحيم بأن وضعوا أنفسهم في توابيت بحرية تنقلهم إلى الشاطئ الآخر فنجا بعضهم وغرق البعض الآخر وما زالت محاولات الهروب مستمرة. وبعض من هربوا نجحوا هناك ولمع نجمهم، وجاءوا يدعون أهليهم للنجاة ولكن أحدا لم يسمعهم، وراح السحرة يمارسون سحرهم ولم يستجيبوا لدعوة يوم الزينة فقد تعلموا من دروس الماضي، فوسعوا الساحة لثعابينهم حتى يخيل للناس أنها تسعى، وسدوا الطريق على أي ثعبان حقيقي يلقف ما صنعوا. وظهر فرويد مرة أخرى لينصحهم بقتل أي ثعبان حقيقي حيث أنه رمز لعضو الخصوبة في الرجل، وهو مهدد لحالة الأمان السائدة. إذا لم تكن قد فهمت شيئا من هذه الفقرة فهذا خير لي ولك عسى أن ينفعنا (عدم الفهم)أو نتخذه ردءا في وقت الخطوب.

حالة الإرتخاء العام:

وقد أدت حالة الخندقة الطويلة والممتدة مع سماع صفارة الإنذار الممتدة مع رؤية

الإشارة الحمراء الممتدة، مع الظلام الدامس في الخندق أغلب الوقت، مع غياب الشمس المتعمد عن جنبات الخندق، مع صيحات الجنود والجمود، وفرق مكافحة الشغب ومكافحة الشعب ومكافحة الحياة، كل هذا أدى إلى حالة من الإرتخاء العام تقطعه رعشات فئوية ضعيفة ومتقطعة هنا أو هناك (يحسبها الظمآن حركة) ما تلبث أن تهدأ أو يتم تهدئتها بمزيد من الضغط على العصب الذي مازال ينتفض. وحاول وحيد حامد فهم أو تفهيم هذه الظاهرة الجديدة من خلال فيلم النوم في العسل، ولكن انقطاع الكهرباء داخل الخندق وقضاء الناس أكثر وقتهم نياما جعلهم لا يشاهدون الفيلم، ولا يعرفون ما معنى العسل، وراحو يبحثون عن قراطيس عند العطار وحبوب عند الصيدلي لعلها تحدث لهم شيئا مما كان معتادا لدى آبائهم الأولين، وزادت قيمة المنشطات الجنسية حتى وصلت إلى عشرة مليارات جنيه في السنة على أقل تقدير يستهلكها الشعب المصري للإبقاء قدر الإمكان على الحد الأدنى من ذكورته. وتستمر مسيرة الإرتخاء العام لتتلاقى مع حالة الخصاء العام مع قتل الذكور من أهل الخندق حتى لا يخرج منهم موسى وبيده عصا تلقف ما صنع العسكر والسحرة خارج الخندق أو فوقه.

والإرتخاء العام لم يحدث في يوم وليلة، وإنما تراكم عبر سنين قانون الطوارئ الطويلة حيث اعتاد الناس أن من تظهر عليه بادرة من رفع الرأس تجرى له عملية ردع خاص لكي يستفاد منه في الردع العام، ومع تكرار الردع العام تحول الأمر إلى كبت عام، والكبت درجة أعمق من كل ما سبق حيث أنه عملية تجري لا شعوريا فالشخص المكبوت لا يعرف ماذا يريد ولا ماذا ينقصه ولا ماذا يضره لذلك تراه مبتسما رغم الكوارث والخطوب والمحن، ولكي يتحرك أو يفهم فهو يحتاج للوصول لمحتوى اللاشعور لديه، وهذا أمر أقرب إلى المحال إلا من خلال الأحلام أو الجنون، وحتى إذا رأى نفسه في الحلم يفعل شيئا فسيظهر الشيخ «س» على شاشة الفضائحيات مظهرا وقارا مصطنعا وبجانبه فتاة ليست حسناء لكي يفبرك الحلم ويزيف الوعي بتفسير تخديري ملفق ومحبوك، أما إذا حدث الجنون فشركات الدواء ومعها الأطباء الكيميائيون سيقومون بمهمة القمع الكيميائي لنبض الجنون وهمس الجنون ومعهما نبض الحياة وحركة التطور.

اللامبالاة اللذيذة:

ونظرا للتضخم والتوحش في جهاز المناعة وانتشار كرات الدم البيضاء وعربات الأمن الزرقاء وخوذات الجند السوداء، ونظرا لأن الحرية أصبحت في يد هؤلاء يمنحونها من يشاءون ويحجبونها عمن يشاءون طبقا لمعاييرهم وتقديراتهم الخاصة جدا والسرية جدا جدا عن الأمن والسلامة فقد انحصر المواطن المذعور المرتخي في ركن لقمة العيش وتقلصت احتياجاته (أو قلصت) في الحصول على عشرة أرغفة في طابور عيش بطول سنوات الطوارئ، وتقلص وجوده في نطاق الإحتياجات البيولوجية الضرورية لبقاء نباتي بدائي شديد الذاتية والأنوية.

أما النخبة فقد تم احتواء بعضها، وإغواء البعض الآخر، واغتصاب فريق ثالث، والتحرش بفريق رابع، ثم بقي الفريق الخامس ليقف في طابور طويل (أيضا بطول سنوات الطوارئ) يستخدم في الإعلام للترويج لأزهى عصور الحرية والديموقراطية وليدافع في برامج تليفزيونية عن غلاء الأسعار وعن صداقتنا لإسرائيل وعن ولائنا لأمريكا وعن خطورة إيران وتركيا وسوريا وحماس وحزب الله وحزب الغد على الأمن القومي المصري والعربي، وعن مؤامرات المعارضين الذين يستغلون موجة الغلاء العالمية لتسخين أهل الخندق ومحاولة إخراجهم من القمقم الذي عاشوا فيه سنينا حتى ألفوه، وأصبح خروجهم منه مهددا لوجودهم. ومن لم يطفأ وعيه بكل الوسائل السابقة فعليه بالبانجو والحشيش يدغدغان مشاعره فيشعر مع الوقت أن لا شئ يستحق القلق أو الإنشغال وأن الحياة على المقاهي (المنتشرة بكثافة غير معهودة في جنبات الخندق) أفضل بكثير من الحياة أمام ماكينات المصانع أو في المزارع تحت وطأة الشمس المحرقة. ولكي تستمتع بحالة اللاوعي اللذيذة أكثر فعليك بمواقع الإنترنت، وماهي إلا ثلاثة حروف تكتبها سواء بالإنجليزية أو العربية حتى تنفتح لك آفاقا من المتعة واللذة لم تعهدها ولم يعهدها آباؤك وأجدادك من قبل، وسوف تجلس مشدوها فاغر الفم أمام ما تراه، ويمكنك قضاء أوقات طويلة جدا دون أي ملل، وهذا يعفيك تماما من قراءة الصحف أو متابعة الأخبار المحزنة والمقلقة، أو البحث عن عمل أو شقة أو قيمة أو معنى. وإذا كنت

من محبي اللهو البرئ فأسهل لك أن تضغط مفتاح التليفزيون وتتجول بين الفضائيات لتقضي ساعات طوال ممدا على الأريكة (خير لك من أن تتمدد في أماكن أخرى) مستمتعا بما ترى وتسمع وتشاهد، مع الوعد بالمزيد من الجديد والمشوق. ومع كل هذه المتع ربما لا تحتاج لأن تتزوج وتتحمل المسئولية، وإذا احتجت شيئا حيا من لحم ودم ففتيات اليوم أكثر كرما من سابقيهن ولا يشترطن علاقات دائمة. كل هذا يعفيك من الحديث عن الطوارئ وعن غيرها فأنت تعلم أن رأيك لن يقدم أو يؤخر فاحتفظ به لنفسك لو سمحت وخذ العبرة ممن قبلك حتى لا تأخذها من نفسك.

حالة الإنطفاء العام:

وجو الخندق المظلم مع أصوات زمجرة العسكر خارجه وعربات الأمن المركزي التي تحجب ضوء الشمس، وأصوات المخطوفين في جنح قانون الطوارئ، كل هذا وغيره أطفأ جذوة الإبداع، وأدى إلى إخماد النبض الحيوي للناس وخاصة المبدعين نظرا لحساسيتهم الخاصة وعدم قدرتهم على مواجهة ضغوط قانون الطوارئ وتداعياته وتأثيراته وتحذيراته، فكان أن وصل المتخندقون إلى حالة من الركود النفسي والإجتماعي والسياسي والإقتصادي والديني، حالة يحسبها الحكام استقرارا حتى إذا بلغوها لم يجدوها كذلك ووجدوا الإستبداد خلفها. وتتراكم موجات الفقر العام وتجري وراء موجات الإحباط العام والغضب العام وبيع القطاع العام والتضحية بالصالح العام حتى نصل إلى شاطئ اليأس العام، وهنا لابد من حيلة دفاعية تخلص المتخندقين من الألم العام، وليس غير الكبت يدفع بكل هذه المشاعر السلبية إلى غياهب اللاشعور، ثم يتوحد المتخندق مع المعتدي (وهذه وسيلة دفاعية أخرى)، وهنا تأتي النصيحة بالإنضمام للحزب الأوحد، سفينة النجاة الحكومية في زمن الطوفان، وهناك تجد المصالح تتحقق والمكاسب تترى، وتتعلم كل المهارات الحياتية المصرية الحديثة من خلال دورات مجانية يتخرج منها المنتفعون ليشكلوا جدارا حزبيا عازلا يحول بين مصر وبين التحول الديموقراطي والحياة السليمة، ويشكل أغلبية ميكانيكية تسهل مرور أصعب القرارات والصفقات من خلال مجلس الحكومة (وهو ما كان يعرف بمجلس الشعب سابقا حين كان الشعب ينتخبه

فعلا). ويتراجع الدور المحلي والدور الإقليمي والدور العالمي، ويغطي الدخان على الصورة فلا يستطيع صلاح جاهين أو عبدالحليم حافظ أن يأخذا لنا صورة، وفي هذا الظلام كثرت الحفر والمطبات، وكثر خفافيش الليل، وترعرع اللصوص، وانتشرت الحيات والعقارب، وضاع الطريق من الجميع.

الفهلوة المصرية الدفينة:

ذلك السلاح الذي استخدمه المصري كثيرا ليواجه به بطش السلطة وتحكمها منذ أيام الفراعنة وحتى اليوم، فهو يلعب على كل الحبال، ويدّعي القدرة بلا قدرة، ويرسل النكتة فيضحك عليها حتى تدمع عيناه ويستلقي على قفاه، كي لا يأخذ الموضوع على محمل الجد فيحزن أو يتألم أو يصبح مسئولا. وهو طول الوقت يلعب بالبيضة والحجر، ويخرج الفيل من المنديل، ويمشي النمل طوابير، ويعمل من الفسيخ شربات، ويدهن الهوا دوكو، ويربط الحمار مطرح ما يعوز صاحبه، وهو لا يعرف من الحمار ومن صاحبه وأين يربطه، وإذا ذهب إلى بلد تعبد العجل يحش ويديله، واللي يتجوز امه يقول له يا عمي، وفي محاولة تكيفه مع السلطة غير المنطقية يتحول إلى حالانجي وبتاع التلات ورقات، ويصبح مثل الزيبق، ويأخذ الفلوس ويجري، ويتحول من الفهلوي إلى الإنتهازي إلى الهباش. ولا يهتم بالمشروعات العامة أو بالصالح العام بقدر ما يفعل ذلك مع مصالحه الخاصة ومكاسبه الشخصية. وقد أدى هذا الأمر إلى ضعف الهوية أو تشوهها، وضعف الإنتماء، واستتبع ذلك فقد القدرة على التفرقة بين العدو والصديق، وأصبحت الأجندة الوطنية تدور في فلك ألد الأعداء. وفي هذا الجو الفهلوي نشأ الفساد ونمى وترعرع حتى لم يصبح هناك مكانا يخلو من مظاهر الفساد والإفساد. وهذه ليست مسئولية شخص أو أشخاص - كما يتصور البعض - ولكنها مسئوليتنا جميعا.

والفهلوة المصرية تجعل كل شئ ممكنا فهي تعطي لك شكل الأشياء دون جوهرها أو مضمونها، فإن شئت حرية فهاهي في أحلى صورها، وإن شئت ديموقراطية فلديك كل ما يدل على وجود أشكال ديموقراطية، وإن أردت دستورا ومجلسا للشعب وانتخابات فلك كل ما تريد، وإذا لم يعجبك هذا فأرني «شطارتك» وأثبت عكس ذلك.

التراكم السيكوباتي:

وفي ظل قانون الطوارئ وصل عدد كبير من ذوي السمات الفهلوية والإنتهازية والإنتفاعية والسيكوباتية إلى مراكز قيادية في الحزب الحاكم والمتحكم بلا نهاية، وإلى مواقع تنفيذية هامة، ثم انتشروا بعد ذلك وترعرعوا في كل مكان مما مكن للفساد وجعل المنظومة ينطبق عليها كلام المستشار طارق البشري: «الإدارة بالفساد وليس فساد الإدارة». ويوما بعد يوم تجتذب هذه المنظومة الطامعين والهباشين والمنتفعين والمتسلقين، كل ذلك في ظل سيطرة المؤسسة الأمنية التي لا تسمح بالصعود للمراكز القيادية إلا لمن تأمنه تماما طبقا لمعاييرها الأمنية، وليس بالضرورة الوطنية أو الأخلاقية. وفي ظل قانون الطوارئ اعتاد الطلبة الغش في الإمتحانات واعتاد الكبار تزوير الإنتخابات، واعتاد الترزية تفصيل القوانين، وامتدت أيديهم إلى الدستور فعدلته تعديلا موجها لتحقيق مهمة محددة هي في النهاية ضد مصالح عموم الناس، وأصبحت تعديلات الدستور وما ينبثق عنها من قوانين تمثل جدارا مانعا لأي تطوير حياتي فضلا عن التطوير الديموقراطي، فقد قام بتفصيله مجموعة من القانونيين السابحين في بحر المنافع والمصالح، والمشبعين بسمات الفهلوة والإنتهازية والعبودية لمن بيدهم المنح والمنع. وقد دلت التجارب الإنسانية على أن الحزب الواحد حين يحكم ويتحكم دون فرصة لأحزاب أخرى ودون فرصة حقيقية لتبادل السلطة فإن النتيجة هي الإنهيار المروع، ولنا في حزب البعث في العراق عظة وعبرة. وهذا لا ينفي وجود عناصر وطنية في الحزب ولا ينفي وجود نوايا طيبة وخبرات متميزة، ولكن الإنفراد والركود له قوانينه التي تتجاوز حسن النوايا وتتجاوز بعض الكفاءات الفردية، وتتجاوز الشعارات الوطنية أو القومية.

الشعب النمرود:

وشاعت بين العساكر في الأقسام والكركونات وعساكر الدرج أن هذا الشعب «نمرود»، وأن أمره لا ينصلح إلا بالعصا الغليظة تهبط على رأسه في مظاهرة في وسط البلد، أو تخترق جسده من أسفل في غرفة مظلمة في أحد الأقسام فتجعله يعترف كما اعترف عماد الكبير. وانبنى على هذا المعتقد حالة من الإحتقار السلطويلهذا الشعب مع

حالة من الخوف والتوجس منه، فهو على الرغم من تظاهره بالطاعة والولاء والإحترام المبالغ فيه للباشا الكبير والصغير ولكل الباشوات، إلا أنه يخفي خلف ظهره خنجرا يريد أن يطعن به السلطة في أي وقت، ولهذا فهو شعب لا يمكن حكمه أو التحكم به إلا في إطار هذا الوضع الخندقي الطوارئي الممتد والمتمدد بطول وعرض وارتفاع وعمق الوطن، وأن أي محاولة لإطلاق سراحه لا يمكن لأي مسئول عاقل أن يتحمل عواقبها، فهذا الشعب من بين شعوب الأرض قاطبة لا يمكن الوثوق به، أو معاملته بالقوانين العادية التي تحكم سائر البشر. وبعض علماء النفس (كما ذكرنا سابقا) يقولون بأن ما تفعله السلطة هو نوع من الإسقاط بمعنى أن السلطة الطوارئية هي التي تحمل مشاعر عدائية تجاه هذا الشعب، ولما كان من الصعب عليها الإعتراف بذلك فإنها تسقط تلك المشاعر على الشعب ويظهر الأمر وكأن الشعب هو الذي يكره السلطة (او يكره الإستقرار الذي تضمنه وتؤكده له السلطة) ويتربص بها، وعلى السلطة أن تكون مفتوحة العينين والأذنين، وأن تكون حاكمة ومتحكمة من خلال قانون الطوارئ الممتد والمتمدد لهذا الشعب الشرير الذي لا يؤتمن. أو أن السلطة الطوارئية ترى أن هذا الشعب من السهل الضحك عليه وتجنيده بواسطة قوى خارجية متربصة به تريد أن تهدم إنجازاته، خاصة تلك القوى الإرهابية التي تفكر ليل نهار في استمالته واستقطابه وتجنيده. وفي هذا المناخ حدثت بعض التجاوزات الفردية والتي يمكن أن تحدث ببساطة في مثل هذه الظروف، حيث لقي بعض أفراد هذا الشعب النمرود مصرعهم أثناء استجوابهم في جهات أمنية، وهي كما قلنا حالات فردية لا تشوه الصورة العامة لرجال السلطة الساهرين على أمن الحكومة وسلامتها وسياستها، وظروف الطوارئ تتضمن كل هذا، فالتضحية بأمن وحياة بعض المواطنين هي الثمن الذي ندفعه لسعادة ورفاهية واسترخاء باقي الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أو لا يصدقون!!.

السلطة.. الجانية والضحية:

لقد اتفق العقلاء من البشر وبعد تجارب وصراعات مريرة بأن أي مجتمع كي يعيش في سلام واستقرار يحتاج لثلاث سلطات هي: السلطة التشريعية والسلطة القضائية

والسلطة التنفيذية، على أن يكون ثمة توازن حقيقي بين هذه السلطات وأن لا تجور إحدى السلطات على الأخرى أو تنتزع اختصاصاتها. وفي ظروف الطوارئ تعطى السلطة التنفيذية مساحات أكبر بهدف الحفاظ على الأمن والبقاء، على أن يعود التوازن مرة أخرى بعد زوال حالة الطوارئ وذلك حفاظا على صحة وتوازن الحياة في ظروفها الطبيعية، أما إذا استمرت حالة الطوارئ فهذا معناه استمرار حالة عدم التوازن بشكل مزمن و فتتضخم السلطة الأمنية وربما تتوغل في مساحة السلطة التشريعية أو السلطة القضائية وتكون التبعات هائلة وخطيرة.

وعلى الرغم من إصرار السلطة التنفيذية على بقاء قانون الطوارئ هذه المدة كلها، وهذا ضد قوانين الحياة وضد حركة المجتمعات، إلا أن هذه السلطة نفسها دفعت ثمنا غاليا، فقد عاشت تحت تأثير الهاجس الأمني المتضخم لديها فحرمها ذلك الهاجس نعمة الأمان والإستقرار. وقد تورطت السلطة في ممارسات قمعية مما جعل صورتها في الخارج تبدو سيئة للغاية إلى حد إصدار البرلمان الأوروبي بيانها يدين فيه ممارسات هذه السلطة ويعتبرها منتهكة لحقوق الإنسان، وإلى حد صدور الكثير من التقارير عن منظمات حقوق الإنسان الدولية والمحلية تدين الكثير من ممارساتها وتضع مصر في ترتيب متدن على قائمة حقوق الإنسان، ولكنها للأسف لم تعد تهتم بصورتها في الخارج أو الداخل. والصورة في الداخل تتعرض لتشوهات كثيرة خاصة مع قدرة وسائل الرصد والإعلام على تسليط الضوء أكثر مما مضى على الممارسات السلبية التي تقع في مناخ الطوارئ المزمن. ونظرا للإعتماد على الحل الأمني القامع دائما فقد فقدت السلطة قدرتها على العمل السياسي وأصبحت ممارساتها في هذا المجال بدائية فجة تفتقر إلى أي حس سياسي أو حتى حس إنساني بسيط.ونتيجة لهذا التراجع في العمل السياسي حدث ضمور (نتيجة عدم الإستعمال) لدي كل قيادات السلطة، إذ لم يتعودوا التحاور مع الناس أو معرفة نبضهم، ولم يتعلموا الإهتمام بهم، فالناس بالنسبة لهم مصدر إزعاج وقلق، والشعب لا تسكته إلا عصا الأمن وحذائه، ولا تردعه إلا سيارات الأمن المركزي المتراصة لإظهار القوة ولقمع أي فكرة أو حركة تطرأ على بال اي شخص أو طائفة. ومن هنا مات العمل السياسي

لسنوات طويلة وفقدت القوى السياسية قدرتها على قيادة الجماهير بشكل صحيح ، مما وضع العبء الأكبر على الأجهزة الأمنية والتي وجدت نفسها مسئولة عن كل شئ في ظل انسحاب الجهات والوزارات الأخرى من الساحة. ولم يعد الناس يهتمون بشئ أو يتحركون من أجل شئ ونتيجة للجو الذي رسخه قانون الطوارئ فقد تورط بعض ضباط شرطة في في جرائم تعذيب حتى الموت، وانتهاك أعراض، وهؤلاء الضباط يمكن اعتبارهم جناة وضحايا في ذات الوقت، فقد بعثتهم أسرهم إلى كلية الشرطة ليصبحوا ضباطا يتباهون بهم وتقوى بهم شوكتهم بين الناس، فإذا بهم يتحولون إلى أدوات تعذيب لينتهي بهم المطاف إلى الوقوف في قفص الإتهام، ثم الذهاب إلى السجن ليتحطم حلمهم وحلم ذويهم، ومن لم يتورط منهم في هذه الجرائم يتحمل ضغطا هائلا في عمله حيث يقضي ساعات طويلة في عمل شاق ومرهق يحرمه من كثير من مباهج الحياة الأسرية الهادئة، ولم لا وقد تحمل الجهاز الأمني في ظل قانون الطوارئ عبء إدارة الحياة بكافة جوانبها وعبء مواجهة سلبيات وأخطاء كل الوزارات والجهات. ومن السهل أن ترصد تغير صورة ضابط الشرطة لدى الناس في السنوات الأخيرة خاصة مع تكرار أحداث التعذيب حتى الموت، ومع ظهور ذلك على الفضائيات في وجود سقف نسبي للحرية يسمح بذلك، لدرجة أن بعض الأسر الآن تخشى تزويج بناتها لضابط شرطة بعد أن كانت هذه الوظيفة في وقت من الأوقات تفتح لصاحبها أبواب كل البيوت الكريمة بلا أي شروط. وعلى الرغم من تدريس مادة حقوق النسان في كلية الشرطة إلا أن المناخ العام يمسح أثر هذه المادة ثم يرسخ لفكرة أن المواطن المصري «نمرود» ومخادع وليس له قيمة أو «ديّة»، ولا ينصلح حاله إلا بضرب الحذاء، ولا يقول الحقيقة في التحقيق إلا بعد اغتصابه أو التحرش به وبزوجته أو بأمه أو بابنته. ونحن حين نتحدث عن السلطة فإنما نتحدث عن ناس من أنفسنا فبالتأكيد هم ليسوا سلطة أجنبية، وليسوا غرباء عنا كأشخاص، فمن منا ليس له صديق أو قريب أو جار ينتمي إلى السلطة بشكل من الأشكال، بل إننا في أغلبنا نتمي إلى هذا الكيان الذي يسميه الناس السلطة فكل موظف حكومي يشكل جزءا من السلطة، ولكن شتان بين سلطة تنفذ وسلطة تقرر وتفرض.

وهذا يعني أننا مسئولون جميعا بشكل أو بآخر عن استمرار حالة الطوارئ وقانونها الذي رأينا كيف يؤثر استمراره سلبا على حياتنا، ولا ينطبق هذا فقط على قانون الطوارئ الحالي وإنما ينطبق على أي قانون ولو أخذ مسمى آخر يؤدي إلى نفس النتائج (وهذا ما نحذر منه في قانون الإرهاب الذي يجري تجهيزه ليحل محل قانون الطوارئ) فالقوانين تنشا لكي تنظم حياة الناس لا لتقمعها أو تقتلها أو تكبتها أو تخنقها أو تجمدها أو تصعبها أو تشوهها، وإذا حدث ووجد قانون مثل هذا فمن الوطنية ومن محبة أهلنا وناسنا أن نبين هذا بشكل متحضر وأن نتنادى فيما بيننا إلى الحق والعدل والخير والجمال، وذلك هو حق المواطنة، والسكوت عنه من أخلاق العبيد، وربما نحتاج أن يعلو صوتنا فوق صوت صفارة الإنذار الطوارئية المزمنة، وأن تبرق إشارات تحذيرنا أكثر من لمبة الطوارئ الحمراء التي أعمت أبصارنا.

***

من المحله إلى مارينا وبالعكس

(تموت المدن وتحيا المنتجعات)

بعد يومين من انتهاء أحداث المحلة الكبرى وبالتحديد يوم الأربعاء ٩/ ٨/ ٢٠٠٨ كنت متوجها لحضور ندوة علمية في «بورتومارينا» بالساحل الشمالي حول «اقتصاديات الصحة النفسية والعلاج الدوائي في مصر»، وكان المحاضر هو أستاذنا العظيم الأستاذ الدكتور أحمد عكاشه. وحين انطلق بنا الباص من المنصورة لم يخطر ببالي أن يخترق شوارع مدينة المحله في مثل هذه الظروف التي ما زالت تشهد تواجدا أمنيا كثيفا على مداخل المدينة وفي شوارعها مما يعكس تخوفا أمنيا مستمرا من اشتعال الوضع في أي لحظة. وكانت فرصة لأن أتأمل وجوه الناس في الشوارع بما في ذلك وجوه رجال الأمن الرابضين في كل مكان وأيديهم على الزناد وفي عيونهم قلق وتربص لا تخطئه العين. وبدت المدينة حزينة ومرهقة فالناس يبدو عليهم آثار الفقر والخوف والقهر، والوجوه شاحبة والأجساد منهكة والملابس (في مدينة الملابس) بالية، وبقايا المصانع قديمة ومتهالكة وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة قبل أن تموت. والشوارع مليئة بالمخلفات، والجو مشبع بالغبار، وطوابير الخبز الطويلة تمتد وتتلوى وتئن تحت حرارة الشمس التي لم تفلح أوراق الجرائد أو قطع الكراتين أو بقايا ألواح الخشب في حجبها عن رؤوس الفقراء الذين يحاولون البقاء في ظروف تجاوزت قدراتهم على التكيف والصبر. وتذكرت مدينة بورسعيد التي تذبل يوما بعد يوم وتختنق في صمت وكبرياء يليقان بمدينة قاومت كل المستعمرين الخارجيين وخرجت منتصرة.

وفجأة خرجت من أرشيف ذاكرتي صورا قديمة للمحلة الكبرى (حين كنا نراها كبرى) وقد كنت أزورها وأنا طفل بصحبة أبي - يرحمه الله - حيث شركة المحلة وهي في أوج عظمتها تنتج أفخم الأقمشة القطنية والصوف في ذلك الوقت، وأرى جموع العاملين في ثياب نظيفة وفي حالة منتعشة ذاهبين إلى الوردية أو عائدين منها، وقد أنصفتهم

حكومة الثورة فهيئت لهم الوظائف وأيضا منحتهم أراضي الإصلاح الزراعي، وكانت مرتباتهم في ذلك الوقت – على ضآلتها – تتيح لهم حياة كريمة. كانت المحله في ذلك الوقت أشبه بخلية النحل لا تنام ليلا أو نهارا، ولذا استحقت عن جدارة وصف «مانشستر الشرق». وحين افتتح مشروع المياه العذبة في مدينة شربين ليغذي جزءا كبيرا من منطقة الدلتا، راح الناس يدللون المدينتين في أورجوزة شعبية تبدأ بهذا المقطع اللطيف: «شربين شربنا في قلتها بعد المحله ما حلتها».

والآن تغير كل شئ، وبدلا من تصاعد أدخنة المصانع الحية النشطة تتصاعد الآن أدخنة الغضب من الصدور، وبدلا من أن تشتعل المراجل تشتعل الآن إطارات السيارات في الشوارع، وبدلا من زيارات المسئولين (المحبين للعمال) لافتتاح خطوط إنتاج جديدة رأينا زيارات عربات الأمن المركزي الزرقاء الداكنة الكثيفة لهذه المدينة المنخنقة والمتردية، وبدلا من أفواج الورديات الرائحة الغادية نرى جموع المتظاهرين (من أجل لقمة العيش الجاف) يطاردهم الأمن أو يطاردون هم الأمن في مشهد مأساوي حزين.

وظلت الصور القديمة والحديثة تتبادلان الظهور على شاشة وعيي إلى أن بدأنا نرى الساحل الشمالي، وهو مجموعة من القرى والمدن والمنتجعات السياحية تمتد لمئات الكيلومترات بلا انقطاع، إلى أن وصلنا إلى مارينا، تلك الأيقونة السحرية على أرض مصر المحروسة. وقد بدت مارينا أشبه بالمستوطنات في فلسطين عبارة عن فيلات وقصور لها نفس التصميم تقريبا ومحاطة بأسوار أو جدران عازلة، ولكي تدخلها لابد وأن تحمل كارنيها يفيد أنك من ملاك الفيلات أوالقصور في المدينة، أو تدفع رسم دخول حوالي ٢٠ جنيها للفرد الواحد، فهي ليست كأي مدينة مصرية تدخلها أو تخرج منها كما تشاء وفي أي وقت تشاء. وإذا كنت ممن سيدفعون رسوم الدخول فسوف تلاحقك نظرات شك واستهجان من حراس المدينة فأنت بالتأكيد دخيل على هذا المكان الراقي أو متطفل أو جئت لتحقد على قاطنيها. وهي ليست مدينة واحدة بل ثمان مدن متصلة يشقها بحيرة صناعية باتساع قناة السويس وقد تم حفرها على مدى عشر سنوات بأيدي العمال المصريين الذين حفر أجدادهم القناة من قبل مع فارق هام وهو أن قناة السويس حفرت

لتكون معبرا مائيا عالميا هاما، أما البحيرة الصناعية في مارينا فقد حفرها فقراء المصريين لتدخل البهجة والسعادة إلى قلوب الأغنياء.

وأخذني الزميل العزيز الدكتور أشرف سليم في جولة بسيارته في أنحاء مارينا لنرى الفخامة والرفاهية في كل مبنى وكل شارع وكل كوبري، وشاهدت بعيني لسان الوزراء - الذي طالما سمعت وقرات عنه - ووجدته أكثر مما سمعت وقرأت فهو عبارة عن مجموعة قصور عالية الفخامة وكل قصر له حديقته الخاصة التي تصل إلى بداية شاطئه الخاص ومرساه الخاص، وهذه القصور لم يقتصر توزيعها على السادة الوزراء فقط وإنما استفاد منها غالبية المسئولين الكبار ليريحوا أعصابهم بعيدا عن مشكلات الناس التي لا تنتهي.

وعدت لأسترخي بعض الوقت على شاطئ بورتومارينا الهادئ الجميل وأحاول التخلص من همومي وأحزاني الشخصية والمهنية والعامة وأنا أتأمل البحيرة الساحرة تتناثر فيها اليخوت الجميلة، وإذا بالأخ العزيز الأستاذ شريف الدواخلي يتصل بي على المحمول ليسألني عن بعض التفسيرات النفسية لما رآه خلال ثلاث أيام قضاها داخل مدينة المحلة (تاني المحله؟؟؟؟) أثناء تغطيته الصحفية للإضراب الذي تحول لمظاهرات والتي تحولت بدورها إلى أحداث عنف مزعجة وموجعة. وفهمت منه أن السبب الأساسي وراء انفجار أحداث المحله هو علاقة مضطربة منذ فترة بين أجهزة الأمن وبين المواطنين، وقد لمس هو ذلك من خلال لقاءاته الصحفية مع عدد كبير من أهل المحله، وأن هذا الإضطراب في العلاقة وصل إلى ذروته في طريقة تعامل الأمن مع المتظاهرين يومي ٦ أبريل و٧ أبريل ٢٠٠٨، وأن هذا الأمر يحتاج لمعالجة جادة ومسئولة وعاقلة حتى لا يتكرر السيناريو مرة أخرى في المحله أو في أي مكان آخر. ومما قاله لي –مما شاهده– أثر في نفسي كثيرا وآلمني حيث ذكر بأن جنود الأمن المركزي كانوا يقولون للجماهير الغاضبة في الشوارع والأزقة «لا تضربونا»، وهم في نفس الوقت لا يريدون أن يضربوا الناس، وتخيلت هذه المواجهة المؤلمة بين جماهير مصرية جائعة تتألم وتعلن عن غضبها وهي تواجه جنودا مصريين من أبنائها هم أيضا جائعين ومتألمين، وكل منهم لايريد أن يؤذي الآخر،

ومع هذا تصدر الأوامر العمياء من هنا وهناك بأن يأكل الفقراء بعضهم البعض، وهذا يذكرنا بمصارعة الموت عند الرومان حيث كان السادة يجلسون في منصة عالية يشاهدون مصارعات حتى الموت بين العبيد وهم (أى السادة) يتصايحون ويصفقون ويشجعون ويحتسون الخمر في سعادة بالغة بينما يسقط أحد المتصارعين مقتولا بيد الآخر.

عدت مرة أخرى من المحله وأحداثها إلى مارينا وجمالها وحاولت أن أتخيل: كم تكلفت هذه المدينة؟ ومن أين جاءت كل هذه الأموال؟.. وإذا كنا أغنياء إلى هذا الحد فلماذا إذن الشكوى من غياب رغيف العيش ومن ضعف المرتبات؟.. ولماذا تركنا موظفي الضرائب العقارية في الشارع كل هذا الوقت؟.. ولماذا نترك الأطباء وأساتذة الجامعات والعمال يصرخون ليلا ونهارا يطالبون بزيادة المرتبات؟؟.. قد يقول قائل إن هذه مشروعات سياحية استثمارية تدر دخلا كبيرا للبلد، ولكن الواقع يقول بأن هذه الكتل الأسمنتية بطول الساحل الشمالي انتهاءا بمارينا وما يوازيها من سواحل سيناء الجنوبية والشمالية هي نوع من الإقتصاد المغلق، حيث وضعت أموال هائلة في قرى ومدن ومنتجعات سياحية لايزورها السائحون العرب أو الأجانب إلا فيما ندر، بينما تقتصر الإستفادة منها على قلة من المصريين الأثرياء يستفيدون بها في الترفيه والإسترخاء لمدة أسبوع أو أسبوعين أو شهر في السنة، وتبقى بعد ذلك في حاجة إلى صيانة مكلفة طوال العام. وعلى الرغم من ضياع أموال البنوك في هذه المدن والقرى والمنتجعات (كما ضاعت في توشكى) فإن أعداد السائحين لدينا (٦ مليون في السنة) متواضعة مقارنة بتركيا (٢٠ مليون في السنة) أو أسبانيا (٤٠ مليون في السنة) أو فرنسا (٤٠ مليون في السنة). وإذا كنا دولة فقيرة يعيش أكثر من نصف سكانها تحت خط الفقر فكيف يتفق هذا مع كل البذخ الموجود في مارينا وغيرها، وهل في مثل ظروفنا الضاغطة الخانقة يصبح هذا الترفيه المترف أولوية تتجه إليها الأموال الطائلة بينما الناس في القرى والمدن والنجوع يقتلون بعضهم بعضا بحثا عن رغيف عيش؟.. وهل تفرغ المصريون للرفاهية والمرح بعد أن تجاوزوا كل مشكلاتهم؟؟.. وهل نحن الآن مجتمع وفرة وراحة واستجمام إلى هذه الدرجة؟؟؟!!!.... وهل بنى الصينيون والماليزيون والكوريون والإندونيسيون والأتراك مثل هذه المنتجعات

السياحية أم بنوا قلاعا صناعية رفعت عمالهم في السماء إنتاجا ووفرة؟؟... وهل من بنى كل هذه القصور والفيلات للراحة والإستجمام والرفاهية يعرف أولويات المجتمع المصري واحتياجاته؟؟؟!!!.

وتلح فكرة ذبول مدينة بورسعيد التي خلت شوارعها من الناس وخلت محلاتها من المشترين وخلا جمركها من حاملي البضائع التي تستحق الرسوم الجمركية، ثم فكرة احتضار مدينة المحله وانتظارها المصير الذي آلت إليه شركة إسكو في القليوبية والتي تم خنقها لعدة سنوات حتى أصبحت جاهزة للبيع البخث فبيعت، وهل تموت فعلا المدن أو تذبل أو تحتضر أو تختنق؟؟.

ومرة أخرى تطاردني مشاهد ساكني مقابر البساتين والتونسي والإمام الشافعي وباب الوزير والغفير والمجاورين والإمام الليثي وجبانات عين شمس، وأذكر على وجه الخصوص تلك الليلة الحالكة التي قضيتها العام الماضي بين سكان هذه القبور ضمن برنامج تليفزيوني يستكشف حياة هؤلاء الناس وهم يعيشون ويتزوجون وينجبون أطفالهم بين الموتى، وأعتقد أننا الشعب الوحيد الذي اضطر أن يعيش في القبور رغم وجود كل هذه القرى والمدن والمنتجعات السياحية لدينا.

هربت من كل ذلك وذهبت لحضور الندوة واستمتعت - كالعادة - بحديث أستاذي الفاضل العظيم الأستاذ الدكتور أحمد عكاشه وهو يستعرض اقتصاديات الصحة النفسية والعلاج الدوائي في ظروفنا الحالية وفي عصر العولمة، ثم مناقشات الزملاء وتعليقاتهم، وكان السؤال الذي يطاردني طول الوقت: وأين اقتصاديات حياتنا في بقية الجوانب، وماذا يقول جهابذة الإقتصاد لدينا عن كل هذا الإنفاق والبذخ في مدننا السياحية مقابل الشح الشديد والتقتير البالغ في التعامل مع احتياجات الفقراء والمعدمين.

وفي رحلة العودة وحين اقتربنا مرة أخرى من القرى المحيطة بالمحله بدأنا نرى سكان مصر الأصليين في عشوائياتهم وفي فقرهم وبؤسهم وفي بيوتهم المبنية بالطوب الأحمر فقط وتعلوها أعمدة المسلح العارية انتظارا لفرج قريب يكسو هذه الأعمدة بالطوب الرخيص حين ميسرة لكي تشكل صناديق ضيقة تحوي أجسادا متهالكة

ومقهورة ولا تملك من أمرها أو إرادتها شئ.

وكنت قد اشتريت كيسا من الحمص من استراحة في الطريق قريبة من مدينة طنطا، ولذا طلبت مني زوجتي – كنوع من الكرم – أن أعطيها تلك الأوراق التي كنت أكتب فيها ملاحظاتي وخواطري طوال الرحلة لكي تعمل منها قراطيس توزع فيها الحمص على رفاق الرحلة ولكنني خشيت أن تتسرب هذه الكلمات بين زملائنا في الباص فتفسد عليهم سعادتهم بالرحلة من المنصوره إلى المحله إلى مارينا وبالعكس.

❊ ❊ ❊

شـــــورى مهببـــــه

كان «أبونا نجم» هو حكيم القرية وصاحب الرأي والمشورة فيها، يرجع إليه أهل القرية في كل صغيرة وكبيرة فهو قادر على حل المعضلات، وكانت آخر مشورة له قبل وفاته حين أتى إليه أهل القرية فقالوا: يابا نجم.. الجمل دخل دماغه في الزير علشان يشرب ودماغه اتحشرت في الزير مش عايزه تطلع... نعمل إيه دلوقتي؟. وهنا أطرق «أبونا نجم» طويلا ثم رفع ر أسه وقال: إن رقبة الجمل مائلة ولذلك لا يمكن أن تخرج الرأس هكذا، فلابد من قطع رقبته حتى يمكن جذب الرأس لأعلى بسهولة من داخل الزير. فذهب أهل القرية وقطعو رقبة الجمل ولكنهم لم يستطيعوا إخراج رأسه من الزير فعادوا إلى أبيهم نجم يسألونه مزيدا من المشورة فأطرق طويلا ثم قال: لابد من كسر الزير حتى نخرج رأس الجمل... وفعلا نفذ أهل القرية مشورة «أبيهم نجم» ونجحوا في إخراج رأس الجمل بعد تكسير الزير... ومات أبونا نجم بعد هذه المشورة بأيام وافتقد أهل القرية حكمته ورأيه ومشورته، وكانوا مثل اليتامى الحيارى من بعده... وذاع مثل مازال الناس يرددونه حتى الآن في أي موقف يحتاجون فيه إلى المشورة ولا يجدون المشير: «ياويلكم من غير شور أبوكم نجم».

قفز هذا المثل إلى ذهني وأنا أشاهد مبنى مجلس الشورى يحترق تحت أعيننا وبين أكثر الأماكن حصانة في مصرنا «المحروثة»، وتساءلت في حيرة: كيف ستعيش مصر هذه الأيام بدون مجلس شورتها؟.... وتركت كلام خبراء الحرائق والأمن والسلامة يقولون ما يقولون حول احتمالات التقصير والإهمال، واحتمالات التأخير، والربط بين هذا الحريق وحريق العبارة التي غرقت، وحريق قطار الصعيد وحريق مسرح بني سويف، وحريق الأوبرا، تركت كل هذا ورحت أقرأ دفتر أحوال المصريين من نكتهم وتعليقاتهم وأقوالهم في مثل تلك الظروف، وجمعت كل هذا من كلام الناس في الشارع وفي الفضائيات وعلى صفحات الإنترنت ومن رسائل الموبايل، وأنا أعتقد أن في هذا ثروة كبيرة يمكن أن

يستفيد بها صناع القرار في مصر خاصة في ظل غياب نظام استطلاع الآراء عندنا لأسباب لا نعلمها، وأتمنى أن يهتم الأخ الفاضل والعالم الجليل الأستاذ الدكتور / ماجد عثمان رئيس مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار في مجلس الوزراء بهذا الأمر وإخضاعه للدراسة والتحليل بواسطة خبراء في علم النفس وعلم الإجتماع للوقوف على دلالات ومعاني آراء الناس ومشاعرهم ومواقفهم في هذا الحدث الذي يعتبره بعض المحللون من أهم الأحداث التي مرت بمصر في السنوات الأخيرة، فمجلس الشورى ليس مجرد مبنى وإنما هو رمز للحكومة ورمز للشورى والرأي ورمز لمطبخ القرارات المؤثرة في حياة الناس، وهو الركن الثالث المدعم والمكمل للركنين الآخرين مجلس الشعب ومجلس الوزراء.

والآن دعنا من الكلام الكبير وتعالى نقرأ النص الشعبي كما هو «بعبله» حول هذا الحدث:

* رسالة وصلتني على الموبايل لا أعرف مرسلها تقول باختصار وتصرف: «مسئول كبير بيسأل اللي حواليه: إيه اللي خلى مشرف يستقيل؟.. قالوا له: البرلمان أجبره ياباشا. قال لهم: خلاص، ولعوا في البرلمان!!»

* وظهر طبيب نفسي (مبتدئ) على إحدى الفضائيات (المبتدئة) وراح يشرح كيف أن النكتة كانت إحدى أسلحة المصريين للتغلب على الشدائد، وأن الشعب المصري شعب مرح وابن نكته... وبدت المذيعة (المبتدئة أيضا) فرحة ومبتهجة بهذا التفسير الذي يدخل السرور على الناس ويزيدهم إحساسا بالفخر بمصريتهم، وحاولت جاهدا أن أتصل بالبرنامج لأصحح هذه المعلومة (من باب المسئولية العلمية) وأقول بأن النكتة تستنزف غضب الشعب المصري وطاقته، وتصرفه عن الفعل الجاد ويشعر بعدها أنه قد أخذ حقه واستراح وكأنه أخذ نفسين حشيش وغاب في سبات عميق، وأن الشعب المصري ليس شعبا مرحا وإنما هو شعب حزين يحاول أن يزيح جبال حزنه بالمبالغة في مظاهر الفرح...... ولكن للأسف الشديد كانت الخطوط مشغولة وانتهى البرنامج دون أن أوصل الرسالة، وحمدت الله على ذلك لأنها لو وصلت لأصابت الناس بالغم ولضيعت عليهم فرحتهم بمصريتهم الطروب.

* مندوب أحد الصحف يحاول أن يستوقف رجلا سائرا على عجل في شارع القصر العيني ليسأله:

- إيه إحساسك تجاه حريق مجلس الشورى؟
- فرد الرجل وهو يكمل سيره وكأن الأمر لا يعنيه: «شورى مهببه»
- هل تعني ذلك الهباب الذي أحاط بالمجلس بسبب الحريق
- يا عم سيبني في حالي، هو انا ناقصك

* تعليقات على موقع مصراوي لشباب يقضي أغلب وقته أمام الإنترنت، وأبوه الذي ينفق عليه خير منه:

✍ هى دى مصر يا عبله قصدى يا حكومة ويا مطافى ويا......

✍ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله!.. من وراء هذا الحريق؟.. ماذا تريدون أن تستروا عليه؟

✍ هيييييييييييييه عظيمه يا مصر

✍ الذكي هو اللي هايفهم ليه الحريقه دي حصلت والشعب ده طيب بس مش بيريّل

✍ منظر صعب للغاية ربنا يستر مع كل الناس

✍ الحريق ده شكله مقصود لأن مفيش ماس كهربائي يعمل ده كله وبعدين انا عرفت ان المبنى ده كلف ١٠ مليون لصيانته!! طب فين انذار الحريق؟ وفين الامن والحراسة، ده منشأ حيوي ياخوانا موش كشك سمك، حسبي الله ونعم الوكيل وياريت ميطلعش مسئول يسرح بدماغنا ويقول ده ماس او عقب سيجارة لان المفروض ان من يعمل بالمبنى ده بيشربوا سيجار كوبي!!!!!!!!!!

✍ حسبى الله ونعم الوكيل فى كل من يسبب كوارث وكل من يتقاعس عن اداء

الواجب وحسبى الله فى الحكومه

✍ ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا

* سألوا أستاذ في كلية الهندسة عن رأيه فيما حدث فقال:

- الوقاية خير من الإطفاء.. تذكروا الحريق الذي حدث منذ خمس سنوات في مركز المعلومات بمجلس الوزراء، وأشرنا إلى أن استخدام التنر في الدهانات يجعل أي مبنى قابل للإشتعال بل للإنفجار في لحظات.

* يقف رجل قروي (غير ساذج) على الرصيف المقابل يضرب كفا بكف ويقول:

- يا اخواننا دا لو الحريقه دي حدانا في البلد كان زمان الناس طفوها بالحلل وجرادل المياه... طب ما يسيبونا واحنا نطفيها.. ما احنا اتعودنا نعمل كل حاجه دلوقتي بس همّا يسيبونا في حالنا.

* والتقط أحد الصحفيين المبتدئين هذه الكلمات من القروي الفصيح، وراح يسأل أحد الضباط الذين أوكلت إليهم مهمة إبعاد الناس عن مكان الحريق:

- لماذا لا تتركون الشعب يطفئ الحريق بنفسه؟..... جربوه هذه المرة ولن تخسروا شيئا... سيبوا الناس على النار وشوفوا ها يعملوا إيه.. دي تبقى ملحمه شعبيه هايله

- إبعد ياد من هنا الساعه دي، وخد منه الزفت الكاميرا دي يا عسكري ومش عايز أي صحفي ابن...... من بتوع المعارضه يقرب من الناحيه دي.. جايين تشمتوا في الحريقه ياولاد ال..... انتوا مصريين انتوا؟.

وجرى الصحفي حتى يحتفظ بكاميرته وكرامته، وجرى وراءه جمع من الجنود والناس يتفرجون ويضحكون ولا يبكون، وهم واقفون.

*تعليقات القراء على موقع قناة الجزيرة دوت نت (تم حذف الأسماء حفاظا على أرواح أصحابها وممتلكاتهم):

✍ يا جماعة انا اضايقت جدا من التعليقات.........مش عارف هو انتوا

مقريتوش الموضوع كويس بيقول الخبر مساحة المبني ٦٠٠٠ متر مكعب وخشب واجهزة كمبيوتر يعني فعلا صعب السيطرة عليه ليه بقه كل الاحباط في الكلام ده. يا ريت دايما نحكم عقلنا قبل اتهام الناس بالباطل

- هذا يدل على استمرار عجز الحكومة المصرية فى عدم معالجة الكوارث مما يزعزع الامن والاستقرار فى ارجاء الجمهورية وهذا دليل قاطع على ان الحكومة المصرية لا تزال تستخدم الاساليب التقليدية فى اطفاء الحرائق المشبثة ولا يزال الوضع على ما هو عليه ولا يزال كل مواطن يتوقع اكثر من ذالك وهذا ان دل فانما يدل على فقد الثقة فى الحكومة وهذا ايضا فى حد ذاتة اكبر مصيبة تحل على البلد فى غضون الايام المقبلة وربنا يسترها عليا الفقير الى الله
- ياخراشي ياخراشي
- حسبنا الله ونعم الوكيل
- لا اله الا الله العظيم الحليم لا اله الا الله رب العرش العظيم لا اله الا الله رب السماوات و رب الارض ورب العرش الكريم انا لله وانا اليه راجعون اللهم اجرهم فى مصيبتهم واخلف لهم خيرا منها
- كنت أتمنى أن الأعضاء المزورين يكونوا وقت الحريق داخل المجلس وعلى العموم هى دى نهايتهم سواء أكانت فى الدنيا أو فى الآخرة وعلى فكرةالموضوع ده أكيد أكيد بفعل فاعل وطبعاً الفاعل مجهول لأنهم هما عوزين كده وسلامى إلى الأغلبية المطلقة المطّلقة من الشعب كله
- ياااااااااااارب مع ترميم المبنى حد يفتكر ان فيه مستشفى جامعى لطب الأزهر تحت الأنشاء من ١٩٨٤ وحد من الزيبطه الى آل يتبرع يفتكرها ولو بجنيه لأن الدوله عندها كراااااااااااامه وحترمم المبنى من ميزانية الدوله الضخمه اللى هى اساسا فلوس الشعب
- قرأت أن أحد رجال الأعمال سوف أو تبرع بمبلغ مالي للمعاونة في اصلاح

المبنى و لم أسمع أحدا (لحد الآن) سيعاون في مساعدة الموظفين ممكن دايما بتروح على الصغار و الغلابة الله يعوض و يفرج على الجميع

✍ لا إله الا أنت سبحانك إنا كنا ومازلنا ظالمين.

✍ يا ترى ده له علاقة بالحكايات القديمه ١ حريق القطار ٢ انقلاب القطار ٣ قتل ١٣ فرد من عا ئله واحده ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ وغيره وغيره وغيره

✍ من الآخر كلنا عرفين إن مصر فيها حرامية كتير بس فى كلمتين هقول المختصر مصر طول عمرها هتبقى بخير وهيجى اليوم اللي كل واحد هياخد حقة حتى لوكان من من من من

✍ هذا غضب علينا من ربنا والحمد لله أنه لم يحدث حريق القاهرة الثانى واللهم أغفر لنا وشكرا

* فتاة تمشي هي وصديقها يتبادلان النظرات والهمسات واللمسات تقول في دلال ومرح شبابي:

- ياكشي تولع

* رجل وقور جاوز السبعين:

- ياناس كفايه شماته حرام عليكوا.. دي في الآخر حاجتنا مش حاجة الحكومه.. والمجلس ده ها يتبنى على حسابنا ومن دم الغلابه اللي زينا

* يرد عليه رجل أقل وقارا وهو في منتصف العمر:

- همّا حرقوه علشان يتاووا أوراق ممدوح اسماعيل وشركة هايدلينا وبلاوي كتير زرقا

* يستطرد شاب في أول العمر في تساؤل يخلو من البراءة:

- هي ليه حرايق الحكومه دايما تجيب الموضوع لآخره وما تنطفيش إلا لو جابت آخر حته في المبنى؟.. دي حكومه جايبه جاز.

* ترد عليه سيده محترمه جدا:

-إحنا ها نفضل بالسلبيه دي في كل حياتنا؟!.... واقفين تشمتوا وتشتموا في الحكومه وأموالكم بتتحرق قدام عينيكم والآخر تولولوا زي العواجيز الخايبه!!!!.

* مراسله في أحد القنوات الفضائية تسأل شابا متدينا:

-إيه رأيك؟

– ده غضب ربنا علينا علشان ما بناخدش بمبدأ الشورى الحقيقي في الإسلام

* ثم تسأل مراسلة أخرى أحد أعضاء كفايه المعروفين فقط لأصدقائهم:

– وانت شايف إيه؟

– شايف ان مصر من غير مجلس الشورى ومجلس الشعب تبقى أجمل وأحسن، لأن المجلسين دول رمز لتزوير إرادة الشعب، وهما دراع الحكومة ووسيلتها لتمرير كل القرارات والقوانين اللي بتخنق الناس، فاكره قانون رفع الأسعار، وقرارات تمديد الطوارئ ٢٧ سنه، وتعديل الدستور، وتعديل تعديل الدستور، وغيرها وغيرها، فاكره الموافقه والإجماع؟.. فاكره ترزية القوانين اللي قاعدين ليل نهار في المجلس ده واللي جنبه يشوفوا ازاي يمكنوا الحكومه تمسك رقبة الناس؟.... فاكره قهر المعارضه الشريفه؟.... مش كل ده بيتم في المجالس دي؟... طب عمرك شفتيهم ضغطوا على الحكومه أو سحبوا الثقه منهم؟... ياريت يوفروا مصاريفهم ومرتبات الأعضاء والموظفين.. ويطرحوا المباني بتاعتهم للبيع ودي تجيب مليارات دلوقتي بشرط انها تتباع بذمه.

– لكن هل ممكن تبقى بلد من غير مجلس شورى ومجلس شعب؟

– مادام مالهمش وظيفه يبقى كفايه علينا مجلس الوزرا ومقر الحزب الوطني ولجنة السياسات والأهم من دا كله مبنى الرئاسه (وهنا انقطع الإرسال قبل أن يكمل الناشط في حركة كفايه كلامه)

* متعلقات من أرشيف مواطن مصري لم يدركه عته الشيخوخه:

- ✍ مقتل ثلاثة أشخاص وإصابة ١٨ بحريق في سجن مصري
- ✍ حريق يلتهم حيا فقيرا بقلب القاهرة
- ✍ السجن عشر سنوات لثمانية مسؤولين بحريق مسرح مصري
- ✍ مقتل ٢٩ على الأقل في حريق بني سويف بمصر
- ✍ التدافع ضاعف خسائر حريق مسرح بني سويف بمصر

*تتوالى تعليقات موقع الجزيره دوت نت، ننشرها دون حذف الأسماء هذه المره نظرا لضيق الوقت والصدر (وهمّا ونصيبهم):

- ✍ مصرى اوى اوى
- ✍ على فكره مصر بقى بيحصل فيها بلاوى كتيره والشعب ميعرفش ده كله منين والحكومة بتدارى على الخبر وتطلعلها باى حجة فى كل مصيبة ومصر دى بلد حضارى.. وحسبى الله ونعم الوكيل على الظالم والمفترى
- ✍ لا اعتقد ان تعليقات المهرجين بالشماتة والاستظراف وخفة الظل لها محل الان فهى تشبه الكثير من البيانات والقرارات غير المسئولة التى صدرت عن الكثير من المسئولين تحت قبة المبنى المحروق متى ناخذ الامور جد- الموضوع يمكن ان يكون اخطر بكثير جدا مما حدث وتعليقات المهرجين من المصريين هنا للاسف هى اقوى دليل على ذلك ربى لا اسالك العوض فيماخسرت مصر فى هذا الحريق بقدر ماasالك الرحمة من هذه العقول الخاوية
- ✍ حرام والله حرام المصريين مايستهلوش كده شعب ضعيف مستكين لكن فيه من يسومه العذاب
- ✍ انا متهيقلى لو واحد من السادة الافاضل من الحكومة وخاصة وزير الداخلية لو شاف التعليقات هيقول ظلم ايه اللى احنا بنعمله للشعب واكيد الريس هيقول مهو مش معقول ارضى كل الشعب، وانا معاه بس لما نتعامل بمهانة فى اقسام الشرطة ومن اصغر عمالها فى الشوارع وده غير الارقام السودة الصغيرة والنسر

اللى على عربيات المسؤلين أو خريجى كلية الشرطة واللى ابنائهم بيلعبوا بيها فى الشوارع وغير الوسايط لدخول الكليات العسكرية ده حتى الطرق العامه منظرها مش كويس طيب بعد ده كله قلولى انا غلطان

- شاهدوا تاريخ مصر و هو يحرق..!!
- السبب معروف طبعاً لدى أجهزة الأمن المصرية والسبب هو ماس كهربائي أصل عندنا في مصر الحرائق لا تحدث سوى بسبب الماس الكهربائي ربنا يلطف بينا إن شاء الله
- علي فكره الحياه ابسط من كده مجرد مكان اتحرق ايه يعني ما كل يوم الف طموح شاب بيحترق والف كلمة حق بتحترق، المهم ان ربنا معانا للنهوض ببلدنا ياجماعه دي مصر والله لو فاهمين ماتقعدو سكتين دي مصر اغلي الغاليين
- السلام عليكم حسبنا الله ونعم الوكيل فى حكام مصر الا من رحم ربى نسال الله العافية مصر التى اهلها ظالموها وحسبنا الله ونعم الوكيل فى..........
- ياجماعة ده آخر انذار... بعد كل الكوارث دي اللي بتحصل في مصر لازم من وقفة عاقلة. ياتري اية الأسباب؟؟؟؟ الشاطر فيكم يقول لي!!!
- مجرد حريق فى مبنى.....شىء عادى ووارد الحدوث ولكن...ولأن الشعب المصرى لايثق فى حكومته إطلاقا...إطلاقا (وأنا أولهم)..تلاقى ٣٠٠٠ شكوى و٣٠٠٠ تهمة و٣٠٠٠ حكاية...ياريت الحكومة تعرف يعنى إيه ثقة شعب..(فى المشمش)
- ده غضب من ربنا علينا لان الشعب نايم علي ودانة ولازم حاجة تفوقة؟
- بكره يعملوا مبنى جديد باموال الناس الغلابة فانتظروا قراراتهم الجديدة اولا - رفع وخصم قيمة منحة الولاء والانتماء على المدى البعيد ثانيآ - ارتفاع بالمزيد من غلوا الاسعار والعيشه كمان اكتر هتبقى ميت فل ونار

✍ دي دعوة واحدة ما نزلتش الأرض أرجو أن تكون الموعظة وصلت خاصة وأن الحريق تم في نفس الشارع اللي حصل فيه هبوط أرضي عند وزارة العدل شارع مجلس الشعب كما أرجو أن ينقلواالمجلس لمكان بعيد علشان الخنقة وتوقيف الشوارع اللي في وسط البلد لما ينعقد المجلس الموقر يا ريت يعملوه في آخر القاهرة بعيد عن الناس كما هو في الحقيقة والسلام

✍ أنا قلت أنا اللي بييجي عليّه ما بيكسبش عرفتوا دي دعوة مين؟ مش بقالهم كام أسبوع في مصايب زي العقد المفروط يا رب يتعظوا

✍ يللا نناااام بلا وجع دم دماغ، النوم اللي بنهرب فية من وجع الدماغ والملل ومن الحر والقر والولعة والحرائق والبوائق والشوري ومجلس االشوري والكوابيس، نروح ننام احسن بعد صلاة الفجر لنهرب من وا قعنا الاليم للنوم العميق عن اذنكم: محمود

* وحضر مجموعة من الشيوخ والشباب ووقفوا في صفوف أمام المبنى وهو يحترق وقادهم أحدهم في دعاء تقطعت له القلوب والأفئده بأن يرفع الله الوبا والغلا وسائر المحن عن بلدنا خاصة وعن سائر بلاد المسلمين عامة، وقرر هؤلاء الشباب الإستمرار في مسيرة الدعاء حتى تنطفئ النار بإذن ربها، أو تصبح بردا وسلاما على المبنى وما حوله، فالدعاء بلا شك هو من أقوى الأسلحة في مواجهة المحن والشدائد. والتف جمع كبير من الناس يتابعون هذا المشهد الجلل وقد انشغلوا به عن الحريق والدخان، وهنا أدرك رجال الأمن خطورة الموقف فطلبوا من الداعين والملتفين حولهم أن يخلوا المكان حتى تمر عربات الإطفاء وسيارات الإسعاف فرفض الجميع وحدثت مواجهة بين الفريقين استمرت لعدة ساعات قبل أن يسيطر الأمن على الموقف ويعتقل قادة المجموعة والمحرضين فيها.

* ويرد أحد الضباط في جهاز اللاسلكي على قيادة يبدو أنها كبيرة:

-كل شئ تمام يافندم، الموقف تحت السيطره سعادتك،.... سيادتك اطمئن تماما

وطمن القياده السياسيه، احنا عملنا اللازم وأكتر شويه في وقت قياسي.

ولكن يبدو أنه سمع ردا غير مناسب فتغير وجهه وراح يتمتم بكلمات غير مفهومه

*نشط المدونون (ولو ناموا) كعادتهم في مثل هذه المواقف وفي غيرها وهم في حيرة بين وطنيتهم وتمردهم على الأوضاع:

اندهشت كثيرا حينما سمعت نبرة الفرح فى صوت احد المواطنين وهو يخبر صديقه منتشيا بالامس: (مجلس الشورى ولّع يا جدعان) وكان حكومته الغاليه أخذت صفعه فوق الوجه الذى استوى تلطيشا وبهدله

آلمنى جدا الوجه الذى ظهرت عليه القاهره بالامس الثلاثاء ١٩ اغسطس ٢٠٠٨

اذاعت وكالات الانباء خبرا بالامس:

اندلع حريق هائل فى مبنى اقدم برلمان فى الشرق الاوسط «مجلس الشورى المصري»، والذى يعود تاريخ بنائه الى عام ١٨٨٩ م

واشارت الحكومه المصريه انها سيطرت على الحريق بعد ٧ ساعات كامله، حيث ان المبنى قديم للغايه آلمتنى الوجوه التى ظهرت بالامس:

(١) وجه المواطنين:

تضارب فى ردود الافعال بين الفرح والمنتشى باحتراق مبنى مجلس الشورى

ومنهم من اراد ان يحترق مبنى اخر.................

ومنهم من راى انه انتقام السماء على موافقه مجلس الشورى الموقر على قانون المرور الجديد ومنهم من حزن على احتراق اول مظهر من مظاهر الديموقراطيه فى مصر والشرق الاوسط

(٢) وجه الحكومه:

الحكومه سارعت الى اطفاء الحريق والذى بدأ يلتهم اروقه المجلس وقاعته الرئيسيه ولجان مجلس الشعب فى داخله، وسارعت طائرات الاطفاء التابعه للقوات المسلحه

بمعالجة الوضع، حيث ان المبنى تتكون اغلبيته من الخشب، والتهمته النيران

(٣) وجه العداله:

لا ادرى ان كان ذلك حقا هو جزء من عدالة السماء التى صبت جام غضبها على المجلس الموقر الذى ساهم بشكل او بآخر في تضييق الخناق على المواطن المطحون

ولا ادرى

ان كان الناس حقا ضاق بهم ذرعا

واختنقوا

ويبدو ان اختناق الارض وسكانها

قد أشعل الغضب فى السماء

فاختنقت بدخان الاخشاب التى شهدت جلسات لرجال صنعو تاريخ مصر

كل ما يمكننى قوله

انه الآن

هنا القاهره

* إحدى المدونات تعلق بجرأة:

الحقيقة أنا مستغربة جدا من الناس اللي مستغربين من رد فعل الناس «التانيين» اللامبالي والساخر من حريقة مجلس الشورى.. رد الفعل ده منطقي جدا في ظل اللامبالاة والإهمال اللي بيتعامل بيهم أعضاء مجلسي الشورى و الشعب -عن الحزب الوطني - مع هموم الناس

نظام........ نجح في حاجة واحدة بس..إنه يحسس الناس إنه هو و البلد واحد......... كل حاجة يبنوها يقولك مدرسة.... مستشفى....... مكتبة....إلخ لغاية ما للأسف اختلط الأمر على الناس فعلا وبقت أي حاجة وحشة تحصل في مصر يتم التشفي فيها على أساس إنها حصلت للحكومة ورئيسها...... باعتبار إن مصر دي

خلاص بقت بتاعتهم مش بتاعتنا

أيوه زعلت على المبني لأنه تاريخ...ولأن شكله والنار والعة فيه لغاية الليل مرعب بجد..لكن مقدرش أدين أو حتى مافهمش رأي الناس اللي فرحت في اللي حصل صعبان عليا كمان عامل المطافئ اللي دخل بصدره في النار -طبعا لأن مفيش أقنعة واقية للغلابة دول- وراح فيها النار فكرتني بحريق قصر ثقافة بني سويف من تلات سنين اللي مات فيه مجموعة من شباب الفنانين والنقاد اللي بيحبوا شغلهم بجد وبيعملوه في مكان فقير في الأقاليم، للأسف كل اللي بيموت بلاش في البلد دي هما الغلابة والمحترمين اللي يستاهلوا يعيشوا

هناك شئ خطر يحدث أظنه أخطر من حريق مجلس الشورى، ذلك الشئ الذي ظهر جليا تحت أضواء نيران الحريق الكاشفة، وقد تصبح الكلمات المستخدمة تافهة أو هزيلة، وقد لا تستطيع توصيل الحقيقة لمن يهمهم الأمر خاصة إذا تشبعت تلك الكلمات بشئ من الدبلوماسية أو الحذر أو مراعاة اللياقة أو الحفاظ على الوقار العلمي. إنه شئ أبعد من الشماتة وأخطر من ضعف الإنتماء، إنه نوع من الغضب الداخلي يتفجر في وقت المحن بدلا من تلاقي الأيدي للخروج من الأزمة، إنه نوع من اللوم الصامت والصارخ لكل من أقصى الناس عن المشاركة في صنع مصيرهم، واعتبرهم قاصرين عن التفكير فضلا عن قصورهم عن الفعل. إنه نوع من تمني الشر الكامن في النفوس يخرج عند كل مصيبة، وكأن الناس فقدوا قدرتهم على التعبير فتركوا الأمر لغضب السماء يحقق لهم ما يريدون حتى ولو كان على حساب مصالحهم الشخصية والعامة، أي أنهم يحققون الإفيه الذي ورد في أحد المسلسلات التليفزيونية «ياكشي تولع»، أو يحققون القول الشرير القديم «عليّ وعلى أعدائي».

لقد يئس الناس من التغيير السلمي فاقتنعوا بأن آخر العلاج الكي.. لا ليس الكي ولكن الحرق.. وكأن كل حريق يقربهم من الخلاص.

إن صورة السلطة في الوعي العام – كما تتضح من التعليقات والمواقف السابقة- تدعو إلى الفزع حيث لا ولاء ولا انتماء لهذه السلطة بل عداء يتخفي تحت قناع من الخوف

والمداهنة ويظهر في وقت المحن لوم وشماتة وتشفي، مع أن المتوقع في مثل هذه الأوقات نسيان الخلافات وتجاوز الإساءات وتكاتف الأيدي والقلوب. إنه ليس خطأ النظام فقط بل خطأ الناس أيضا الذين يلجأون لهذا النوع الخبيث من العدوان السلبي حيث يتركون حقوقهم تضيع أمام أعينهم ثم يلجأون إلى اللامبالاه والسلبية والتشفي وإلقاء السبب على الحكومة وسبها أو الدعاء عليها في السر (لاحظ تكرار:حسبي الله ونعم الوكيل في أكثر من تعليق، وهي في الوعي المصري والديني تعني تسليم الخصم العنيد لقدرة الله وجبروته وبطشه)، وتسير الأمور كما هي بلا أي نهاية تبدو في الأفق، وكأنها حالة من التواطؤ السلبي العام. إنها حقا أخلاق العبيد الذين لا يملكون شيئا تجاه أسيادهم وينتظرون المصائب تحل بهم فيفرحون ويبتهجون، والسادة يزدادون تحكما وتسلطا على هؤلاء العبيد الأوغاد، ولا يجدون سببا مقنعا لاحترامهم، فهم في أعينهم قطيع لا يستشار ولا يوضع في الإعتبار.

إن مجلس الشورى ليس مجرد مبنى وإنما هو رمز للحكم والتدبير والتخطيط، وهو مطبخ للقوانين والقواعد والأفكار التي تحكم حياتنا، وهو الضلع الثالث في مثلث السلطة –كما ذكرنا – وبهذا تعتبر مشاعر الناس تجاه احتراقه كاشفة وفاضحة لمشاعرهم تجاه السلطة بكافة أركانها.

والناس لا ترى في المجالس النيابية فائدة، فأعضاؤها يصلون إليها بطرق يعلمها الجميع، وأغلبهم يسعون لتحقيق مصالح خاصة، ولا يشكل أي مجلس رقابة حقيقية على الحكومة، ولم يعرف في تاريخ المجالس النيابية الحديثة في مصر (وربما القديمة أيضا) أنها سحبت الثقة من الحكومة أو أقالت مسئولا كبيرا أو صغيرا، وإنما هي بمثابة أذرع للحكومة، وهيئات تعطي ستارا من الشرعية لكل ما تريد الحكومة فعله. ولذلك فالناس لا ترى فيها فائدة تعود عليها بل على العكس قد ترى ضررا أو أضرارا، فهي تذكرهم بتزوير انتخاباتهم وتزييف إرادتهم، وتذكرهم بالموافقة على قرارات ضد مصالحهم وضد جودة حياتهم مثل قرارات غلاء الأسعار وتمديد قانون الطوارئ، وقانون المرور الجديد، والقوانين التي تخدم مصالح رجال الأعمال وتأتي على حساب مصالح الشعب.

ربما كل هذا يفسر تلك المشاعر المتناقضة والسلبية في أغلبها تجاه هذا الحريق. إذن لا تسل عن الإنتماء أو الولاء أو اللحمة الشعبية أو التضافر بين الشعب والحكومة أو بين السلطة والأمة، حتى في وقت الأزمات، فثمة شروخ عميقة ظهرت تحت ضوء هذا الحريق بشكل يثير الفزع ويدعو إلى المراجعة التي نعرف جميعا بحكم الخبرة أن لا أحد يهتم بها من الشعب أو من الحكومة، والجميع في النهاية يدفع الثمن، إما بحرق أمواله وممتلكالته ومستقبله ومستقبل أبنائه، أو بحرق أعصابه. ويظل هباب المشاعر الذي أحاط بهذا الحدث أخطر بكثير من هباب الدخان الذي ملأ هذا المبنى والمباني المجاورة... ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

❊ ❊ ❊

شكرا سيدتي الأولى على الزيارة

يوم ١٨ أغسطس ٢٠٠٨ ، وبالتحديد في الخامسة مساءا سمعت أصواتا هائلة تأتي من الشارع فخرجت إلى الشرفة أستطلع الأمر فوجدت زحفا جماهيريا لم أشهده أبدا في شارع البحر في مدينة المنصورة، وراح الناس يتساءلون في حيرة: ماذا حدث؟.. هل قامت الثورة؟!.. ومر وقت دون أن نعرف، ولكننا بدأنا نشاهد من بعيد سيارات ضخمة يتجمع حولها الناس يأخذون منها موادا غذائية كالسكر والزيت والأرز، وقد كتب على هذه السيارات بخط كبير: «والغذاء أيضا للجميع»، ولفت نظرنا أن عدد هذه السيارات يتزايد، وكلما أفرغت إحداها حمولتها جاءت سيارة أخرى لتحل محلها... والناس في دهشة شديدة: من أين؟!... وممن؟!... وكيف؟!... ومتى؟!. وشوهد الناس يتوجهون ناحية ميدان الشيخ حسانين في وسط المنصورة، فقد انتشر خبر أن «سيدة مصر الأولى» موجودة هناك وسط الناس، وأنها حضرت بشكل مفاجئ دون أي ترتيبات أمنية لتزور أهل المنصورة قبل شهر رمضان بأيام، وأحضرت معها سيارات ضخمة بعضها فيه كتب وقد كتب عليها الشعار المعتاد «القراءة للجميع»، وبعضها الآخر فيه مواد غذائية وقد كتب عليها – كما ذكرنا – «والغذاء أيضا للجميع»، وقد انصرف الناس - كعادتهم – عن عربات «القراءة للجميع» إلى عربات «والغذاء أيضا للجميع»، وكاد زحامهم وتدافعهم على تلك العربات أن يقتلهم، ووقفت السيدة الأولى تنظر إليهم في شفقة وسماحة وعيناها الهادئتان تفيضان أمومة وحبا، وتطالبهم بالهدوء وتطمئنهم بأنهم سيحصلون جميعا على مايحتاجون، ولكن يبدو أن الناس لم يكونوا يسمعون أو أنهم يسمعون ولا يصدقون، فقد تدافعوا كموجات بشرية هائلة تجرف في طريقها أي شئ، وحاول رجال الأمن – مخلصين فعلا – أن ينظموا هذه الجماهير المندفعة ولكنهم لم يستطيعوا، وحين فكروا أن يستعينوا بخراطيم المياه لتفريقهم وتخفيف زحامهم، رفضت السيدة الأولى وطلبت منهم عدم التدخل، وأن يتركوها هي والناس في هذا اليوم دون تدخل أمني، وأنها ستحاول تهدئة الناس بطريقتها. ولم يقتصر اندفاع الناس نحو عربات الغذاء، وإنما اندفعوا أيضا نحو

السيدة الأولى يعرضون عليها مطالبهم واحتياجاتهم، وهنا أسقط في يد رجال الأمن فهم لا يستطيعون أن يقفوا متفرجين بينما الناس يندفعون نحو السيدة الأولى بشكل خطر يكاد يهدد سلامتها بل وحياتها، وربما اندس في وسطهم مغرضون يحاولون أن يفسدوا هذه الزيارة أو أن يمسوا السيدة الأولى بسوء، فحاولوا حمايتها ولكن عن طريق رجال أمن سريون من قوات مكافحة الشغب، ولكن السيدة الأولى فهمت ما يحدث، فحذرتهم مرة أخرى من الحيلولة بينها وبين الناس، وذكرتهم بأن حب الناس لها هو الذي يحميها، ثم إن الأعمار بيد الله، وكيف تخاف على نفسها وهي بين أبنائها وبناتها وأخواتها وإخوانها، إنها أم لكل المصريين. وهنا أدرك أهل المنصورة مسئوليتهم في حماية السيدة الأولى فتطوع عدد من شباب الحسينية والحوّار والسيده عيشه، وانضم إليهم متأخرا عدد من شباب مسجد التوحيد وشباب الإخوان، ووزعوا أنفسهم لتنظيم حركة الجماهير المتوافدة حول السيدة الأولى، واستمرت سيادتها تستمع إلى الناس وترد عليهم وتداعبهم على الرغم مما بدا عليها من إجهاد في ذلك اليوم. ومرت على محل عصير الحسين، وأقسم صاحب المحل أن تشرب من يده كوبا من العصير، وأن تسمح له بصورة على الموبايل يكبرها ويضعها في واجهة المحل، فسمحت سيادتها بكل شئ إلا شرب العصير حيث كانت صائمة في ذلك اليوم – كما اعتادت في أيام شهر شعبان المباركة. ومرة أخرى اقترب منها أحد المسئولين في زي مدني – ويبدو أنه قيادة أمنية كبيرة – وأخبرها بخطورة الوضع من الناحية الأمنية، وأن سلامتها تعتبر من مهامه الرئيسية وأنها مسألة أمن قومي وشئ يخص سمعة البلد وجهازها الأمني وصورة الإستقرار فيها، وأن إصابتها بسوء سيكون له معنى سياسيا عالي التكلفة في الداخل والخارج. وبعد مداولات أقنعها بالكف عن السير في الشوارع وسط الناس، وطلب منها أن تتوجه نحو استاد المنصورة الرياضي لتلتقي بالجماهير في مكان متسع وفي نفس الوقت يمكن تنظيم حركة الجماهير فيه من خلال بوابات الدخول والخروج، وهذا ما حدث حين زار عمرو خالد المنصورة فجأة في يوم من الأيام وتدافعت نحوه جموع الشباب من مريديه فاضطر الأمن أن ينقل هذا الإحتفاء الشعبي بالداعية الشاب إلى استاد المنصورة. ووافقت السيدة الأولى على مضض بشرط أن تقطع المسافة

نحو استاد المنصورة سيرا على الأقدام في شوارع المنصورة الرئيسية وسط الجماهير. واتجه الموكب نحو «المشّاية» وهي الشارع المطل على النيل مباشرة وهو من أجمل شوارع المنصورة وأفخمها وأحدثها، وقد لا حظت السيدة الأولى أن اسم السيد الرئيس مكتوب على هذا الشارع، ولكن الناس ما زالوا يطلقون عليالشارع اسم «المشّاية» فتغيرت ملامحها ولم تعلق. وحين اقتربت من نادي الحوّار استوقفتها لوحة كبيرة على الجانب الأيسر من مدخل النادي مكتوب عليها: «هدية السيد الرئيس لشعب المنصورة محطة الصرف الصحي»...!!.. فاستاءت كثيرا من هذه اللافتة واستاء معها جموع المرافقين، وبدا أن كاتب هذه اللوحة تنقصه اللياقة في التعبير (وهذه اللوحة مازالت في موضعها حتى هذه اللحظة). واستمر الموكب يجوب «المشّاية»، ولا حظت السيدة الأولى كثرة اللوحات الإعلانية التي تحمل صور السيد الرئيس، فسألت عن سر ذلك، فأسر أحد الناس في أذنيها بأن أصحاب المحلات والشركات يتحايلون بذلك لينشروا إعلاناتهم في أماكن حيوية وبأحجام كبيرة دون أن يدفعوا رسوما أو مصاريف إضاءة لأن الإعلان يحمل صورة السيد الرئيس، ولا يجرؤ أحد أن يزيل هذا الإعلان أبدا.... فتبسمت وتعجبت وانصرفت. ورأت عدد من العمال ينزعون صور المحافظ القديم الذي ترك منصبه منذ فترة قصيرة ويضعون صور المحافظ الجديد، فأشفقت على القديم والجديد، ولكن الناس قالوا لها إن هذه عادة أهل المنصورة، أن يضعوا لوحات إعلانية تأييدية في كل مكان، واللوحة تحتوي على صورة للسيد الرئيس بحجم كبير وبجواره أو خلفه أو تحته صورة للسيد المحافظ بحجم صغير، وأنهم يغيرون هذه الصور كلما تغير السيد المحافظ ولكن تبقى صور السيد الرئيس هي العامل المشترك في كل اللوحات الإعلانية... فنظرت في حيرة واستغراب، ومضت في طريقها نحو مسجد السلاب حيث كان أذان المغرب قد حان فدخلت المسجد وتوضأت وأفطرت على تمرات كانت معها وطعام خفيف كان يحمله لها أحد مرافقيها، ورفضت الوجبات التي أحضرت لها من مبنى المحافظة ومن محلات الكبابجي الوحيد ومن فندق رامادا ومن كنتاكي وكووك دور ومؤمن وبيتزا والشويحي وغيرها.

وبعد صلاة المغرب حاول ممثلوا الحزب الوطني دعوتها لزيارة وافتتاح عدد من المشروعات الصناعية والمدارس والمستشفيات والكباري في محافظة الدقهليه ولكنها اعتذرت لهم بأدب جم، وذكرت أن هذه المشروعات قد تم افتتاحها قبل ذلك أكثر من مرة وبواسطة أكثر من مسئول رفيع، فضلا عن أنها حضرت هذه المرة للناس البسطاء وليس للمشاريع. وانطلقت في طريقها إلى استاد المنصورة بناءا على نصيحة رجل الأمن (الحازمة)، ولكنها مرت في طريقها على شارع الجلاء وعزبة الصفيح وعزبة الشحاتين وسوق ستّوته، وميدان مشعل، والحسينيه، والحوّار، والعبّاسي، والشيخه عيشه، والسكه الجديده، والناس من حولها يغنون ويرقصون ويدعون لها بطول العمر. حتى شباب مسجد التوحيد على الرغم من اختلافهم في مسألة جواز وجود السيدة الأولى هكذا وسط الرجال والنساء وهي تلبس إيشاربا فقط وليست منتقبة كما يجب، إلا أنهم تجاوزوا أو أجلوا هذا الخلاف حتى لا يفسدوا المناسبة على الناس، وقد أسرّ شاب من الإخوان في أذن أحدهم بأن السيدة الأولى في سن أمهاتنا ولا يعقل أن ينظر إليها أحد غير أنها أم، وأن الحجاب الذي ترتديه ولو أنه يظهر بعضا من شعرها إلا أنه أفضل بكثير من عدمه، وطلب منهم أن لا يتوقفوا كثيرا أمام مسألة الحجاب وأن يفكروا أكثر في مصالح الناس في دنياهم وأخراهم وأن كسب ود السيدة الأولى يعتبر سندا كبيرا لقضايا الأمة، وهنا هدأ شباب مسجد التوحيد (على الرغم من عدم قناعتهم بما يقوله الشاب الإخواني)، خاصة وأنهم قرروا أن يرفعوا إليها بطلب للسيد المحافظ أن يسمح للشيخ محمد حسان شيخهم المحبوب وابن المنصورة البار والداعية الإسلامي العالمي ذائع الصيت أن يعود لخطبتي العيدين في استاد المنصوره مرة أخرى، فقد كانت خطبته في الأعياد أحد أهم مباهج أهل المنصورة، وقرروا أيضا أن يطلبوا منها أن ترجو السيد المحافظ أن يمنع لافتات الحزب الوطني التي اعتاد الحزب أن يضعها في مصلى العيد في استاد المنصورة وهي لافتات تحمل أسماء أعضاء الحزب وقياداته وشعاراته، وقد دأبوا على وضعها حول المصلى بل وفوق رأس الخطيب وفوق القبلة وحولها، وهذا موضع لا يصح فيه ذكر أي بشر بل الذكر كله يكون لله، وقد وثق شباب مسجد التوحيد من أن السيدة الأولى ستحمل مطالبهم إلى

السيد المحافظ الجديد وهم يتوسمون الخير في الجميع، بل ويرجون أن يحضر السيد المحافظ وقيادات المحافظة صلاة العيدين خلف الشيخ محمد حسان – كما حدث من قبل في أحد السنوات – ويكون هذا دليل على أن المسئولين يشاركون الناس في مناسباتهم ويحبون من يحبونهم، خاصة وأن الشيخ حسان ليس معارضا سياسيا ولا داعية ثوريا، بل هو على علاقة طيبة بالقيادات الأمنية في المحافظة، ولم يعمد في حياته إلى إثارة الشغب، وليست له أطماع سياسية أو انتخابية حزبية، وليس منتميا إلى جماعات محظورة.

وقد تقدم أحد المثقفين من السيدة الأولى وشكى لها من أن المحافظ السابق أتى بتماثيل مزيفة للفراعنة ووضعها في أماكن مهمة بالمدينة على الرغم من أن تاريخ المنصورة مرتبط بالحروب الصليبية وبهزيمة الجيوش الغازية وفيها دار ابن لقمان التي أسر فيها لويس التاسع، وأن تلك التماثيل الفرعونية مقحمة على المكان وليس لها علاقة تاريخية بالمدينة، وهي خارج السياق التاريخي والثقافي للمدينة.

وجاء أحد أقارب أيمن نور وسألها:

– متى سيخرج أيمن من السجن

* لو كان بيدي ما دخل السجن أصلا

– ولكن سيادتك السيدة الأولى

* أقول رأيي فقط ولا أتدخل في شئون السياسة أو القضاء

– مجرد توصية منك للسادة المسئولين

* أعدك بأن أفعل، وسأزور أيمن في محبسه كأم لكل المصريين

واقتربت منها امرأة عجوز واحتضنتها وقالت باكية:

– ابني في المعتقل منذ عشر سنوات، أخذوه من المسجد، وأوشكت أن أموت دون أن أراه وليس لي أحد غيره

* هل ارتكب جريمة؟

-أبدا دا بيخاف من خياله، هو بس كان بيتكلم عن موضوع منع المذيعات المحجبات من العمل في التليفزيون وقال ان ده مخالف للدستور ومخالف لعادات المجتمع المصري اللي أكتر نساؤه محجبات

* أنا فعلا مستغربه من القرار ده.. طيب ماهي القنوات الفضائيه فيها مذيعات محجبات ناجحات جدا.. ثم إيه دخل الحجاب بعمل المذيعه هايعطلها في إيه.. وكل واحده حره اللي تتحجب تتحجب واللي ما تتحجبش ده اختيارها الشخصي.. عموما أنا ها أثير الموضوع ده في المجلس القومي للمرأه لأنه فيه تحيز ضد المرأه المحجبه، واحنا بنناهض أي صوره من صور التحيز والتعصب.. إحنا كلنا مصريين. أما موضوع ابنك فانا هاكلم المسئولين وانشاء الله لو ما كانش عليه حكم قضائي أتمنى يرجع لك قريب جدا.

وتشجع رجل في منتصف العمر يسكن في شارع البحر، وهو جار لنا فاشتكى لها من القيادة الجنونية للسيارات في شارع البحر ومن كثرة الحوادث بعد إزالة المطبات الصناعية التي كانت تحد من السرعة الجنونية للشباب المتهور، كما اشتكى من مواكب الأفراح الصاخبة والعابثة في هذا الشارع ومن «تخميس» الشباب بالسيارات بصورة غير حضارية فضلا عن أنها مزعجة جدا للسكان، وهنا مال عليها أحد رجال المرور وأخبرها بأن المطبات الصناعية في هذا الشارع أزيلت أثناء الزيارات السيادية لأسباب أمنية، ووضح لها أن الإنفلات في القيادة وعمليات «التخميس» ومواكب الأفراح المخالفة تأتي غالبا من أبناء وأقارب الضباط والمستشارين وأعضاء الحزب، وأنهم يتحاشون الدخول في مشاكل معهم قدر الإمكان، فنظرت إليه السيدة الأولى في عتاب، وطلبت منه أن يطبق قانون المرور على الكبير قبل الصغير، وأوضحت له أنها لا تقول له ذلك بصفتها الشخصية ولكنها أوامر السيد الرئيس.،

ووصل الموكب الشعبي دون أي حراسة أمنية إلى استاد المنصورة (مع أن عربات الأمن المركزي انتشرت في الشوارع والحواري المحيطة بالمكان ولكن بشكل خفي حتى لا تغضب السيدة الأولى فهي لا ترغب في أي إجراءات أمنية تزعج الناس أو تحول بينهم

وبينها)، ووقفت في وسط الإستاد تصافح الناس وتستمع إليهم، وقد لا حظت شحوب وجوههم وذبول بشرتهم وانكسار نظراتهم وتواضع ثيابهم، وظهور آثار أمراض الكبد والكلى عليهم، وعرفت لماذا اختار الدكتور محمد غنيم إقامة معهد الكلى في المنصورة بالذات، وشكرته (وكان هو أحد المرافقين لها) على اهتمامه بالفقراء وعلى تفانيه في العمل من أجلهم دون ضجيج إعلامي زائف. وجاء إليها الناس يشكون غلاء الأسعار فزجاجة الزيت ب ١٤ جنيه وكرتونة البيض ب ٢٠ جنيه وكيلو البطاطس ب ٤ جنيه، حتى الفول والعدس (طعام الفقراء) لم يعد بمقدورهم شراءه، والأمراض تستشري فيهم ولا يملكون تكلفة علاجها والمستشفيات الحكومية خالية من أي إمكانات علاجية، والضرائب تتضاعف كل يوم، والفقراء يزدادون فقرا والأثرياء يزدادون ثراءا... وهي تستمع إليهم وتربت على أكتافهم وتمسح دموع أعينهم وتعدهم بأنها ستفعل كل ما بوسعها لتخفف عنهم. وقد سر الناس سرورا عظيما حين علموا أن سيارات المواد الغذائية وحتى سيارات الكتب جهزتها السيدة الأولى من مالها الخاص وجاءت بها إليهم كهدية بمناسبة قرب حلول شهر رمضان المبارك. واستمر هذا اللقاء الشعبي الدافئ والحميم حتى أذان الفجر، وهنا استيقظت على طرقات عنيفة على باب شقتي الكائنة بشارع البحر بالمنصورة فقمت فزعا ودار في ذهني كل الإحتمالات المفزعة، وفتحت الباب لأجد من يطلب مني إزالة سيارتي المركونة موازية للرصيف، فقلت له إنها في موضع غير مخالف، فقال في حزم حركها في أي مكان آخر وإلا سحبها الونش ورماها في أي مكان، وهنا عدت بذاكرتي إلى زيارات سيادية سابقة، حيث كانت تسحب السيارات ومعها سيارتي من أماكنها المشروعة الموازية للرصيف لتلقى في أي مكان، وكنا نقضي عدة أيام حتى نجدها وقد تفسخت أثناء سحبها. وحين زالت عن عيني غشاوة النوم عرفت أن اليوم هو موعد زيارة «السيدة الأولى»، حيث أخليت شوارع المنصورة الرئيسية من السيارات تماما، ومنعت سيارات الميكروباص وسيارات الأجرة القادمة من خارج المنصورة من الدخول، وأغلقت غالبية الشوارع وخلت من المارة إلا فيما ندر، وبدت المنصورة وكأنها مدينة أشباح، أو مدينة مضروب عليها حظر التجول، وكان رجال المرور

ورجال الأمن يجوبون الشوارع بكثافة عالية، وهم في حالة ضغط وتوتر شديدين، وتبدو عليهم علامات الإرهاق فهم في حالة طوارئ منذ أن أعلن عن الزيارة، ومنذ انتشرت لوحات الترحيب والإستقبال في كل مكان في شوارع المدينة وخاصة حول مبنى المحافظة. وقد أجبر الكثيرون من أصحاب المحلات والورش التي يحتمل أن يمر عليها موكب الزيارة أن يغلقوا محلاتهم وورشهم في هذا اليوم، وليس هذا فقط بل وأن يضعوا لافتات ترحيب أو لافتات تغطي واجهات الورش حتى لا يراها المشاركون في الموكب. وحين اعترض أحدهم قال له الموظف المسئول:

* إحمد ربنا ها تاخد لك يوم راحه تقعد فيه مع عيالك!!.. بس إياك ما تروحش تقضيه على القهوه... وعلى فكره القهاوي كمان قافله النهارده.. ربنا يقفلها في وشك علشان نرتاح منك ومن أمثالك

- ياعم أنا راجل أرزقي باعيش يوم بيوم، واليوم اللي باقفل فيه الورشه عيالي ما يلاقوش اللقمه ياكلوها، وانا ذنبي إيه في الزياره دي واستفدت منها إيه؟

* طب اسكت بقى أحسن أعمل لك قضية إشغال طريق وقضية تعدي على موظف عام

- دا رمي جتت بقى.... هي ناقصه دي الحكايه ماشيه بطلوع الروح... روح يا شيخ الله....

*كده انت دخلت في الغويط.. روح بيتك واقعد في وسط عيالك أحسن لك واقفل عليك بابك، وما اشوفش وشك في الشارع لحد ما الزياره دي تخلص على خير، أنا بقى لي كام يوم ما نمتش ومش مستحمل كلمه من حد.

- أمال هي الست جايه تزور مين؟.. مش المفروض هي جايّه علشان الشعب، ماهو احنا الشعب، انتوا مستعرين منا ليه، هو احنا بقينا عوره بتدارونا عن عيون الزوار والمسئولين؟.. ما تسيبوهم يشوفونا زي ما احنا يمكن قلبهم يحن علينا ويرخصوا الأسعار ويخففوا الضرايب وياخدوا بالهم مننا شويه.. حسبي الله ونعم الوكيل فيكم ياشيخ.

*ياد روّح بيتك واقفل عليك بابك بعد ما تحط فراشه تداري ورشتك العفشة دي وما توجعش دماغي أنا مش ناقصك، مانا في الهم زيّك.

– أمال هي سيادتها هاتقابل مين بقى في الزياره دي، إذا كانت الميكروباصات اتمنعت والعربيات اللي جاية من الأرياف رجعوها، والبياعين أخدوا منهم البضاعه ومشوهم، وما عدش حد في الشوارع؟

– ياد افهم.. هي ها تروح المحافظه وتقابل أعضاء الحزب، والقيادات المسئوله علشان تناقش معاهم أحوال الناس الغلابه اللي زيك.

* طب ما تناقشنا احنا على الطبيعة وتشوف أحوالنا زي ماهي من غير زواق ومن غير دهان الأرصفه وزرع الشجر، ومن غير تخبية الناس اللي بجد.. طب تصدق أنا ما عرفتش المنصوره النهارده.. دي كأنها بلد تانيه غير اللي احنا عايشين فيها، ويبقى كده الست كأنها بتزور بلد تانيه غير بلدنا.. ما تسيبوها تشوف البلد وهي عمرانه ومليانه بالناس وتشوف الزحام والأسواق والبيّاعين السرّيحه والشحاتين، والعيال اللي نايمه على الأرصفه وتحت الكباري، مش همّا دول احنا.. ها نتبرى من نفسنا ليه.. ما تسيبوها تشوفنا زي ما احنا.

– بقى انت عايزها تشوف منظرك الجربان ده وانت واقف تشتغل في ورشتك انت والعيال الهفتانين صبيانك؟

*هو انا مش من أهل البلد دي ولا إيه؟... يعني علشان فقير وهدومي مزيّته؟

وانتهى الحوار بأن وقف الأصطى «شحاته» ليعلق لافتة الترحيب يخفي بها ورشته القديمة، ثم يذهب إلى بيته قبل أن يأتي الموكب، وقد أخذ المسافة من طلخا إلى جديلة ماشيا على قدميه لأن المرور منع الميكروباصات الداخلية من الحركة داخل المنصورة في هذا اليوم.... وكان يتمتم طول الطريق وهو غارق في عرقه وهمومه قائلا: حسبي الله ونعم الوكيل.

وانتهت الزيارة «الرسمية جدا»، ولم يسمح للناس الحقيقيين ليخرجوا ويصطفوا على

جانبي الشوارع يهتفون بحياة السيدة الأولى، واختفى رجال المرور من أغلب الشوارع والميادين ربما كرد فعل لإرهاقهم الشديد طوال الأيام السابقة للزيارة، وخرج الناس «الحقيقيون» من مخابئهم الجبرية بعد زوال الإجراءات الأمنية المفرطة، واختفى الناس الرمزيين والإعتباريين والحزبيين من الشوارع بعد أن أدوا أدوارهم، وحدثت اختناقات مرورية هائلة بسبب اندفاع السيارات المحتجزة في الشوارع الجانبية وعلى حدود المنصورة منذ الصباح الباكر وهي محملة ببضائع توصلها إلى المحلات التجارية بمناسبة قرب حلول شهر رمضان المعظم أعاده الله عليكم وعلينا بالخير والبركات، والجميع يتقدمون بالشكر للسيدة الأولى على زيارتها، ويعتذرون عن أي أخطاء غير مقصودة تكون قد حدثت أثناء الزيارة.

❊ ❊ ❊

حين يصل الفساد لمواطن العفة

جاء يطلب منى إعطاءه شهادة مرضية فسألته عن مرضه فقال لى: الإمتحانات فداعبته قائلا: أما زلت تخشى الإمتحانات وأنت الآن وكيل مدرسة وفى الخمسين من عمرك؟.. ثم إنك تعلم أننى لا أعطى مثل هذه الشهادات «المضروبة»، فأطرق بوجهه خجلا وحرجا وتمتم قائلا: أعرف كل ذلك، وأنت أيضا تعرف عنى بحكم الصحبة والقرابة أننى أمقت مثل هذه الأشياء ولكننى فى أزمة لا أجد منها مخرجا، فكل عام تتعرض حياتى للخطر بسبب الإمتحانات حيث أكلف برئاسة مجموعة من اللجان كل عام فى منطقة ما، وأنا – كما تعلم – لدىّ مشكلة مزمنة لم أستطع علاجها حتى الآن وهى أننى أصر على منع الغش فى كل اللجان التى أترأسها، قلت له أعرف ذلك وأذكر أننا كل عام كنا نبحث عن وسيلة نخرجك بها من مقر اللجنة حيث كان يتجمع أهل البلدة أو القرية أو المنطقة يحاولون الفتك بك لأنك ضيعت مستقبل أبنائهم وبناتهم وأذكر كيف كان المسئولون عن أمنك وحمايتك يغمضون أعينهم غضبا منك وشماتة فيك لأنك «نشفت رأسك أكثر من اللازم»، وأذكر أنك كدت تفقد عينك أو حياتك كلها فى كثير من الإمتحانات لإصرارك على نزاهة الإنتخابات، معذرة «الإمتحانات»، قال نعم ولكن الأمر اختلف هذه الأيام فلم تعد حياتى مهددة من العامة والدهماء الذين اعتدنا على صفاقتهم وحرصهم الجاهل الغبى على حق أبنائهم فى الغش والذى يعتبرونه حقا مشروعا لأبنائهم المساكين، وإنما الخطر الآن يأتى من أناس لهم حيثياتهم ولهم نفوذهم يرسلون بالإجابات النموذجية لأبنائهم بالكامل ليحصلوا على الدرجة النهائية أمام عينى، ومن يفعلون ذلك هم ممن يفترض أنهم يحرسون الأمن والقانون والعدالة والنزاهة والحق، وأنا كما تعلم مجرد مدرس لا حول لى ولا قوة ولن أستطيع أن أقف فى وجه الجميع ، ولن أستطيع فى هذا السن أن أغير رأسى، وهذا العام بالذات سأراقب فى أحد المدارس الخاصة للغات وهى معقل أبناء الضباط والمستشارين وكبار رجال الأعمال، وليس لى طاقة بكل هؤلاء. وهنا دارت رأسى أنا بين وقائع مماثلة، ولكن كان أقربها لبؤرة

وعيبى واقعة كنت أنا أحد ضحاياها فى الثمانينات من القرن الماضى ودارت أحداثها فى إحدى الجامعات الإقليمية وبطلها أحد رؤساء الأقسام (وهو بالمناسبة ليس من تخصصى ولكنه كان يرأس مجموعة أقسام إداريا ومنها القسم الذى أعمل به) حيث كان معروفا عنه قسوته واستبداده وغطرسته ودكتاتوريته وعناده وجبروته وميله الشديد للظلم والبطش، وكان النجاح والرسوب فى الأقسام التى يتحكم فيها مرهون برضاه الشخصى عن طالب الدراسات العليا، ولسبب أو لآخر لم أحظ برضاه الشخصى فعشت أياما سوداء ومررت بخبرات امتحانية مؤلمة قررت بعدها ترك هذه الجامعة الإقليمية بل ترك مصر بالكامل وفى نيتى أن لا أعود إليها ما حييت، ولم يكن ذلك لمجرد غضبى من ممارسات هذا الرجل وحده، أو كان تعميما خاطئا منى تجاه كل أساتذة الجامعة ومنهم بالطبع كثيرون فضلاء، وإنما مما رأيته من قبول من حوله ومن تحته ومن خلفه بتسلطه وغطرسته واستبداده وظلمه، هذا القبول الذى كان يمتد من أصغر نائب فى المستشفى إلى رئيس الجامعة فى ذلك الوقت رغم معرفة الجميع بنقائصه وحديثهم عن تلك النقائص ليل نهار فى الجلسات المغلقة، أما حين يصل الأمر إلى المواجهة فالكل راض بما يفعله ويقنع نفسه أنه على حق. تركت مصر وتركته وتركتهم جميعا ومرت السنون وقابلت أحد أقارب هذا الرجل فقال لى بأنه اقتحم الشقة على إحدى قريباته (بسبب خلاف عائلى تافه) وضربها ضربا عنيفا هى وابنتها، وأصبحت قضية كبيرة، فقلت الحمد لله سيأخذ جزاءه على ما فعل بى وبكثيرين قبلى وبعدى حاربهم فى مستقبلهم العلمى وشردهم داخل مصر وخارجها بما يملكه من سلطة الأستاذ الجامعى ورئيس القسم وهى سلطة مطلقة استنادا إلى افتراض نزاهة من يتبوءون تلك المكانة العلمية الرفيعة، ولكن محدثى نظر إلى بأسى وهو يقول: للأسف الشديد لقد خرج منها – كعادته – مقابل ١٧ ألف جنيه دفعها (لا تسألنى لمن حتى لا نقترب من مواطن العفة). ودارت الأيام وتم القبض على هذا الأستاذ الجامعى وهو فى الثانية والستين من عمره يلعب القمار فى شقة مشبوهة ومرصودة (وقد كان القمار نشاطه المفضل بعد الإنتهاء من عيادته)، ولكنه خرج من هذا الأمر بتدخل أحد أصحاب النفوذ من أقاربه، وغادر محبسه المؤقت وهو يخرج لسانه

للذين قاموا بالقبض عليه، بل وتطاول عليهم بالكلام، إلى أن حانت لحظة الصفر بعد عدة شهور من تلك الواقعة وتم القبض عليه بواسطة إدارة مكافحة الآداب بالقاهرة وهو يدير شقته بإحدى مدن الدلتا للقمار ومعه عدد من المقامرين المحترفين أحدهم يعمل موجها للتربية والتعليم بالإسكندرية فى ذلك الوقت، وكانت فضيحة مدوية نشرتها أغلب الصحف والمجلات الرئيسية وكتبت عنه روزاليوسف على غلافها «طبيب يعالج مرضاه بالقمار» وأفردت لقصته صفحتان فى العدد رقم ٣٦٩٤ بتاريخ ٢٧ مارس ١٩٩٩، وذكرت أنه كان يعمل رئيسا للقسم منذ ١٩٧٠ حتى ١٩٩٧ ولم يترك رئاسة القسم إلا بسبب إحالته للمعاش، وتم إلقائه فى الحبس لمدة ثلاثة أسابيع وتحدد موعدا للقضية، ولكنه مات بعد فترة قصيرة، وأفضى إلى ربه بعد أن تسبب فى تشريد عدد كبير من الأطباء الأكفاء إبان فترة رئاسته للقسم التى استمرت ٢٧ عاما، وترك آثارا شديدة على البنية النفسية لكل من عمل تحت رئاسته. وقد كان هذا الرجل يمثل لى النموذج الأولى للإستبداد والفساد، وكان ذلك النموذج من أقوى المحفزات لى على كراهية هاتين الصفتين وبذل كل ما أستطيع من جهد لمحاربتهما فى أى مجال.

هذه الوقائع وغيرها لا تشير إلى مجرد فساد وإنما إلى اقتراب ذلك الفساد من مواطن العفة فى المجتمع (أسمع من يعترض على كلمة اقتراب ويقول إنه وصل فعلا وتغلغل)، تلك االمواطن التى يفترض أن تظل بعيدة عن الفساد لتشكل صمام أمان للمجتمع حتى لا ينهار تماما. عموما دعونا نفتح ملف الفساد لنفهم سيكولوجيته وآثاره ونرى إلى أى مدى اقترب أو وصل إلى مواطن العفة فى مجتمعنا وما الذى يتوجب علينا فعله إن كان ثمة من يشعر بهذا الواجب

ماهو الفساد؟

لقد هالنى ما للفساد من معان ودلالات فى اللغة العربية وتساءلت عن علاقة هذا الثراء اللغوى عن الفساد وانتشار الأخير بشكل ملحوظ فى المجتمعات العربية؟!... فالفساد هو مصدر للفعل فسد، وقد عرّفه لسان العرب بأنه نقيض الصلاح. وقد يتضمن الفساد معنى عضويا فيقال فسد اللحم أو اللبن أو نحوهما فسادا إذا أنتن أو عطب. وقد

يشير الفساد إلى تجاوز الحكمة أو الصواب فيقال فسد الرجل أى جاوز الصواب، وفسد العقل أى بطل، وفسدت الأمور أى اضطربت وأدركها الخلل، وكما ورد فى القرآن الكريم «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا». ويشير معنى الفساد إلى الجدب والقحط، كما أنه قد يعنى إلحاق الضرر، أو يعنى أخذ المال ظلما.

فإذا انتقلنا من المعنى اللغوى إلى المعنى الإصطلاحى وجدنا أن الفساد نقيض للإصلاح والرشادة والخير العام، ولذا حين يعم الفساد مجتمعا من المجتمعات وتفوح رائحته تجد تظاهرا بمحاولات الإصلاح وحديثا مملا ومكررا عن الشفافية وكأنه ستار يخفى ما تحته من الفساد كى يعيش أطول فترة ممكنة.

فالفساد ضد المصلحة، وإذا كانت كلمة سياسة فى أصلها العربى تعنى القيام على الأمر بما يصلحه فإن الفساد السياسى يعنى عدم القيام على الأمر بما يصلحه. ويعرف الدكتور حمدى عبدالرحمن حسن أستاذ العلوم السياسية الفساد بأنه:«أحد أنماط السلوك الذى يقوم به، أو يمتنع عن القيام به، صاحب المنصب العام، والذى يهدد من خلاله معيار القيام على الأمر بما يصلحه سواء وقع ذلك تحت طائلة القانون والقواعد التى تحكم عمله أو لم يقع، ويكون الهدف من وراء هذا السلوك دائما هو إعلاء المصلحة الذاتية على المصلحة العامة» (الفساد السياسى فى إفريقيا، ١٩٩٣م، دار القارئ العربى، القاهره).

الفساد ظاهرة عالمية ولكن!! :

استند الرئيس الأمريكى نيكسون إلى بعض الإضطرابات فى المجتمع الأمريكى وشكل لجنة مارس ضغوطه على أفرادها لتضع تقريرا أطلق عليه وقتها «خطة هيوستون»، ذلك التقرير الذى مهد لتكوين جهاز «أمن الدوله الأمريكى»، ذلك الجهاز الذى يمتلك الحق فى جمع المعلومات بصورة غير قانونية عن المواطنين الأمريكيين بحجة تأمين النظام والمحافظة على التوازن الداخلى، على أن تصل هذه المعلومات إلى الرئيس بشكل مباشر حيث أن هذا الجهاز السرى تابع للبيت الأبيض وتحظى معلوماته بثقة خاصة. وتحت غطاء السرية والخصوصية توسع هذا الجهاز فى جمع المعلومات عن الصحفيين والموظفين العموميين ورؤساء الأحزاب والشخصيات العامة والقيادات

الدينية والإجتماعية ذات التأثير. وفى عام ١٩٧٢ استغل نيكسون المعلومات المتاحة لإعادة انتخابه رئيسا لأمريكا، ولكن الصحافة الحرة والواعية استطاعت فضح هذه المؤامرة فيما عرف باسم «فضيحة ووترجيت»، وأقيل بسببها نيكسون من رئاسة أمريكا وتم حل هذا الجهاز. وفى عام ١٩٧٦ تم الكشف عن قيام شركة «لوكهيد» لصناعة الطائرات برشوة عدد من المسئولين فى اليابان وهولندا وإيطاليا وتركيا وذلك بهدف ترويج مبيعاتها من الطائرات.

وهناك العديد من فضائح الفساد العالمية فى كثير من دول العالم المتقدمة منها والمتخلفة، وهذا يؤكد أن الفساد ظاهرة عالمية لا تقتصر على مجتمع دون آخر، بل هو ظاهرة إنسانية ترتبط بدوافع قوية لدى الإنسان خاصة دافعى التملك والخلود وهما من الدوافع الجامحة لدى الإنسان خاصة حين تضعف لديه الضوابط القيمية، أو تضعف آليات رقابته.

وبعبارة أخرى فإن الفساد مرتبط بالإنسان وبالحياة فى كل المراحل التاريخية، فهو أشبه بالميكروبات والفيروسات التى تخترق الجسد فى كل لحظة وتحاول الفتك به، ولولا وجود جهاز المناعة فى الجسد الحى لهلك الناس جميعا، وكذلك الفساد يهاجم المجتمعات البشرية فى كل لحظة، والفرق بين مجتمع صحيح ومجتمع عليل ليس هو فى غياب الفساد عن الأول ووجوده فى الثانى وإنما فى قدرة المجتمع الصحيح على اكتشاف الفساد واعتباره دخيلا على منظومته وبالتالى مقاومته بآليات قادرة على ذلك طول الوقت، أما المجتمع العليل فإن الفساد يتسلل إليه دون وعى به وبخطورته ودون استنهاض للهمم لمقاومته ودون وجود آليات للمواجهة. ولا شك أن الدول المتقدمة لا تخلو من فساد بدرجة أو بأخرى ولكنها تملك وسائل إعلام حرة وقوية قادرة على تسليط الضوء على ذلك الفساد وتملك أيضا رأيا عاما وجماعات ضغط قادرين على توجيه الآليات المؤسسية لاجتثاث الفساد أو محاصرته فى أضيق الحدود، أما الدول المتخلفة (والتى نحن منها للأسف الشديد) فوعيها بمظاهر الفساد أقل، كما أنها تفتقد للإعلام القادر على كشف الفساد بشكل فعّال، وتفتقد للرأى العام وجماعات الضغط ذات التأثير، وتفتقد أكثر

لآليات محاصرة الفساد أو اجتثاثه، ومن هنا تنكشف المغالطة الخطيرة التى يروج لها أنصار الفساد ورعاته من أن الفساد موجود فى كل المجتمعات وليس مقصورا على مجتمعنا المصرى أو المجتمعات العربية فهو ظاهرة إنسانية توجد حيث يوجد الإنسان، فهذه كلمة حق يراد بها باطل ومقولة يراد بها تسهيل قبول الناس للفساد كأمر واقع وسنة كونية لا يمكن تلافيها أو تفاديها.

إذن فهناك فوارق جوهرية تخص ظاهرة الفساد بين المجتمعات المتقدمة والمتخلفة نوجزها فيما يلى:

١ – الفساد فى الدول المتقدمة استثناء، أما فى الدول المتخلفة فهو قاعدة للسلوك الخاص والعام خاصة لدى الطبقة الحاكمة والمتحكمة.

٢ – هناك وعى فى الدول المتقدمة بمظاهر الفساد وخطورته على المجتمع فى حين نرى فى الدول المتخلفة جهلا بكل ذلك وغموضا حول ماهو مقبول وماهو غير مقبول سياسيا وأخلاقيا وقانونيا.

٣ – النخبة فى الدول المتخلفة أكثر ميلا للفساد وممارسة له من ناحية الكم والكيف.

٣ – المواطن فى الدول المتخلفة أكثر قبولا للفساد كأمر واقع لا يملك تغييره وربما لا يفكر فى تغييره أو يسعى إلى ذلك، بل قد يتقبله ويمارسه هو شخصيا كنوع من التكيف المشوه مع الواقع الحتمى فى نظره، أو يفعله توحدا مع النخبة التى تحكمه وتتحكم فى مصيره، وهو ما نسميه بالتوحد مع المعتدى فبدلا من أن يصبح ضحية لنخبة تمتص دمه، يتحول هو الآخر إلى فاسد يحاول أن يأخذ حقه ولو أمكن ينتزع فوق حقه حقوقا أخرى.

٤ – هناك العديد من وسائل الكشف عن الفساد فى الدول المتقدمة مثل وسائل الإعلام المختلفة والنقابات المهنية واستطلاعات الرأى وغيرها فى حين نرى فى الدول المتخلفة غيابا لهذه الآليات الكاشفة أو ضعفا شديدا لها أو تنكيلا بالقائمين عليها أو تجاهلا لما تكشفه.

٥ – توجد فى الدول المتقدمة مؤسسات وآليات لديها القدرة على تتبع الفساد الذى

تكشفه وسائل الإعلام أو الأفراد أو الجمعيات وتقوم بمحاسبة المتورطين فيه أيا كانت مواقعهم، أما فى الدول المتخلفة فإما أننا نجد غيابا لهذه المؤسسات، أو وجودها بشكل صورى غير قادر على محاسبة أحد.

٦ – الدكتاتورية فى الدول المتخلفة تشكل راعيا أساسيا للفساد ورموزه على الرغم من ادعاءاتها بمحاربته فى الظاهر، وهذا يشكل تحديا هائلا أمام أى محاولة للإصلاح.

٧ – تجرى محاولات مستمرة لتزييف الوعى فى الدول المتخلفة وبهذا يفقد المواطن العادى رؤيته للأمور فلا يتشكل رأى عام مضاد للفساد، فى حين نرى رأيا عاما قويا ومؤثرا ومضادا للفساد بكل صوره فى الدول المتقدمة.

٨ – للرأى العام وزن وتأثير وقوة ضغط على صناع القرار فى الدول المتقدمة فى حين ينعدم تأثير الرأى العام أو يضعف جدا فى الدول المتخلفة ولهذا لا يأبه الحكام الفاسدون بالرأى العام فى تلك الدول.

٩ – تشكل المنظومة القانونية سياجا ضد انتشار الفساد فى الدول المتقدمة، فى حين نجد تلك المنظومة مضطربة فى الدول المتخلفة سواء من حيث صياغتها التى تخضع لهوى ومصالح الحاكم الفرد أو من حيث تطبيقها الذى يتم بشكل انتقائى لا يحقق مصالح جموع الناس بل يحقق حماية للفاسدين الكبار والصغار.

١٠ – مع شيوع الفقر والجهل والمرض فى الدول المتخلفة تنهار القيم الأخلاقية مثل الصدق والأمانة وإتقان العمل، وتشيع قيم الخوف والإنتهازية والتملق والفهلوة، تلك القيم التى تشكل أرضا خصبة يترعرع فيها الفساد.

١١ – النخبة فى الدول المتخلفة إما رخوة أو هشة أو مفتتة أو مستقطبة أو يتم احتواؤها بواسطة السلطة القائمة، ولهذا تصبح غير قادرة على إدارة دفة الأمور فى اتجاه الإصلاح حتى ولو كانت تملك رؤية لذلك الإصلاح، أما فى الدول المتقدمة فإن النخبة تشكل ضمير المجتمع وتملك مفاتيح التغيير والإصلاح فيه ولا يملك أحد تفتيتها أو سحقها أو استقطابها أو شراءها.

١٢ – لأسباب سياسية واقتصادية مختلفة تقوم بعض الدول القوية برعاية الأنظمة الفاسدة فى الدول المتخلفة حيث تكون مستفيدة من وجودها أو تخشى وجود قوى أخرى فى السلطة وهذا يشكل دعما للفساد وحماية له فى الدول المتخلفة لا نجده فى الدول المتقدمة التى تملك إرادة حرة بشكل نسبى.

١٣ – أنظمة الحكم فى الدول المتخلفة استبدادية ولا تتغير بسهولة لذلك يعشش الفساد فيها لسنوات طويلة دون وجود فرصة لتغييره، وهذه الأنظمة تأمن المحاسبة لأنها تعرف أنها أبدية فى الحكم، أما فى الدول المتقدمة فإن آليات التغيير السياسى تزيح أى نظام فاسد فى أقرب انتخابات وتستبدله بنظام آخر له القدرة على كشف مساوئ النظام السابق ومحاسبة رموزه.

وبكلمات موجزة نستطيع القول بأن الفساد فى الدول المتخلفة أشبه بفيروس فى جسد بلا مناعة، وهذا الفيروس يتسلل إلى نواة الخلية (نظام الحكم ومؤسساته) فيصيغ برامجها طبقا لاحتياجاته ثم يتسلل إلى المجتمع فينتشر المرض وتتغير البرامج كلها طبقا للبرنامج الفيروسى.

أركان الفساد:

وهناك أركان للفساد تتحالف مع بعضها وتتآمر لخلق منظومة الفساد التى تحاول أن تستفيد منها (أو تتوهم أنها ستستفيد منها) وهى:

- الحاكم المستبد (ويمثله فرعون)
- السياسى الوصولى، الذى يسخر ذكاءه وخبرته فى خدمة الحاكم المستبد، وتثبيت حكمه، وترويض شعبه للخضوع له (ويمثله هامان).
- الرأسمالى أو الإقطاعى المستفيد من المنظومة الإستبدادية الفاسدة، فهو يؤيد تلك المنظومة ببذل بعض ماله ليكسب أموالاً أكثر من عرق الشعب ودمه (ويمثله قارون).

ولقد ذكر القرآن هذا الثالوث المتحالف على الفساد، ووقوفه فى وجه رسالة موسى

عليه السلام الهادفة إلى إصلاح الدنيا والآخرة،:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣- ٢٤]. وهناك رابطة عضوية بين الإستبداد والطغيان وبين الفساد نراها فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص ٤]، ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر ٩-١٢]. وقد يتغير ترتيب هذا الثالوث فى مرحلة متأخرة من الفساد حيث يصبح لرأس المال السيطرة الأعلى على الحكم، ولو من وراء ستار، وهذه دلالة تدهور الأوضاع ووصولها إلى مرحلة الخطر، وهذا ما يتضح فى الآية التالية حين يذكر قارون قبل فرعون ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت ٣٩].

والعجيب – كما يقول الدكتور يوسف القرضاوى- أن قارون كان من قوم موسى، ولم يكن من قوم فرعون، ولكنه بغى على قومه وانضم إلى عدوهم فرعون، وقبله فرعون معه، دلالة على أن المصالح المادية هى التى جمعت بينهما برغم اختلاف عروقهما وأنسابهما.

● الشعب الخاضع المستكين: فلا يمكن أن ينتشر فساد ويتغلغل فى شعب حى يرفض الفساد ويقاومه بيده وبلسانه وبقلبه. وقد ذم القرآن المتخاذلين عن مقاومة الفساد والمنكرات، واستخدم فى ذلك الذم لفظ اللعن ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(المائدة ٧٩ , ٧٨). وفى الحديث الشريف يقول رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» (رواه مسلم وغيره عن أبى سعيد الخدرى). وللدكتور القرضاوى تعليق مهم على هذا الحديث حيث يقول: «ومن الخطأ الظن بأن المنكر ينحصر فى الزنى وشرب الخمر، وما فى معناها، إن الإستهانة بكرامة الشعب منكر أى منكر، وتزوير الإنتخابات منكر أى منكر، والقعود عن الإدلاء بالشهادة فى الإنتخابات منكر أى منكر، لأنه كتمان للشهادة، وتوسيد الأمر إلى غير أهله منكر أى منكر، وسرقة المال العام منكر

أى منكر، واحتكار السلع التى يحتاج إليها الناس لصالح فرد أو فئة منكر أى منكر، واعتقال الناس بغير جريمة حكم بها القضاء العادل منكر أى منكر، وتعذيب الناس داخل السجون والمعتقلات منكر أى منكر، ودفع الرشوة وقبولها والتوسط فيها منكر أى منكر، وتملق الحكام بالباطل وإحراق البخور بين أيديهم منكر أى منكر، وموالاة أعداء الله وأعداء الأمة من دون المؤمنين منكر أى منكر. وهكذا نجد دائرة المنكرات تتسع وتتسع لتشمل كثيرا مما يعده الناس فى صلب السياسة، فهل يسع المسلم الشحيح بدينه، الحريص على مرضاة ربه، أن يقف صامتا أو ينسحب من الميدان هاربا أمام هذه المنكرات وغيرها... خوفا أو طمعا أو إيثارا للسلامة؟».

وخيرية أى أمة ارتبطت بحيويتها وقدرتها الدائمة على مقاومة الخبائث والمنكرات والمفاسد التى تتسلل إلى جسدها من وقت لآخر ، وهذا مصداق لقوله تعالى:﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾. أما إذا عجزت الأمة عن تنظيف صفوفها ولفظ خبثها واستسلمت للظلم وخضعت للظالمين خوفا وطمعا، فهنا يصدق عليها قول رسول الله ﷺ: «**إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم فقد تودع منهم**» أى فقدوا استحقاق الحياة ولحقوا بالأموات، وفى بعض الروايات: «**وبطن الأرض خير لهم من ظاهرها**».

ونظرا لخطورة تغلغل الفساد فى أى مجتمع نرى أن النصوص الدينية تعلى من أمر مقاومته وتضعه فى الأولويات، فيقول الرسول ﷺ حين سئل عن أفضل الجهاد بأنه «**كلمة حق عند سلطان جائر**»، وكأنه هنا فضل الإصلاح الداخلى على جهاد الأعداء على الحدود أو خارجها، وهذا منطقى جدا فالفساد الداخلى يمهد ويسهل للغزو الخارجى بكل أنواعه العسكرية والإقتصادية والثقافية. ومن أجل هذا تصبح الشهادة على طريق الإصلاح الداخلى من أعلى درجات الشهادة فى سبيل الله كما ورد فى حديث رسول الله ﷺ «**سيد الشهداء حمزه، ثم رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**». وربما نفهم ذلك فى إطار أن الإصلاح الداخلى يحتاج لقدر عال من الوعى وقدرة على الخروج على المألوف والسائد فى المجتمع الذى عمه الفساد وأصبح عرفا مقبولا فيه، ثم قدرة أكبر للخروج

على ضغط الجماعة، ثم قدرة أكبر وأكبر لمواجهة أركان الفساد والمستفيدين منه بكل مالهم من سطوة وغلبة وتأثير فى ظل رأى عام متصف بالسلبية والخوف واللامبالاه.

أدوات الفساد:

لابد للفساد من أدوات للترهيب والترغيب حتى تخضع له الرقاب ويسلم له العباد (أو العبيد) إرادتهم وخياراتهم. والفاسد والمفسد يعرف جيداً مواطن ضعف البشر ويحاول استغلالها بأبشع الطرق وأكثرها حقارة ودهاءاً فى نفس الوقت. ونذكر من هذه الأدوات حسب ترتيب أهميتها:-

١- **السلطة:** فالأب الفاسد يستغل نفوذه المالى وقوته الجسدية ومكانته المعنوية فى إفساد أبنائه، والمسئول الفاسد يستغل ما يملك من صلاحيات للتحكم فى رقاب مرؤسيه وإفسادهم حتى يستطيع ممارسة فساده دون اعتراض من أحد، والحاكم الفاسد يستغل جنوده (الشرطة والجيش) لإرهاب رعيته ويستغل النظام السياسى الموالى له لإضفاء الشرعية على أفعاله وتجريد خصومه من تلك الشرعية ووصفهم بالتآمر والخيانة والإفساد فى الأرض وتعكير صفو الأمن، ويسعى ذلك الحاكم الفاسد إلى إفساد من حوله ومن تحته ومن خلفه (بوعى أو بدون وعى) وذلك كى تتوافق المنظومة كلها على تردد واحد ونغمة واحدة يصبح ما عداها نشازا، لأن الفساد إذا وجد وحده دون إفساد تصبح هناك فرصة لالتقاطه والوعى به ومقاومته، لذلك فلابد للفاسدين أن يتحولوا فى مرحلة ما لمفسدين لغيرهم كى تستقر الأمور من حولهم ويموت الوعى العام بالفساد، ويصبح الجميع متورطين فلا يرفع أحد رأسه مدعيا النزاهة أو مطالبا بالإصلاح.

والقرآن يصور هذا الموقف فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ**﴾ [القصص ٨]. وقوله﴿ **فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** ﴾ [القصص ٤٠].

٢- **المال:** ومن لا يصلح معه الترهيب بالسلطة يصلح معه الترغيب بالمال، ولهذا يحرص الفاسدون على إمساك الثروة فى أيديهم لتكون وسيلة ضغط على من تحتهم، ووسيلة ترغيب وشراء ذمم.

٣- **المناصب**: ينتقى الفاسد من بين الناس أولئك المتعطشين للمناصب والراغبين فى العلو بأى ثمن فيستخدمهم ويستعملهم كدروع له وكأدوات لحمايته وتبرير أفعاله، كما أنه يحرص على توريطهم فى الفساد حتى تصبح رقابهم فى يده يقطعها وقتما يشاء ويذلها حسبما يريد ويبتزها طول الوقت، وقد يستخدم بعضهم ككبش فداء يضحى به حين يريد تحلية صورته أو ادعاء محاربة الفساد أمام الرأى العام.

٤- **الإعلام**: فالفاسد يحتاج لمن يدارى عوراته ويزين سوءاته ويسوق مشروعاته وأفكاره بين الناس ويبرر أخطاءه ويحولها إلى انتصارات ويمارس التزييف للوعى والتخدير للعقول ودغدغة المشاعر طول الوقت. ومن هنا يمكن أن نعتبرالإعلاميين الموالين لأى فاسد بمثابة سحرة فرعون الذين كانت مهمتهم أن يسحروا أعين الناس بمعنى تزييف وعيهم.

٥- **رجال الدين**: ونقصد بهم فئة معينة من رجال الدين يقبلون إضفاء شرعية دينية على مظاهر الفساد والإفساد وإضفاء شرعية على كل أفعال الفاسد وإستغلال المفاهيم الدينية لتبرير وتمرير كل ما يقوم به، وإصدار الفتاوى المبنية على تفسيرات تلوى عنق الحقيقة لمصلحة استمرار الفساد. وكل فاسد يسعى إلى تقريب عدد من رجال الدين (حتى ولو كان هو ملحداً أو علمانياً) لمعرفته بقيمة الدين لدى الناس وتأثرهم به وقد يظهر احترامه للرموز الدينية ويحرص على الظهور الإعلامى معهم فى المناسبات المختلفة.

أنماط الفساد:

هناك أكثر من طريقة لرؤية أنماط الفساد، فبعض الباحثين يقسمه إلى الأنماط التالية بناءا على توزيعه على خريطة المجتمع:

١ – **الفساد الوظيفى**: حين تسود البيروقراطية والرشوة والمحسوبية فتصبح هى معيار التعيين ومعيار الأداء.

٢ – **الفساد القانونى**: ويظهر فى العبث بمواد الدستور لصالح النخبة الحاكمة، أو أصحاب المصالح الخاصة، ويمتد ذلك إلى القوانين المنظمة لعجلة الحياة فى المجتمع، ولا

يتوقف الأمر عند هذا الحد بل يتخطاه إلى تجاوز أحكام الدستور، وتعطيل القوانين أو التطبيق الإنتقائى لها بما يحقق المصالح الذاتية لرعاة الفساد والمستفيدين منه مع إهدار أحكام القضاء فى حالة صدورها لغير صالح النخبة الحاكمة والمتحكمة.

٣ – **الفساد السياسى:** ويظهر فى دكتاتورية النظام الحاكم واستبداده وأبديته، وفى اقتناص السلطة واستبعاد بقية التيارات السياسية، وفى تكوين الدولة القرصان التى تشبه فى سلوكها العصابات من حيث السرية والنوايا الخبيثة والعمل على امتصاص دماء المجتمع لصالح عدد قليل من الأشخاص مع اعتياد الكذب والتحايل والخداع. كما يظهر فى صورة تزوير الإنتخابات وتزييف إرادة الجماهير وتغييبها عن إدارة شئون البلاد، مع الحرص على التعيين الإنتقائى فى المراكز القيادية بحيث تستبعد كل العناصر غير الموالية مهما كانت قدراتها وكفاءاتها، فالمعيار الوحيد للإقتراب من قمة السلطة هو الولاء الحزبى أو الفئوى أو الأيديولوجى فى معناه التعصبى الضيق، وبهذا يتم تجريف النخبة السياسية مع الوقت من كل العناصر الموضوعية الصالحة ذات الكفاءة وذات الرأى الشجاع المستقل فى حين تتراكم العناصر الفاسدة وتجتذب إليها كل من هم على شاكلتها بحثا عن التواؤم والإنسجام وتغطية للعورات.

٤ – **الفساد الدينى:** وهودائما تابع للفساد السياسى، حيث يعمد أركان الفساد السياسى إلى تقريب العناصر الرخوة من رجال الدين لاستخدامهم فى تبرير أفعالهم وتزيينها للعامة وإضفاء الشرعية عليها، فهم يعلمون مدى تأثر الناس بالرموز الدينية ومدى قوة الشرعية الدينية فيعملون على توظيفها حتى وهم أنفسهم غير منتمين لقيم الدين ومبادئه، أو حتى وهم يعلنون أنه لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة، وهذا يشكل استخداما انتقائيا للدين لتحقيق مصالح النخبة الحاكمة مع حرمان الآخرين من نفس السلاح.

٥ – **الفساد المجتمعى:** وهو مكمن الخطر، حيث ينتشر فيروس الفساد إلى طبقات المجتمع المختلفة فيتورط الجميع فى الفساد وتتلوث أيديهم به فيفقدون القدرة على رؤيته فضلا عن استنكاره ومدافعته، وبهذا يستقر الأمر للفاسدين، ويصبح الشعار القائم

«ياعزيزى كلنا لصوص»، فلا يجرؤ أحد على ادعاء الطهارة أو المطالبة بالإصلاح، وهنا يصبح الفساد هو القاعدة، ويصبح المصلحون غرباء ومثيرين للقلق ومرفوضين من الغالبية الفاسدة، وهذا يسهل على السلطة الفاسدة اجتثاثهم ورميهم بتهم مثل تكدير الأمن العام أو السعى لقلب نظام الحكم (المقلوب فعلا).

واستنادا إلى معيار الرأى العام يقسم بعض الدارسين الفساد إلى ثلاثة أنواع (نقلا عن كتاب الفساد السياسى فى إفريقيا):

١ – **الفساد الأسود:** وهو يتضمن كافة الأعمال التى تحظى باتفاق الأغلبية فى مجتمع معين (سواء من جانب النخبة أو الجماهير) على أنها تندرج تحت إطار الممارسات الفاسدة التى ينبغى التخلص منها ومعاقبة من يقومون بها.

٢ – **الفساد الرمادى:** وهو يوجد حيثما ترى بعض عناصر النخبة فى مجتمع معين أن عملا ما يعد من قبيل الفساد وتقوم بإدانته بينما يكون رأى الجماهير غامض فى هذا الصدد.

٣ – **الفساد الأبيض:** وهو ينطبق على الأعمال التى ترى كل من النخبة والجماهير فى مجتمع معين أنه يمكن التغاضى عنها حيث أنها لا تستحق العقاب، وإن كانت بعض عناصر النخبة ترى ضرورة توقيع مثل هذا العقاب.

الفساد ومواطن العفة:

قد يتسامح المجتمع مع الكثير من مظاهر الفساد السائدة على مستوى السلطة الحاكمة أو على مستوى المؤسسات أو على مستوى الوزارات أو البرلمان أو غيرها، ولكن هناك مواطن يعتبرها أى مجتمع مواطن عفة يحرص على بقائها خارج منظومة الفساد قدر استطاعته، نذكر من هذه المواطن: القضاء، والشرطة، والتعليم، والطب، والمؤسسة الدينية. وتتحدد مواطن العفة على أساس كونها صمام أمان لأى مجتمع وحصون أخيرة يلجأ إليها الجميع ويحتاجها الجميع فى اليسر والعسر، ولهذا يكون ثمة اتفاق غير مكتوب بالمحافظة على هذه القلاع الأخيرة بعيدة عن مستنقع التلوث، ولهذا يصبح اقتراب الفساد

من مواطن العفة فى المجتمع ظاهرة تثير الكثير من القلق بل تستحق أن تصبح زلزالا يهز كل أركان المجتمع ويدعوه للإنتباه قبل فوات الأوان.

فمثلا إذا بدأنا نسمع عن أشياء كثيرة تشوب تعيينات النيابة العامة ونسمع ونقرأ عن حوادث رشوة تمس بعض القضاة أو تورطات سياسية لبعض رموز العدالة أو محاولات استقطاب للجهاز القضائى بواسطة السلطة التنفيذية، كل هذا يجعل من حقنا أن نقلق على هذا الحصن المنيع (أو الذى يجب أن يظل منيعا)، ومن هنا نفهم وقوف الناس مع القضاة فى أزمتهم وحرصهم على مساندتهم فى تنظيف صفوفهم ومنع تسلل المغريات السياسية أو المالية أو الحزبية إليهم.

وإذا رأينا جهاز الشرطة يتمدد بل ويتوحش ويصبح وسيلة فى يد أفراد معدودين يحققون به مصالحم وأمنهم بعيدا عن أمن الناس، أو أن يصبح جهازا للتنصت على أصحاب الرأى والمعارضين لحزب من الأحزاب أو أن يصبح فى خدمة مصالح هذا الحزب دون سواه، أو أن يصبح أداة للترهيب السياسى والإجتماعى بما يعوق محاولات الإصلاح ويعوق ضغط الرأى العام فى اتجاه التغيير، كل هذا ينزع عن جهاز الشرطة دوره الأساسى فى حماية مصالح الناس وتحقيق الأمن لهم، وإتاحة الفرصة أمامهم للتعبير السلمى عن احتياجاتهم. وحين يتحول جهاز الشرطة إلى أداة لتزوير الإنتخابات وتزييف الإستفتاءات ومنع الناس من الوصول إلى اللجان، ومنع الناس من التظاهر السلمى الذى تكفله كل دساتير الدنيا كحق من حقوق الإنسان فى المجتمعات الحديثة فإن ذلك إشارة إلى ابتعاد هذا الجهاز عن وظيفته. وحين يصبح الجهاز الأمنى متهما من الرأى العام ومن الجهات الرقابية المحلية والدولية بانتهاك حقوق الإنسان وممارسة التعذيب فإن ذلك ضوء أحمر وجرس إنذار يضع ذلك الجهاز المهم فى مواجهة غير منطقية وغير إنسانية مع أهله وناسه. وحين يتعامى جهاز الشرطة أو بعض أفراده عن تجاوزات قانونية أو أخلاقية لحساب بعض الأشخاص أو الأحزاب فإن ذلك يسحب عن ذلك الجهاز موضوعيته وحياديته ومصداقيته. ولا يتصور أحد أن تتحول السلطة المخولة لأفراد هذا الجهاز لأداء وظائفه مصدرا لتحقيق المصلحة الشخصية وأن تتحول إلى استغلال للنفوذ وتحطيم

للقوانين العامة وانتهاكا للحقوق الخاصة، وكمثال على ذلك قيام بعض المتسبين إلى جهاز الشرطة بتسهيل الغش فى الإمتحانات لأبنائهم أو أبناء أقاربهم أو أصدقائهم استنادا إلى سلطتهم المطلقة فى المجتمع.

وإذا أصبحت الدروس الخصوصية فى مرحلة ما تمثل نوعا من التعليم الموازى ثم أصبحت فى الوقت الحالى تمثل نوعا من التعليم البديل، وتسرب الطلاب من المدارس إلى حجرات مغلقة فوق الأسطح وتحت السلالم، وانسحب مفهوم التربية، وأصبح الطلاب يلتقون بأستاذهم على القهوة لتحديد مجموعات الدروس الخصوصية وهو يشاركهم شرب السجائر والبانجو، وأصبح الغش فى الإمتحانات قاعدة يعتبر الخارج عليها أو الرافض لها متعنتا ومتشددا وظالما، فإننا أمام صورة من صور تسرب الفساد لأحد مواطن العفة فى أى مجتمع وهو التعليم. فإذا انتقلنا إلى الجامعات،والتى كانت حرما فى السابق سيحزننا امتداد الفساد إليها بل وتمدده فيها فى صور متعددة نذكر منها على سبيل المثال: سقوط هيبة الأستاذ الجامعى من خلال تورطه فى المتاجرة بالمذكرات أو الكتب مع طلبته أو إعطاء الدروس الخصوصية، أو التورط فى تسريب الإمتحانات لأبنائه أو أقاربه أو معارفه، أو تعيين من يشاء واستبعاد من يشاء بناءا على معايير شخصية أو عائلية أو سياسية أو مادية. كما أن الجهاز الإدارى فى الجامعة أصبح متورطا فى الكثير من مظاهر الفساد العامة كالرشوة والمحسوبية وغيرها. ولم تعد أسوار الجامعة تشكل حرما كما كانت فى الماضى فأصبح الجهاز الأمنى داخل أسوارها يعين هذا ويستبعد ذاك ويحرك الأمور من خلف الستار أحيانا ومن أمام الستار فى أحيان أخرى، وأصبحت التعيينات فى المناصب القيادية العليا مرهونة بحسابات أخرى قد يكون آخرها الكفاءة العلمية والإدارية. وأصبحنا نسمع عن سرقة الأبحاث وتلفيقها وتأليفها ونسمع عن الرشاوى فى الحصول على الشهادات والترقيات. وتدنت المستويات العلمية داخل الجامعات وأصابها ما أصاب بقية المجتمع من خلل، وتم اختراقها بكل صور الإختراق المرضية.

أما مجال الطب والعلاج فله حساسية خاصة حيث يتصل بصحة الناس وحياتهم، وقد كان الطبيب فيما مضى يسمى حكيما ويحظى باحترام وإجلال ومصداقية لا يحظى بها

أحد غيره، ولم لا وهو يطلع على عورات الناس وأسرارهم برضاهم وثوقا فيه وتسليما بأمانته، وهو يعمل على الحفاظ على صحتهم وأرواحهم. وإذا بنا نسمع كثيرا فى السنوات الأخيرة عن عمليات متاجرة بصحة الناس وحياتهم وأعضاء جسمهم، وعن عمليات نصب واحتيال وجشع لدى بعض الأطباء، وإلى مغالاة فى الأجور بشكل استفزازى، وإلى عمليات تبادل منافع مع المعامل ومراكز الأشعة وشركات الأدوية لامتصاص دم المريض، وإلى حالات إهمال صارخة ومفزعة فى العيادات والمستشفيات الخاصة منها والعامة. وزيارة واحدة لأى مستشفى حكومى تضعنا أمام حقيقة مفزعة وهى أن الفساد والإهمال قد وصلا إلى الحصن الطبى وتغلغلا فى كثير من أجزائه.

أما المؤسسة الدينية فهى تشكل ضمير المجتمع وتعتبر بمثابة حلقة وصل بين الأرض والسماء أو قنطرة بين الدنيا والآخرة، ولهذا يقلق الجميع حين يرى أى مظهر للتدهور فى أى ركن من أركان تلك المؤسسة مثل الفتاوى الموظفة سياسيا، أو الإستقطاب لمصلحة بعض الأشخاص أو المؤسسات، أو الإنفلات الدعوى، أو الجرى وراء الكاميرات والميكروفونات بحثا عن الشهرة والثروة، أو تبنى الآراء الشاذة والغريبة والدعوة إليها خارج إطار التاريخ وخارج نطاق المنطق السليم وبعيدا عن أصول ومقاصد الشريعة بحثا عن الفرقعة الإعلامية والشهرة الشخصية، أو الجهل الشديد بالدين لدى خريجى الجامعات الدينية وتردى مستوى الخطباء فى المساجد، أو شيوع التفكير الخرافى لدى المنتمين للدعوة الدينية. كل ذلك يضع علامات حمراء حول بعض أو الكثير من أركان المؤسسة الدينية التى يحرص الجميع على بقائها بيضاء ناصعة.

ووصول الفساد إلى مواطن العفة فى أى مجتمع دليل على أننا أمام مرحلة متأخرة وخطيرة، وأن الإنهيار التام قد يصبح وشيكا، أو أن المجتمع يدخل فى مرحلة اللاعودة، أو أن ثمة اتفاق عام على قبول الفساد وتغلغله بلا أى استثناءات، أو أن محاولات الإصلاح قد تصبح مستحيلة إلا بعد زوال كل المنظومات القائمة وقيام منظومات جديدة وأن هذا الأمر قد يحوى بداخله انهيارات خطيرة تستمر لسنوات طويلة تأتى على البنية الأساسية فى المجتمع، وقد تقضى على أمنه وأمانه لسنوات طويلة (كما حدث فى العراق).

أعراض الفساد الرئيسية:

١- **الرشوة:** وهى من أكثر أعراض الفساد ظهورا، ويرى أرنولد روجو وهارولد لازويل أنها جوهر الفساد من حيث أنها تؤدى لانهيار النظام العام حيث لا يرى الراشى أو المرتشى إلا تحقيق مصلحتهما الشخصية ولو على حساب المصلحة العامة، وهنا تنهار المصلحة العامة. وتبدأ الرشوة على استحياء فى صورة هدايا ثم تتحول إلى إكراميات ثم تتم من خلال درج المكتب المفتوح ثم تطلب علانية بعد ذلك كحق مكتسب لا تتم قضاء الحوائج إلا به.

٢- **المحسوبية:** وفيه تحل العلاقات الشخصية والعائلية والطائفية والحزبية محل الكفاءة والخبرة فى الوظائف العامة، وبذلك تنهار معايير الإختيار الموضوعية ويسند الأمر إلى غير أهله.

٣- **استغلال المنصب العام:** وطبقا لتعريف جيمس سكوت فإن استغلال المنصب العام هو «ذلك السلوك القائم على التخلى عن الواجبات الرسمية المرتبطة بالوظيفة العامة فى سبيل تحقيق مصلحة خاصة أو انتهاك لقواعد رسمية فى سبيل تكوين أنماط معينة من النفوذ والتأثير لتحقيق مصلحة خاصة».

٤ - **الغش فى الإمتحانات والتزوير فى الإنتخابات:** هناك علاقة وثيقة بين شيوع الغش فى الإمتحانات وتزوير الإنتخابات فكلاهما تنتمى لنفس الإضطراب الأخلاقى الذى يتيح تغيير الحقيقة ويتيح الحصول على أشياء دون وجه حق ويتيح تزييف الحقائق وشراء الضمائر وبيعها وإفساد الذمم، وصعود من لا يستحق. وهنا تتكون معايير جديدة للصعود مجملها الكذب والتحايل والسرقة والخداع، وتغيب فى المقابل معايير الصدق والأمانة والإجتهاد والعمل الدؤوب، وشيئا فشيئا يتزايد عدد الصاعدون بوسائل الغش والتزوير فتتكون نخبة سياسية أو إدارية فاسدة نشأت على هذه القيم ولذلك تدعو لها وتدعمها.

الدولة الرخوة:

فى المراحل المتوسطة من الفساد تتحول الدولة إلى ما يسمى الدولة الرخوة وهى تتسم بما يلى:

- اللامبالاة وبطء الحركة، والتى تصل إلى درجة الجمود ويظهر ذلك فى ثبات الشخصيات الحاكمة لسنوات طويلة دون تغيير وتثبيت السياسات والممارسات الحكومية حتى مع ثبوت فشلها.
- ضعف الإستجابة لمطاب الناس واحتياجاتهم فترى الحكومة وكأنها لا تسمع الشكوى الصادرة من فئات كثيرة فى المجتمع، وإذا سمعت فهى تستجيب ببطء شديد لا يتناسب مع المواقف وسخونتها أو لا تستجيب على الإطلاق.
- لا تتحرك أجهزة الدولة إلا حين حدوث كوارث كبرى، وما أن تمر الكارثة حتى تعود أجهزة الدولة إلى سباتها فى انتظار كارثة أخرى قادمة.
- ضعف القدرة الرقابية على الأشخاص والأجهزة والمؤسسات بما يتيح فرصة مواتية لتمدد الممارسات الفاسدة دون خوف من عقاب.
- عدم وجود مشروع قومى أو هدف عام يجمع طاقات الناس والمؤسسات لتحقيقه.
- الإستهانة بالكرامة الوطنية والنظر بتراخ واستخفاف إلى ما يهدد الأمن القومى، والإكتفاء بتحقيق الأمن الشخصى والمصالح الذاتية للنخبة الحاكمة.
- يصبح الدور الخارجى (على المستوى الإقليمى أو الدولى) للدولة الرخوة باهتا وضعيفا، وتفقد تأثيرها فى الأحداث، وتصبح تحركاتها مجرد ردود أفعال للأحداث أو وسيط معنوى بين الأطراف.
- تتميع لديها الثوابت العقائدية والسياسية والتاريخية والحضارية، وينعدم لديها الإحساس بالهوية والقيمة، وبالتالى تتقبل بسهولة الكثير من المواقف المهينة على المستوى الدولى.

- تفقد القدرة على رعاية شعبها فى الداخل ورعاية أبنائها فى الخارج، بل تصبح هى عالة على هؤلاء وعبئا عليهم.

الدولة القرصان:

وهى تظهر فى المراحل المتأخرة من الفساد، وهى تسبق الإنهيار العام للنظام مباشرة، ذلك الإنهيار الذى يمكن أن يحدث فى غضون شهور أو سنوات ولكنه بالضرورة آت آت، لأن قوانين المجتمعات لا تحتمل وجود الدولة القرصان لفترات طويلة، كما أن قوانين القرصنة تجعل الجميع يأكلون بعضهم البعض فيصبح الإنهيار حتميا. وفيما يلى خصائص الدولة القرصان كما تتضح من الدراسات النفسية والإجتماعية والسياسية:

- سيطرة الفرد الحاكم أو أسرته على مقاليد الأمور بشكل مطلق، وترسيخ نظام الحكم الدكتاتورى المستبد، وتوجيه سائر الأمور لتحقيق المصالح الشخصية للحاكم على أنها المصالح القومية العليا، واغتصاب السلطة، واعتبار البلد رهينة فى يد الحاكم وبطانته.

- تكوين بطانة حول الحاكم الفرد تحميه وتحمى فى نفس الوقت مصالحها الذاتية، وتصبح هذه البطانة مسيطرة على كافة الأجهزة والمؤسسات وتوجهها لتحقيق مصالحها ومصالح الحاكم الفرد.

- يصبح هدف الحاكم الفرد وبطانته البقاء فى مقاعدهم واستمرار تدفق الأموال إلى حساباتهم وإحكام سيطرتهم على مقاليد الأمور لأطول فترة ممكنة، ولضمان هذه السيطرة يتم تكوين أعين وأذرع من الأجهزة الأمنية والأجهزة الحكومية تكون مهمتها حماية مصالح النخبة الحاكمة وضمان بقائها والتخلص من معارضيها.

- تتحول الأعين والأذرع إلى أدوات فساد تنتشر فى كل الأجهزة والمؤسسات، وتترسخ مع الوقت قيم الإنتهازية والقرصنة والسلب والنهب والنفاق والخداع والكذب، وشيئا فشيئا تتحول أجهزة الدولة إلى أوكار للفساد.

- يصبح الفساد هو أسلوب الحياة المعتمد فعليا على المستوى الرسمى والشعبى، وشيئا فشيئا تغيب صيحات الإستنكار والإستهجان لذلك الفساد.

- تتحالف أجهزة الدولة مع رموز الفساد وتسهل لهم الحصول على الصفقات وتحقيق الأرباح الخيالية على أن يقتسم الجميع الكعكة فيما بعد، وتبسط أجهزة الدولة حمايتها على رموز الفساد حماية لنفسها وحفاظا على مصالحها.

- يتم اغتصاب السلطة فى أيدى أفراد معدودين أو فرد واحد وتستبعد بقية تيارات وفئات المجتمع، ويحدث هذا إما بشكل سافر، أو تحت ستار ديموقراطى خادع من خلال إجراء انتخابات أو استفتاءات مزورة تتحدد نتائجها سلفا.

- يحدث تحالف واضح بين رجال السياسة ورجال المال ليخدم كل منهما مصالح الآخر ويستبعد المفكرون والمثقفون والعلماء.

- يتم استخدام عدد من فقهاء القانون الراغبين فى السلطة لتفصيل القوانين وهندسة الدستور والتحايل بكل الطرق بما يحقق مصالح النخبة السياسية والمالية، كما يتم استخدام عدد من رجال الدين ذوى الرخاوة الدينية والشخصية لتمرير وتبرير كافة تصرفات النخبة الحاكمة وإعطائها شرعية دينية.

- وتبالغ الدولة القرصان فى الحديث عن الطهارة والشفافية وسيادة القانون واحترام الدستور بينما هى تدوس كل هؤلاء. وحين ترى أن الدستور أو القوانين تعوق حركتها وتعطل مصالحها تعمد إلى تغيير كل هؤلاء عند أول فرصة ممكنة.

- تتم عمليات تمويه وخداع كثيرة حيث يتشدق النظام بالمصلحة العامة والمصلحة الوطنية والمصلحة القومية ليل نهار فى حين هو يقصد مصلحة الحاكم، ويتحدث عن الأمن القومى فى حين هو يقصد أمن الحاكم وأسرته، ويتوحد الوطن كله مع الحاكم فيصبح أى مساس بشخص الحاكم هو مساس بالوطن فهما فى القدسية سواء، وتظهر تعبيرات مثل «الزعيم الملهم» أو «رب العائلة» أو «صانع النهضة الحديثة» أو «المجاهد الأكبر» أو «المعلم» أو «قائد العبور للمستقبل» أو «حبيب الجماهير» أو «المخلص» أو «صاحب الحكمة»، وهكذا يحدث تضخيم لذات الحاكم حتى تبتلع بداخلها ذات الوطن ومصالحه، وينجح النظام القائم فى إيهام الناس بأن زوال الحاكم هو

زوال للوطن، وأن بقاءه هو صمام الأمان الوحيد للناس.

- كثيرا ما تحتاج الدولة القرصان إلى تأييد ودعم خارجى يضمن استقرارها ويغمض العين عن خطاياها، وفى مقابل ذلك تضحى بالثوابت الوطنية وبالأمن القومى، وترضى بدور التابع أو الشرطى أو السمسار أو البلطجى.

- وفى حالة الدولة القرصان (وهى قمة الفساد السياسى) يتحول جهاز الدولة إلى مؤسسة للفساد والسلب والنهب ويعمل جميع أفراد جهاز الدولة لتحقيق مصالحهم الخاصة مع المبالغة فى الحديث الإعلامى عن المصلحة العامة، والمسئولون فى هذه الحالة يتحايلون على القوانين واللوائح وحتى على الدستور القائم، وتحدث تحالفات واتفاقات مشبوهة بين رجال السياسة ورجال المال بما يحقق مصالح الطرفين على حساب مصالح الجماهير، ويشيع الفساد فى ظل الدولة القرصان حتى يصبح واقعا مألوفا يحاول بقية الناس تعلمه وإتقان آلياته لكى يتكيفوا مع منظومته السائدة.

دوائر المسئولية فى مواجهة الفساد:

للإنسان ثلاث دوائر من حيث رأيه وسلطته وبالتالى مسئوليته نوجزها فيما يلى:

- **الدائرة الأولى**: له فيها رأى وسلطة، كمثل الأب فى بيته، أو المدير فى إدارته، أو الرئيس فى دولته، وهنا تكون مسئولية التغيير كاملة أو شبه كاملة بناءا على مساحة السلطة المتاحة، بمعنى أن التغيير هنا سيكون باليد وباللسان.

- **الدائرة الثانية**: له فيها رأى وليس له سلطة، كالمفكر والإعلامى وصاحب الرأى على المستوى العام، وكالموظف (غير القيادى) فى محل عمله، والأبناء فى الأسره، وهنا يكون التغيير باللسان أو بالقلم أو بإبداء الرأى، أو بضغط الرأى العام، ولا يملك الشخص هنا القدرة على التغيير المباشر باليد لأنه لا يملك سلطة التنفيذ.

- **الدائرة الثالثة**:وفيها لا يملك الشخص رأيا ولا سلطة، وهذه الدائرة إما أنها لا تهم الشخص أساسا لذلك لا يكون فيها رأيا ولا يسعى لسلطة، أو أنها تهمه ولكن محظور عليه إبداء الرأى أو ممارسة الفعل، وهذا المشهد الأخير يكون غالبا فى البيئة الإستبدادية

سواء على مستوى الدولة أو مستوى الإدارة أو مستوى الأسرة حيث تصبح وسائل التعبير مغلقة فضلا عن وسائل التغيير. وحتى فى هذه الظروف لم تبرأ ساحة الإنسان من محاولة التغيير وهى التغيير بالقلب، والذى وصفه الحديث النبوى بأنه أضعف الإيمان، أى أنه الدرجة التى لا يصح الإيمان إلا بها، وهى إنكار المنكر واستنكار الفساد على مستوى القلب والمشاعر، وأهمية هذه الدرجة من الإنكار والإستنكار فى ظل ظروف القهر والإستعباد تبدو فى الإبقاء على جذوة الصلاح حية فى القلوب انتظارا للحظة مواتية للتغيير، وهذا الأمر هو بمثابة تعبئة فكرية ووجدانية وروحية ضد المنكر والفساد والظلم والطغيان، وهى ليست انسحابا أو هروبا أو سلبية وإلا لما سماها الحديث النبوى «تغييرا»، وإنما هى إعداد نفسى داخلى وتطهير للضمائر من قبول الفساد، وتجميع لضغط فردى داخلى يلتقى فى لحظة ما بضغط متجمع فى نفوس أفراد آخرين أنقياء أنكروا المنكر والفساد بقلوبهم ليخلق هذا ضغطا جماعيا يواجه الفساد والإفساد فى لحظة مواتية للتغيير. وفى الحديث النبوى يسمى هذا الإنكار التعبوى «جهاد القلب» ففى حديث رواه مسلم عن ابن مسعود – مرفوعا –: «ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

من هذه الدوائر نرى أن لكل إنسان حظه فى مقاومة الفساد لأن الفساد مرتبط بالإنسان وبالحياة فى كل المراحل، فهو أشبه بالميكروبات والفيروسات التى تخترق الجسد فى كل لحظة وتحاول الفتك به، ولولا وجود جهاز المناعة فى الجسد الحى لهلك الناس جميعا.

ماذا بعد؟:

من السذاجة أن يتصور أحد أن بإمكان هذه الدراسة وضع حل للفساد يغطى كل جوانبه، ومع هذا سنحاول إعطاء بعض المفاتيح الأساسية تتصل غالبا بالبعد النفسى والإجتماعى للفساد.

دعنا نرى الفساد حين يصل إلى قمته لنرى كيف نتعامل معه وهذا يجعل التعامل مع الدرجات الأدنى أكثر سهولة. هناك سيناريوهات متعددة للفساد نذكر منها:

- أن تنتبه النخبة الفكرية والثقافية والعلمية لما وصل إليه حال المجتمع من الفساد، خاصة أن هذه النخبة بتكوينها العقلى تكون قادرة على اجتياز عتبة المألوف اجتماعيا واختراق حاجز العتمة وتنبيه عموم الناس للخطر الذى لا يرونه، وبمعنى آخر تكون هذه النخبة عصيّة على الإستلاب الذى تمارسه السلطة على بقية الناس. ولا يكفى التنبيه، بل يحتاج لأن يتبعه تجميع سلمى لهذه النخبة، وإرادة ذات نفس طويل تجعل من العدد القليل منهم نواة يتجمع حولها كل الراغبين فى الإصلاح، ويجب أن تحتفظ هذه الدعوة بسلميتها وحياديتها وموضوعيتها وزهدها فى مكاسب السلطة أو المال، وحرصها الشريف على المصلحة العامة وسلامة الوطن. ومن خلال جهود هذه النخبة تزداد مساحة الوعى وربما تبدأ آليات أخرى داخل أحزاب أو نقابات أو مؤسسات أهلية فى المجتمع لتحدث ضغطا سلميا على المؤسسات السياسية بهدف الإصلاح الحقيقى، وتكشف فى ذات الوقت أى محاولات للتلفيق أو التحايل أو الخداع. قد يبدو هذا الحل رومانسيا ومبالغا فى التفاؤل، وهذا صحيح فقد تصبح هذه النخبة هدفا للسلطة القائمة تسعى لاسئصالها أو تشويهها أو استقطابها، وهذا ممكن فى حالة تلوث النخبة وضعفها.

- أن يستمر الفساد ويتضخم ويصبح سرطانا يأكل بعضه بعضا فيفاجأ الجميع بانهيار مفزع فى أى لحظة تنهار معه أركان البنية الأساسية وتحدث الفوضى وتمر سنوات إلى أن يحدث تجميع مرة أخرى على برامج ورؤى ومنظومات جديدة.

- أن يحدث انقلاب على السلطة من داخلها أو من قوة متربصة أخرى وتتحول مقاليد الأمور إلى قوة غامضة لا يعرف أحد نواياها وتوجهاتها، أى أن المصير يوضع فى يد المجهول.

- أن يحدث تدخل خارجى مباشر (فى صورة احتلال كما حدث فى العراق) أو غير مباشر (بالضغوط والأعمال المخابراتية) لوضع خريطة جديدة للمجتمع تحقق فى الأساس

مصالح القوى الخارجية وتشكل وصاية على الشعب وحكومته الجديدة العميلة فى الأغلب

• أن تحدث هبّة شعبية عارمة تحت تأثير احتياجات أساسية محبطة (كالطعام والشراب والمسكن)، أو جرح للكرامة الوطنية أو مساس بالثوابت الدينية، وتكتسح الجموع الثائرة الغاضبة كل شئ فى طريقها، ولا يمكن التنبؤ بالنتائج فالأمر يخرج هنا عن إطار المنطق العقلانى إلى إطار سلوك الحشد، وأحسن الفروض هو أن تظهر قيادة تستطيع التحكم فى هذا الحشد الهائج بوعود إصلاحية وتغييرات أساسية يحلم بها ذلك الحشد، وقد تصدق هذه الوعود أو لا تصدق، المهم هو صرف مارد الحشد الذى توحش وانتفض بعد صمت طويل.

❊ ❊ ❊

جغرافية الجسد...

بين الفورسيزونيين والدويقيين

«جسد المرأة الذي له جغرافيا، سوف يكون له تاريخ صعب».. حكمة قالها (أو ربما تناقلها) أنيس منصور، ولكن للأسف لم تصل إلى أذن الحسناء سوزان تميم فدفعت حياتها ثمنا لجغرافيا جسدها وتقاسيم وجهها وعاشت تاريخا مأساويا رغم تقلبها في نعيم العاشقين لجمال الخرائط. وربما يمنعني صيامي (وخلفه حيائي) من الدخول في تفاصيل جغرافية تكمن وراء هذا الحدث التاريخي الذي يعكس علاقة الثروة والسلطة بالجمال في مجتمعاتنا العربية، ولكنني أترك لخيالك العنان في تخيل ما تريده من خلال الأرقام المذكورة في الصحف ومنها: أن رجل الأعمال العاشق وعدها بخمسين مليون دولار إن هي عادت إليه، واتهمها بسحب ٤٠٠ مليون دولار من حساباته السرية في البنوك (طبقا لتصريحات زوجها عادل معتوق)، ثم الأخبار التي تقول بأنه دفع ٢ مليون دولارا ثمنا لقتلها، فإذا عرفت أن رجل الأعمال لديه القدرة على تقييم الأشياء فلك أن تتخيل جسدا يدفع فيه كل هذه الملايين. وهذا ما جعل أحد المتابعين للأحداث يحسد من قام بتغسيل جسد سوزان وتكفينها، وتساءل: كم دفع هذا الرجل «المغسل» مقابل تغسيل هذا الجسد الأسطورة الذي انتزع قلوب رجال الأعمال والأمراء وغيرهم.

ولسنا هنا نصدر أحكاما مسبقة ضد أحد، فالمتهم برئ جدا حتى تثبت إدانته، وإن كان هذا القول قد تغير بعد أحداث العبارة ومحاكمة ممدوح إسماعيل، وبعد قضية هايدلينا، وقضايا أخرى مماثلة، فالقاضي في النهاية بشر يحكم بما يصل إليه من وثائق وأوراق وشهادات شهود، وكل هذه أشياء يمكن إجراء تعديلات كثيرة فيها قبل أن تصل إلى ساحة القضاء، وهناك محترفون لإجراء مثل هذه التعديلات خاصة إذا كان المستفيد سيقدر هذه الخدمة بسخاء كما قدر جغرافية الجسد الساحر.

ويبدو أن سيناريو رجل الأعمال والفنانة سيتكرر كثيرا خاصة إذا عرفنا أن

سيكولوجية رجل الأعمال تقوم على اقتناء كل جميل أو ثمين أو مبهر، وهو لا يكتفي بالإقتناء بل يصر على الإمتلاك، وعلى الرغم من نجاحات رجل الأعمال في عالم المال إلا أنه أحيانا تنقصه الشهرة، فيحاول أن يعوض هذا النقص من خلال اقترابه من مشاهير الفن خاصة من تتحقق فيهن معايير عالية في الجمال تغري رجل الأعمال باقتنائها، والشعور بالظفر على أقرانه وهو يمتلك هذا الجمال الأنثوي الأخاذ. وإذا انتقلنا إلى سيكولوجية المشاهير من الفنانات (خاصة فنانات الدرجة الثانية والثالثة) نجد أنها تقوم على الإستعراض والتحرر والتعددية، بمعنى أنها تسعى نحو استعراض ملكاتها وإمكاناتها وجمالها وجاذبيتها أمام أكبر عدد ممكن من الجمهور، وهي تشعر بالنجاح والطمأنينة كلما زاد عدد معجبيها والمفتونين بها، وإذا خيرت بين الزواج المستقر في أحضان رجل واحد وبين تصفيق وإعجاب الجماهير العريضة فإنها تفضل الجماهير، ولهذا حين تقترن الفنانة برجل الأعمال تحدث أزمة ربما تؤدي إلى التورط في القتل، حيث يعمد رجل الأعمال إلى امتلاك تلك التحفة الجمالية وحده، بينما ترى تلك التحفة أنها أغلى وأثمن وأروع من أن يمتلكها رجل واحد مهما كان ثراؤه، وهنا يحدث الصراع بين الإثنين، وربما ينتهي ذلك الصراع بقرار من رجل الأعمال بتصفية الفنانة حتى لا يمتلكها أحد غيره، وهو في غمرة إحساسه بالغيرة والهزيمة من ناحية، وإحساسه بتضخم نفوذه وقوته وثروته من ناحية أخرى يشعر بأن من حقه أن يفعل ذلك، وأن ثروته ونفوذه وعلاقاته سيحولان بينه وبين القانون فلا تقع عليه عقوبة أو يطاله قانون، وهنا تحدث الكارثة. وتزداد الأزمة وتتعقد حين يكون رجل الأعمال متلحفا بالسلطة في صورة عضوية الحزب أو الأمانة أو المجلس، هنا يصاب بحالة من الثقة والطمأنينة الزائدة، فهو قد جرب مرارا اختراق حواجز القانون، وشعر أنه يملك ويمتلك كل شئ بما فيها أراضي الدولة وأجساد الحسناوات.

ومن المفارقات أن حادث مقتل سوزان تميم مع تفاصيل الملايين التي ألقيت حولها وعليها يتزامن مع حادث انهيار صخور المقطم على أكواخ المعدمين في الدويقة، وربما تتعمد الصحف المعارضة والمستقلة نشر صفحات متقابلة عن الحدثين. وربما يكون

القاسم المشترك بين الحدثين هو أن الجسد يموت سواءا في شقة شديدة الفخامة في حي راق بمدينة دبي الأسطورية أو في كوخ تحت صخور جبل المقطم، والأجساد كلها تتعفن سواءا تلك التي ألقي عليها الملايين أو ألقي عليها الصخور، وكل يبعث على نيته، ولكن الشيء المختلف هو أن جمال جسد سوزان تميم (في حياتها طبعا) يجعل رجل الأعمال يسرع كثيرا في نثر الملايين على تضاريس ذلك الجسد، بينما تشوهات أجساد أهل الدويقة (جراء الفقر والجهل وفيروس س والفشل الكلوي والأمراض الجلدية وآثار انحناءات الظهر ذلا وتسولا وقهرا) تجعل رجل الأعمال نفسه يتردد كثيرا قبل أن يتبرع للدويقيين بجنيه واحد، أو أن يفكر في تطوير عشوائيتهم أو عشوائيات غيرهم، وربما يدعوهم إلى شراء شقق وفيلات في مشروعاته المعمارية المنتشرة بطول مصر وعرضها متهما إياهم بالتكاسل عن حضور معارض شركاته والتراخي عن ركوب الأتوبيسات المكيفة التي تنقلهم إلى مدنه الجديدة ليروا على الطبيعة القصور والفيلات وحمامات السباحة وأراضي الجولف الخضراء. وأهل الدويقة مسئولون عن تشوهات جسدهم وعن روائح عرقهم وعن تلوث أحيائهم، تلك الأشياء التي منعت جموع المتبرعين من رجال الأعمال ورجال الحزب ورجال الأمانة (أي أمانة) من الوصول إليهم، واكتفائهم بعمل صور مركبة على الكومبيوتر تبين تواجدهم وسط الفقراء، ويتم أخذ تلك الصور في حي العجوزة أو مصر الجديدة.

والدويقيون لا يعرفون الموت بمعناه التقليدي الذي يعرفه الناس إذ أنهم عاشوا أمواتا بين الأحياء يتسولون، وإذا «طلعت أروحهم» تحت صخرة ثقيلة فإنهم ينتقلون إلى حياة أفضل في رحاب الله الكريم الرحيم، وقد استبدلوا الشقق التي وعدهم بها المسئولون عشرات السنين بقصور شاسعة، واستبدلوا أحياءهم المحشورة بين الصخور بجنة عرضها كعرض السماوات والأرض، أي أن موتهم كان مكسبا يحسدهم عليه الأحياء منهم. ولكي تفهم الصورة أكثر دعني آخذك لجيرانهم سكان المقابر، وقد عشت ليلة كاملة بينهم في ظروف استكشافية إعلامية وعلمية، ورأيت بعيني ولم يحك لي أحد كيف يعيشون ويأكلون وينامون ويتزاوجون ويفرحون ويحزنون ويحبون ويكرهون

ويموتون، ووجدت أن موتهم أبسط بكثير من موت غيرهم، وربما تكون هذه هي الحكمة التي من أجلها يعيش حوالي مليون من أهل القاهرة في المقابر، فهم مع معايشتهم للأموات تجري لهم عملية تقليل حساسية تدريجي (حسب أقوال علماء النفس السلوكيين) للموت فلا يخشونه أبدا، فالمسافة بين موتهم وحياتهم مجرد جدار يفصل بين فناء القبر والقبر ذاته. وأذكر أنه في تلك الليلة القبورية التي قضيتها بينهم (الله لا يعودها)، كنا نتحرك بحذر شديد حيث أن أجساد الرجال والنساء والأطفال كانت مبعثرة هنا وهناك بلا تمييز (على الأقل لنا)، وكنا نخشى أن ندوس أي جسد دون أن نقصد، ففي ظلمة المقابر تستوي الحجارة والأجساد، وحتى المستيقظين من سكان القبور كانوا يجلسون في هيئة تجعلهم يبدون وكأنهم شواهد قبور، فإذا اقتربت منهم سمعت سعالا مختنقا أو صوت أنفاس متحشرجة.

وبحكم مهنتي واهتماماتي وفضولي، أتنقل بين أقصى الطبقات فقرا وأقصاها غنى ورفاهية، وهذا يجعلني أشبه بالبندول الذي يتحرك بين الطبقات الإجتماعية المختلفة صعودا وهبوطا، ويوقظ وعيي بما يحدث هنا وهناك ويجعلني أشفق على من يعيشون تصورا أحاديا للطبقات كهؤلاء الذين يعيشون في رحاب القصور الرئاسية، أو المقرات الحزبية، أو المدن العالمية التي هي على أرض وأجساد مصرية، وأشفق أيضا على أولئك الدويقيين الذين لا يجدون ميكروباصا ينقلهم إلى مارينا أو إلى سان استيفانو أو فندق الفورسيزون أو حتى مدينة الرحاب. وحين كنت أنزل – بشكل عارض حتما – في فندق سان استيفانو أو الفور سيزون (لمجرد حضور مؤتمر علمي وأغادره فورا عند انتهاء المؤتمر)، كانت تقفز إلى ذهني المقارنة فورا بين ما أراه في حمام غرفتي (الطارئة) بهذا الفندق أو ذاك وبين ما أراه في المساكن القبورية أو الدويقية (أو ما أتخيله من حمامات هذه المساكن، إن كان بها حمامات أصلا).

ولست أنكر أنني كنت من المعجبين جدا بمدينة الرحاب النظيفة الجميلة، وبفندق سان استيفانو الرائع، وبالفور سيزون المذهل، وكنت أفخر بالمجموعة التي قامت على هذه المشروعات المعمارية الراقية والعملاقة، وأصدق فعلا أنهم بناة المستقبل، وصانعي

الجمال على أرض مصر العشوائية، ولكنني تراجعت كثيرا عن هذه المشاعر ومعي عدد غير قليل من أهل مصر الأصليين حين تطايرت الأخبار المصاحبة لمقتل الحسناء (صاحبة الجغرافيا والتاريخ) سوزان تميم، والتي تفيد أن العاشق وشركاته قد حصل على ما يصل إلى ٤٠ مليون متر مربع من أرض مصر الحزينة لكي ينشئ عليها مدنه ومشروعاته، ولكي ينفق من ريعها ليس على الدويقيين وأصحاب عزبة الزبالين وعزبة الصفيح، وإنما على هيفاء لبنانية تقيم في جناح خاص بالفورسيزون، وتذهلني الأرقام المبعثرة تحت أقدامها ويدفعني خيالي الساذج إلى تصور إنفاق هذه الملايين من الدولارات على تطوير بعض العشوائيات والقبوريات، ولكني أعود إلى وعيي وأقول أين جغرافيا الجسد التي تصنع التاريخ في تلك المناطق؟، ثم أتساءل في سذاجة: ولماذا لم ينثر بيل جيتس (صاحب شركة ميكروسوفت والثري العالمي الأشهر) أمواله على أجساد وتحت أقدام الحسناوات، وفضّل بدلا من ذلك أن يقضي بقية سنوات عمره في المشروعات الخيرية، فيأتي الرد مرة أخرى بأن بيل جيتس على الرغم من ذكائه الهائل إلا أنه كان ضعيفا في الجغرافيا.

❊ ❊ ❊

الفلوس والنفوس

(الحالة النفسية للمتعاملين في البورصة)

منذ اشتعلت أزمة البورصة العالمية في نهايات عام ٢٠٠٨ تم الإعلان عن حالتي انتحار في مصر بسبب الهبوط الحاد والخسائر الفادحة، وهذه هي الحالات الصارخة المعلنة ولسنا ندري كم هي الحالات التي أصيبت بجلطات في القلب أو المخ أو ارتفاع في ضغط الدم أو القلق أو الإكتئاب أو المشكلات العائلية والإجتماعية المترتبة على كل ذلك، ولسنا ندري أيضا عن أثر تلك الحالة من الهلع والذعر على قرارات المتعاملين في البورصة وكيف أدت إلى مضاعفة الخسائر. وساد شعور عام لدى الناس بالخطر، وأيقنوا أن النظام الإقتصادي العالمي ليس نظاما راسخا كما كانوا يظنون، وأن رجال المال والإقتصاد ليسوا موضوعيين أو عقلانيين أو منطقيين تماما كما كنا نعتقد فيهم، وأن ثمة حاجة لتغييرات جذرية في النظم المالية الحالية، تجعلها أكثر أمانا وأكثر استقرارا.

وقد جاء في تصريح الدكتور محمدالنجار أستاذ الإقتصاد تعليقا على أزمة البورصة العالمية وانعكاساتها على السوق المصرية: «إن الأزمة طالت البورصة المصرية بشكل حاد بسبب عوامل نفسية»... وهذه حقيقة حيث أن الأزمة العالمية سببها – كما يقول محمد عبدالقوي، محلل سوق المال – الإفراط في عمليات الرهن العقاري وتمويل شراء العقارات في أمريكا دون ضمانات مما أدى إلى كارثة حقيقية...

وأن السوق المصرية في مأمن عن حدوث تلك الأزمات نظرا لصغر سوق التمويل العقاري في مصر. إذن فخسارة البورصة المصرية (والتي يقدرها الإقتصاديون بحوالي ١٥٠ مليار جنيه في شهري سبتمبر وأكتوبر ٢٠٠٨) سببها حالة القلق والإرتباك الشديد لدى المستثمرين جراء متابعتهم للأنباء السلبية في سوق المال العالمي مما دفعهم إلى البيع العشوائي والمتسرع للأسهم (جريدة الدستور ١٢/ ١٠/ ٢٠٠٨م).

جائزة نوبل والمجال النفسي الإقتصادي:

وفي الماضي لم يهتم أحد بدراسة العلاقة بين الحالة النفسية والتعاملات المالية بشكل علمي، ولهذا فقد حصل العالم النفسي دانيال كانيمان Daniel Kahneman أستاذ علم النفس في جامعة برينسيتون على جائزة نوبل في الإقتصاد عام ٢٠٠٢ م حين أجرى أبحاثا ربطت بين الإقتصاد وعلم النفس، أي باختصار سلط الضوء على العلاقة بين الفلوس والنفوس.

وقد أوضحت دراسات «كانيمان» وغيره أن المستثمرون – مثلهم مثل بقية الناس – يستجيبون انفعاليا للأخبار والحقائق وربما الإشاعات، وأن الفكرة النمطية السائدة بأن رجال المال ليست لهم قلوب بمعنى أنهم يتعاملون فقط بعقولهم الموضوعية التحليلية هي فكرة غير حقيقية، فقد تبين في مواقف كثيرة وخاصة عند الهبوط الحاد في البورصة أن مستثمرين كبارا ينتابهم قلق زائد وربما يصابون بحالات اكتئاب، مما يؤدي إلى اضطراب قراراتهم في البيع والشراء، ويؤدي أيضا إلى اضطراب حياتهم الشخصية والعائلية. وتأتي أهمية دراسات «كانيمان» في أنه وضع أسسا حقيقية لتفاعل العامل البشري بكل جوانب قوته وضعفه مع العمليات الإقتصادية بتعدد وتعقيدات العوامل المؤثرة فيها، وقد يشكل هذا قاعدة لوضع نظم مالية أكثر واقعية وأكثر استقرارا، أو على الأقل يجعلنا نفهم ونتوقع حركة السوق صعودا وهبوطا بشكل منطقي وواقعي، فلا نفاجأ بهبوط هنا أو انهيار هناك، ويجعلنا لا نضع مستقبلنا ومستقبل أبنائنا بل ومستقبل العالم في أيدي مجموعة من المستثمرين الذين يمكن أن يسقطوا في لحظة ما وفي ظروف ما وربما بشكل مفاجئ، أي أننا بحاجة إلى التفكير في كيفية تحقيق «الأمن الإقتصادي المحلي والعالمي»، فرجال المال والإقتصاد وحدهم ليسوا قادرين على هذا الأمر كما كنا نظن.

وقد تكون هذه الجهود وغيرها بداية لظهور تخصص جديد يسمى «علم النفس الإقتصادي»، بحيث يستفاد من مبادئ علم النفس في دعم العاملين في حقل الإقتصاد، وتحسين مهارات التعامل والإستثمار والتنمية واتخاذ القرار، وربما يحقق هذا جزءا من النبوءة بأن القوة القادمة في العالم هي قوة «علم النفس»، تلك القوة التي لو تغلغلت

بشكل صحيح في أي مجال دفعته بقوة ليصل إلى أعلى مدى له من خلال التوظيف الجيد لقوانين ونظريات النفس المعروفة لتلتقي وتتضافر بشكل صحيح مع قوانين ونظريات الطبيعة والحياة.

طبيعة البورصة وعلاقتها بالحالة النفسية:

ويختلف الإستثمار في البورصة عن الإستثمارات التقليدية الأخرى، فالبورصة فيها الكثير من العوامل التي لا يملك المستثمر السيطرة عليها، فهو يشتري أسهما في شركات لا يديرها هو وربما لايعلم كل شئ عن أحوالها فضلا عن أسرارها، كما أن هذه الشركات تتعرض للصعود والهبوط بناءا على عوامل داخلية فيها وبناءا أيضا على عوامل خارجية فى السوق المحلي والسوق العالمي. ولكي نرى الأمر بشكل أكثر شمولية وتعقيدا فإن أحوال الشركات التي تضمها البورصة تتأثر بالأحداث السياسية والإجتماعية والنفسية في المجتمع المحلي والمجتمع العالمي، وهذا يجعل أمر التنبؤ بأحوال الشركات وبأسعار الأسهم صعودا وهبوطا أمرا صعبا حتى على المستثمرين المحترفين الذين يقومون بعمليات تحليل علمية لأحوال السوق ويتخذون قراراتهم بناءا عليها. وهذا لا يعني أن عمليات التحليل هذه غير مفيدة وغير مؤثرة بل هي في الحقيقة تؤدي إلى درجة من المعرفة الموضوعية والحقيقية لأحوال السوق وتقلباته وتؤدي إلى زيادة المكسب وتقليل الخسائر، ولكن مع هذا لا تملك التنبؤ الكامل بكل الأحداث والتقلبات، نظرا لكثرة تلك الأحداث وفجائية التقلبات أحيانا كثيرة. وبناءا على هذا نجد أن بعض الناس لا يفضلون التعامل في البورصة ويقومون باستثمار أموالهم في مشروعات تقليدية كإنشاء مزرعة أو سوبرماركت أو مستشفى أو مصنع، وهذه المنشآت يديرونها هم بأنفسهم، وكل شئ فيها يجري تحت أعينهم، وعوامل المكسب والخسارة غالبا لا تكون فجائية، ولكن يعيب هذه الإستثمارات أن عائدها محدود نسبيا، وتحتاج إلى إشراف مباشر من صاحب المال وتحتاج لخبرة ربما لايملكها صاحب المال، كما أنها ربما لاترضي طموح الأشخاص الذين يرغبون في تحقيق ثروات كبيرة في زمن قياسي من خلال المساهمة في المشروعات الكبيرة أو العملاقة.

ويتعب كثيرا ويخسر من يتعامل في البورصة وهو لا يعرف طبيعتها، فمثلا من أساسيات البورصة حالات الصعود والهبوط، فالبورصة ليست للمكسب فقط بل للخسارة أيضا، وأن تاريخ البورصة يقول بأن حالات الهبوط مهما كانت شديدة إلا أنها بالضرورة مؤقتة وسيتبعها حتما حالات صعود مرة أخرى. والبورصة شديدة الحساسية للأحداث سواء كانت أحداثا اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، وبما أن الأحداث مؤقتة وعابرة في أغلبها، وأن الحياة تسير وتتطور رغم تلك الأحداث إذن فالبورصة أيضا تعلو وتهبط ولكنها في النهاية تسير، وغالبا يكون مسارها في الصعود بشكل عام رغم الهبوطات الطارئة من وقت لآخر، وهذه طبيعة الحياة عموما، والبورصة جزء من الحياة.

إذن لو حاولنا أن نلخص طبيعة البورصة في كلمات قليلة نقول هي: التقلبات، الغموض النسبي، المفاجآت، تعدد العوامل المؤثرة، ضعف السيطرة، الحاجة لاتخاذ قرارات مهمة في وقت قياسي رغم قلة المعلومات المتاحة، احتمالات المكسب والخسارة طول الوقت. وهذه السمات المميزة للبورصة تجعل بعض الناس ينظرون إليها على أنها ليست استثمارا شريفا بل نوع من المقامرة.

نظريات الإستثمار وأنواع المستثمرين:

ينقسم المستثمرون إلى نوعين طبقا لما يتبعوه من نظريات الإستثمار:

١ – المستثمرون الذين يتبعون نظرية التوقع والإحتمالات: Prospect Theory Investors

وهؤلاء يقيمون خياراتهم على أساس احتمالات المكسب والخسارة نسبة إلى نقطة مرجعية معينة، فهم يقبلون السوق بطبيعته، ويضعون نقطة مرجعية يصعدون ويهبطون وأعينهم على هذه النقطة، ويحسبون ناتج المكسب والخسارة معا انطلاقا منها ورجوعا إليها، وبالتالي فهم يتحركون مع السوق صعودا وهبوطا دون فزع لأن أعينهم على الناتج النهائي للمكسب والخسارة، باختصار شديد هؤلاء الناس يتميزون بأنهم يعتبرون المكسب والخسارة أحداثا عادية في البورصة ويتعاملون على هذا الأساس، ويفيدهم هذا في أنهم لا يقلقون كثيرا ولا يضطربون في حالات الخسارة. وبناءا على هذه الرؤية فهم

أكثر المستثمرون قبولا للدخول في مغامرات محسوبة، لأنهم يحتملون رؤية المنحنى في صعوده وهبوطه طالما أن الناتج العام قياسا إلى النقطة المرجعية في صالحهم على المدى الطويل. وهؤلاء المستثمرون لا يكتفون بقراءة البيانات المالية وكشوف حسابات الشركات، بل يقرأون أيضا الظروف السياسية، والتغيرات الإجتماعية، والتحولات النفسية، والتقلبات المناخية، والأحداث الكبيرة المؤثرة، وهذا يمنحهم رؤية استراتيجية بعيدة المدى.

٢ – المستثمرون الذين يتبعون النظرية القياسية: Standard TheoryInvestors

هؤلاء يركزون فقط على المكسب المباشر، ويعتبرون الخسارة حدثا استثنائيا يجزعون ويفزعون منه، ولهذا فهم يتجنبون المغامرة ويميلون إلى الإستثمارات المضمونة نسبيا حتى لا يتعرضوا لأي خسارة، فهم يريدون أن يرون الجزء الصاعد فقط من المنحنى ولا يحتملون أن يرون الجزء الهابط منه.

كيف تضبط خياراتك:

وقد أجريت تجارب كثيرة على المتعاملين في البورصة ووجد أن القدرة على صياغة الخيارات ووضعها في إطار سليم له أثر كبير على قرارات المستثمرين، ووجد أيضا أن كثير من الناس ليست لديهم القدرة على صياغة خياراتهم ولا على وضعها في إطار صحيح، وبالتالي تكون خياراتهم عشوائية أو تحدث استجابة لحالات انفعالية مؤقتة. وهذا الأمر يعتمد على رؤية المستثمر لاحتياجاته، هل هو يحتاج لمكسب بسيط في زمن قصير أم أنه دخل البورصة لاستثمار طويل المدى، وإلى أي مدى يستطيع تحمل خسارة مؤقتة في سبيل الحصول على مكسب كبير في المستقبل، وهل لديه رصيد آخر يرتكز عليه فيساعده ذلك على المغامرة أم أن كل استثماراته موضوعة في البورصة وضياعها يعني ضياع كل شئ بالنسبة له، وهل هو يساهم في نشاط واحد أو في أكثر من نشاط في البورصة، ومتى يحرك أسهمه ومتى يجمدها..... وهكذا أمثلة كثير للصياغات ووضع الأطر تؤدي إلى وضوح الرؤية.

ومن أصعب الأشياء في تعاملات البورصة أنك مطلوب منك أن تتخذ قرارات مهمة في الوقت الذي لا تتوافر لك فيه كل المعلومات، وهذا يشكل ضغطا نفسيا خاصة على أولئك الأشخاص الذين لا يحتملون الغموض، وأولئك الذين يرغبون في الوضوح التام وتوافر كافة المعلومات وتوافر عوامل السيطرة الكاملة على الأشياء.

أنماط الشخصيات وأنواع الإستثمار:

من هنا نتوقع اختلافات في نمط الشخصيات بين أولئك الذين يفضلون الإستثمارات التقليدية وهؤلاء الذين يفضلون الإستثمارات في البورصة، فالفريق الأول يتميز بالتحفظ وعدم الميل للمغامرة، والرضا بالمكسب القليل المضمون، والرغبة في السيطرة على عوامل المكسب والخسارة، والإصرار على أن يديروا أموالهم بأنفسهم وتبقى تحت إبطهم أو تحت أعينهم أو «تحت البلاطة» (كما يقولون)، وربما تكون لدى هذا الفريق بعض السمات الوسواسية كالمبالغة في النظام والدقة وحب السيطرة، والحواز (الرغبة في الإمتلاك والتخزين)، والقلق من المغامرات، والحرص على الأشياء. أما المستثمرون في البورصة فيميلون إلى حب المغامرة وارتياد المجهول، ويبحثون عن المكسب السريع والمفاجئ والكبير، ولديهم طموحات عالية، وربما يستمتعون بحالات الصعود والهبوط حيث يصاحبها تغير مرغوب في حالاتهم الإنفعالية وفي كيمياء المخ والجسد، وقد تكون لدى بعضهم سمات شخصية المقامر الذي يستمتع بالمكسب والخسارة معا حيث تصاحبها حالات من المشاعر المتغيرة التي تثير الدهشة وتدفع الملل. وقد يميل إلى التعامل في البورصة الشخصيات الإنبساطية (ذات المزاج المرح المتفائل والعلاقات الإجتماعية المفتوحة) والشخصيات النوابية (ذات التقلبات في المشاعر)، كما يميل إليها أيضا الشخصيات الإنطوائية التي تميل إلى التعاملات من وراء ستار وتميل إلى التحليل ومحاولة التفسير والتأمل لأحوال السوق، وهؤلاء (أصحاب النمط الإنطوائي التحليلي) قد يعملون محللين في مكاتب الإستثمار نظرا لقدرتهم على المتابعة الدقيقة والصبورة وربطهم للأشياء ومتابعتهم للأحداث التي يتوقع أن تؤثر في السوق وتتبعهم لمؤشرات الصعود والهبوط.

لماذا تهاب النساء عالم البورصة:

اتضح من دراسة أجريت في مصر أن ٨١٪ من العينة كانوا رجالا و١٩٪ كانوا نساءا، وهذا لا يعني أن تلك النسبة هي هي نسبة الرجال والنساء المتعاملين في البورصة فعينة الدراسة كانت عبارة عن ٩٩ مستثمرا، ولكن عموما تحجم النساء عن التعامل في البورصة مقارنة بالرجال في مصر والعالم العربي وحتى في كثير من الدول الغربية، فقد أجري بحث في عدد كبير من الدول للمقارنة بين الرجال والنساء من حيث الثقة في عملية الإستثمار فوجد أن ٨٠٪ من الرجال لديهم الثقة مقارنة ب ٢٩٪ من النساء. وهناك اعتقاد اجتماعي سائد بأن عالم المال والإقتصاد هو عالم الرجال، وأن دور النساء فيه لا يتعدى تقديم الخدمات المساعدة كالسكرتارية، والأعمال الحسابية والمكتبية والإدارية، وربما أعمال النظافة. وإذا تجرأت امرأة ودخلت هذا العالم كمستثمرة قيادية فإنها لا تسلم من شائعات تتهمها باستغلال أنوثتها في تسيير أعمالها، وإذا لم تسمح درجة أنوثتها بهذا الإتهام فإنها توصف بالإسترجال. وفي أمريكا يختلف الأمر حيث أن ٥٠٪ من مديرات الإستثمار هن من النساء. ومن الناحية العلمية فإن النساء لديهن قدرة عالية على الحدس (التنبؤ من خلال الإحساس الداخلي)، ولديهن قدرة على الربط بين العوامل المتعددة وعلى تكوين رؤية تكاملية للأحداث، كما أن لديهن قدرة عالية على رؤية التفاصيل الصغيرة في جوانب الإنفاق، تلك المميزات التي أهلت المرأة للإمساك بمصروف البيت أفضل من الرجل في معظم البيوت.

أفضل شخصية للتعامل في البورصة:

هذا سؤال هام يشغلنا كمتخصصين في العلوم النفسية ويشغل العاملين في البورصة، وقد أجريت أبحاث في هذا الشأن في أكثر من مركز بحثي هدفها البحث عن خصائص الأشخاص المرشحين للنجاح في هذا المجال وكانت النتائج كالتالي:

١ – شخص لديه وعي موضوعي بذاته، بمعنى أنه يدرك جيدا نقاط قوته وضعفه.

٢ – لديه القدرة على قيادة نفسه واتخاذ قراراته بشكل مستقل بعد تجميع المعلومات من كل المصادر المتاحة.

٣ – لديه القدرة على رصد وضبط ومشاعره.

٤ – لديه القدرة على رصد ومنع السلوك الهادم للذات.

٥ – يتعامل مع السوق وهو في حالة ارتياح.

٦ – يسعى دائما نحو النجاح ويعرف كيف يحققه.

٧ – يعرف جيدا متى يستفيد من نصائح الآخرين ومتى يهملها أو يحذر منها.

٨ – غير قابل للإيحاء بسهولة.

٩ – يستطيع التحكم في مشاعره وانفعالاته أثناء فترات اضطراب السوق (الثبات وقت الإضطراب).

١٠ – يستطيع أن يواصل عمله تحت الضغط.

١١ – لديه مهارة اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب.

وقد ذهب عالمان نفسيان هما «لو وريبين» (L0 and Repin 2005) إلى أن أهم صفة في المستثمر هي «الثبات الإنفعالي» وقت اهتزازات السوق. وقد قام هذان العالمان باستخدام قياسات نفسية فسيولوجية لرصد معدل ضربات القلب، وضغط الدم ورطوبة الجلد لعدد من المستثمرين أثناء ممارستهم لعملهم في البورصة، ووجدوا أن المستثمرين الناجحين ذوي الخبرة العالية لا تحدث لهم تغيرات كبيرة في استجاباتهم النفسية والفسيولوجية حتى وهم يتلقون أخبارا مفاجئة أو غير سارة.

وقام عالم نفس آخر هو «أو كريفي ورفاقه» (O’Creevy et al 2004) بدراسة على ١١٨ مستثمر أوروبي محترف، ووجد أن المستثمر الناجح يميل لأن يكون شخصا انطوائيا لديه قدر عال من الثبات الإنفعالي ولديه عقل متفتح على الخبرات الجديدة.

وقام «أوبرشنر»(Oberchner 2004) بإرسال استبيان إلى ٦٠٠ مستثمر محترف في أوروبا، أجاب ٥٤٪ منهم على الإستبيان بالكامل وكان عبارة عن ٢٣ خاصية من الخصائص المفترضة للمستثمر الناجح، واتضح من رأي المستثمرين أن أهم ٥ خصائص هي:

١ – سرعة الإستجابة (أو بالأدق قصر زمن رد الفعل)(Quick Reaction Time)

٢ – الإنضباط (Discipline)

٣ – الخبرة (Experience)

٤ – التركيز(Concentration)

٥ – مقاومة الضغوط (Stress Resistance)

ومن خلال معالجات أخرى للإستبيان اتضح أن أهم خاصية للنجاح في البورصة هي: التعاون المنضبط (Disciplined Cooperation)

المستثمر الفاشل:

وهذه خصائصه كما اتضحت من عدد من الدراسات أجريت أحدها على عشرة آلاف شخص:

١ – يتميز بالإندفاعية، بمعنى أنه يتصرف بدون تفكير أو تروي.

٢ – يقوم بعمليات كثيرة وغير مدروسة ويكون الناتج النهائي لها ضعيفا، فهو كثير البيع، كثير الشراء، كثير الخسارة، أو قليل المكسب.

٣ – لديه ثقة زائدة وزائفة بنفسه.

٤ – لديه شعور زائد وزائف بالسيطرة على الأمور.

٥ – لديه تقدير مبالغ فيه لقدرته على التنبؤ.

٦ – يهون من المخاطر المحتملة.

٧ – يبيع اسهمه الرابحة بسرعة بينما يستبقي الأسهم الهابطة لفترات أطول من اللازم.

٨ – لديه قابلية عالية للإيحاء.

٩ – يأخذ بنصائح الآخرين دون أن يفندها ويتأكد من صحتها.

١٠ – يسلم رأسه للسماسرة وأصحاب مكاتب الإستشارة.

١١ – سريع الإنفعال ويتأثر بعنف بتقلبات البورصة.

١٢ – يصدق الشائعات بسهولة.

١٣ – يعزو فشله إلى عوامل خارجية مثل الحظ أو الظروف أو المشورة الخاطئة أو القدر.

وحين حاول الخبراء انتقاء الصفة الأكثر لزوما للمستثمر الفاشل وجدوا أنها «الثقة الزائدة» (Overconfidence)

ظاهرة التدافع وقت الهبوط:

حين يتعرض مبنى كبير لزلزال أو حريق، يشعر المقيمون به بالفزع الشديد فيتدافعون في الطرقات وعلى السلم ونحو الأسانسير، ونتيجة هذا التدافع يموت الكثيرون أو يصابون، ليس بسبب الزلزال أو الحريق ولكن بسبب التزاحم الشديد فيسقط بعضهم تحت الأقدام، ويزداد حجم الكارثة.

نفس الشئ يحدث في تعاملات البورصة حين يحدث هبوط حاد فيندفع عدد كبير من المستثمرين وخاصة الهواة منهم إلى البيع السريع والعشوائي فتهبط الأسعار أكثر فيثير هذا مزيدا من الهلع لدى نفس المستثمرين أو لدى مستثمرين آخرين، وهكذا يزداد التدهور بسبب حالة الهلع وسلوك التدافع، ولو استمر هذا الأمر لانهارت البورصة تماما، ولكن الذي يوقف الإنهيار هو وقوف المحترفين، ذوي القدرة على السيطرة على انفعالاتهم وأفكارهم، حيث يعرفون أن هذا الإنهيار مؤقت بالضرورة، وأنه سيصحبه ارتفاع قريب حين يفرغ الخائفون والمضطربون انفعاليا من بيع أسهمهم، وحين ينتبه المغامرون فيبدأون في الشراء في هذه الظروف انتظارا للصعود المتوقع. إذن فهبوط البورصة حدث معتاد ومفهوم اقتصاديا، أما نهيار البورصة فهو حدث نفسي بالأساس سببه سلوك التدافع الناتج عن حالات الهلع التي يصاب بها الهواة وأنصاف المحترفين.

سلوك المخاطرة:

اتضح أن ١٦٪ من المستثمرين في البورصة المصرية لا يميلون إلى المخاطرة،

ويفضلون التعامل في المناطق الآمنة، وأن ٥٤٪ منهم يبدون مترددين في اتخاذ قرارات سريعة، وقد تسبب هذا – حسب قولهم – في خسارات كثيرة، وأن أكثر فترات كانوا يترددون فيها هي تلك التي تتبع الخسارة أو المكسب.

والمخاطرة قد تبدو سلوكا سلبيا في الحياة بشكل عام، ولكنها قد تكون مطلوبة في البورصة، بل قد لا يخلو قرار في البورصة من قدر من المخاطرة، ونحن نفرق هنا بين المخاطرة العشوائية التي ترتكز على مشاعر وانطباعات شخصية، والمخاطرة المحسوبة التي ترتكز على القدر المتاح من المعلومات والتوقعات مهما كان صغيرا.

وعلى العكس من ذلك قد يكون التردد سببا لضياع الكثير من الفرص المهمة في استثمارات البورصة، والمحك هنا هو الخبرة والمهارة التي تحدد متى يقدم الشخص ومتى يتردد، والوقت المطلوب لهذا وذاك.

الحالة النفسية للمتعاملين في البورصة المصرية:

وفي بحث أجراه كاتب المقال بالتعاون مع الأستاذ الدكتور وائل أبوهندي والأستاذه داليا الشيمي على ٩٩ من المتعاملين في البورصة المصرية والمشاركين في مؤتمر عن البورصة عقد في القاهرة بتاريخ ١١/ ٥/ ٢٠٠٦م كانت النتائج كالتالي (باختصار شديد):

كانت أكثر فئة عمرية في العينة هي ٢٥–٣٥ سنة، وهذا متوقع حيث أن الإستثمار في البورصة هو نوع جديد من الإستثمار يقبل عليه الشباب، ويهابه كبار السن الذين يفضلون الأنماط التقليدية في الإستثمار.

وقد أقر ٦٣٪ من المتعاملين في البورصة أنهم مروا بحالات قلق شديدة في حالات الهبوط الحاد في البورصة، وهذا مفهوم ومتوقع، أما المفاجأة فكانت أن ٥٧٪ من المستثمرين ذكروا أنهم مروا بحالات قلق أيضا عند حصولهم على مكاسب كبيرة أو مفاجئة، أي أن المكسب و الخسارة يصحبهما حالة قلق، فالعبرة هنا بالتقلبات والمفاجآت. وأفاد ٦٨٪ من أفراد العينة أن تعاملهم في البورصة قد أثر بالسلب على حياتهم الإجتماعية، وقال ٦٤٪ أن تقلبات البورصة أثرت بالسلب على حالتهم الصحية العامة،

ولهذا فهم يعتقدون أن غير المتعاملين في البورصة أسعد حظا لأنهم – في نظرهم – يعيشون حياة مستقرة نفسيا وعائليا وواجتماعيا. وهذه الإضطرابات النفسية والإجتماعية أثرت على قدراتهم في مواصلة أعمالهم في رأي ٧٩٪ منهم. وعقب أي هبوط شديد في البورصة فإن ١٠٠٪ قد عانوا مشاكل عائلية ومشاكل صحية، و٩٧٪ عانوا اضطرابات في النوم، و٨٤٪ شعروا بالإحباط مع الرغبة في بدأ جولة جديدة من التعاملات.

وبناءا على هذه المعاناة فإن ٨٩٪ من المتعاملين مع البورصة لايحبون أن يعمل أبناؤهم في هذا المجال.

ومن ناحية اتخاذ القرارات فقد ذكر ٨٣٪ من أفراد عينة البحث أن قراراتهم تأثرت بحالتهم النفسية، واتضح أن القرارات في البورصة ليست دائما منطقية أو قائمة على حسابات وتحاليل حيث ذكر ٥٣٪ من المشاركين في البحث أنهم يعتمدون على أحاسيسهم الداخلية في قراراتهم، وذكر ٥٣٪ أيضا أنهم يتأثرون بمسائل التفاؤل والتشاؤم كما يتأثرون بآراء الآخرين. وفي أوقات الهبوط الحاد فإن ٩٧٪ يقومون بالبيع أو الشراء بدون تفكير.

وحوالي ١٦٪ من أفراد العينة قالوا بأنهم لا يميلون إلى المخاطرة في تعاملاتهم في البورصة وإنما يميلون للتعاملات المضمونة نسبيا، بينما أكد ٥٤٪ من المشاركين أنهم ترددوا في اتخاذ قرارات مهمة وأن ترددهم أدى إلى خسائر كبيرة.

ومن ناحية الإعتقاد في مسألة الحظ فإن ٧٣٪ من المستثمرين قيد البحث يشعرون أنهم غير محظوظين.

الرعاية النفسية للمتعاملين في البورصة:

بعد أن بثت وكالات الأنباء أخبار انتحار عدد غير قليل من المتعاملين في البورصة بعد الإنهيار الأخير في أكتوبر ٢٠٠٨م، ووقوع كثيرين آخرين في براثن الإضطرابات النفسية والعائلية والإجتماعية، فقد أصبح من الضروري مراعاة الحالة النفسية للمتعاملين في البورصة على أساس أنهم فئة يعانون من تقلبات السوق بشكل يؤثر في حالتهم النفسية إلى الدرجة التي

يمكن أن تدفعهم للتخلص من حياتهم حتى في البلاد التي تقل فيها معدلات الإنتحار مثل مصر. وفيما يلي بعض الخطوط العريضة لرعاية هذه الفئة من الناس:

*من الضروري أن يعرف المتعاملون في البورصة المفاهيم الأساسية المتصلة بها والمؤثرة في حالتهم النفسية مثل:

١ – الصعود والهبوط ليس حدثا استثنائيا في البورصة بل هو من طبيعتها الأساسية.

٢ – الهبوط في البورصة مهما كان حادا فهو لا يعني الإنهيار.

٣ – الخسارة في البورصة غالبا مؤقتة.

٤ – الإستثمار في البورصة عملية طويلة المدى فلا يؤثر فيه بعض مراحل الهبوط.

٥ – إذا كنت ممن يبحثون عن الأمان فمن الأفضل توزيع استثماراتك على أكثر من مجال حتى تكون المخاطرة محسوبة ومحدودة، فإذا اهتزت بعض المجالات أو بعض الأسهم عوضتها مجالات أو أسهم أخرى.

* إتاحة التقييم النفسي للمستثمرين القابلين للتوتر والواقعين تحت الضغوط، ويتم هذا من خلال:

١ – المقابلة الإكلينيكية مع متخصص في الطب النفسي.

٢ – إجراء بعض الإختبارات النفسية خاصة تلك التي تقيس درجة القلق أو الإكتئاب أو الإضطرابات النفسجسمية.

٣ – إجراء بعض الفحوصات النفسفسيولوجية لتقييم الإستجابات الإنفعالية لتغيرات السوق، مثل متابعة معدل ضربات القلب، ضغط الدم، درجة التوصيل الكهربية في الجلد، رصد نشاط المخ الكهربي أو الكيميائي أثناء ممارسة النشاط الذهني في التعامل مع البورصة.

*الدعم النفسي والإجتماعي خاصة في أوقات الضغوط، ويتحقق ذلك بما يلي:

١ – وجود شبكة دعم عائلية واجتماعية قوية.

٢ – إتاحة الفرصة للإستشارات النفسية لدى متخصصين نفسيين خبراء في مشكلات التعامل مع البورصة.

٣ – جلسات علاج نفسي فردي (تدعيمي غالبا).

٤ – تكوين مجموعات مساعدة ذاتية (Self Help Groups) يشارك فيها المتعاملين في البورصة ويعلن عن موعد ومكان اجتماعاتها في كل كل مدينة، ويتناقش أعضاؤها في المشكلات التي تواجههم، ويتبادلون الخبرات في كيفية مواجهة تلك المشكلات.

*الدعم الإلكتروني، وذلك عن طريق مواقع على الإنترنت تقدم المشورة والدعم.

*عقد دورات وورش عمل للتدريب على كيفية التعامل مع المشكلات النفسية المصاحبة لتقلبات البورصة: ويمكن أن تتم هذه الدورات بشكل مباشر أوعلى الإنترنت من خلال ال E-training

*الدعم الديني: والذي يتمثل في رؤية المكسب والخسارة من منظور أوسع، وتأكيد الطمأنينة على الرزق، واللجوء إلى الله في أوقات الأزمات بالدعاء، والإلتزام ببرنامج من العبادات، وإخراج الزكاة لتطهير المال وإنمائه، والتبرع للأعمال الخيرية وخدمة المجتمع، وتحري الحلال والحرام في المعاملات المالية، كل ذلك يخفف من حدة الشره نحو المال، ويحمي النفس ممن الإنهيار تحت تأثير التقلبات المالية، ويعطي للإنسان معنى أوسع للحياة.

***

الباشا والخرسيس

فى يوم الجمعة ٣ من أغسطس ٢٠٠٧ نشرت أكثر من صحيفة (خاصة المصرى اليوم والدستور) خبرا مفاده أن نقيب شرطة بمركز المنصوره يدعى م. م قام هو وأفراد قوته بضرب وتعذيب المواطن نصر أحمد عبدالله الصعيدى من قرية تلبانه حتى الموت. فقد داهمت هذه القوة منزل القتيل بحثا عن أخيه «على» (الذى يشتبه فى اتجاره بالمخدرات)، وضربوا زوجته وبناته الأربع، وسارع شقيقه نصر (يعمل نجارا) إلى البيت عند سماعه الخبر وسأل الضابط عن سبب الغاره فرد عليه الضابط «وانت مين يا روح امك» (تعتبر هذه العبارة من أكثر العبارات تأدبا فى مثل هذه المواقف، وهذا يحسب للضابط قائد الغارة).. وعندما علم أنه شقيق «على» انقض عليه هو وأفراد قوته بالضرب،(يحتمل أن يكون نصر قد تجاوز حدوده وطلب أن يرى إذن النيابة كما رأى فى الأفلام الأجنبية)، وتم نقله إلى المستشفى حيث توفى بعد ٢٤ ساعه متأثرا بجراحه (نصيبه كده وما حدش بيموت ناقص عمر). وفى نفس اليوم نشرت العديد من الصحف أخبارا وتحقيقات عن الشاب «يحيى عبدالله» من واحة سيوه والذى قام ثلاثة من الضباط ومعاونيهم (حسب ما ورد فى الصحف) بوضع الكحول الأحمر على جسده (هذا إكرام له فالكحول أفضل من الجاز الو..) وإشعال النار فيه مما نتج عنه حروق شديدة حاولوا معالجتها فى الإسكندرية للخروج من المأزق ولما لم يفلحوا فى ذلك نفوه إلى ليبيا ليخفوا الجريمة، وقد حدث كل هذا على أرضية شكوك حامت حول مجموعة من شباب سيوه بأنهم ربما يكونوا قد شاركوا فى سرقة كابلات كهرباء.

ليست هاتين الحادثتين هما الأوليان من نوعهما ولن يكونا الآخران فقد تكررت حوادث الضرب والتعذيب حتى الموت فى أقسام الشرطة وفى السجون فى تاريخنا الحديث ولكن زادت المعدلات فى السنوات الأخيرة، أو ربما زاد الكشف عنها بواسطة الصحافة المستقلة، ومع هذا لم نسمع عن محاكمات جادة تجاه من قاموا بهذه الأفعال التى تقشعر منها

جلود الحيوانات المفترسة، والسبب فى ذلك ربما يكون تقفيل المحاضر بشكل معين، أو شهادة الشهود المنتقين بعناية بوليسية، أو تدخلات سلطوية عليا، أو تليفونات أو رسائل محمول، أو ضغوط تمارس على أهل الضحايا للتنازل، أو يأس واستسلام وخضوع تلقائى من أهل الضحايا، أو تسليمهم الأمر لله لعدم ثقتهم بتحقيق العدل فى دنياهم وتأجيل ذلك ليوم تشخص فيه الأبصار، أو انشغالهم بلقمة العيش ومصاريف الدروس الخصوصية وكروت المحمول واشتراك وصلة التليفزيون، أو انشغالهم فى هموم حياتهم واحتساب الموتى عند الله، أو إحالة الأمر إلى القضاء والقدر وأن القتيل عمره انتهى عند هذه اللحظة وأن الباشا الذى ضربه أو عذبه لم يكن إلا سببا، أو يتنازلون مقابل عدة آلاف قليلة من الجنيهات يدفعها أقارب الباشا للحفاظ على مستقبله، وأحيانا لمجرد أنهم دعوا لشرب كوب من الشاى فى مكتب أحد الباشوات الكبار الذين لم يحلموا يوما بالوقوف أمام مكاتبهم فضلا عن دخولها والجلوس فيها والإستمتاع بابتسامة الباشا الودودة الدافئة وكلماته المهدئة للخواطر.

وإذا كنا اعتدنا أن نتساءل دائما عن موقف الباشا وجنوده الخاطئين الذين لفظ القتيل أنفاسه بين أيديهم وتحت نعالهم وعصيهم وعلى خوازيقهم: كيف ينامون وكيف يأكلون وكيف يجلسون مع زوجاتهم وأولادهم، وكيف يذهبون إلى الصلاة فى يوم الجمعة، وكيف يصومون رمضان، وكيف يذهبون إلى المصايف؟.. فإننا نتساءل فى هذه المرة عن أهل الضحية المعذب حتى الموت: كيف ينامون وكيف يأكلون وكيف يجلسون مع زوجاتهم وأبنائهم وكيف يتابعون أغانى الفيديو كليب وأفلام الكوميديا طوال الليل فى الوقت الذى تدور بمخيلتهم صورة ابنهم أو شقيقهم وهو يعانى آلام الضرب بالعصى والصعق بالكهرباء والحرق بالنار والتعليق فى السقف لساعات طويلة فى غرفة مظلمة وهو جائع وعطشان يستغيث ولا يجد من يغيث حتى لفظ أنفاسه ألما ويأسا وكمدا؟ (بالمناسبة بعض الحالات تموت موتا نفسيا بسبب الشعور بالمهانة والظلم والقهر، حتى ولو لم توجد إصابات جسدية تفسر الوفاة).

ويسرح الخيال عائدا للخلف فى التاريخ (كعادتنا حين نفقد الأمل فى الحاضر

والمستقبل) ليواكب ما دار فى نفس المصرى الذى سبق ابن عمرو بن العاص فى سباق الخيل فضربه ابن عمرو بدرة كانت فى يده قائلا: أتسبق ابن الأكرمين؟!... فى حدث نستطيع فى عصرنا الحاضر هضمه وابتلاعه وتبريره وتمريره بسهولة فائقة نتميز بها على غيرنا من الشعوب (فكثيرا ما يعتدى نجم كره أهلاوى على الحكم فى مباراه مع الزمالك اعتراضا على كارت أحمر ويصرخ فى وجهه قائلا: انت عارف انت بتطرد مين؟ ويتبع ذلك بلكمات سريعة تنتهى بسقوط الحكم، ويتم الصلح بعد ذلك فى غرفة الملابس مع الإعتذار للحكم، إذ ليس لدينا فيفا توقف اللاعب عن المباريات التالية، ونحن شعب طيب ومتسامح)، فلماذا لم يستطع الحاضرون فى هذا السباق أن «يلموا الموضوع ويراضوا المصرى بكلمتين ويصالحوه على ابن عمرو بن العاص، وكفايه عليه الهزيمه فى السباق، ويا دار ما دخلك شر، ودى لحظة انفعال والشيطان دخل بيناتهم، وحماس شباب ما انت عارف، والعين ما تعلاش على الحاجب، والمياه ما تطلعش فى العالى، وانت عارف القوى عايب، والباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح، ويعنى هى الشتيمه يتلزق، ويا بخت من بات مظلوم ولا بات ظالم، والمسامح كريم، وعديها المر دى، وطنش، وسماح النوبه، وروق ال G وكبر ال D...»... للأسف كل هذا لم يحدث وركب الشاب المصرى دماغه التى لم تبرمج بعد بكل ما سبق، و«نقحت عليه» كرامته وقرر خوض الفيافى والقفار سيرا على الأقدام أو راكبا حصانه (اللى سبق بيه وجاب له وجع الدماغ) فى رحلة غاية فى المشقة إلى المدينة المنورة ليصل إلى أعلى سلطة فى الأرض فى ذلك الوقت مطالبا بحقه الذى انتهكه ابن الأمير عمرو بن العاص رغم أن الضربة التى تعرض لها لم يثبت (فى تقرير طبى موثق) أنها أحدثت كدمات أو تشوهات فى الجسد (يحتمل أنها كانت درة كهربائية تحدث ألما ولا تترك أثرا يتعلق به وكيل النيابة ويثبته فى التحقيق). لماذا لم يتردد وهو فى الطريق ويقرر العودة، لماذا لم يلحق به أصحاب الحلول التوفيقية والتلفيقية ويقنعوه بالعودة ويردوه إلى صوابه؟.. مالذى كان يدور فى رأسه وفى حناياه طوال الطريق الوعر ليلا ونهارا على مدى ما يقرب من الشهر وهو يتعرض للمخاطر من قطاع الطرق ووحوش البرارى؟.. أى قدر من الكرامة والشعور بالذات يسكن جنبات هذا المواطن ويدفعه إلى

هذا السلوك؟؟... أى ثقة فى عدل الخليفة يسعى إليها وهو متأكد منها؟؟.. وهل لم يخف بطش عمرو بن العاص وابنه حين يعود إلى مصر وقد اشتكاهم إلى رئيسهم الأعلى وأحدث لهم هذا الحرج؟؟.. وهل لم يخف من استدعاء جنود عمرو لأبيه وزوجته وابنته وتهديدهم بالإغتصاب لو لم يعد هذا الشخص عن غيّه؟؟.. هل أمن على نفسه وأسرته تلفيق قضية آداب أو مخدرات أو إرهاب؟؟.. كيف تركه حرس الحدود يمر وهم يعلمون نيته فى شكوى أمير البلاد وابنه؟؟.. كيف غفل عنه المخبرون وهم مندسون فى كل مكان وجالسين على كل القهاوى؟؟.. كيف لم ينتبه له أحد الباشوات فيدعه لشرب الشاى فى مكتبه ويمارس ضغطا أدبيا عليه للتنازل والتصالح، وإذا لم يفهم الرسالة يسحب الشاى ويستبقى هو للنظر فيما إذا كانت عليه قضايا أم لا؟؟.. ولماذا لم يقم رجال الحزب والحكم المحلى بدورهم فى ترضية هذا المواطن الغاضب ذى الرأس الناشفة بكلمتين وبس؟؟.. ولماذا لم يستدع رجل دين يذكره بوجوب الطاعة والإنحناء والرضا بما يفعله ولى الأمر على أساس أنه أدرى بما يصلح رعيته؟؟. لا نعرف لما ذا لم يحدث كل هذا، ولكن الذى بلغنا أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد هو أن الخليفة العادل العظيم عمر ابن الخطاب رضى الله عنه استقبله بنفس الروح الكريمة العالية فلم يكتف بتعويضه (من بيت مال المسلمين الذين لم يضربوه) ولم يكتف بالإعتذار له أو تطييب خاطره، وإنما استدعى عمرو بن العاص رضى الله عنه وابنه وطلب من المصرى أن يرد الضربة لابن عمرو ثم زاد فى الطلب وأمره أن يضرب صلعة عمرو بن العاص فتردد المصرى كرما وحياءا ونبلا قائلا: إنما ضربنى ابنه ولم يضربنى هو.. فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما معناه: قد ضربك بعز أبيه، ولم يكتف الخليفة العادل العظيم بذلك بل أرسل عبارته المدوية لتكون قانونا للعدل يجلجل فى صفحات التاريخ ليخيف كل من يجور ويوقظ أصحاب الحقوق: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا».

ما هذا الفارق الهائل بين البشر فى هذا الموقف والبشر فى أى قرية أو مدينة أو واحة مصرية معاصرة، لماذا تصرفوا هناك بكل هذا النبل وتلك الكرامة وذلك العدل، ويتصرفون هنا بعكس ذلك تماما؟؟. يبدو أن الفارق هو فارق نفسى بالأساس.. فارق فى

إحساس كل طرف بذاته.. ففى زمن عمر بن الخطاب كان المصرى يشعر بكرامته وعزته وكيانه ويشعر بأن له حق المواطنة حتى أمام أمير البلاد وفاتحها، وهو لا يتنازل عن حقه وكرامته، ولا يطالبه أحد أو يضغط عليه ليتنازل، وفى المقابل نرى عمر بن الخطاب يجل هذه الروح الكريمة العظيمة (رغم اختلاف الديانة حيث كان المصرى قبطيا) ويصر على رد الإعتبار بكل الوسائل ويستدعى أمير مصر (ويغامر فى ذلك بالأمن القومى والمصالح العليا للبلاد) لتحقيق العدل حتى ولو كان على المستوى الفردى فالعدل لا يتجزأ، وإذا رأيت جورا بيّنا على حقوق الأفراد فتأكد من وجود الجور الأكثر بيّنة على حقوق الشعب بأكمله.

ويبدو أن الباشا (أى باشا) الذى ضرب وعذّب حتى الموت (قبل ذلك والآن وبعد ذلك) يشعر فعلا فى قرارة نفسه أنه «باشا» فالإسم لم يأت من فراغ وإنما أملاه الواقع الذى يعطى للضابط تضخما فى ذاته وتوسعا فى سلطاته يصل (بل يتجاوز) ما كان يحظى به الباشا التركى من حق فى رقبة الفلاح «الخرسيس» الذى كان يستعبده فى أرضه ويمتلكه هو وأسرته، ويجلده بالكرباج، ويلقى عليه الماء الساخن يسلخ به جلده (كما ورد فى الأخبار والروايات)، ولا يجرؤ أحد أن يسائله فى ذلك، ومن هنا ربما نستطيع أن نفهم سر ارتباط لقب «باشا» بضباط الشرطة أكثر من غيرهم فهى إن قيلت لغيرهم تقال على سبيل المجاملة الإجتماعية أما لهم فهى لازمة وواجبة ومؤكدة. والفلاح هنا هو المواطن المصرى، وهو خرسيس فى نظر الباشا، وقد بحثت فى القاموس عن معنى كلمة خرسيس فلم أجد، ويحتمل أن تكون كلمة تركية أو أن تكون كلمة من صنع المرحلة الباشوية، وبصرف النظر عن أصل الكلمة ومعناها اللغوى إلا أنها تحمل ظلالا تدور حول الحقارة والدناءة والخبث والقذارة والجهل والوضاعة وعدم الجدارة وضعف الإستحقاق. وهذه الصورة الذهنية التى ترسخت فى نفس الباشا التركى أو المملوك السلطانى أو الخديوى أو الملك للمواطن المصرى هى نفسها فى نفس الباشا الحالى، وإذا أردت أن تتأكد من ذلك فاذهب إلى أى قسم شرطة واقض فيه يوما أو عدة ساعات، وانظر ماذا يدور فيه، وما هى الألفاظ التى ينادى بها الباشوات على المترددين على القسم (من أول «ياله» إلى يا «ابن

ال...».. «يا ابن ال....» «يا.....»). ولست أدرى لماذا يتفرد الباشوات عندنا بهذا القاموس اللفظى الذى نسمعه فى اقسام ومراكز الشرطة، وكيف يتعلمونه وأين يتعلمونه وممن يتعلمونه، على الرغم من انتسابهم فى الأصل لأسر طيبة فى كثير من الأحيان، وأن هذا القاموس لم يكن واردا أو محتملا فى بيئتهم العائلية الأصلية، بل إن القليلين منهم الذين لا يستخدمون مفردات هذا القاموس ليشعرون بالغربة بين أبناء مهنتهم، وربما يتهم الواحد منهم بأنه «فافى» أو «طرى» أو «عامل ابن ناس». وروح الباشا تسكن من يعمل فى هذا الجهاز المهم وتترسخ مع الوقت ومع تكرار سماعها، وتتضخم معها الذات خاصة حين ترى السلطة فى يدها بلا حدود، وهنا لا تحتمل أن يسألها أحد عن سر اقتحامها للبيوت أو عن إذن النيابة، أو عن الموقف القانونى، وليس أخطر من غضب الذات المتضخمة حين يعترضها أحد خاصة إذا كان فلاحا خرسيسا، هنا يطيش صواب الباشا ويشعر بامتهان كرامته وسقوط هيبته التى هى فى نظره هيبة الدولة كلها، ومن هنا يحق له التضحية بالفلاح الخرسيس فى سبيل الحفاظ على هيبة الدولة وسلامتها. وهذا التضخم الباشواتى يجعلنا نفهم سر الحسد والتباغض الخفى (وربما أكثر من ذلك) بين جهاز الشرطة والجهاز القضائى حيث يسعى جهاز الشرطة إلى التخلص من القيود التى ربما يفرضها عليه الجهاز القضائى، وفى المقابل يشعر الجهاز القضائى بأنه يقضى فى الأمر ولا يملك القوة للتنفيذ إلا من خلال جهاز الشرطة الذى يتنافس معه على السلطة بدلا من أن يتكامل معه فى إرساء الحق والعدل.

وأحداث التعذيب حتى الموت التى تكررت كثيرا فى الآونة الأخيرة مع شيوع العنف اللفظى والعنف البدنى بدرجاتهم المختلفة فى مراكز الشرطة ومقار الأمن يستدعى مراجعة للتركيبة النفسية للباشوات وكيف يتم إعدادهم، وما الذى يقال لهم فى أروقة المحاضرات وفى السكاشن وفى قاعات وساحات التدريب، وماهى الصورة الذهنية لضابط الشرطة لديهم، وماهى الصورة الذهنية للمواطنين بطبقاتهم الإجتماعية المختلفة، وما الذى يجعل شخصا من جلدتنا يقوم بتعذيب مواطن من جلدتنا أيضا حتى يلفظ أنفاسه بين يديه ثم لا يشغله غير سلامته وكيفية خروجه من هذا الأمر بلا محاسبة، وهل

هذه أعمال فردية يتحمل وزرها من فعلها وتأتى بطريق الصدفة، أم أنها روح عامة تتسم بالعدائية والإحتقار للمواطن المصرى الذى هو فى النهاية مجرد «فلاح خرسيس» لا يستحق إلا الجلد بالكرباج أو السحل على الأرض أو الحرق بالنار أو الصعق بالكهرباء؟. وقد يثور سؤال برئ، كيف تدخل أدوات التعذيب أقسام الشرطة ومقارها، وكيف تشترى، وماهى البنود التى توضع تحتها، وهل هى عهدة مثل باقى الأشياء والأسلحة والأساسات؟.. وهل هناك تدريب على استخدامها؟.. أم ان استخدامها بدون تدريب كاف هو الذى يؤدى إلى المخاطر التى تحدث دون أن يقصد مستخدموها؟؟. كل هذه تساؤلات مشروعة تفرضها المصلحة العامة والخاصة على السواء فقد يجد أى منا نفسه أو أى فرد من أسرته ضحية لمثل هذه الممارسات دون حماية من قانون أو عدل، فليس أخطر من شخص متضخم الذات تضع فى يده سلطة بلا ضوابط. ولكى لا نبتعد عن العدل الذى ننشده وعن الموضوعية التى ننادى بها لا بد من التنبيه إلى وجود عدد لا بأس به من ضباط الشرطة المخلصين المتفانين الذين يضحون براحتهم وبحياتهم الشخصية والعائلية فى سبيل أداء واجبهم، ويقضون ساعات طويلة فى العمل مقابل مرتبات زهيدة نسبيا، وهم منا ونحن منهم، ونرتبط بالكثيرين منهم بصداقات وقرابات وعلاقات زمالة وجوار. ومن المنطقى أيضا أننا لا نطالب بأن يكون ضابط الشرطة فى رقة الفنان أو الأديب ووداعتهما، فهذا يعيق أداءه لمهمته ويخالف طبيعة وظيفته التى تتطلب الحزم والقوة الراشدة والجدية والإنضباط. ويخطئ أيضا من يحاول التعميم ووصم جهاز الشرطة بما يقوم به بعضهم أو كثير منهم واعتبار أن هذا الجهاز فى مصاف الأعداء فهذا أيضا توصيف خطر، فهم أولا وأخير إخوتنا وأقاربنا وجيراننا وزملاءنا وأصدقاءنا، وكل ما نطالب به هو مراجعة لما أصاب المهنة (كما أصاب مهن أخرى) من خلل بسبب بعض التصورات أو السياسات أو الممارسات مما وصل إلى مرحلة الخطر خاصة تجاه جهاز شديد الحساسية وعظيم الدور فى مجتمعنا وفى أى مجتمع. وقد يخطئ البعض فيتصور أن جهاز الشرطة لا يمكن أن يقوم بدوره دون ممارسة العنف اللفظى والجسدى معا ودون بعض التجاوزات، وهذا خطر كبير ففى كل الدول المتقدمة يمارس جهاز الشرطة دوره

بحزم وقوة وفى نفس الوقت باحترام لحقوق المواطن (مهما كانت جريمته) وانضباط بالقانون. وربما تختفى الكثير من المشكلات لدينا حين يختفى لفظ الباشا من تعاملاتنا مع رجال الشرطة فقد رأينا فى بلاد كثيرة أنهم ينادون برتبهم، وفى هذا تقدير لهم ولمنازلهم وفى ذات الوقت ابتعاد عن التضخيم المبالغ فيه لذواتهم والذى يحمل خطرا عليهم وعلي من يتعامل معهم على السواء. وأيضا تعتدل الموازين حين يشعر ضابط الشرطة أن التزامه بالقانون وحراسته له هو سر قوته واحترامه بين أهله وناسه. وربما يحتاج الأمر زيادة جرعة تدريس حقوق الإنسان فى كليات الشرطة، وربط ذلك بحرمة النفس فى الأديان، وقبل كل هذا تغير روح هذا الجهاز المهم بحيث يعود مرة أخرى (حقيقة وشعارا) فى خدمة الشعب (فقط لا غير).

نأتى أخيرا للتركيبة النفسية للطرف الآخر وهو الفلاح الخرسيس، الذى تضيع حقوقه وتضيع كرامته وربما تضيع حياته، وهو ساكت أو خائف أو خانس أو قانع أو جاهل أو متربص أو متآمر، أو متنازل. وهو يفعل كل ذلك ولديه تقدير متدن لذاته، وهبوط حاد فى كرامته، وجفاف خطير فى عزته وشموخه، وجهل شامل بحقوقه كمواطن، وفشل فى علاقته بالسلطة يجعله هو والسلطة يخسران، وسلبية عدوانية خبيثة تؤدى إلى تدهور مستويات حياته، وإرث تاريخى استعمارى يجعله مملوكا أو عبدا للباشا (أى باشا) يخشاه ويتزلف إليه ويلعنه فى قرارة نفسه ويمارس الفهلوة للتحايل عليه وعلى الحياة فيخسر نفسه ويخسر حياته ويخسر مستقبله ومستقبل أبنائه الذين ادّعى الخضوع والخنوع من أجل الحفاظ على مستقبلهم. وشيئا فشيئا يتشوه الفلاح الخرسيس وتتضاءل صورته فى عين الباشا (أى باشا) فيبالغ الأخير فى احتقاره وسحقه ويتعدى على حقوقه ويقهره، وربما يستمتع (كل منهما) بذلك أو يتعود عليه ويألفه. ولسنا نبالغ إذا قلنا بأننا فى حاجة إلى إعادة تأهيل قد تستغرق سنوات للخروج من عقلية ونفسية الفلاح الخرسيس إلى عقلية ونفسية المواطن الكريم الذى يسعى لحقوقه ويؤدى واجباته بشكل لا ئق وكريم، فلا يتملق السلطة فى الظاهر ويلعنها فى الخفاء، ولا يتوحد مع المعتدى فتتسع دائرة العدوان والفساد، ولا يجعل ظهره مطية لكل من تسول له نفسه بالركوب. إننا فى

حاجة إلى تحرر داخلى يبدأ من داخل أنفسنا التى أصابها العفن والوهن، وإلى أن نرى أنفسنا فى وضع نستحق فيه الحياة الكريمة فنسعى لتحقيقها وقد نزعنا معا ثياب الباشا والخرسيس ولبسنا ثياب العدل والعزة والكرامة، ولن يتحقق هذا حتى نرى الباشا الذى عذب وضرب وصعق وحرق قابع فى السجن يقضى عقوبة فعله ونرى الفلاحين وقد أصروا على القصاص القانونى الموضوعى العادل صيانة لأرواح أبنائهم وأعراض بناتهم دون شغب أهوج أو عنف منفلت، ونرى تقارير الهيئات الدولية وقد خلت صفحاتها من اتهامنا المتكرر بانتهاك حقوق الإنسان والحيوان والنبات والأرض والبحر والجو.

الزملكاويه

ما إن انتهيت من إصدار كتابى عن «الشخصية المصرية» حتى نصحنى أحد أصدقائى بإعادة طباعة الكتاب ولكن بعد فهم عميق للشخصية الزملكاوية، فسألته متعجبا وهل هناك ما يسمى بالشخصية الزملكاوية؟.. وما علاقة الشخصية الزملكاوية بالشخصية المصرية عموما؟؟.. فرد على الفور متعجبا من أميتى الكروية والنفسية: بالتأكيد.. يكفى أن تنظر فى وجه الشخص أو ترى جلسته أو تسمعه يتكلم لخمس دقائق حتى تقول: هاهو زملكاوى!!.. وسوف تكون مصيبا فى أكثر من ٩٠٪ من الحالات، ثم إن الشخصية الزملكاوية تجمع أكبر قدر من خصائص الشخصية المصرية فى علاقتها بجهازها الإدارى وفى علاقتها بلاعبيها وفى علاقتها بنجاحاتها وإخفاقاتها. لقد أصبح الموضوع كبيرا ودخل فى نطاق وطنى لا يمكن السكوت عليه وربما يمس الأمن القومى فى رأى بعض الناس، وأصابنى الحزن على أننى لم تكن لى انتماءات كروية محددة ومؤكدة طوال سنين عمرى، وكنت (وما زلت) أفخر بموقفى المستقل كرويا وسياسيا، وهنا توقفت وتشككت فأنا أعتقد أن الأهلاوية أكثر عددا، وهم يمثلون فى الغالب عموم الناس، ولذا سألته مباشرة لعل انطباعى يكون خاطئا أو ساذجا: أليس الأهلاوية هم الأكثرية؟ فرد على الفور وكأنه كان يسابق أفكارى: الأهلاوية أكثر عددا والزملكاوية أكثر صخبا!!!!. إذن بما أن المصريون يتميزون بكثرة العدد (أو هكذا يعيّرنا المسئولون ليل

نهار) وكثرة الصخب، فإن الأهلى والزمالك ليسا فقط ناديين أو انتماءين كرويين وإنما هما عصب الخصائص المصرية فى نظر محدثى الذى يستغل جهلى الكروى للقدح فيما توصلت إليه من خصائص للشخصية المصرية بينما أنا جاهل بخصائص الشخصية الزملكاوية والشخصية الأهلاوية، وهنا فهمت معنى وقيمة سؤال الأستاذ أحمد المسلمانى للدكتور/ أحمد زويل فى لقائه بجامعة أسيوط (وكان آخر سؤال فى اللقاء) عن كونه أهلاويا أو زملكاويا، فابتسم زويل وأجاب بذكائه المعهود «أنا مصرى».

عموما لم تكن المهمة صعبة فى تقصى خصائص الشخصية الزملكاوية، فعلى الرغم من أميتى الكروية حيث لا أتفرج على مباريات كثيرة بسبب مواعيدها التى تتعارض مع مواعيد عملى، إلا أننى دائم الفرجة على جمهور الزمالك وجهازه الفنى والإدارى حيث أراهم فى الشارع وعلى الفضائيات بكثافة بعد عودتى إلى البيت، فهم ظاهرون جدا بعد انتهاء المباريات، فالمباراه مدتها ساعة ونصف، ولكن تداعياتها لديهم ساعات وأيام وأحيانا شهور وسنوات، فهم يهاجمون الحكم، وحامل الراية، والجمهور، واتحاد الكره، والكره نفسها، وأرض الملعب، والظروف، والحكومه، والجهاز الفنى، والجهاز الإدارى، والجهاز الدورى، والجهاز الهضمى!!.

ويرى بعض الزملكاوية ممن لديهم نزعة التميز التاريخى أن ناديهم فى الأصل هو نادى الصفوة حيث كان يسمى «نادى فؤاد» نسبة للملك فؤاد، وأنه قام على انتساب علية القوم إليه فى ذلك الوقت، ويرى البعض الآخر ممن لا يهتمون بالبعد التاريخى قدر اهتمامهم باللعب فى الحاضر أن لعب نادى الزمالك أرقى وأجمل على الرغم من هزائمه المفاجئة والمحبطة والمخيبة لآمال جمهوره، كما يرون أن الخلافات المزمنة لجهازه الفنى والإدارى مردها حالة الديموقراطية التى تميز هذا النادى العريق المتحضر.

وليس مفهوما على وجه الدقة حتى الآن لماذا ينتمى شخص إلى ناد معين ويشجعه دون غيره ويظل مخلصا لهذا الإنتماء طوال حياته؟.. فالبعض يراها مسألة صدفة تحدث فى لحظة فوز كروى مفاجئ للزمالك صادف لحظة تفتح للشخصية على العالم، والبعض الآخر يراها وراثة حيث تتميز بعض الأسر بكثرة الأهلاوية أو الزملكاوية فيجد الأبناء

أنفسهم وقد تأهلوا أو تزملكوا بلا إرادة منهم، وفريق ثالث يراها رد فعل عكسى، حيث يميل بعض الأشخاص إلى الخروج عن المألوف فتتشكل انتماءاتهم الكروية عكس الأسرة أو عكس مجموعة الأصدقاء أو المعارف وذلك طبقا لمبدأ «خالف تعرف»، وهذا يؤدى إلى نوع من الحوار والتواصل بين المختلفين، وفريق رابع يرى فى الإنتماء الكروى تحقيق لاحتياجات نفسية عميقة ومؤكدة لدرجة أن بعضهم بالغ فى ذلك وكتب عبارة تقول: «قل لى إلى أى ناد تنتمى أقل لك من أنت» و «الناس على شاكلة نواديهم»، فالنادى الذى تشجعه يحقق لك احتياجات شخصية مهمة سواء فى انتصاراته أو انكساراته. والناس عموما مغرمون بتشجيع الكره ومشاهدتها لأنها تمثل بالنسبة لهم القوة والجمال والقانون والحق والعدل، ولهذا يغضب الناس أشد الغضب حين يضعف فريق، أو حين تطيش لعبة أو تضطرب، أو حين يخطئ الحكم أو يظلم، وكأنهم يستعيضون عن الضعف والقبح والظلم فى حياتهم اليومية بما يرونه فى الملعب من نظام وتنسيق وقوة وجمال ورشاقة وبراعة وعدل. وقد يكون الإنتماء الكروى فى حد ذاته مطلبا نفسيا واجتماعيا خاصة حين تضعف الإنتماءات الأخرى، وقد يكون اختلاف الأندية والإنتماءات مدعاة للتواصل بين البشر، حتى ولو كان تواصلا صاخبا أو حادا فى بعض الأحيان فهو أفضل من العزلة والملل.

وهناك ظاهرة لا تخطئها فى أى زملكاوى، فعلى الرغم من إحباطاته من عثرات ناديه ومشكلات أجهزته سالفة الذكر، ولعنه الدائم لهم جميعا إلا أنه يستمر زملكاويا!!، وقد سألت أحد أصدقائى الزملكاوية يوما، وهو فى حالة غضب شديدة ودائمة مما يحدث فى الزمالك ومن الزمالك: لماذا لا تغير جنسيتك الكروية، أو تطلب حق اللجوء الكروى (على رأى عمرو أديب حين هدد بذلك وهو فى لندن)، فرد علىّ متألما ومتعجبا: إنه الإنتماء، فكما أنك مصرى تعانى من مصريتك كثيرا هذه الأيام فى الداخل والخارج إلا أنك لا تستطيع الفكاك من انتمائك، فقلت له فى ألم: صدقت!!، وتذكرت ذلك الشخص الذى رد على سؤال:«إنت أهلاوى ولا زملكاوى؟ بقوله: أنا زملكاوى بس باتعالج».

ومن المشاهد المألوفة والمتكررة أن ترى زملكاويا واحدا فى أحد المقاهى أو أحد

وسائل المواصلات يواجه عددا كبيرا من الأهلاوية ينتقدهم ويهاجمهم ويتوعدهم، ويستمر هذا المشهد ربما لعدة ساعات وهو صامد لا يكل ولا يمل ولا يخاف بطش الأهلاوية وزيادة عددهم. وربما يعكس هذا بعض السمات لدى الزملكاوى مثل القدرة على المواجهة والجدل إلى أقصى درجة، و«المعافره» و «المقاوحه»، والرغبة فى التفرد بعيدا عن آراء عموم الناس، والخروج عن المألوف والسائد، وتبنى موقف المعارض، وحب المغامرة، والإستعداد للإشتباك اللفظى مع المنافسين مهما كان عددهم (بشرط أن يبقى لفظيا فقط).

وهذا الموقف المتفرد والمنفرد قد يعطى الزملكاوى إحساسا بالزهو والإختلاف والتميز عن عموم الناس رغم ما يعانيه من ضغوط ويواجهه من إحباطات. وحين أرى السيد مرتضى منصور ينتقل من اشتباك إلى اشتباك فى المحاكم ومجلس الإدارة والفضائيات، أرى نفسى حائرا: أأدعو له بسرعة فض الإشتباك أم أدعو له بدوام الصحة والإشتباك (أيهما أفضل له وأنفع؟!.. لست أدرى).

وكنت فى وقت من الأوقات أظن أن الزملكاوية لديهم قدرة هائلة على تحمل الإحباط والهزائم غير المنطقية او غير المتوقعة من فريق كبير مثل الزمالك له انتصاراته العديدة، إلا أننى اكتشفت بعد طول تأمل أن الزملكاوية لديهم احتياج لأن يواجهوا إحباطات وأن يكونوا فى موقف المظلوم، وأن يعيشوا على انتظار تحقق الحلم، وناديهم يعطيهم العديد من الإنتصارات، ولكنه فى ذات الوقت يحافظ على احتياجاتهم العميقة فينهزم أحيانا أمام فريق مجهول، أو تتدهور أحواله الإدارية بما يوحى بقرب الإنهيار، أو تحدث صراعات شديدة فى أجهزته الفنية والإدارية تصل شظاياها إلى أغلب صفحات الصحف وشاشات الفضائيات. وموقف المظلوم أو المحبط قد يعطى مساحة لصاحبه إما للشكوى (من طوب الأرض) أو للأمل فى نصر قريب وانصلاح الحال (الذى هو من المحال)، وبما أن هذا الموقف يشكل احتياجا نفسيا إذن فلا بد وأن يظل الحال كما هو، أو على الأقل لا يتغير كثيرا. وإضافة إلى ما ذكرنا آنفا فإن الإنتماء لناد معين وتشجيعه شئ لا يأتى مصادفة أو عفويا، ولكن الواقع يقول بأن الإنتماء الكروى يرتبط بحاجات بيولوجية

ونفسية كثيرة، فتركيبة الهرمونات والناقلات العصبية لدى الزملكاوى تجعله فى حالة استنفار دائم ورغبة فى محو آثار الهزيمة السابقة الماحقة، وسعى نحو تحسين الأحوال، وإعطاء فرصة جديدة للمدرب ومساعديه، وبدأ صفحة جديدة مع الجهاز الإدارى الجديد، ثم هو يحتاج من وقت لآخر لمفاجئة أو صدمة كروية أو إدارية من ناديه تجعله منشغلا بما كان وما يجب أن يكون، وتعطيه فرصة لإلقاء اللوم على أحد ما أو على شئ ما، وتسمح له بالإشتباك مع خصم، أى خصم، وهكذا يتجدد النشاط وتعمل الغدد الصماء وغير الصماء، وهذا يمحو الكثير من الملل ويدعو إلى التعلق بالأمل.

وقد يكون الإنتماء الكروى بديلا أو مكافئا للإنتماء السياسى، فيحقق فيه المنتمى كل ما يريد بعيدا عن أجواء السياسة الخطرة والشائكة، وتخرج اعتراضاته وانتقاداته تجاه جهاز الكرة وتجاه اللاعبين بدلا من خروجها تجاه الحكومة أو النظام، وبهذا المعنى تتسرب روح المعارضة من عالم السياسة إلى عالم الكره (تخيلوا لو أن صديقى العزيز / إبراهيم عيسى ترك المعارضة السياسية وتفرغ للنقد الكروى!!). وبناءا على هذا الإفتراض فإن مشجعى الزمالك ينتمون فى الأغلب إلى تركيبة المعارضين الذين يسعون دائما لصورة أفضل ولكنها لا تتحقق كما يريدون، وهم دائما فى حالة اشتباك مع الواقع الذى ينتقدونه أو يرفضونه ويحاولون تحسينه.

ومن هنا نفهم التكوين النفسي لجمهور الزمالك وهو يحاول أن يقف مع ناديه المظلوم – دائما – ويدافع عن حقه فى النهوض من العثرات – المتكررة –، وهو تكوين أقرب ما يكون –كما ذكرنا– إلى تكوين المعارضين السياسيين الذين يفضلون دائما موقف المدافع عن الحقوق المسلوبة، والفئات المظلومة والمضطهدة، ولهذا لا نستغرب وجود عدد لا بأس به من الزملكاوية فى صفوف المعارضة بل هم نجوم لها. والمعارض المزمن لا يصلح لأن يكون فى حكومة أغلبية لأن تركيبته لا تتفق مع الغالب ومع من بيديه مقاليد الأمور، ولهذا يبحث دائما عن أحد يعارضه. ومن هنا تتضح فكرة أن نادى الزمالك لو حقق انتصارات متوالية، وانصلح حال أجهزته فربما كان ذلك سببا فى هجر عدد كبير من مشجعيه والمنتمين إليه انتماء احتياج واضطرار وحب، أو على الأقل فتور انتمائهم، ولهذا

فإن النادى يعرف بشكل غريزى غامض متى ينتصر ومتى ينهزم ومتى يحبط مشجعيه ومتى يرفعهم فى أعالى السماء ومتى يهبط بهم فى سابع أرض، فهذا كله ينشط أجهزتهم الحيوية، ويعطيهم فرصة للشكوى والهجوم والإسقاط والإزاحة، وكلها احتياجات نفسية ملحة لدى مشجعى الزمالك ولدى المعارضين بوجه خاص ولدى فئات أخرى من الناس تبحث عن التفرد والتميز والوضع الأفضل، وتجرى وراء المحال وتبحث عن التحدى الذى لا يطال.

نأتى لوجه الشبه بين الزملكاوية والشخصية المصرية، كما يراها صديقي.....معذرة لن نتمكن من عقد هذه المقارنة حيث انشغل صديقى الزملكاوى بالجدل مع أهلاوى عنيد وتركنى وحدى، لذا سأترك لك عزيزى القارئ محاولة رؤية أوجه الشبه أو الإختلاف بين الزملكاوية والمصريين، مع أطيب التمنيات للجميع بالشفاء.

❊ ❊ ❊

الإنتصار البديل في الساحة الخضراء

على الرغم من كراهيتي الشديدة للزحام أحرص في كل مرة يفوز فيها الفريق القومي على النزول إلى الشارع لأذوب وسط أمواج البشر السعداء، وهي لحظات لا تتكرر في حياة الشعب المصري – حسب علمي - إلا في مثل تلك الظروف، ولذلك فهي لحظات استثنائية ترى فيها الفرحة الحقيقية تغمر الجميع على اختلاف انتماءاتهم واتجاهاتهم وميولهم، وهي الحالة الوحيدة التي تتجمع فيها قلوب المصريين ويتجاوزون إحباطاتهم وهمومهم وأحزانهم ومخاوفهم، حالة من الزحام الإختياري اللذيذ تتوقف فيها حركة المرور دون تذمر أو ضيق أو كلاكسات استغاثة أو سخط على النظام المروري المضطرب، حالة ينسى الجميع فيها غلاء الأسعار، ومظاهرات كفاية، واعتقالات الإخوان، ومبايعات الحزب الوطني، ومقالات ابراهيم عيسى، وتحقيقات وائل الإبراشي، وشياكة وذكاء وعمق حوارات منى الشاذلي، وخفة دم عمرو أديب، وعمق معالجات بثينه كامل، وتساؤلات دريه شرف الدين، واختراقات عمرو الليثي، وجدية مجدي مهنا، وتنظيرات حسنين هيكل، وأخبار الجزيره، وذكاء ولطف محمود سعد، وكليبات روتانا، إنها حقا حالة فريدة بكل معنى الكلمة لا يدركها إلا من ينزل إلى الشارع ليذوب وسط هذه الموجات البشرية السعيدة والمبتهجة. فما هو ياترى السر وراء هذا الإنتماء السعيد والذوبان الأسعد والتوحد الشعبي الهائل، وأي قوة عاتية تتعتع موجات الهموم والصراعات والخلافات لكي تضع مكانها كل هذه التيارات من الفرح الحقيقي والجارف؟

يقولون إن الشكل الكروي هو أكثر الأشكال راحة للنفس حيث يخلو من الزوايا والنتوءات، وتستطيع أن تلتف حوله من كل الجهات بلا فرق، وهذا ما يجعل القلوب تلتف حول الكرة من كل الطوائف والأعمار ومن كل الجهات بشكل متساو، وتكاد تكون الكرة هي مصدر المتعة الدنيوية الوحيدة التي لا تفرق بين غني وفقير، أو بين

مثقف وجاهل، أو بين صغير وكبير، إنها حالة من المساواة الإجتماعية في توزيع السعادة الممزوجة بالإثارة (وأحيانا التعاسة).

وقد يكون الإنتماء الكروي انتماءا بديلا وبريئا وسعيدا بعد أن ضعفت الإنتماءات الأخرى أو أصبحت محاطة بمخاطر ومحاذير خاصة الإنتماءين الديني والسياسي. وإنها لظاهرة عجيبة تستحق اهتمام الجادين من علماء النفس لكي يحللوا ويفسروا كيف يخرج الشباب المصري والفتيات المصريات الذين ضعف حماسهم لمسائل الإنتماء والهوية في مواقف كثيرة، خرجوا يحملون الأعلام المصرية بكل هذه الأعداد في الشوارع والطرقات يهتفون باسم مصر وباسم أبطال الفريق القومي من صميم قلوبهم، وكأنهم جوعى للإنتماء وطالبي هوية. ولقد اهتز كياني وأنا أقرأ ما كتبته فتاة مصرية هي «رحاب شكري» في مدونتها تقول:

«عفوا فأنا لا أشعر بوطنيتي إلا أثناء المباريات الدولية؛ ولست وحدي من أعاني من الوطنية الكروية فمعظم أبناء جيلي لا يهتفون باسم مصر إلا أثناء تسجيل أهداف مباريات كرة القدم الدولية فقط. فأنا لا أتذكر أني أمسكت علم مصر إلا في كأس الأمم الأفريقية لعام ٢٠٠٦»ومين في مصر ممسكوش«حيث كانت الوطنية الكروية في أزهى عصورها في مصر. وأتمنى أن يأتي يوم أشعر بهذا الشعور الجميل شعور الوطنية تجاه أي شيء أخر سوى الكورة. أتمنى أن أهتف لمصر خارج الإستاد وأتمنى أن أمسك علم مصر خارج المستطيل الأخضر».

وقد تكون أرض الملعب مثالا لحياة بديلة يرى فيها الناس العدل والقوة والجمال والنظام والإنضباط والإنتصار والصراع النظيف أو المنافسة الشريفة، وكلها أشياء أصبحت مفتقدة في الحياة اليومية التي امتلأت بالظلم والضعف والقبح والإضطراب والعشوائية والإنكسار والإنتهازية والوساطة والإلتواء والتآمر والخبث، ولهذا نرى

الناس الذين يتجرعون الظلم وهم صامتين في كثير من نواحي حياتهم يثورون بشدة إذا تحيز الحكم لأحد الفريقين أو أصدر قرارا ظالما، ونراهم لا يتسامحون مع لاعب قصر في أداء واجبه مع أنهم هم جميعا مقصرين في أداء الواجبات، ونرى أرض الملعب نظيفة ومخططة ومحددة في حين تغيب النظافة ويغيب النظام بمجرد الخروج من باب الملعب، ونراهم يلعنون المدرب إذا وضع أحد اللاعبين في التشكيل مجاملة أو وساطة مع أنهم يفعلون ذلك ويقبلونه أو يرغمون عليه كل يوم.

والنفس البشرية تتوق إلى القوة وتتوق إلى الجمال وتتوق إلى البطولة وتتوق إلى الإنتصار، وقد لا تجد هذا في الحياة اليومية، أو لا تستطيع تحقيقه لهذا تحاول أن تشبع من هذه المعاني بأن تملأ أعينها من قوة اللاعبين وجمال الأداء وروعته، وحلاوة البطولة ولذة الإنتصار، خاصة حين تغيب البطولات والإنتصارات في المجالات العسكرية أو السياسية أو العلمية، فبعد الإعلان عن أن حرب أكتوبر هي آخر الحروب أصبح هناك استبعاد لاحتمالات الإنتصارات العسكرية على الأقل في المستقبل القريب.

وحركة الكرة مع حركة اللاعبين مع احتمالات الفوز والخسارة مع المفاجئات المتتالية، كل هذا يؤدي إلى حالة من الحراك النفسي، وطرد الركود والملل، وانتظار المكسب بعد الخسارة، والخوف من الهزيمة بعد الإنتصار، إنه شئ أشبه بلذة المقامرة بين قطبي المكسب والخسارة، وبهذا تحقق الكرة وتقلباتها الحكمة القائلة: «لو لم يكن للمعنى عكس المعنى لما كان للمعنى معنى»، فحلاوة الكرة هو تقلبها بين المكسب والخسارة، وبالتالي تقلب القلوب معها صعودا وهبوطا، طردا للملل والركود والثبات البليد. والكرة بهذا المعنى نوع من الإدمان البديل، حيث تقول إحدى نظريات الإدمان أن المدمن يتعاطى لكي يمر بخبرات التقلب في حالات مزاجية مختلفة أو يرتفع وينخفض بحالة وعيه. واللاعبون بهذا المعنى لا يركلون الكرة بين أرجلهم وإنما يركلون قلوب مشاهديهم الذين يستمتعون بهذا الركل اللذيذ.

والتحليليون يذهبون إلى أن اختراق الكرة لمرمى الخصم له معنى جنسيا، ويفسرون بذلك حالة النشوة الجماعية التي تنتاب الجماهير الفائزة، وكأنها حالة إرجاز أو ذروة

شبقية. والهزيمة لدى التحليليين هي نوع من الخصاء المؤلم الذي يستدعي تجميع الطاقة لمواجهته والخلاص منه واستعادة القدرة على اختراق مرمى الخصم وإخصابه بالهدف تلو الهدف (أعرف أن كثيرين يستنكرون تلك الرؤية وتلك اللغة ولكن هكذا التحليليون يتحدثون).

ولا تخلوا الملاعب من المعتقدات الدينية والسياسية، وكثير من الأساطير والخرافات تظهر في كيفية استدعاء النصر بالطقوس الدينية أو بالتعاويذ والأدعية وربما الأحجبة، وأيضا في التعبير عن فرحة الفوز بالسجود، أو الإنبطاح أرضا، أو دعاء الشكر، أو أي طقس يرتبط بالثقافة الشعبية أو الجذور الدينية.

ومع تطور الأسلحة واشتداد قدراتها الفتاكة، وكراهية الناس للحروب أو تخاذلهم عنها إيثارا للسلامة، قد يصبح التعبير عن الصراع والمنافسة من خلال المسابقات الرياضية وخاصة الكروية، وتتحرك الشعوب خلف فرقها القومية مثلما كانت تتحرك أيام المجد والكرامة خلف جيوشها، وتستبدل أقواس النصر العسكرية بأعلام تباع في إشارات المرور لتعلق على السيارات، وتستبدل المواكب العسكرية المنتصرة بجموع الشعب يجوبون الشوارع بعد انتصار الفرق القومية. لسنا بصدد تقييم صحة هذا أم خطئه ولكننا نرصد الظاهرة وتطوراتها وتداعياتها، فالسلوك الإنساني بما فيه من ميل للصراع والمنافسة قد يأخذ أشكالا عديدة للتعبير عن نفسه، وفي زمن تخضع فيه بعض الدول سياسيا أو عسكريا ويتم خصاؤها اجتماعيا، قد يكون مجال الإنتصار ورفع الرأس المسموح به كرويا فقط.

وقد تتراجع فرحة الأعياد الدينية والأعياد الوطنية لكى تتكثف الفرحة وتشتد كأقصى ما يكون الإشتداد يوم النصر الأكبر للفريق القومي في المباريات الدولية. وقد ينطفئ الحماس للإكتشافات العلمية، وتخبو جذوة المواهب الأدبية والفنية، في حين تتوهج الحماسات الكروية، والسبب في ذلك أن الإكتشافات العلمية والنجاحات الأدبية غالبا ما تكون فردية أو منتمية لفريق عمل صغير يعمل في الغرف المغلقة، وبالتالي يصعب التوحد معها، كما أنها تكون في الغالب متدرجة ومنطقية وتخلو من عنصر المفاجأة والإثارة ومن

احتمالات المكسب والخسارة والصعود والهبوط الدراميين، أما النجاحات الكروية فهي تتم على مرأى ومسمع الجميع وتسمح للمشاهدين بالتوحد مع الأبطال الكرويين القوميين في صعودهم وهبوطهم، ذلك التوحد الذي يعطي للنفس إشباعا هائلا دون جهد تبذله، شئ أشبه بالتوحد مع أمجاد الأجداد والتباهي بإنجازاتهم التاريخية في حين يستمتع الأحفاد بممارسة التثاؤب التاريخي على المقاهي العامرة.

وقد يصبح لاعبو الكرة صناع سعادة للشعوب بجانب كونهم صناع ألعاب، خاصة تلك الشعوب التي امتلأت جوانب نفوسها بمشاعر القهر والإحباط والتعاسة وفقدان الأمل في الحاضر والمستقبل، بحيث يكفي لكل مواطن مشاهدة مباراة كرة قدم في نهاية يومه التعيس لكي ينسى همومه ومتاعبه ويستطيع النوم بلا مشاكل له أو لغيره. وقد تناط بالمدير الفني للفريق مهمة المحافظة على الإستقرار من خلال تفانيه في تحقيق الفوز الذي يسعد الجماهير الثائرة والفائرة فيدعها في حالة خدر لذيذ لا تفيق منه حتى يلاحقها بانتصار كروي قومي ألذ.

وقد تستخدم الكرة في العلاج النفسي للجموع الغفيرة حيث يهاجم المشاهدون الحكام (حكام الكرة) ويصبون عليهم جام غضبهم لاحتساب ضربة جزاء خاطئة أو لتحيزهم لفريق ضد آخر، أو يسبون حامل الراية الذي تغافل عن «أوف سايد» عامدا متعمدا، أو يثورون على مدرب لم يقم بواجبه جيدا رغم آلاف الجنيهات التي يتقاضاها، أو يطالبون بإقالة الجهاز الفني أو الإداري بعد أن فقد صلاحيته وفقد شفافيته وفقد طهارة يده، كل هذا يشكل تنفيسا هائلا عن رغبات مكبوتة يتم معالجتها عن طريق الإزاحة والإسقاط والرمزية والتكثيف والإبدال، وبهذا يضمن الجميع السلامة والنوم الهادئ بعد مباراة صاخبة وحوارات تابعة أشد صخبا وتنفيسا. ولكي تتأكد من هذه القدرة العلاجية التنفيسية سل جموع الشباب عن أسماء لاعبي المنتخب وسلهم في ذات الوقت عن أسماء الوزراء.

وقد تعيد الكرة الدفء للعلاقات الأسرية حين تلتف الأسرة لأول مرة في حياتها في وقت واحد حول جهاز التلفاز وقد نسوا خلافاتهم وأحزانهم وغربتهم واغترابهم لكي

يشاهدوا المباراة مع طقوس قزقزة اللب وتناول الفول السوداني مع الشاي الدافئ، والخروج من حالة الملل الأسري بصيحات التهليل والتعانق مع كل هدف، والإحساس بأن ثمة شئ مازال يجمع شتات هذه الأسرة، وقد تنتقل هذه العدوى التواصلية الدافئة إلى المجتمع حيث تجمعات المقاهي والأندية الإجتماعية وجلسات الأصدقاء، والتي تشكل الأحاديث الكروية فيها أكثر المواد طرافة وجاذبية وحميمية وحرارة.

وهكذا تتبدل الحياة وتتغير مع صعود الكرة وهبوطها، وتنشط الأجهزة الحيوية بشكل رائع ومفاجئ عند اختراق الكرة لشبكة الخصم، وتسعد الجماهير بسهرة حتى الصباح رافعة أعلام الوطن المنتصر، وتصبحون على خير.

❊ ❊ ❊

الإصلاح وليس الإغلاق يا سيادة الوزير

نعرف جميعا أن وزارة الصحة تمر بأزمة صحية نفسية فى الوقت الحالى بعدما انتشرت إشاعة عن استقالة السيد الوزير حاتم الجبلى أو إقالته، انطلقت على إثرها التهانى والزغاريد وتوزيع المشروبات فى مبنى الوزارة على نطاق واسع رصدته الصحف المختلفة وعلقت عليه فى حينه. وسبب الأزمة هو كيف يلقى الوزير مساعديه وموظفى الوزارة وهو يشعر أن أحدهم ابتهج لإقالته أو ساهم فى توزيع المشروبات فرحا وطربا أو موظفة قامت بإطلاق الزغاريد، وكيف يصدق سيادة الوزير عبارات الطاعة أو الشكر أو الإمتنان أو الإبتسامة من أى ممن حوله، وكيف يقبل مشورتهم ويعتمد على إخلاصهم؟. قد يظن البعض أنها شئ بسيط، ولكن من يضع نفسه فى موضع الوزير سيشعر أنها فعلا أزمة حقيقية يمكنها أن تؤثر فى العلاقة الإنسانية والعلاقة المهنية بين الوزير ومرؤسيه، فهذا الحدث يعكس مشاعر سلبية مكتومة لدى عدد غير قليل من موظفى ديوان الوزارة والمفترض أنهم الدائرة الأقرب من الوزير والذين يقومون بإبداء المشورة له أو تنفيذ توصياته وتعليماته أو المشاركة فيما يصدر من قرارات. فإذا شعر الوزير أنهم يبدون له مالا يخفون وأنهم فى لحظة من اللحظات ابتهجوا بابتعاده وعبروا عن ذلك الإبتهاج، ألا يعد ذلك مشكلة تؤثر فى العلاقة على مستوييها الإنسانى والمهنى؟.. وكيف كانت مشاعر السيد الوزير وهو يدخل الوزارة لأول مرة بعد الذى حدث؟. وحين يضع أحدنا نفسه مكان سيادة الوزير فقد يجد أمامه عدة خيارات: الخيار الأول أن يراجع نفسه فى طريقة تعامله مع الناس ويراعى البعد الإنسانى فى العلاقة بين الرئيس ومرؤسيه وهذا أمر يؤكد عليه كل خبراء الإدارة والقيادة فى العالم (وإن كان لا يراعى فى مصر غالبا)، فلا يمكن أن تدير شيئا ناجحا ويستمر فى حين أن من خلفك ومن تحتك يضمرون لك هذا الكم من المشاعر السلبية، الخيار الثانى هو أن يتجاهل السيد الوزير هذا الأمر بناءا على قاعدة أننا فى مجال عمل وزارى وخدمة عامة ليس للمشاعر فيها مكان وأن من ابتهجوا واحتفلوا هم مجموعة من الكسالى الذين يزعجهم نشاط الوزير وحماسه فى تغيير وجه وظهر وزارة

الصحة، الخيار الثالث أن تنتاب السيد الوزير مشاعر إنسانية طبيعية تجاه من تمنوا استقالته أو إقالته فيبادلهم سرا (أو جهرا) نفس مشاعر الرفض ويمارس ضغطا سلطويا عليهم كنوع من العقاب اللاشعورى لهم والنظر إليهم على أنهم مجموعة من الكسالى المتراخين الذين يرغبون أن تظل الأمور على ماهى عليه وأنهم من أعداء الإصلاح وأعداء الطموح وأعداء النجاح، وربما يتم استبدالهم فى أقرب فرصة سانحة. فى ظنى الشخصى أن الخيارين الثانى والثالث هما الأقرب للحدوث بناءا على ما سيرد فى الفقرة التالية.

حين قرأت فى الصحف أن وزارة الصحة قامت بإغلاق ١١٩٠ (ألف ومائة وتسعون) منشأة طبية وعلاجية خاصة على مستوى الجمهورية مابين مستشفيات وعيادات ومراكز تخصصية وعلاج طبيعى ومعامل تحليل ومراكز أشعة، ظننت للوهلة الأولى أن كل هذه المنشآت تستحق الغلق لمخالفات طبية جسيمة أصرت عليها رغم تنبيه الوزارة عليها أكثر من مرة ورغم توقيع عقوبات متدرجة قبل الغلق، ولكن حين اقتربت من الصورة وجدتها غير ذلك فمن بين هذه المنشآت ما أغلق لأسباب بيروقراطية أو أسباب إنشائية بسيطة لا تستدعى الغلق بل ربما تستدعى التنبيه أو التحذير أو الإنذار أو حتى الغرامة. ووفقا للبيانات الرسمية فإن عدد المنشآت الصحية الخاصة فى مصر ٥١٨٩٧منشأة (إحدى وخمسون ألفا وثمانمائة وسبعة وتسعون)، وهو عدد كبير جدا بالمقارنة بكثير من الدول الأخرى، والسبب فى ذلك ربما يعود إلى فقد الثقة وضعف الخدمة فى المنشآت الصحية الرسمية (لم نعد نحتاج تدليلا على ذلك)، وقد وضع هذا عبئا هائلا على المواطن المصرى الذى يعانى من آلام مرضه ويعانى من الإنفاق على علاجه (هذا إن وجد ما ينفقه). إذن فالمنشآت الصحية الخاصة –رغم أى انتقادات حولها أو مشكلات فيها- تحوزفى الغالب على ثقة طالبى الخدمة الطبية، كما أنها تسد العجز الذى خلفته المنشآت الصحية الحكومية المتهالكة أو المزدحمة.

وقد فهمت من أكثر من مصدر أن الدكتور الجبلى يعتبر مسألة العلاج الحر وتنظيمه من أهم أولوياته، وهذا أمر منطقى ومحمود خاصة إذا عرفنا أن العلاج الحر هو المنوط فى الوقت الحالى بصحة المواطن المصرى إلى أن يفيق العلاج الحكومى من غفوته ويخرج من

مشكلاته البيروقراطية. ويبدو أن مسألة إصلاح العلاج الحر تبدو معركة مضمونة النتائج فهى موجهة إلى جهات غير حكومية وإلى أشخاص ليسوا فى مواقع سلطة، أما معركة العلاج الحكومى فأرضها مليئة بالالغام والحفر، وربما تستدعى ميزانيات وإمكانات وزيادة مرتبات للأطباء والتمريض وتحديث مستشفيات مما يزعج الجهاز الحكومى وربما يغضبه.

ومن هنا بدأت الحملة وأعطيت الإشارة، ويبدو أن الإشارة قد فهمت على أنه مطلوب عمل مذبحة للعلاج الحر ترهب سائر المنشآت الصحية الخاصة، وهذا ما حدث بالفعل حيث فهم الموظفون القائمون على الأمر أن سيادة الوزير يتبع فى الوقت الحالى سياسة البتر أو الإغلاق، وأن كل الطرق القانونية المعروفة من توجيه أو لفت نظر أو تحذير أو إنذار كلها لن تفلح فى نجاح هذه المعركة المقدسة ضد ما يسمى بالعلاج الحر. وكان الرهان على أن الناس سيبتهجون بذلك، فعلى الرغم من ذهابهم بأعداد هائلة لمنشآت العلاج الخاصة، إلا أن لديهم ذكريات غير سعيدة تختص بتكلفة العلاج المبالغ فيها أحيانا. وبدأت حملة الإغلاق لهذا العدد الضخم من المنشآت، والبعيدين عن الصورة ربما يرون أن المنشآت التى أغلقت تستحق كلها الإغلاق حيث وقعت فى مخالفات جسيمة لا يصلح معها غير البتر، ولكن الصورة للأسف غير ذلك، فموظفو المديريات الصحية فهموا أن سيادة الوزير مع الإغلاق فانطلقوا يحققون حلمه وأوامره، وأصبح كل منهم يسابق زملاءه فى عدد ما يغلق من منشآت صحية ويتفاخر بذلك، وأصبح هناك ترتيبا للمحافظات فى عدد المغلق فيها من منشآت صحية (القليوبية والدقهلية على رأس القائمة المنغلقة)، أى أن هناك حالة من الإندفاع نحو الإغلاق لمنشآت تقوم بخدمة يحتاجها الناس، وربما لا تخلو من مخالفات – شأن أى منشأة – خاصة أو حكومية، ولكن هذه المخالفات تحتاج لإصلاح موضوعى متدرج ومتصاعد، فإذا لم ترتدع المنشأة يتم إنذارها وإعطائها مهلة لتحسين أوضاعها، فإن لم تفعل ذلك يصدر القرار بالغرامة التصاعدية، فإذا لم يفلح كل هذا يتم الإغلاق بعد إنذار ومهلة. كل هذا لم يحدث وإنما كان يمر الموظف المختص (متقمصا شخصية الوزير) فإذا وجد خطأ أرسل الأمر بالإغلاق

فورا (حدث ذلك عن طريق الإبلاغ بالتليفون فى كثير من الحالات، وذلك لفرط التعجل والإندفاع وأحيانا التشفى فى أصحاب المنشآت الذين لم يحققوا توقعات الموظفين المسئولين عن الغلق) دون اتباع الخطوات القانونية المعروفة فى مثل هذه الظروف، ودون مراعاة لأثر قرار الإغلاق على أعداد كبيرة من أسر الأطباء والفنيين والتمريض والإداريين والعاملين بمثل هذه المنشآت فى وقت تنتشر فيه البطالة ويسود الفقر بين الأسر المصرية، فالموظف لا يهمه وقف خدمة صحية لمنطقة ما، ولا يهمه تشريد عدد من الأسر تعيش على دخلها من هذه المنشأة، وكل ما يهمه هو تنفيذ رغبة الوزير فى الإغلاق السريع (أو هكذا وصلته الرسالة كما سمعتها بأن الوزير يضع المنشآت الخاصة فى دماغه).

وأذكر مثلا صارخا فى محافظة الدقهلية حيث تم إغلاق مركزين للصحة النفسية وعلاج الإدمان هما المركزين الوحيدين المتخصصين فى تقديم هذه الخدمة فى المحافظة، وكانت التهمة الموجهة هى زيادة أعداد المرضى فى المركزين عن العدد الوارد فى الترخيص، وأن المركزين توسعا فى بعض المنشآت، وقد تكون مسألة تجاوز الأعداد حقيقية أو غير ذلك ولكن حتى فى كونها حقيقية فإن هذا يعكس ثقة الناس فى الخدمة المقدمة من هذه المراكز كما يعكس أيضا انعدام الخدمة الحكومية فى هذا المجال فمحافظة الدقهلية التى يبلغ تعدادها أكثر من خمسة ملايين نسمة لا يوجد فيها غير سريرين لإقامة المرضى النفسيين فى مستشفى المنصورة العام ولا يوجد فيها سرير واحد لإقامة مرضى الإدمان (بعد إغلاق قسم الإدمان الحكومى الوحيد منذ سنوات عديدة لأسباب غير معلومة)، وهذا وضع مأساوى بكل المقاييس ينقل المسئولية واستحقاق المحاسبة من هذه المراكز الخاصة التى تواجه أعدادا متزايدة من طالبى الخدمة إلى أشخاص آخرين لم يدركوا احتياجات المواطنين فى مجال الصحة النفسية وعلاج الإدمان فتركوا محافظة بكاملها بدون خدمة وعابوا على المراكز الخاصة استقبالها لعدد أكثر من المرضى لا يجدون مكانا آخر يذهبون إليه. وللأسف الشديد فقد صدر القرار بإغلاق هذين المركزين بشكل تعسفى ودون أى إنذارات أو تنبيهات ليحرم المرضى النفسيين والمدمنين من فرصة العلاج المتاحة

لهم ، وليشرد العاملون فى هذه المراكز (عشرون أسرة على الأقل ترتبط فى دخلها بكل مركز) فى لحظة بسبب قرار متعجل صدر لإرضاء رغبة السيد الوزير فى الإغلاق الفورى بناءا على أشياء لا تعتبر ضمن المخالفات الجسيمة المتعارف عليها عالميا فى المجال الطبى أو لأسباب شخصية أخرى تتعلق بظروف الإغلاق وملابساته، فزيادة العدد قد تفرضها ظروف احتياج فى بعض المناطق لا يجد فيها طالب الخدمة غير هذا المكان يذهب إليه، وهذا أمر قائم فى المستشفيات الحكومية خاصة فى وحدات الطوارئ حيث يشاهد المرضى متكدسين فى الغرف وفى الطرقات ولا يستطيع أحد رفضهم بحجة توفير ثمان متر مربع لكل سرير طبقا للقانون، تلك المواصفات التى لو طبقناها لأغلقنا كل مستشفياتنا وكل مدارسنا وكل مؤسساتنا الخاصة منها والعامة، فنحن فى مصر فى حالة اضطرار فى كثير من الأحوال بسبب الإذدحام والتكدس، وحالات الإضطرار تقدر بقدرها، وتعطى الإعتبار حتى تزول.

ولست أود أن أقول بأن بعض موظفى المديريات ربما وجدوها فرصة لتصفية حسابات شخصية أو لتأديب أصحاب المنشآت الذين لا يرتاحون لهم لأى سبب من الأسباب، وكل هذا يحدث تحت مظلة رغبة الإغلاق التى أبداها السيد الوزير، أو وصلتهم من خلال الإجتماعات المصغرة أو الموسعة، واختلطت الرغبات الشخصية بالمسائل العامة، وأصبح كل منهم يقوم بإحصاء ما نجح فى إغلاقه من منشآت ممنيا نفسه بمكافأة من السيد الوزير فى يوم الصحة العالمى، وهكذا استبدلت نوايا وجهود الإصلاح بنشوة الإغلاق، وهلل الجميع للنصر المبين.

ربما مما سبق نفهم أثر اهتزاز ذلك البعد الإنسانى الهام فى العلاقة بين الرئيس والمرؤس وفى العلاقة بين الجهات الرسمية والجماهير

❊❊❊

الآثار النفسية للبطالة فى مصر

بعد مشوار مضنى من الدراسة يكتشف الشاب الذى تخرج فى جامعات مصر ومعاهدها ومدارسها ومعه أسرته أن ما بذلوه من جهد وما أنفقوه من أموال ليس له ثمرة -على الأقل فى المدى المنظور- وتكون هذه أول صدمة له ولأسرته ولا يعرف أحد متى ستنتهى، ولكن فى أغلب الحالات تستمر هذه الصدمة لعدة سنوات، تحدث خلالها أشياء تزيد من حدتها حيث يكتشف هذا الشاب أن بعض زملائه قد التحقوا بوظائف عامة أو خاصة على الرغم من تفوقه الدائم عليهم طوال مراحل الدراسة، لا لشئ إلا لأنهم يملكون وساطة لا يملكها أو يدفعون رشوة لا يقدر عليها ، وهنا تتكون فى وعيه صورة الوطن وصورة المجتمع وصورة الحياة، تلك الصورة التى تحمل الكثير من العوامل السلبية التى تهز ثقته بكل شئ وتضع مسألة الإنتماء والولاء فى مأزق شديد. فالوطن يكتسب مكانته فى النفوس بما يمنحه من احتواء ورعاية وطمأنينة وسكن وإحساس بالأمان والعدل وتكفؤ الفرص، فإذا فقدت هذه العناصر فى نفس الشاب اهتزت معها الكثير من ثوابت الوطنية والإنتماء وبات محبطا من وطن لا يجد فيه حاضرا ولا مستقبلا، ويصبح أمله الوحيد ومخرجه الذى يحلم به هو الخروج من هذا الوطن (أو هذا السجن كما يراه الكثيرون من الشباب المحبطين) الذى تنكر لاحتياجاته المشروعة وتركه نهبا للضياع.

والعمل ليس فقط وسيلة لتحصيل لقمة العيش للشخص وأسرته وإنما هو فرصة للإحساس بالأمان والحصول على التقدير الإجتماعى وتحقيق الذات والدخول فى شبكة العلاقات الإجتماعية على مستوى أوسع، وتنظيم أوقات النوم واليقظة، وتحقيق التفوق والتميز..... الخ. وحين تنعدم هذه الفرصة تتدهور كل هذه الأشياء ويصبح الشخص فريسة لكل مشاعر الدونية وتحقير الذات والضياع والإحباط والغضب، وإذا لم يحتمل الشخص هذه المشاعر المؤلمة فربما يسقط إحباطاته وفشله على الآخرين فيتهمهم بأنهم

سبب شقائه ومعاناته، وأن الحكومة تركته دون أن تهيئ له فرصة للعمل وأن القطاع الخاص يمتص دمه، وأن وزارة التعليم ضيعت منه سنين عمره فى مناهج لا تؤهله لسوق العمل. ومن هنا تنشأ مشاعر الغضب تجاه رموز المجتمع ومؤسساته، وربما تجاه المجتمع ككل، وتصبح هذه المشاعر أرضية مناسبة للسلوك العدوانى تجاه المجتمع وربما يصل هذا السلوك العدوانى إلى قبول فكرة التجسس لحساب الأعداء - كما حدث مع بعض المحبطين - أو يتحول إلى سلوك إرهابى يلبس قناعا ثوريا أو جهاديا أو إصلاحيا يعطيه مشروعية لدى الشخص فيعتقد أنه يقوم بعمل بطولى تجاه تغيير الأوضاع التى عانى منها ويعانى منها أمثاله.

وبما أن العمل هو الوسيلة التى تفتح الباب أمام فرص الزواج وتكوين أسرة ينعم فيها الإنسان بالسكن والمودة والرحمة، لذا فإن البطالة تجعل هذه الفرصة منعدمة وبالتالى يفقد الشاب الأمل فى ذلك تماما، ونظرا لضغط احتياجاته الفطرية فإنه إما أن يكبتها مع ما ينتج عنه من اضطرابات نفسية وتشوهات سلوكية، أو يطلقها فى صورة سلوكيات منفلتة ومنحرفة، أو يسلك سلوكا معاكسا فيصبح متشددا دينيا لينجح فى السيطرة على غرائزه واحتياجاته الدنيوية المشروعة والمحبطة فى ذات الوقت. وكل هذه المسارات موجودة وبكثرة فى الشباب الذى لم يجد فرصة للعمل الشريف.

وقد يجد بعض الشباب أعمالا ولكنها لا تتناسب مع دراسته ونشأته ومكانته الإجتماعية وظروفه، فمثلا يجد شاب جامعى نفسه موظف أمن على باب عمارة أو فى مدخل مؤسسة، أو يجد خريج كلية الحقوق نفسه فى وظيفة كمسارى (قاطع تذاكر) فى هيئة النقل العام، أو يجد نفسه يعمل محصلا للأجرة فى ميكروباص، أو يعمل جرسونا فى أحد المقاهى، أو عاملا فى عيادة أحد الأطباء. فى هذه الظروف نتوقع انهيار إحساسه بكرامته ومكانته وما حصل عليه من علم طوال سنوات الدراسة، ومن هنا تنهار قيمه فيقبل الرشوة ويتسول البقشيش ويتقبل المهانة فى سبيل الحصول على المال، ويزور صوته فى الإنتخابات وتسلب إرادته الوطنية دون أن يغضب أو يحتج، ويخون زوجته مع زميلة أو خادمة أو راقصة، ويتعاطى المخدرات، ولو وجد فرصة للسرقة أو للإختلاس فلن

يجد حرجا فى انتهازها بعد أن ماتت فى داخله بسبب الظروف معانى العزة والحرية والكرامة والعفة والطهارة وحلت محلها معان انتهازية نفعية دنيئة.

ومع مرور الوقت تتشكل سمات سيكوباتية فهذا الشخص الذى تم اغتياله معنويا فى فترات جلوسه بلا عمل ثم تم اغتياله مرة أخرى فى عمل غير مناسب وبأجر زهيد لا يكفى أدنى احتياجاته، يتعلم فى هذا الجو الرشوة والكذب والخداع والمناورة والنصب والإحتيال والمراوغة وانتهاز الفرص والبحث عن المنفعة الشخصية على حساب أى شئ. تلك المنظومة السلبية من القيم تتكون يوميا فى نفوس آلاف الشباب الذين لم يجدوا عملا أو وجدوا عملا تغتال فيه كرامتهم وإنسانيتهم.

وإذا لم يجد الشاب عملا أو رفض عملا غير مناسب، فإن مصيره إما الجلوس فى البيت أو الجلوس على المقاهى أو الإنضمام إلى شلة أصدقاء، ومع مرور الوقت بلا عمل يألف حياة الكسل والتراخى واللامبالاة، فينام فى النهار ويصحو فى الليل، ويقضى الساعات الطزويلة أمام التليفزيون أو الإنترنت يشاهد القنوات الإباحية ويتصفح المواقع المشبوهة والمنفلتة، ويموت بداخله الإحساس بالكرامة فلا يجد حرجا فى طلب المصروف من أمه أو أبيه أو أخيه أو أخته، وربما يحاول ابتزاز الجميع للحصول على ما يريد من مال. والقصة تكتمل ببدأ التعرف على عالم المخدرات من خلال شلة الأصدقاء، والمخدرات هنا تؤدى وظائف متعددة لهذا الشاب المحبط، فهى من ناحية تخدر وعيه وتقتل مشاعره وتبعد عنه أى إحساس بالخجل أو العار وتقتل فيه الدوافع للحركة، أى أنها تسهل له الإستمرار فى هذه الحياة الكسولة الفارغة بأقل قدر من تعذيب الضمير. وفى نفس الوقت تعطيه إحساسا بالسعادة المؤقتة حتى ولو كانت زائفة فهو يريد أن يهرب من واقعه المؤلم ولو للحظات. وربما تتيح له المخدرات مجموعة من العلاقات بأصدقاء التعاطى يشعر معهم بالإنتماء والأنس، وربما يقوم بترويج أو تصريف بعض الكميات المتاحة من المخدرات بهدف الحصول على المال الذى يحتاجه.

والشخص العاطل دائما مصدر للخطورة فهو مشروع سرقة من بيته أو من خارجه ومشروع انحراف أخلاقى ومشروع خيانة لوطنه فى بعض الحالات نظرا لاهتزاز قيم

الوطنية والإنتماء لديه خاصة مع انعدام إعانة البطالة التى تصرفها الدول المتقدمة للعاطلين كنوع من توفير الحد الأدنى للإحتياجات الإنسانية، فإذا انعدم هذا الحد الأدنى فيمكن أن نتوقع من العاطل كل السلوكيات السلبية، حيث يصبح كل عاطل قنبلة موقوتة تنفجر فى وجه المجتمع فى أى لحظة.

وقد يتأخر انفجار هذه المشكلة لبعض الوقت نظرا لاحتواء الأسر لأبنائها بدرجة أو بأخرى ولكن لا يغرينا هذا الإحتواء الجزئى المؤقت فنغمض أعيننا ونشعر بالطمأنينة، لأن هذا وهم خطير فمهما حاولت الأسرة - راضية أو مضطرة - تغطية بعض احتياجات العاطل فإنها لن تنجح أبدا فى تلافى الآثار والسلبيات والمخاطر التى تحدثنا عنها، ولذا وجبت اليقظة والحذر حتى لا نفاجأ فى وقت من الأوقات ومع تراكم جحافل العاطلين ببركان يأخذ فى طريقه الأخضر واليابس.

❋ ❋ ❋

اتركونا مع الله فى صلاة العيد

لسنوات عديدة مضت اعتاد أهل مدينة المنصوره أداء صلاة العيد فى الإستاد الرياضى للمدينة مستمتعين بخطبة العيد يلقيها عليهم أحد الخطباء المحبوبين لديهم وكان أكثر هؤلاء الخطباء ارتباطا بصلاة العيد هو الشيخ محمد حسان الداعية الإسلامى المعروف على اعتبار أنه من أبناء الدقهلية ونجبائها وله شهرة عالمية ومصداقية عالية لدى شرائح واسعة من الناس، إضافة إلى أنه لا يتبنى موقفا سياسيا معارضا للنظام، ولا ينتمى إلى حزب معارض، ولا ينتمى إلى الإخوان المسلمين، ولا يسعى إلى الترشيح فى أى انتخابات، وأن لديه علاقة تفاهم وتفهم مع القيادات الأمنية، وليس لديه رغبة فى تكدير النظام العام، ولا فى إثارة الجماهير. وكان من المعتاد أن المحافظ ومعه القيادات الرسمية يؤدون الصلاة فى مسجد النصر المجاور للمحافظة وسط مراسيم وإجراءات حكومية خاصة. ومنذ حوالى ثلاث أعوام حضر السيد المحافظ والقيادات الأمنية صلاة العيد فى الإستاد الرياضى، وخطب العيد أمامهم فضيلة الشيخ محمد حسان وظننا وقتها أن ثمة تصالح وتقارب بين القيادات الرسمية وبين جموع الشعب ودعاتهم المحبوبين، وأنه آن الأوان ليلتقى الجميع فى مكان واحد فى يوم العيد، وبروح طيبة نتمناها جميعا لمصرنا العزيزة حتى نخرج من حالة الإستقطاب والتشنج السياسى والدينى التى نعيشها، ولكن فى السنة التالية مباشرة اختفى الشيخ محمد حسان وحل محله خطيب من وزارة الأوقاف، وكانت صدمة مؤلمة لما يقرب من نصف مليون مصلى فى يوم العيد حين غاب (أو غيّب شيخهم المفضل) وواكب هذا الغياب حضور القيادات السياسية والأمنية بكثافة شديدة. ومع هذا قبل الناس ذلك طوعا أو كرها، وربما تفهم بعضهم الدافع لذلك الأمر سواء من الناحية الأمنية أو السياسية أو حتى الدينية، فالصلاة هى الصلاة يجب أن لا ترتبط بشخص معين مهما كانت مكانته فى نفوس الناس، كما أن الذى يؤم الصلاة هو عالم فاضل من وزارة الأوقاف ومن علماء الأزهر. وفى العيد الماضى بدأ الظهور الواضح للحزب الوطنى فى الإستاد بلافتاته وقياداته ورموزه. أما فى هذا العيد (منذ أيام) فقد تكثف هذا

الحضور بشكل ملح ومستفز، فمنذ لحظة الوصول للمصلى تجد لافتات كبيرة للحزب الوطنى ولافتات تحمل أسماء قياداته بشكل نرجسى وكأنها حملة انتخابية وليست شعيرة دينية، ولكن الأكثر إيذاءا للمشاعر هو وضع لوحتين كبيرتين على يمين خطيب العيد وعلى يساره يحملان اسم أحد قيادت الحزب مما يعد إقحاما غير مقبول وغير مسئول لأسماء بشر (مهما كانت مكانتهم) فى شعيرة يجب أن تكون خالصة ومتوجهة نحو الله وحده، فهذا موقف لا يجب أن تعلو فيه أسماء أو شعارات سياسية، وإنما تخلو الساحة فيه تماما لله وحده، ولعبادته وحده، خاصة وأن الدستور فى صورته الجديدة يمنع استغلال الدين لأغراض سياسية، وهذا العمل الذى يمارسه الحزب الوطنى هو قمة استغلال الدين لأغراض سياسية، وهو بالتالى مخالف للدستور. والحزب الوطنى، قد دأب فى المرحلة الأخيرة على تكثيف لافتاته ووضع أسماء قياداته بشكل نرجسى فى كل مكان وفى كل مناسبة، وفى تصورى أنه يحاول أن يكون متواجدا فى الشارع ليواجه تواجد فئات أخرى غير مرغوبة حكوميا تنجح فى استقطاب الشارع أكثر منه، ولكنه أخطأ الطريق فالتواجد فى الشارع لا يكون باللافتات، ولا يكون باقتحام صلاة العيد واغتصابها، ولا يكون بتوزيع أدوات منزلية وكهربية بناءا على مسابقات طفولية بعد صلاة العيد (كما فعل فى العيد الماضى بكل أسف)، ولا يكون بإعلانات «فشنك» عن دورات للتوظيف أو لتعليم الكومبيوتر، ولا يكون باغتصاب المقرات فى دار الكتب وفى غيرها. إذن هى نصيحة للإخوة فى الحزب الوطنى فى الدقهلية – وفيهم من أحترمه وأقدره – بأن لا يتواجدوا بالطريقة الخطأ التى تزيد الناس غضبا منهم أونفورا أو انصرافا عنهم، وأن لا يؤذوا الناس فى مشاعرهم الدينية، وأن لا يكتفوا بالتواجد الإعلانى فوق رأس الإمام فى صلاة العيد أو حول مبنى المحافظة، وإنما يتواجدوا وسط الناس الحقيقيين والمستحقين للمساعدة وهم كثر، وأن يحرصوا على أن يكون تواجدهم وسط الناس بشكل مباشر وحقيقى، ووقتها سيحبهم الناس فعلا ويعطونهم أصواتهم دون حاجة إلى تزوير انتخابات أو تقفيل لجان أو منع الناخبين من الوصول إلى الصناديق. ورجاء أخير فى هذه المناسبة للإخوة الفضلاء فى الجهاز الأمنى وهو أن يكفوا عن تدليل ومساندة الحزب

الوطنى لكى يقوى عوده ويصحح أخطاءه ويصبح جديرا بالمنافسة الحقيقية فى حياتنا السياسية، فالتدليل والحماية لهذا الحزب يقفان وراء الكثير من مواطن الضعف والخلل فيه، وهذا سيوفر جهدكم لقضايا أهم ويحمل عنكم أعباءا تثقل كاهلكم ليل نهار، فأنتم فى النهاية أبناء مصر «كلها»، وحماة الوطن «بكل فئاته». وإلى أن تتولد القناعة بذلك نرجو جميع الأحزاب والجماعات والجمعيات أن يتركوا لنا صلاة العيد خالصة لوجه الله وأن يبتعدوا بلافتاتهم وأسمائهم ورموزهم عن مكان الصلاة المقدس الذى لايجب أن يذكر فيه غير اسم الله الواحد الأحد.

❊ ❊ ❊

الثانوية العامة....

مرحلة دراسية أم أزمة نمو؟

لماذا يتعثر بعض الطلاب في هذه المرحلة بالذات على الرغم من تميزهم الدراسي السابق؟ ولماذا يعجز بعضهم عن المذاكرة وحضور اليوم الدراسي أو الدروس الخصوصية على الرغم من عدم وجود أسباب ظاهرية لذلك...؟ ولماذا يعجز بعضهم عن دخول الامتحان على الرغم من استعداده الجيد له؟... ولماذا يتوقف فريق منهم عن استكمال أداء الامتحان بعد حضور مادة أو مادتين..؟

لماذا تضطرب علاقة الطالب بأسرته أو العكس؟... لماذا يميل الكثير من الطلاب إلى النوم الكثير ليلاً ونهاراً؟.. ولماذا تكثر اضطرابات المعدة والقولون(غثيان، قيء، إسهال، انتفاخ، سوء هضم، اضطراب شهية)..؟ ولماذا تكثر الالتهابات الجلدية (الحكة، الإكزيما، الهربس، الدمامل)؟

الإجابة السطحية النمطية المتعجلة سهلة وبسيطة: إنه القلق لدى الطالب ولدى أسرته يؤدى إلي كل هذه المشكلات الصحية والنفسية والاجتماعية.. أليست الثانوية العامة مرحلة دراسية هامة وهى بمثابة عنق الزجاجة الذي ينحشر فيه الطالب(ومعه أسرته) لكي يخرج بعدها إلي المرحلة الجامعية أو لا يخرج.

وإذا حاولنا أن نغوص بعض الشيء نقول بأن مشكلة الثانوية العامة في بلادنا أنها مرحلة دراسية مصيرية تحدد مستقبل الشاب في سنوات عمره المقبلة(إلى حد كبير) ومع هذا فهي تأتى في مرحلة المراهقة، تلك المرحلة التي تتسم بالتقلبات الانفعالية والفكرية وتتسم بالتمرد والعصيان ومحاولة إثبات الذات من خلال مخالفة كل ما هو سائد ومطلوب لدى الأسرة أو المجتمع، والطالب(المراهق) ربما يستخدم الحالة الدراسية لكي يلوى بها ذراع أسرته أو يستخدمها مادة للعناد(لن أذاكر لكي أغيظكم) أو المساومة (إذا أردتم أن أذاكر فاشتروا لي«الموبايل» الذي أرغبه أو السيارة التي أتمناها) أو التهديد (والله

لو لم تكفوا عما تفعلوه معي فسأرسب في الامتحان) أو للعقاب(انظروا هذه نتيجة أخطائكم في تربيتي... لقد أدت إلى فشلي.. وانتم تستحقون ذلك.... إنك أب فاشل... وأنت أم فاشلة) أو للعدوان السلبي(حيث يبدو الطالب لا مباليا مبتسماً على الرغم من تدهوره الدراسي بينما يبدو الأب أو تبدو الأم في حالة من القلق الشديد لما يحدث للابن).

ولكن المشكلة الأكبر والأعمق والتي تؤدى إلى تكرار رسوب عدد غير قليل من طلاب الثانوية لعامة أو اعتذارهم عن دخول الامتحان لأسباب مختلفة، تلك المشكلة هي«أزمة النمو» فالطالب هنا(أو الطالبة) لا يريد أن يتخطى هذه المرحلة الدراسية(أو العمرية) فهو يخشى(بوعي أو بدون وعى) ما بعدها، فالثانوية العامة هي آخر مرحلة تعليم عام(غير مميز) وهى بالتالي قابلة لكل الاحتمالات، أما المرحلة الجامعية التالية فإنها تحدد الطريق التعليمي بشكل نوعى، وبالتالي تحدد مسارات الطموح والأحلام بشكل موضوعي وعملي.

إذن فالثانوية العامة بشكل عام «أزمة مفترقية» وتخطيها يعنى أن الطالب(أو الطالبة) قد اتخذ قراراً(طوعاً أم كرهاً) بالتحرك في اتجاه معين، والحركة في اتجاه معين يلزمها التخلي عن الحركة في الاتجاهات الأخرى التي كان يحلم بها أو يتمناها.

ومن هنا فالشخصيات غير الناضجة أو الشخصيات المترددة تخشى هذا التجديد وتخشى الالتزام المحدد وتخشى مسئوليات النضج المتمثلة في التعليم الجامعي وما بعده من متطلبات العمل والحياة والزواج... الخ، ولهذا نجد تلك الشخصيات تتحصن وتتمرس في الثانوية العامة لعدة سنوات خوفاً من المجهول أو خوفاً من التجديد أو خوفاً من الالتزام أو خوفاً من المسئولية أو خوفاً من النضج أو خوفاً من العمل أو خوفاً من الزواج أو خوفاً من كل ذلك.

والطالب وأسرته غالباً لا يدركون هذه الدوافع الخفية وراء الفشل المتكرر(أو الاعتذار المتكرر) في هذه المرحلة فيعزون ذلك إلى المرض أو إلى الحسد أو إلي تأثير الأصدقاء أو إلى التدليل الزائد. وإذا عرفنا أن من أهم أزمات فترة المراهقة أزمة الهوية(وهى صعوبة الإجابة على سؤال من أنا...؟ وماذا أريد.....؟ والى أين أذهب....)،

فإننا ربما نفهم تعثر عدد غير قليل من طلاب الثانوية العامة في تجاوز هذه المرحلة لوقت قد يطول أو يقصر حتى يحسم أزمة هويته وتتضح أو تتأكد خياراته.

وفى بعض الأحيان تأخذ الأزمة شكل آخر، فمع وجود أحد الأبوين(أوكليهما) مسيطراً متحكماً قاهراً أو محباً خانقاً فإن الابن(أو الابنة) يجدها فرصة لممارسة عناده وللأخذ بثأره خاصة وأنه قد سلم إرادته(طوعاً أو كرهاً) لأحد الوالدين أو كليهما طوال فترة طفولته والآن قد حان الوقت ليستعيد هذه الإرادة فيقول لهما«لا» خاصة وانه يجدهما في غاية القلق على مذاكرته ونجاحه وتفوقه ولهذا يأتي إلينا في العيادات النفسية آباء وأمهات قلقين ومضطربين بسبب كسل وتراخى وإهمال أبنائهم أو بناتهم وحين نقابل الابن(أو البنت) نجده (أو نجدها) في حالة لا مبالاة بل وفى حالة سعادة لأنه قد وصل إلى ما يريد وكسر إرادة الأب أو الأم وهو الآن في موقع من يملى إرادته ويحدد شروطه ويبدأ في مساومتهم على إعطائه ثمناً للمذاكرة والتفوق وإلا«فلا».

وبما أن الابن(أو البنت) شخصية غير ناضجة بحكم المرحلة العمرية وغير ناضجة أكثر بحكم طريقة التربية التي تعتبره طفلاً طول الوقت فإنه لا يدرك بشكل كاف أنه يتلاعب بمستقبله الدراسي فهو منشغل بالمعركة مع والديه عن معركته من أجل مستقبله.

وحين يأتي الوالدان بابنهما أو ابنتهما إلى الطبيب النفسي فهما يريدان منه أن يروضه أو يروضها لإرادتهما، وهذا حل فاشل بالضرورة لأن الطبيب لو سار في نفس الاتجاه فإنه يكرر خطأ الوالدين ويدفع الطالب المتراخي أو المعاند أو العدواني إلى مزيد من الاضطراب، ولكن الأجدى والأنفع في هذه الحالة هو أن يهدئ الطبيب من روع الوالدين ويحيدهما ويخفف من وطأة سيطرتهما وتحكمهما وانشغالهما بموضوع المذاكرة طوال الوقت، ثم يبدأ في التعامل مع الطالب بشكل مختلف وذلك بأن يتعامل معه كراشد(لا كطفل) وبما أنه راشد فهو يدرك ويتحمل مسئولية مستقبله الدراسي، وبما أن ضغوط الوالدين قد حيدت بعيداً إذن فقد أصبح لديه (أي الطالب) الحرية الكاملة في أن يذاكر أو لا يذاكر وهو في الحالتين يتحمل مسئولية قراره.

وفى البداية لن يتحمل الوالدين هذا الأسلوب الذي لم يتعوداه مع ابنهما(أو ابنتهما)،

ولكن طمأنة الطبيب وتوضيح الأمور لهما يساعدهما على التعاون حتى يضبط إيقاع العلاقة بينهما من ناحية وبين الطالب(أو الطالبة) من ناحية أخرى.

وربما يستغرق هذا عدة جلسات وربما يثور أحد الوالدين في بعض الأحيان معترضاً على هذا الأسلوب المتساهل أو المتسيب في نظره محاولاً الانقضاض على الابن(أو الابنة) مرة أخرى واستعادة السيطرة والقهر والتحكم، ولكن المعالج سوف يوقف هذه المحاولات بصبر وروية وتفهم ويعطينهما نموذجاً للتعامل الناضج، تعامل الراشد مع الراشد وليس تعامل الوالد مع الطفل، وبهذا لا ينضج الطالب المتعثر فحسب وإنما ينضج الوالدان أيضاً وتخف حدة الصراع.

وربما يحتاج هذا التغير بعض الوقت وربما لا يستطيع الطالب تحقيق إنجاز دراسي سريع خاصة وأنه يكون في حالة عدم توازن لفترة معينة حيث تعود على تحكم وسيطرة الوالدين لسنوات طويلة وتعود على الطاعة العمياء أو العدوان السلبي، والآن وقد عادت إليه حريته الطبيعية(التي لم يتعود عليهما) فإنه يكون متحيراً..

ماذا أفعل وقد أصبحت حراً...؟.. كيف أواجه مصيري وقد أصبحت رجلاً بالفعل؟

وهنا يبرز دور المعالج في مساعدته بشكل غير اعتيادي على تجاوز هذه المرحلة ومواجهة مسئولياته كراشد.

وهناك بعض الأعمال الفنية التي عالجت هذه الأزمة(بصرف النظر عن موافقتنا لها أو اعتراضنا عليها) وهى مسرحية«مدرسة المشاغبين» ومسرحية«العيال كبرت».. وفى كلتا المسرحيتين يتم التعامل بشكل أبوي مهزوز وغير ناضج مع الأبناء الذين يتعطل نضجهم فينشأ ما يشبه لعبة القط والفأر فيتشوه كيان الأب(أو الأم) ويتشوه كيان الأبناء (أو البنات).

وحين تدخل مسرح الأحداث شخصية ناضجة يبدأ التحول التدريجي نحو النضج ولكن بعد فترة حيرة واضطراب إذ ليس كافياً أن يزول تسلط رموز السلطة على الأبناء بل يلزم أن يصاحب ذلك نضج مواز للأبناء حتى يسيروا حياتهم بشكل راشد بعد زوال القهر الأبوي غير المنطقي، وهنا تبدأ مسيرة النمو مرة أخرى بعد فترة تعثر وتخبط.

السفّاح

يجتاح الرعب مرة أخرى منطقة المعادى (التى كانت قبل ذلك هادئة وراقية) بعد أن طعن السفّاح الضحية رقم ٥ فى بطنها يوم ١٦/ ١/ ٢٠٠٧ أثناء خروجها من العمل، وكان السفاح فى هذه المرة يرتدى قناعا على وجهه وطعن الضحية ب «كاتر». وفى اليوم التالى تم تجديد حبس التوربينى زعيم عصابة اغتصاب وقتل الأطفال ١٥ يوما أخرى على ذمة التحقيق ومعه عدد من أفراد العصابة وهم (لاحظ أسماءهم جيدا): «بوقو» و«حناطة» و«شعيشع» و«السويسى» و«الجزار» و«بزازه».يبدو من الأسماء انتماء هؤلاء الأشخاص إلى مجتمعات المهمشين والمسحوقين والطبقات الدنيا فى المجتمع، وسوف يكون لذلك أهمية فى خطط الوقاية والعلاج وفى التفكير فيمن يرتكب جرائم مثل هذه قبل الوصول إليه.

وأكثر ما نخشاه أن يتم تسوية الأمر بالقبض على أحد المرضى النفسيين المتجولين فى شوارع القاهرة على أنه هو السفّاح الذى قام بكل هذه الجرائم وذلك ليهدأ الرأى العام لحين القبض على المجرم الحقيقى أو تركه حرا طليقا يفاجئنا بما يثير الفزع من وقت لآخر.

ولكى نتفادى عمليات التلفيق والفهلوة فى مثل هذه القضية وغيرها تعالوا نقرأ الحدث بأسلوب علمى منهجى مبسط قدر الإمكان علّ ذلك يقربنا ويقرب من بيدهم الأمر من الشخص الحقيقى (أو الأشخاص الحقيقيين).

من هو السفّاح؟:

السفّاح هو الشخص الذى يكثر سفك الدماء، أى أن من شروط إطلاق لقب السفّاح هو تكرار القتل أو الإيذاء المسيل للدماء بشكل أو بآخر. وسفك الدماء لدى السفّاح ليس عملا عشوائيا وإنما يتحول إلى هواية يسعد بممارستها وتكرارها، وهو ينتقى ضحاياه من فئة معينة بناءا على اعتبارات نفسية أو جنسية أو عنصرية، وهذا يفرق السفّاح عن المجرم العادى الذى يرتكب الجريمة بناءا على ظروف موقفية عارضة أو اندفاعة

مؤقتة ولهذا تأتى جريمته عشوائية، عكس السفّاح الذى تتسم جرائمه بالثبات النسبى للضحايا والثبات النسبى لطريقة الإعتداء.

دروس من سفّاح شارع الهرم:

منذ عدة سنوات ساد شارع الهرم والمناطق المحيطة به حالة من الرعب لدى الفتيات والسيدات، والسبب هو تكرار حالات اعتداء من شخص مجهول يقوم بإلقاء «ماء النار» (مادة حارقة معروفة لدى الطبقات الشعبية بمية النار وهى علميا عبارة عن حمض الكبريتيك) على وجوه ضحاياه من الفتيات فى شارع الهرم والشوارع المحيطة، وكان يفعل ذلك فى الأوقات المتأخرة من الليل وتجاه الفتيات اللائى يظن هو بسلوكهن سوءا. وقد نوقش موضوع هذا الشخص وكان شابا فى العقد الثانى من العمر فى برنامج «القضية لم تحسم بعد» والذى كانت تقدمه الإعلامية الموهوبة منى الشاذلى، وقد أتيحت لى فرصة المشاركة فى هذا البرنامج ولقاء محامى هذا الشاب ومحامى وأسرة أحد الضحايا.

وتبين أن الجانى ينتمى إلى أسرة فقيرة حيث يعمل أبوه بوابا، وكانت علاقته بالأم مضطربة حيث كانت تميل إلى القسوة والسيطرة وإلغاء شسخصيته وشخصية والده، ثم بدأ فى المرحلة الأخيرة من حياته يعيش فى عزلة اجتماعية إلى أن تورط فى هذا الفعل العدائى المتكرر تجاه الفتيات فى شارع الهرم وكان تبريره لذلك أنه يحارب الرذيلة المتمثلة فى هؤلاء الفتيات اللائى ينشرن الفساد فى البلد. وهذا النموذج ربما يساعدنا كثيرا فى الإقتراب من شخصية سفاح المعادى، حيث أن الأخير يقوم بالإعتداء على الفتيات أو السيدات اللائى يرتدين بناطيل ضيقة (أو هكذا قال كثير من الشهود) وكأنه يبعث برسائل اعتراض على زى معين للسيدات، أو هو يكره السيدات عموما.والتفسير الأعمق هنا هو أن هذا الشاب لديه مشكلة فى السيطرة على نزعاته الجنسية بحيث أن من يلبسن البناطيل الضيقة يعملن على إثارته التى لا يحتملها، وهو فى نفس الوقت محروم من إشباع غرائزه بشكل مشروع، لذلك يصدر صراعه الداخلى إلى الخارج ويوجه عدوانه نحو مصدر الإثارة عله يلغى أحد أطراف الصراع. وفيما يلى تفسيرات أكثر عمقا لسلوكيات سفاح النساء.

التفسيرات النفسية لسفّاح النساء:

هناك فى علم النفس ما يسمى ب «كراهية النساء» وهو حالة من النفور الواضح تجاه النساء ويرجع ذلك إلى خبرات قديمة من الطفولة المبكرة كأن تكون الأم مسيطرة ومستبدة أو مسترجلة أو رافضة للطفل أو مهملة له أو خانت أبيه أمام عينيه. والطفل حين ينفر من أمه ويكرهها لأى سبب فإنه يعمم هذه الكراهية على كل النساء ويوجه عدوانه نحوهم، ذلك العدوان الذى لم يستطع أن يوجهه صراحة نحو أمه بناءا على اعتبارات دينية أو أخلاقية. وقد يكره المصاب بالجنسية المثلية (المأبون المفعول به) النساء لأنهن يزاحمنه فى حب الرجال، أما صاحب الجنسية المثلية الكامنة فإن أعراض البارانوية لديه ربما تدفعه إلى قتل النساء لتكون له أنوثتهن أو ليكون هو الأنثى الوحيدة (إذا لم تفهم هذا التفسير أو غيره فلا تبتئس فبعض المتخصصين فى علم النفس يشاركونك هذه الصعوبة).

والمراهق أو الشاب الذى يواجه المرأة بسلاح فيطعنها ثم يولى الأدبار تكون لديه مشاعر متناقضة نحوها فهو يرغبها وفى ذات الوقت يخشاها ويحتقرها، وهو غير قادر على التواصل معها أو مع غيرها على المستوى الإنسانى السوى، لذلك يقترب منها فيطعنها ويستمتع برؤية المفاجأة فى عينيها ثم يهرب منها، وهذه الأشياء تكون مصدر إثارة للمراهق أو الشاب فهو يشعر حينئذ بذكورته وبقدرته على السيطرة على المرأة وإرهابها. يضاف إلى ذلك أن السلاح الذى يضربها به يمثل فى أعماقه العضو الجنسى الذكرى (قلت لك لا تبتئس بما يقوله التحليليون وغيرهم من أفكار تبدو غريبة على اللغة المعتادة)، وربما نفهم ذلك من إصرار سفّاح المعادى على طعن ضحاياه من النساء فى منطقة الفرج أو قريبا منها حسب ما تتاح له الفرصة (أظن كده واضح)، وبعض علماء النفس يرون أن مهاجمة المرأة بسلاح وطعنها فى مواضع حسّاسة من جسمها هو نوع من الإغتصاب يقوم به شخص لديه مشكلة فى الإنتصاب فيستعيض عن قضيبه بالخنجر أو السكين(رجعنا تانى للغموض النفسانى... كمل ولا يهمك، هانوصل فى الآخر). وسفّاح النساء إذ يفعل ذلك فإنه يعبر عن فشله فى مواجهة الجنس الآخر والتواصل الصحى معه وذلك بسبب

نقص جنسى نفسى أو عيب خلقى فيه يمنعه من مواجهتهن اجتماعيا (مش صعبه قوى دى).

وقد ينتمى سفاح النساء إلى نموذج «كازانوفا» وهو الرجل قبيح الشكل جرئ اللسان على النساء يعوض بجرأته قبح شكله، ويبدو أنه عانى فى حياته نفورا من كل النساء بدءا بأمه بسبب قبح شكله، ولهذا تنمو لديه رغبة قوية فى استدراج النساء والسيطرة عليهن بأى وسيلة، فإذا نجح فى ذلك بشكل اجتماعى فإنه يصبح متعدد العلاقات النسائية أما إذا فشل فى ذلك فإنه يتحول إلى سفاح للنساء يستدرجهن ثم يعتدى عليهن أو يهاجمهن بسلاح فيطعنهن ويهرب، وهو فى كل الحالات يستمتع بالسيطرة على المرأة (أى امرأة) وإذلالها وإهانتها وإرهابها.

وسفاح النساء لديه ميول سادية أى أنه يتلذذ بتعذيب ضحيته، والرجل عموما يزيد لديه الميل إلى السادية فى حين أن المرأة يزيد لديها الميل إلى الماسوشية (مش كله... ما تزعلش). وسفاح النساء المصاب بالسادية قد يستدرج الضحية ثم يقوم باغتصابها بشكل عنيف ثم يقتلها، أو يقتلها أولا ثم يهتك عرضها بعد ذلك، وقد يقتلها دون قصد أثناء ممارسة سلوكه السادى نحوها وانغماسه فى النشوة التى يلقاها من هيئتها وهى تتعذب بين يديه فهذا يعطيه إحساسا هائلا بقدرته الجنسية وتفوقه الذكورى (وهو يفتقد هذين الشيئين فى الواقع). وقد يمثل السفاح بجسد الضحية قبل أو بعد الإغتصاب فيقطع أجزاء من جسدها وخاصة الثدى أو الفرج، وقد يشرب الدم السائل منها أو يلحس جسدها بعد تقطيعه أو يأكل من لحمها ويشعر مع كل هذا بنشوة غير عادية ربما يقذف معها عدة مرات (آسف لما أحدثته لديك من قرف واشمئزاز غير مقصود). والغريب أن السفّاح بعد أن ينهى هذا الأمر يعود مرة أخرى شخصا عاديا ويمارس حياته بشكل طبيعى فيذهب لعمله أو لدراسته ويقضى الوقت مع أصدقائه ويمارس هواياته وربما عباداته، إلى أن تعاوده النوبة مرة أخرى، وهذا ما يجعل التعرف على سفاح النساء أمرا صعبا فهو غالبا ليس لديه تاريخ إجرامى سابق، ولا توجد أية علامات تدل على أن هذا الشخص يمكن أن يفعل ذلك، ولهذا تكون مفاجأة لجميع من يعرفونه حين يتم القبض

عليه، فهم لا يتصورون أن هذا الشخص الهادئ الخجول المهذب لا يمكن أن يقوم بمثل هذه الأفعال الشنيعة. والنوبة تأتى لسفاح النساء فى صورة شهوة عارمة يحاول تفعيلها فى أقرب فرصة ومع أقرب ضحية.

وسفاح النساء إذا تزوج فإنه يتزوج امرأة لها الكثير من صفات أمه ، أى تكون مسيطرة ومستبدة ومتحكمة فيه وممتنعة عليه، وربما تخونه فيكرهها ويجدها بعيدة المنال فيقوم بعمل إزاحة لرغبته فيها وعدوانه تجاهها إلى ضحية من النساء يقوم باغتصابها وتعذيبها وربما قتلها. وبما أن سفاح النساء تعاوده النوبة من وقت لآخر لذلك تتعدد جرائمه فى المنطقة التى يعيش فيها ويتأخر اكتشافه نظرا لوجوده فى حالة طبيعية تماما فى غير وقت النوبة، وهذا ما يجعله بعيدا عن شك الناس وعن شك رجال الشرطة، ويصبح الأمل هو ضبطه متلبسا بالجريمة أو محاولا ارتكابها.

وقد قيل فى تفسير سلوك سفاح النساء أن لديه دفعات تدميرية من المرحلة قبل التناسلية لم تستدمج فى الشخصية وظلت تعمل بشكل منفصل من وقت لآخر خارج منظومة الشخصية ، وهذا يفسر هدوء سفاح النساء فى أغلب أوقاته ولكنه فى ذات الوقت يحمل طاقة تدميرية تنفجر من وقت لآخر بلا ضابط.

سادية السفاح:

والسادية تنسب إلى الروائى والثورى الفرنسى الماركيز ألفونس دى ساد (١٧٤٠-١٨١٤) الذى كتب اعترافاته الشخصية وذكر فيها صنوف العذاب التى كان ينزلها بالنساء حتى يستطيع أن يتغلب على عجزه الجنسى ويواقعهن. والسادية هى جنون القسوة، وهى الإستمتاع بإيلام الآخر أو الأخرى فى الفعل الجنسى أو غير الجنسى. والقسوة فى الشخص السادى هى جزء من سلوك عام يمارسه الشخص كتعويض عن شعوره بالوحدة والإحباط والضعف والدونية فهو من ناحية يريد أن يؤكد لنفسه أنه قوى وقادر ومن ناحية أخرى يريد أن يثأر من الآخرين الذين نبذوه وأساءوا إليه. وهناك قصص كثيرة لسلوك الساديين فمثلا كان هناك زوج تحتقره زوجته وتهينه وهو غير قادر عليها فكان يخرج إلى الشارع ويقرص من يصادفهن من النساء أو يتحرش بهن. وهذا

طالب فى إحدى المدارس الثانوية كانت ساديته تظهر فى صورة قص شعر زميلاته بالمقص وسط دهشة ورعب بقية الفتيات، وكان فى بعض الأحيان يستمتع بتقطيع ملابس زميلاته، ويعاود تلك الأفعال من وقت لآخر على الرغم مما يتعرض له من مشكلات. وقد يأخذ السلوك السادى اتجاها مضادا للجنس فيفرض الشاب على نفسه حالة من الكبت الشديد والزهد فيمتنع عن مشاهدة التليفزيون وعن قراءة الصحف والمجلات لأنها تحتوى صور نساء، ويمتنع تماما عن الحديث مع الجنس الآخر أيا كانت موضوعات الحديث وظروفه وضروراته، ويحرم على غيره ممن له ولاية عليهم أى شئ له علاقة من قريب أو بعيد بالجنس أو المرأة، وبعضهم ينظر إلى المرأة باحتقار شديد على أنها مخلوق من الدرجة العاشرة مسكون بالغواية ويجب أن تختفى عن الأنظار بكل الطرق، ويترتب على ذلك سلوك عدائى تجاه المرأة فإذا كانت زوجته منعها من الظهور فى أى مكان ومنعها من التعامل بأى وسيلة من وسائل الإتصال، ويصبح مع هذا دائم الشك فيها وسوء الظن بها والإعتداء عليها بشكل يسبب جروحا ظاهرة أو إعاقات جسدية. وبعض هؤلاء الشباب كان يلجأ إلى قطع الأعضاء التناسلية للأولاد والبنات الصغار لكى يحميهم من الرغبة الجنسية المحرمة فى نظره.

ويتشكل السلوك السادى لدى السفاح بحسب نوع السادية والذى يتشكل بدوره طبقا لمرحلة النمو التى نشأ فيها أو المنطقة النفسية التى صدر منها (رجعنا تانى للكلام اللى مش مفهوم.. عديها ولا يهمك)، فمثلا هناك السادية الفمية وفيها يشبع السادى رغبته بالعض واللعق والقضم مستخدما فمه وشفتيه وأسنانه بطريقة عنيفة وبدائية كأن يعض السادى ضحيته فى المواضع الجنسية كالشفاه والثديين والفرج، وربما تبلغ السادية مبلغا أشد فيستمتع بقطع لحم الضحية ومضغه أو مص الدماء(أظن واضحه دى!!). وفى السادية الشرجية تبرز الرغبة فى التملك ويغلب الشعور بالظلم والحرمان فيرى الشخص أنه مظلوم حيث قد حرم من حقه فى مباشرة النساء فيعمد إلى احتجازهن بعد استدراجهن أو خطفهن ثم إلى اغتصابهن أو قتلهن لإثبات قدرته وتفوقه.أما السادية القضيبية ففيها يستخدم الشخص قضيبه أو أى شئ مثل السلاح (مطواه أو كاتر أو

مسدس) يخضع ويخيف به الضحية ويشعر أيضا بقدرته وسطوته حين يرى الرعب والفزع والخضوع فى عينيها. والسادية اليدوية هى أن يستخدم السادى يده فى إلحاق الأذى والسيطرة على ضحيته بالضرب أو الخنق أو غيره. وهناك نوع يسمى «السادية المكنونة» وفيه يستدرج السادى ضحيته بمعسول الكلام والملاطفة والموادعة، حتى إذا تمكن منها ظهرت ميوله العدوانية والتدميرية نحوها، وهذا النوع هو الذى نسميه «زئر النساء» (أظن عارفه) فهو يبدأ بالكلام المعسول والوعود البراقة والهدايا التى يسيل لها لعاب الضحية، حتى إذا وقعت فى حبه وأعطته الأمان أخذها إلى حيث يستطيع أن يصب عليها جام عدوانه وقسوته وهى فى حالة ذهول من انقلاب هذا الشخص المهذب الوديع اللطيف إلى وحش كاسر بهذه الصورة. والسادى لا يستغرقه الفعل الجنسى نفسه بقدر ما يستغرقه الإنفعال الحادث له والإنفعال الظاهر على الضحية، ولذلك نجد أن السادى ربما لايكمل العلاقة الجنسية رغم أنه يكون قد فعل كل شئ مع الضحية، وكثير من حالات الإغتصاب كان يتضح فيما بعد أن الفتاة مازالت بكرا، فالعدوان لدى السفاح أهم من الجنس. والشخص السادى يستمتع بالسيطرة على شخصية ماسوشية تستمتع بالإهانة والألم يقعان عليها.

والسفاح ظاهرة عالمية تظهر فى أى مجتمع متقدما كان أو متأخرا، وهو يثير الرعب لفترة من الزمن فى مجتمع بعينه إلى أن يتم القبض عليه، ونظرا لفداحة جرائمه تجد قصص السفاحين يتناقلها الناس عبر العصور والثقافات.

السفاح واضطرابات الشخصية:

كما ذكرنا فإن السفاح النوابى (الذى تنتابه حالات من الرغبة الجامحة فى الجنس والعنف معا) يكون طبيعيا جدا بين النوبات ويفاجأ به الناس عند اكتشافه ويتعجبون من ذلك، وإذا أخضعناه لاختبارات نفسية فى أوقاته العادية نجد أنه طبيعى تماما. أما السفاح المزمن أو المستمر (الذى يهوى القتل أو سفك الدماء بشكل دائم) فهو الذى يمكن أن نرصد فيه مظاهر اضطرابات الشخصية من الأنواع التالية (متفرقة أو مختلطة):

١ – اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع: وهو الشخص الذى يعتدى على حقوق

الآخرين وينتهك حرماتهم، ولا يستطيع احترام القوانين أو الأعراف أو التقاليد، وهو كثير الكذب والإحتيال والغش والخداع، وليست لديه مشاعر طبيعية فهو يؤذى ويقتل بدم بارد، ولا يشعر بالندم أو بالذنب ولا يتعلم من أخطائه، ولهذا نجده يكرر سلوكياته العدوانية رغم تعرضه المتكرر للعقوبات. وهذا الشخص يعيش للذته ومصالحه الشخصية بصرف النظر عن أى اعتبارات أخرى.

٢- اضطراب الشخصية البارانوية: وهذا الشخص يكون دائم الشك وسوء الظن بالناس فيتوقع منهم دائما الغدر والخيانة ولا يثق بأحد أبدا، ولا يعرف الحب ولكن يؤمن بالقوة والسيطرة والحذر من الناس. وهو يفسر كل شئ على محمل سئ ويقرأ تصرفات الناس على محمل عدوانى دائما، ولا يعرف البراءة أو حسن النية. وهو دائم الترقب والحذر مما سيفعله به الآخرون، ولديه شعور مزمن بالإضطهاد والظلم والتآمر من جانب الآخرين.

٣ – اضطراب الشخصية فصامية الشكل: وهو شخص غريب المظهر وغريب الأفكار والأطوار، تجده يلبس ملابس غريبة على سنه وعلى طبقته الإجتماعية، وهو يعيش فى عزلة وليست لديه علاقات اجتماعية ذات قيمة، ويتبنى أفكارا غريبة فيعتقد فى السحر وفى التخاطب عن بعد وينشغل بمثلث برمودة والحاسة السادسة والأمور السحرية وخوارق العادات وغيرها. ولديه شك فيمن حوله، وتجده متطرفا فى أفكاره ومعتقداته وسلوكه، وغريبا على مجتمعه. وقد يقوم بتفعيل بعض أفكاره الغريبة والشاذة والمتطرفة فينشأ عن ذلك سلوكا غير متوقع.

السفاح والمرض النفسى:

يعتقد كثير من الناس (ومنهم رجال الأمن) فى بلادنا أن كل مريض نفسى هو مشروع مجرم، ولهذا تتسارع الأنظار فى كل جريمة بشعة أو غريبة إلى المرضى النفسيين الجوالين فى شوارعنا بلا مأوى وبلا علاج أو رعاية، وقد يبدو هذا حلا سهلا للجميع حيث يتحمل المجنون القضية (يشيلها بالمفهوم الأمنى المصرى)، وفى نفس الوقت لا توقع عليه العقوبة بسبب جنونه بل ينقل إلى أحد المستشفيات للعلاج (ويصدق فى حقه

القول السائد: المجانين فى نعيم)، وبهذا يستريح الجميع، ولكن الخطورة فى ذلك هى بقاء المجرم الحقيقى حرا طليقا يمارس المزيد من العنف والترويع للناس (يعنى جت عليه). وليس صحيحا أن المرضى النفسيين أشد عدوانية من غيرهم، بل هم فى الحقيقة أكثر طيبة من غيرهم فهم مغلوبون على أمرهم غير قادرين على إدارة حياتهم وغير معنيين بإيذاء أحد، وحتى حين يصدر منهم عدوان فإنه يكون غير مخطط أو موجه بدقة وإنما يأتى لحظيا عفويا عشوائيا، على عكس الجرائم التى يرتكبها أصحاء فتجدها على قدر عال من التخطيط والتنفيذ ومحاولات الإخفاء والمكر والدهاء (أشعر بالأمان كثيرا وأنا بين مرضاى النفسيين فى حين أشعر بقلق شديد وأنا أدخل أى مصلحة حكومية خاصة تلك التى فى خدمة الشعب أو الوطن)، ولهذا نحذر دائما من وضع المريض النفسى كبش فداء فى كل جريمة نعجز عن الكشف عن الفاعل فيها، لأن فى هذا تضييع للحق والحقيقة واعتداء على حقوق المريض النفسى واتخاذ موقف عنصرى ضده يجعل الناس تتوجس منه خيفة وتأخذ موقفا عدائيا منه. وحالات المرض النفسى التى يمكن أن يصدر عنها سلوك عدوانى متكرر (أو متسلسل) تكاد تنحصر فى حالات الفصام الضلالى أو الإضطراب الضلالى، حيث يحمل المريض بعض المعتقدات الخاطئة والراسخة فى نفس الوقت والتى ربما تدفعه إلى ارتكاب جريمة بناءا على ما يعتقده من خيانة أو محاولات اضطهاد أو غيرها.

آفاق العدوان عند السفاح:

لعل بعضنا يتذكر الفيلم الفرنسى «توتر شديد» والذى أنتج عام ٢٠٠٣، وهو يصور فتاتين هما «أليكس» و«ماريا» زميلتان فى الجامعة يتوجهان لضاحية ريفية هادئة فى جنوب فرنسا لقضاء وقت جميل ملئ بالصفاء والسكينة فى بيت العائلة لكى يتمكنا من مراجعة المقررات الدراسية قبل الإمتحانات. وحين وصلا البيت ودلفا إلى غرفة النوم وتمددا فى الفراش بعد رحلة شاقة، وبمجرد أن انطفأت الأنوار بدأت رحلة غاية فى الرعب والهلع، حيث ظهر فى البيت قاتل سفاح عاث فيه عنفا وعدوانا وقتلا وتمثيلا بالجثث. ذلك الفيلم بطريقة تصويره وإخراجه يثير فيمن يشاهده أقصى درجات الرعب

والفزع، ويضعنا فى مواجهة مع النفس البشرية حين تتحول إلى أقصى درجات الوحشية التى يصبح فيها الإنسان وحشا مرعبا يقتل ضحاياه بدم بارد، ويستلذ بدمائهم تسيل فيشرب منها، ويستلذ بتقطيع جثثهم وتشويهها، ويستلذ أكثر وأكثر بنظرات الرعب فى عيون الضحايا.

وبما أن السفاح تتفجر لديه غرائز الجنس والعدوان فى نفس اللحظة لذلك نجده يصل إلى قمة النشوة وهويمارس قمة العدوان، لذلك نستغرب نحن حين نشاهد ما فعله السفاح ونتعجب كيف يقدر إنسان على هذه الفعلة الشنيعة وكيف يعيش بعدها وكيف يأكل ويشرب وينام ويداعب أطفاله.

والسفاح يجتاز ذلك المجال غير المرئى بين الحياة والموت فلا يعد يجد فارقا بينهما وإنما تدفعه احتياجاته وإحباطاته ورغباته بحثا عن التعويض واللذة أو تخلصا من الألم، ولهذا لا نجد سقفا لعنف السفاح فهو يمارس العنف إلى أقصى درجة تمكنه أدواته وظروفه منها.

والسفاح لديه نقص فى الإستثارة لذلك يحتاج لأفعال شديدة الإثارة والدرامية لكى يصل إلى حالة الإثارة وتحريك الإنفعال.

السفاح والعنصرية:

على عكس الجرائم العادية نجد السفاح يوجه عدوانه نحو فئات بعينها بناءا على نظرة عنصرية تجاه تلك الفئات، فهو مثلا يقتل عددا كبيرا من النساء لاعتقاده بأنهن مخلوقات أدنى مسكونة بالغواية ودافعة نحو الرذيلة وأن الحياة بدونهن تصبح أكثر سلاما ونقاءا، وربما يفسر هذا كثرة سفاحين النساء (لا أذكر من السفاحات غير ريا وسكينه.. والحمد لله تابوا وبطلوا غنا وتمثيل)، ويفسر سلوك سفاح الهرم الذى يرمى «ماء النار» على وجوه الفتيات اللائى يعتقد أنهن من بنات الليل أو أن سلوكهن مشينا، ويفسر سلوك سفاح المعادى الذى يهاجم الفتيات اللائى يرتدين البناطيل ويحاول طعنهن فى فروجهن أو قريبا منها.

أو يحاول السفاح قتل شعب معين لاعتقاده بأنه أدنى أو أحقر كما فعل هتلر مع بقية

شعوب أوروبا وكما يفعل الإسرائيليون مع الفلسطينيين.

أو يقتل السفاح بعضا من أفراد المجتمع لاعتقاده بكفرهم أو فسقهم أو خروجهم عن إطار الشرع كما يراه هو.

أو يقتل الأغنياء حقدا عليهم وكرها لهم، أو يقتل الضعفاء غضبا منهم ورفضا لضعفهم واستكانتهم وخضوعهم.

أو يقتل من يخالفونه فى الدين سعيا لتطهير الأرض منهم كم يرى ويعتقد.

ولهذا يقلق العالم كله من دعاوى العنصرية والطائفية لما يمكن أن يترتب عليها من مجازر بشعة.

السفاح بين الحقيقة والشائعة :

رصدت أجهزة الأمن والصحف ٥ ضحايا لسفاح المعادى فى حين ذكر الناس فى أقوالهم أن هناك ٤٠ ضحية للسفاح، وهذا الفارق العددى الهائل يعود للشائعات والمبالغات والتهويلات، فالشائعة كفيلة بمضاعفة الحدث وآثاره. والشائعة فى التعريف العلمى هى رواية منتشرة بين الناس دون أن يكونوا متأكدين من صحتها. وقد وضع العالمان جوردون ألبورت وبوستمان كتابا هاما بعنوان «علم نفس الشائعة»، وهذا الكتاب يعتبر مرجعا هاما لفهم كيف تنطلق الشائعات، وكيف نواجهها، وكيف نتفادى أثرها، وكيف نقوم بعمل شائعة مضادة. وقد وضع هذين العالمين معادلة للشائعة مفادها أن:

قوة انتشار الشائعة وتأثيرها = أهمية الموضوع مضروبا فيدرجة الغموض حوله مضروبا فى التركيبة النفسية لمتلقى الشائعة.

وبناءا على هذه المعادلة لكى نسيطر على أى شائعة علينا أن نجعل أحد عناصرها صفرا، أى يصبح الموضوع غير ذات أهمية، أو تكون المعلومات المتوفرة حوله كافية لإزالة الغموض، أو تكون التركيبة النفسية قادرة على رؤية الحقيقة كما هى دون التأثر بعوامل انفعالية ذاتية.

وفى حالتنا نحن نجد أن البيئة المصرية مهيأة بشدة لانتشار الشائعات، فهناك حالة

من الغموض والتعتيم بل والكذب لإخفاء الحقائق عن الناس بدعوى استقرار الأمور وعدم ازعاج الناس أو السلطات، وهذا يجعل الناس فى حالة قلق شديد لأنهم يتوقعون أشياء خطيرة مستترة، إضافة إلى أن السفاح يهدد حياة الناس وهذا موضوع لا يفوقه فى الأهمية شئ، فإذا أخذنا فى الإعتبار التركيبة النفسية للشعب المصرى والذى يعتمد كثيرا على الثقافة الشفاهية (غير المؤكدة) ولديه ميولا انفعالية عالية، فإننا نتوقع سرعة انتشار الشائعات وقوة تأثيرها. وهذا ما حدث ويحدث فى مثل هذه المواقف حيث يؤدى عدم الشفافية وضعف الثقة فى مصداقية السلطات الأمنية والتصريحات الحكومية إلى انتشار الشائعات وإلى شيوع حالة من الهلع لدى الناس تؤدى إلى إحجام النساء والفتيالت عن الخروج خوفا من السفاح، والكساد التجارى المترتب على ذلك، وفقد قوة عاملة لا يستهان بها

خصائص الضحية :

ينتقى السفاح ضحاياه طبقا لمعاييره العنصرية ولدوافعه النفسية فهناك من ينتقى النساء أو الفتيات وهناك من ينتقى الأطفال وهناك من ينتقى المسنين أو المسنات وهناك من ينتقى لون أو جنس معين أو طائفة معينة. ويجمع الضحايا بعض الخصائص نذكر منها:

* وجود الضحية فى مكان معزول لا تجد فيه النجدة أو المساعدة فينفرد بها السفاح

* سلبية الضحية وخضوعها واستسلامها، وهذا يغرى السفاح بالإستمرار فى خطته

* قابلية الضحية للإستهواء والإستلاب من جانب السفاح فهى تصدق كلامه المعسول ووعوده البراقة وتستجيب لمداعباته وملاطفاته، وتذهب معه إلى حيث ينفرد بها

* ضعف ثقة الضحية بنفسها مما يجعلها فريسة سهلة للسفاح

* عجز الضحية عن المواجهة والمقاومة عند اكتشافها لخطورة السفاح

* علامات الخوف والهلع على وجه الضحية، وهذه أشياء مثيرة جدا للسفاح تفتح شهيته لإكمال الجريمة

* إبداء التوسل والتضرع للسفاح فهذا يجعله يزداد إثارة وتوحشا تجاه الضحية

سفاحين على كراسى الحكم:

والتعريف الذى ذكرناه للسفاح لا يتوقف عند الحالات الفردية كسفاح المعادى وريا وسكينة وسفاحى بنى مزار وسفاح الهرم وغيرهم، وإنما ينطبق على شخصيات تشغل مناصب مرموقة وخطيرة وتصدر عنها قرارات تتسبب فى موت آلاف وأحيانا ملايين البشر، وهؤلاء هم السفاحين المهذبين أو ذوى الياقات البيضاء، ومن هنا جاءت فكرة جرائم الحرب وجرائم التطهير العرقى والجرائم ضد الإنسانية، ولقد طبقت عقوبات بشأن بعض المتسببين فى قتل البشر بشكل متكرر ومقصود، ولكن للأسف الشديد مازالت القوانين والشرائع الدولية فى هذا الخصوص مطاطة ومرسلة بما يسمح لكثير من الطغاة والسفاحين من الهروب منها، فمثلا شارون وبيجين كان ينطبق عليهما (وعلى كثير من زعماء وقادة إسرائيل) تعريف مجرمى الحرب والسفاحين ومع هذا تحميهم أمريكا من أى عقوبات، والسبب فى ذلك أن بوش نفسه يمارس سياسات فى العالم كله تعطيه لقب السفاح ومجرم الحرب بجدارة فقد غزا أفغانستان ودمرها وغزا العراق ودمرها ويعد لغزو وتدمير السودان وتسبب فى قتل ملايين البشر خارج إطار الشرعية الدولية، وهو لا يجد أحدا فى العالم يستطيع أن يحاسبه على تلك الجرائم البشعة. وهتلر كان طاغية وسفاحا ونال جزاءه، وكذلك صدام حسين، ومع هذا يبقى فى العالم كله طغاة وسفاحين يشغلون مناصب مرموقة ويديرون دفة الأمور وهم فى الحقيقة سفاحين ومجرمى حرب ينتظرون الجزاء.

دروس من حادث بنى مزار:

ربما يبدو أمر تسوية جريمة بنى مزار البشعة التى راح ضحيتها عشرة أشخاص شيئا مطلوبا لطمأنة الناس وتهدئة النفوس وإعطاء الفرصة لهذا الجرح المؤلم كى يلتئم، فاستمرار الحيرة والغموض ربما يؤديان إلى تداعيات خطرة خاصة إذا ذهبت الظنون فى اتجاهات العنف القبلى أو العشائرى أو العائلى أو الطائفى، هنا يصبح الأمر كارثيا لأن حجم الغضب والإنتقام سيكون متناسبا، بل ربما يكون متجاوزا، لبشاعة الجريمة وما

صاحبها من تقطيع وتمثيل بالجثث.

وقد يكون هذا هو السبب فى التعجيل بتقديم أحد المرضى بالفصام فى القرية على أنه الفاعل، وهذا حل مريح لجميع الأطراف، فبالنسبة للسلطات الأمنية يخف عنها الضغط الفوقى المتسائل عن السبب والفاعل، ويخف أيضا ضغط الرأى العام القلق والمترقب فى هلع، أما بالنسبة لأهل الضحايا فهم سيحتسبون الأمر عند الله ولا يفكرون فى القصاص حيث أن الفاعل مجنونا وليس على المجنون حرج، وبالنسبة لأسرة المجنون فقد حانت الفرصة أمام ابنهم لتلقى العلاج فى مستشفى نفسى كبير تحت رعاية السلطات المختصة ويخف ضغط مرضه عنهم، ربما يواجهون بعض المشاكل من نظرة الناس إليهم على أنهم ذوى القاتل ولكن هذا يمكن أن يتلاشى مع الوقت فهم ليس لهم دخل فيما حدث.

إذن هناك دوافع قوية لدى الجميع (شعورية وغير شعورية) لإلصاق هذه التهمة بشخص مجنون يحمل وزر ما حدث، ويقى الجميع شر تداعيات هذه الجريمة البشعة، وفى النهاية لن يواجه هذا الشخص المريض عقوبة قاسية مثل الإعدام، وإنما سيحال إلى أحد المستشفيات العقلية للعلاج، وهكذا يغلق هذا الملف مع أقل قدر من الخسائر، أما الضحايا فهم فى ذمة الله يعوضهم ويعوض ذويهم عما حدث.

ولكن هل هذا هو الحل الحقيقى أو الأمثل لمثل هذه الجريمة، وهل يستطيع فعلا شخص مصاب بالفصام أن يقوم بهذا الفعل على الطريقة التى حدث بها وبهذا التخطيط المحكم وحده فى ثلاث بيوت متفرقة وتجاه عشرة أشخاص لم يقاومه أحد منهم؟؟؟؟؟؟؟

إن الذى يتعامل مع حالات الفصام أو حالات الجنون بوجه عام يصعب عليه تصديق هذا الإحتمال أو قبوله بأى درجة من الطمأنينة أو اليقين، فمريض الفصام لديه اضطراب تركيبى فى المخ ولديه اضطراب على مستوى الناقلات العصبية، وهذه الإضطرابات تؤثر فى قدرته على التخطيط والتنظيم المحكم، وتؤثر أيضا فى إرادته، وهذه التأثيرات تجعل لجريمة الفصامى خصائص معينة تتنافى مع ماهو قائم فى جريمة بنى مزار. فالفصامى قد يرتكب جريمة عنف انطلاقا من معتقد خاطئ فى عقله كشعور بالإضطهاد أو الظلم أو الخطر من أحد، والفصامى يمارس العنف بدم بارد نتيجة تدهور

مشاعره، ولكنه مع هذا لا يملك هذه القدرة الفائقة للتخطيط والتنفيذ فى أكثر من مكان وأكثر من شخص دون أن يترك اثرا يدل عليه، بل الأكثر توقعا منه أن تكون جريمته اندفاعية عشوائية وغير منظمة، وتكون رد فعل مباشر أو شبه مباشر على استثارة أو استفزاز من أحد، وتكون موجهة – فى غالب الأحيان – لأشخاص لهم علاقة قريبة بالمريض كزوجته (إن اعتقد فيها الخيانة) أو أحد أقاربه (إن اعتقد أنه متآمر عليه) أو أحد زملائه القريبين (إن اعتقد أنه يخطط لإيذائه)، أما أن يقوم بهذا الفعل المركب شديد التعقيد تجاه هذا العدد من الناس الذين لا تربطهم رابطة ففيهم رجال ونساء وأطفال صغار، فهذا ما يصعب تصديقه من الناحية العلمية والواقعية. وقد يقول قائل: إن عملية القتل بهذه القسوة والبشاعة وعمليات التقطيع والتمثيل، وقتل الحمام تشير إلى درجة عالية من القسوة المصحوبة بالبلادة الشعورية المصحوبة بالغرابة وكل ذلك يشير إلى فعل مجنون. وربما يكون شكل مسرح الجريمة هو الذى أوحى بفكرة أن يكون مجنون قد ارتكبها، ولكن مع هذا فهناك احتمال أن يكون مرتكب الجريمة قد قصد هذا ليشتت انتباه المحققين ويضعهم فى حيرة، أو ليوجه أصابع الإتهام لوجهة معينة. أما بشاعة الجريمة وقسوتها فيمكن فهمها بدون افتراض جنون القائم بها، فقد اعتدنا فى السنوات الأخيرة على صور بشعة للقتل من أشخاص ليسوا بمرضى نفسيين ومع هذا مارسوا العنف بوحشية لا يتحملها عامة الناس، وربما يكون السبب فى ذلك كثرة التعرض لمشاهد العنف الدموية فى الفضائيات وعلى الإنترنت، وفى الألعاب الإلكترونية، حيث يقضى الشخص وقتا طويلا يشاهد العنف والدم والتقطيع أو يمارسه هو من خلال ألعاب الفيديو وربما يستمتع بمنظر الضحايا وهم يتساقطون تحت ضرباته ثم ينهى اللعبة وهو شديد السعادة بما حققه من قتل وإبادة، ومع تكرار التعرض لهذه المشاهد تقل الحساسية تجاه القتل والدم والأشلاء، وتقل الحساسية تجاه ما يعانيه الضحية. يضاف إلى ذلك الإحباطالت الشديدة التى يعانيها كثير من الناس فتجعل نفوسهم مليئة بشحنات الغضب والقسوة والعدوان.

وهناك أشخاص لديهم ميول سادية كما ذكرنا (أى يستمتعون بعذاب الآخرين) دون

أن يكونوا مرضى بالمعنى المعروف، وهناك شخصيات معادية للمجتمع يمكنها أن تقتل بدم بارد لأى سبب من الأسباب، وهناك من يحملون فى رؤسهم أفكارا انتقامية شديدة تؤهلهم لدرجات عالية من العنف والتدمير. أى أننا لسنا فى حاجة لافتراض الجنون فيمن يقوم بفعل مثل هذا، بل إن دقة التخطيط والتنفيذ بهذا الشكل تستبعد المجنون، فالمجنون ليس حريصا على حياته بهذه الدرجة التى يتقن فيها كل ما يفعل حتى لا ينتبه إليه أحد، فهو يقتل اندفاعا دون حساب للعواقب، وهو لا يخطط بهذه الدقة لينجو من العقاب فليس لديه هذا القدر من الحذر والحرص على الحياة الذى يتميز به غير المرضى.

ولا ننسى أن محاولة تسوية الأمر بهذا الشكل (والتى فشلت بحكم المحكمة الذى برأ المريض وأدان الملفقين ومعتادى التزوير) ربما يؤدى على المدى القصير إلى نوع من التهدئة وتجنب بعض الإحتمالات المرعبة فى حالة معرفة القاتل الحقيقى، ولكن على المدى البعيد لن تختفى الحقيقة للأبد، إضافة إلى أن الإندفاع فى اتجاه اتهام المجنون (كحل أسهل) سوف يعطى الفرصة للمجرمين الحقيقيين للفرار من قبضة القانون. ونحن هنا نقول مجرمين لأن طبيعة الجريمة بهذا الشكل المتوسع والمتزامن يعطى انطباعا حقيقيا بأن عدة أفراد قد قاموا بها، وبالطبع يصبح من السذاجة التفكير بأن هؤلاء الأشخاص جميعهم كانوا مجانين، أو أن مجنونا قادهم وخطط لهم.

العـــــــلاج:

*** على مستوى السفاح:**

وسفاح النساء لا يأت للعلاج ولا يطلبه ولا يقبله لأنه من البداية لا يعترف بأن لديه مرضا، وحتى إذا حضر للعلاج تحت أى ظروف فإن عمق الإضطراب لديه يجعل عملية العلاج شديدة الصعوبة فهو غير قادر على تفهم ما يقال له من تفسيرات، وبالتالى غير قادر على الإستبصار بمشكلته ذلك الإستبصار الضرورى لبدء عملية التغيير، فهو مفتقد لأى دافع للتغيير، ولهذا يصبح التفكير فى العلاج الطبى أو النفسى أقرب للحلم منه إلى الحقيقة، خاصة وأن سفاح النساء يمكن أن يقوم بأية فعلة شنيعة فى أى لحظة وبدون سابق إنذار، وهذا ليس تيئيسا من العلاج ولكنه اعتراف بقصور الوسائل

العلاجية لهذه الحالة حتى تلك اللحظة.

ولهذا يصبح العلاج الأجدى هو سرعة اكتشاف سفاح النساء والقبض عليه وتنفيذ العقوبة فيه طبقا لما ارتكبه من جرائم وإبقائه بعيدا عن المجتمع أطول فترة ممكنة، والبعض يرى أن سجنه مدى الحياه –خاصة إذا كان قد قام بما يبرر هذا الحكم – هو الحل الأمثل لتجنيب المجتمع شره وأذاه.

ولكى نمنع تفريخ سفاحين جدد علينا بالإهتمام بالطبقات المهمشة والمسحوقة فى المجتمع، تلك الطبقات التى تنعدم فيها الثقافة التربوية ويزيد فيها الحرمان وتكثر الضغوط النفسية. كما أن إرساء مبادئ العدل والرحمة والرفق بالضعفاء يقلل كثيرا من دفعات العنف ومن الإحساس المؤلم بالظلم والحرمان ومن الشعور بيالنقمة والغضب تجاه المجتمع وانتهاز الفرصة للثأر والإنتقام منه.

*** على مستوى الضحايا وذويهم:**

١ – عدم التواجد فى أماكن معزولة وفى أوقات متأخرة بالذات بالنسبة للفتيات والنساء والأطفال

٢ – الحرص على عدم الذهاب مع أشخاص مجهولين إلى أماكن لا نعرف طبيعتها

٣ – مواجهة السفاح بحسم وحزم حين اكتشافه فإن ذلك يقلل كثيرا من المخاطر المحتملة

٤ – التدريب على مهارات الدفاع عن النفس بالنسبة للفتيات والنساء وحتى الأطفال فالسنين القادمة قد تحمل الكثير من المخاطر التى تعجز الدولة عن حماية مواطنيها منها

٥ – المطالبة بالإهتمام بالأمن الإجتماعى والذى توارى كثيرا لحساب الأمن السياسى

٦ – المواجهة الحقيقية لمشكلات المخدرات وأطفال الشوارع والمهمشين والمظلومين وهم كثر فى بلادنا، وعدم الإكتفاء بالطنطنة الإعلامية والإسترزاق البحثى من هذه المشكلات

٧ – محاولة الإستعانة بشركات الأمن الخاص المرخصة والمعتمدة لوضع رجال أمن على أبواب العمارات ونواصى الشوارع لكى يوفروا الحد الأدنى من الأمن إلى حين تستعيد الدولة قدرتها على الحفاظ على الأمن الإجتماعى

٨ – زيادة الترابط الأسرى والإجتماعى وتقوية الحضور البشرى فى كل مكان بحيث يشكل كل هذا شبكة اجتماعية قوية لحماية الجميع من تلك الظواهر المهددة. ولا مانع من أن يقوم أهل الحى أو الشارع بدوريات منتظمة لمسح المنطقة وإظهار الحضور البشرى الذى يرهب السفاح واللصوص وسائر العابثين بأمن الناس.

*** على مستوى الشائعات:**

طبقا لمعادلة الشائعات المذكورة أعلاه لكى نسيطر على الشائعات المرعبة للناس والمعطلة لحركة حياتهم علينا بزيادة الشفافية والمصداقية وبث الأخبار الصحيحة، والإبتعاد عن التهوين والتهويل، وكشف الحقائق المتاحة أولا بأول، والتعامل مع الناس على أنهم ناضجين وراشدين وليسوا أطفالا نخدعهم أو ندغدغ مشاعرهم أو نسوق لهم تطمينا كاذبا.

* * *

الرجولة فى خطر

كانت هذه الفكرة تلح على وتطاردنى فى تعاملاتى اليومية مع كثير من الرجال (أو بالأدق الذكور) وفى العيادة النفسية مع الذكور اليائسين المحبطين الضعفاء المستسلمين المنسحبين أو مع زوجاتهم اللائى يعانين من كل ذلك، ثم ازداد إلحاحها فى إبان الحرب السادسة (بين حزب الله وإسرائيل) حيث كانت تنعقد المقارنات بين شخصيات شتى تتصارع وتصمد وتصبر وتضحى وتصدق أو تتواطأ أو تضرب من الخلف أو تغدر أو تكذب. فهذا وجه حسن نصر الله حين يظهر على الشاشة يعكس صفاتا غابت من قاموس حياتنا المعاصرة فهو مازال متمسكا بالصدق والصبر والشجاعة والمقاومة والتضحية (قدم ابنه شهيدا فى حرب تحرير الجنوب) وما زال يحتفظ برأسه مرفوعا أمام تهديدات الدنيا كلها ومازال واثقا من النصر رغم التباين الهائل فى ميزان القوى (بضعة صواريخ متواضعة لحزب الله أمام ترسانات إسرائيل وأمريكا العسكرية)، وهو لا يناور ولا يخادع بل يقول ويفعل ويعيد إلى القاموس العربى مفردات الرجولة والكرامة والشرف والترفع. وهذا وجه يوسف القرضاوى يقف بنبل ليعلن فتواه المؤيدة والداعية للمقاومة فى لبنان بكل قوة ورجولة وصدق بعيدا عن أى خلافات طائفية أو مراوغات سياسية ليؤكد لنا – كما يفعل دائما – بقاء نماذج حية للرجولة تعطى الأمل بإحيائها مرة أخرى فى عالم عربى مرت به سحابة غبية حجبت عنه قيم الرجولة حين دفعت إلى الصفوف المتقدمة بنماذج نبذت تلك القيم وسفهتها وراحت تدعو ليل نهار إلى استبعادها من حياتنا الخاصة والعامة، وأصبحت وظيفتها ترويض وتليين وتأنيس وتأنيث من تبقى من الرجال إن استطاعت، وحين تنجح فى ذلك تأخذ الثمن رضا من السادة الذين يحرصون على إخصاء وإقصاء كل الرجال فى أرض العرب. وهذا وجه حمدى قنديل يشع رجولة وفروسية ونبلا وصدقا وترفعا وكبرياءا، يقف فى هذا الزمن ليقول كلمة حق يوقظ بها الضمائر النائمة ويلهب بها ظهور الخانعين والساقطين والمستسلمين والمستضعفين. وهذا وجه أولمرت وبوش وكونداليزا رايس وبلير، وجوها تشع بالنذالة

والتآمر والكذب والمراوغة. وهذه وجوها أخرى فى عالمنا العربى تبدو مرتعشة مترددة كاذبة خاطئة وأحيانا كثيرة متآمرة متواطئة، وأحيانا صامتة حائرة ولسان حالهم يقول: اللهم أهلك الظالمين بالظالمين وأخرجنا من بينهم سالمين (وما دروا أنهم جميعا ظالمين).

وهكذا تتجمع ملاحظات متعددة من مواقف شتى بعضها عام وبعضها خاص لتشير بشكل متصاعد أن الرجولة فى خطر، والرجولة ليست مرادفة للذكورة فالأخيرة لا تعدو كونها نوع من التركيب التشريحى والفسيولوجى يمكن أن نميزه عن النوع الأنثوى أيضا باختلاف هذا التركيب، أما الرجولة فهى تركيبة نفسية وأخلاقية قد توجد فى الذكر (وهو الأغلب) وقد توجد فى الأنثى (امرأة رجل أو امرأة بألف رجل).

وقد حاولت أن أتتبع مدلولات كلمة رجولة فى التراث ومن أفواه المعاصرين فوجدتها تدور حول المعانى التالية: القوة، الشجاعة، المروءة، النجدة، الرعاية، المسئولية، الإحتواء، الصبر، نصرة المظلوم، الشرف، الغيرة على العرض، البذل، الإحترام، الوفاء، الحماية، الأنفة، الترفع عن توافه الأمور، الصدق، التضحية بالمال والنفس، العفة، الطهارة، العطاء، الكرم، التواضع النبيل، ضبط النفس، العدل، الكرامة، الإنصاف، إغاثة الملهوف ، الإيثار، العزة، الإقدام، احترام الذات، العفو عند المقدرة، التسامح، البعد عن الدنايا،...... الخ.

وحين ننظر من حولنا على المستوى الضيق ونبحث عن هذه الصفات فسوف يعوزنا البحث لأننا سنرى ذكورا كثيرين ورجالا قليلين جدا، فهذا زوج ينام فى بيته بينما زوجته تعمل ليل نهار لتغطى مصروفات البيت ومصروفاته هو شخصيا، فهو يأكل ويشرب من كدها وعرقها ويمد يده لها آخر النهار ليأخذ مصروفه لكى يقضى ساعات مع أصدقائه على القهوة (أو الكوفى شوب) أو فى النادى ثم يعود آخر الليل ليقضى ما تبقى من الوقت أمام التليفزيون يشاهد الفيديوكليب ويتحسر على حظه العسر، وهذا زوج مدمن يدفع بزوجته إلى أحضان أصدقائه ليحصل على احتياجاته من المخدر، وهذا شاب لا يستطيع عمل أى شئ بدون مساعدة أمه، وهذا أخ يقوم بتوصيل رسائل الغرام بين أخته وبين محبيها من الشباب ويكتم سرها عن والديها وعن بقية الأسرة ثم يبتزها فى بعض الأوقات

لكى تدفع له ما يريد وإلا سيفشى هذا السر، وهذا زوج يقضى وقته فى مشاهدة التليفزيون أو الجلوس عل النت لمشاهدة القنوات الإباحية أو عمل دردشة بينما لا تراه زوجته أو أبناؤه إلا فيما ندر، وهذا موظف يتهرب من القيام بعمله ويتركه لزميلته تقوم هى به، وهذا مدير يستغل حاجة فتاة من موظفيه فيراودها عن نفسها وإن امتنعت جعل حياتها جحيما، وهذا موظف أدمن الرشوة حتى ذابت كل بقايا العزة والكرامة والشرف لديه وظهرت على وجهه علامات التسول والخسة والنذالة والحقارة، وهذا مسئول أدمن النفاق لرؤسائه ولبس قناعا كاذبا أخفى عنه وعن الناس حقيقة ذاته فصار ظلا لغيره ومطية لكل من يعلوه.

أما إذا توسعنا فى النظر فسنجد انسحابا لقيم الرجولة على المستوى المحلى والعالمى، وربما يفسر هذا الإتهامات المتبادلة فى الفترة الأخيرة بنقص الرجولة بين القيادات، فلم تعد تهم القيم فى المواقف، وإنما المهم هو السلامة (بمعناها السلبى الضعيف الإنسحابى الهروبى) والمكسب (بمعناه الإنتهازى النفعى الأنانى) وراحة الدماغ (بمعناها الغبى المتكاسل)، ولسان حالهم يقول كما قال النذل الشعبى: «عش جبانا تمت مستورا»، ويقول: «هى الشتيمة بتلزق»، ويقول: «إحنى راسك لحد ما الموجه تعدى»، ويقول: «اللى يتجوز أمى أقول له يا عمى»، ويقول: «أنا عبد المأمور». وأصحاب هذه المنظومة ينظرون إلى قيم الرجولة باستخفاف ويحاولون التخلص والتملص منها بتسميتها «عنترية كاذبة» أو «ادعاء بطولات زائفة» أو «عدم واقعية» أو «تهور» أو «مغامرة غير محسوبة» أو «قلة عقل» أو «نزق» أو «عدم قراءة للواقع» أو «عدم فهم للمتغيرات الدولية» أو «سذاجة سياسية»..... الخ، والهدف من ذلك هو تشويه معانى الرجولة أمام أنفسهم حتى تستريح ضمائرهم لقراراتهم ومواقفهم المبتعدة دائما وأبدا عنها، وليقروا واقعا عالميا يتسم بالنذالة والإنتهازية وغياب العدل واغتيال الشرعية واستبعاد القانون، ولينعموا فى النهاية بالبقاء فى كراسيهم وتوريثها لمن كبر من أبنائهم.

وقد نجد مبالغة فى المظهر الذكورى لدى كثير من الشباب هذه الأيام ممثلة فى اهتمامهم بالذهاب للجمنزيوم (صالة الألعاب الرياضية) لتنمية وتضخيم عضلاتهم

وترى الشاب يمشى فى الشارع يلبس «بدى» أو «تى شرت» (قميص ضيق جدا يصف ويشف) لإظهار عضلاته المتضخمة تعويضا عن مواقفه الطفولية العاجزة والتافهة، وقد تغتصب أمامه فتاة دون أن يفكر فى فعل أى شئ لإنقاذها، وفى الوقت الذى تتضخم فيه عضلاته حتى لتكاد تتفجر من ملابسه نجده يأخذ مصروفه من أمه التى تعمل ليل نهار حتى ذبل جسمها وانهارت قواها. وقد نجد مبالغة من بعض الأزواج (ناقصى الرجولة) فى التحكم فى زوجاتهم والسيطرة عليهن وقهرهن وسحقهن بدعوى القوامة، فهم يفهمون القوامة على أنها استبداد واستعلاء وقهر وتحكم وإلغاء لشخصية الزوجة، وهو إذ يفعل ذلك يريد أن يعوض نقص الرجولة لديه ويثبت لها بشكل طفولى خائب أنه الأقوى جسديا وأن لديه مفتاح المنح والمنع فى أمور كثيرة تخصها، والقوامة فى الحقيقة ليست كذلك فهى قبل كل شئ رعاية ومسئولية وقيادة حكيمة من رجل يملأ عين زوجته وقلبها ويحميها ويحتويها ويضحى من أجلها ومن أجل أبنائها ويخفف عنها ضغوط الحياة، ويجعلها تنام ملء جفنيها وهى تشعر فى رحابه بالأمن والطمأنينة. وقد نجد نظيرا لذلك على المستوى الدولى حيث تكدس بعض الدول أسلحة كثيرة وتجرى استعراضات عسكرية ضخمة، وتخرج كل عام دفعات من طلبة الكليات العسكرية ينعمون بتشريف القادة على أعلى مستوى لتهنئتهم بالتخرج، وتجد مظاهر الإنعام بالنياشين والقلادات وأوسمة الشرف على القادة العسكريين فى حين أن هذا البلد ليس له أى موقف عسكرى مشرف أو غير مشرف، ولكنها المبالغة فى مظاهر القوة والشرف والشجاعة دون التحلى بها فعلا. وتجد هذه الدول تخنع وتخضع وتخنث وتنحنى وتنبطح وتخفض جناحها أمام دول أكبر، فى حين تستبد استبدادا شديدا بشعوبها المستضعفة والمقهورة وتستعرض أمامها كل ألوان القوة والسيطرة (بالضبط كما يفعل الزوج الضعيف المقهور مع زوجته حيث يطأطئ رأسه لمديره المستبد به ثم بعد ذلك يدوس على رقبة زوجته فى المنزل تعويضا وإزاحة).

وربما يسأل سائل: ما الذى أدى إلى هذا التآكل الخطير فى معانى الرجولة وقيمها على مستوى البيت والشارع وعلى مستوى الدول؟: هل لأننا لم نعد نربى أبناءنا على احترام

هذه القيم؟؟..، هل هو الإتجاه العالمى الجديد الذى تقوده أمريكا والذى يسفه كل القيم حيث تنتمى هذه القيم إلى العالم القديم الذى تستعلى عليه أمريكا وتسفهه؟ (تذكر أن الأمريكيين الأوائل الذين شكلو نواة المجتمع الأمريكى كانوا من الخارجين على المجتمع وعلى القانون ومن المارقين المغامرين ومن الشخصيات السيكوباتية المضادة للمجتمع والنفعية الإنتهازية الباحثة عن اللذة دائما دون اعتبار لأى قيمة أو قانون) ..... هل هو الإستبداد السياسى الذى قهر الرجل وأذله فتعلم الناس مع الوقت أن يخفوا رجولتهم أو يتخلصوا منها خوفا من الخصاء على يد السلطات الفرعونية التى قررت أن تقتل (أو تخصى) كل رجل يوجد فى البلاد حتى لا يهدد الإستقرار؟....... هل هى طريقة التربية التى تولتها الأمهات غالبا نظرا لسفر الأب أو انشغاله فى عمله أو مع أصدقائه أو أمام التليفزيون والنت؟.... هل هو الزحف الأنثوى على جوانب الحياة المختلفة والإنتقال من مرحلة تحرير المرأة إلى مرحلة تمكين المرأة مما أدى إلى انسحاب الرجل من كثير من مواقعه كيدا أو عنادا أو مقاومة سلبية ردا على تهديد عقدة التفوق الذكورى لديه؟... هل هى فلسفة الشره الإستهلاكى الإستمتاعى السائدة التى لا تهتم بالقيم قدر اهتمامها بقدر اللذة الحاصلة أو المتوقعة من أى فعل؟.... هل هى أنظمة سياسية وقيادات إعلامية ودينية بعينها تدعو ليل نهار لقيم هى أبعد ماتكون عن قيم الرجولة ووجدت هذه الدعوة صدى لدى الناس لما تمنحهم من راحة التخلى والسلبية والإستمتاع المتوهم بمكاسب الحياة ورفاهيتها بعيدا عن الدخول فى صراعات تستجلبها المواقف أو القرارات ذات السمت الرجولى؟؟... هل هى البراجماتية، ذلك المذهب العالمى الجديد الذى يضع المكاسب والمنافع فوق كل القيم، بل إنه على استعداد لإلغاء كل شئ أمام تحقيق مكاسبه الآنية الشخصية؟؟؟.

قد نختلف أو نتفق فى الأسباب، ولكن تبقى حقيقة مؤكدة وواضحة لأى متخصص أو غير متخصص وهى أن الرجولة فى خطر.

❊ ❊ ❊

تأملات فى فتاوى الهواء

على مدى سنوات رحت أتابع البرامج الدينية وبرامج الفتوى على الفضائيات العرية، وربما يرجع ذلك لعدة أسباب منها محبتى لتلك البرامج النابعة من محبتى للدين ورموزه، وفرحتى بأثر هذه البرامج فى تعميق المعرفة الدينية والفهم الدينى لدى الناس على يد مجموعة من الدعاة والداعيات منحهم الله القدرة والموهبة على مخاطبة عقول الناس وقلوبهم وأرواحهم، وقد تجلى هذا فى السنوات الأخيرة حيث أقبل الناس على الدين وخاصة الشباب، وأخيرا شغفى المهنى بأثر تلك البرامج على الناس خاصة وأننا كشعوب عربية وإسلامية يشكل الدين أحد أهم العوامل المؤثرة فى سلوكنا الشخصى والعام. وشيئا فشيئا وجدت تحولا مزعجا فى بعض البرامج استدعى الإنتباه فالتحذير، كما استدعى كتابة هذه الدراسة، والتى سنقسمها إلى عدة أقسام هى: ١- السائل (المستفتى - بكسر التاء الأخيرة) ٢- المسئول (المستفتى - بفتح التاء الأخيرة) ٣- موضوع السؤال (الفتوى)، وأخيرا ٤- تساؤلات ومقترحات

أولا: السائل:

تنحصر أنواع السائلين طبقا لأسئلتهم كالتالى:

١ - سائل يبغى الإسترشاد والمعرفة والفهم بصدق وإخلاص وتواضع

٢- سائل سفسطائى مجادل

٣- سائل متشكك ومثير للشبهات

٤- سائل مستهزئ معاند

٥- سائل يهدف ألى التعجيز والشماتة فى المسئول حين يتحير أو يرتبك

٦ - سائل يهدف إلى التسلية والكلام والثرثرة لأطول فترة على التليفزيون

٧ - سائل متنطع متفيقه (مدّعى العلم ومتصنع المعرفة ومتحذلق)، وسؤاله يثير

قضايا خلافية هامشية، والهدف هنا هو استعراض معرفة السائل بدقائق الأمور وخباياها وغرائبها ومشكلها

٨- سائل وسواسي، وهو يتميز بالدخول فى تفاصيل التفاصيل، ولا يقنع ولا يطمئن لإجابة، بل كل إجابة تفتح تساؤلات جديدة بلا نهاية.

٩- سائل سلبى اعتمادى يسأل عن أى شئ وكل شئ ولا يريد أن يتحمل مسئوليته عن السؤال أو عن الجواب ولا يمحصه بعقلية نقدية ناضجة وواعية، فهو لا يحقق قول الرسول ﷺ: «**استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك**»، فهو لا يحب أن يتعب نفسه فى شئ، بل يريد مفاهيم جاهزة ومريحة. وهذه الإعتمادية الطفلية مرتبطة بطبيعة الإستسهال لدى قطاع كبير من الجمهور العربى، ومرتبطة أيضا بطبيعة المجتمع الأبوى الذى يقسم الناس إلى آباء يعرفون كل شئ وأطفال جهّال لا يعرفون شيئا فيسألون الآباء (والأمهات) عن كل شئ وعن أى شئ.والشخص السلبى الإعتمادى يخاف من حريته الشخصية وما يترتب عليها من مسئوليات لذلك يلقى بالتبعة على كبير يسأله ويحمله مسئولية الإجابة وما يترتب عليها.

وبما أننا أصحاب ثقافة شفاهية، لذلك يندر أن نرى أحدا يبحث عن إجابة لسؤاله بين صفحات الكتب أو على الإنترنت، وإنما نستسهل السؤال الشفاهى فى الإذاعة أو التليفزيون.

ثانيا: المسئول:

على الرغم من صعود نجم عدد غير قليل من الدعاة (رجالا ونساءا) ذوى العلم الراسخ والجاذبية الإجتماعية الهائلة وذوى التأثير الروحى الواضح يشع نور الإيمان من وجوههم حين يظهرون على الشاشة وقد ساهموا فى إنارة عقول المشاهدين على مستوى العالم، إلا أن الأمر لم يسلم من صعود نجم دعاة آخرين ركبوا الموجة وتملقوا الجماهير بحركات بهلوانية وتعبيرات مسرحية لا تليق بوقار العلماء واحترامهم لأنفسهم واحترام

الناس لهم، وأحدثوا إشكالات والتباسات عديدة نذكر منها:

* الخلط بين الداعية والمفتى، فالداعية يمكن أن يكون شخصا لديه قدرة على ترقيق القلوب وتحريك المشاعر نحو الدين ولكنه ليس بالضرورة من العلماء المنهجيين الراسخين فى العلم (بالطبع هناك دعاة من العلماء الراسخين فى العلم)، وبعض هؤلاء الدعاة لديهم كاريزما شخصية ربما تجعل قبولهم عند الناس هائلا خاصة الشباب الذين يبهرهم مظهر الداعية و «روشنته» وطريقة كلامه واستخدامه لمفردات لغة العصر أو لغة الشارع. أما من يتصدر للفتوى فيجب أن يكون عالما راسخا منهجيا يتسم بالرزانة والتعقل ولا يسعى لإعجاب الجماهير أو إبهارهم.

* هناك بعض الدعاة الساعين للشهرة من خلال تملق الجماهير وتحسس مواطن إعجابهم فهم يبالغون فى المظهر والكلام بما يرضى ذوق الجماهير، وقد يضطرون للإتيان بغرائب الكلام أو غرائب الفتوى بهدف جذب الإنتباه.

وهذا الداعية الساعى للشهرة يسعد جدا بالجدل الذى تحدثه آراؤه وفتاواه على الفضائيات وفى الصحف ويسعد بنشر صوره تحت فتاواه المثيرة للجدل.

* وهناك من يسمون «دعاة البيزنس» وهم يأخذون الموضوع تجارة وتكسبا ويستغلون محبة الناس للدين فيبيعون لهم المواعظ المحركة للمشاعر فى شكل برامج فضائية أو أشرطة كاسيت، وهذا النوع من الدعاة يضع نصب عينه راحة الزبون وانبساطه وانسجامه فيقدم له الدين فى الثوب الذى يريحه وعلى المقاس الذى يناسبه، ويداعب ذوقه بالنكتة والطرفة، والحكاية المسلية أو المؤثرة، ويبعد عنه كل مالا يعجبه أو يظن أنه يعكر صفوه. وهؤلاء الدعاة نجدهم هذه الأيام طوّافون على الفضائيات وفى المساجد الراقية (فقط) وفى شركات رجال الأعمال، وفى صالونات علية القوم، وفى منتديات الأندية الرياضية التميزة وفى صالات الفنادق الفخمة، وأحيان يطلق عليهم الدعاة السوبر، فهم حلال على الأغنياء حرام على الفقراء.

ثالثا: موضوع السؤال (الفتوى):

لا شك أن هناك أسئلة تلقى الضوء على مسائل هامة تفيد الناس فى حياتهم وأخراهم، ولكن هناك عل الجانب الآخر أسئلة وموضوعات للفتوى تتسم بالتالى:

١- هامشية الموضوعات بحيث تمس فروعا لا أهمية لمعرفتها ولا ضرر من الجهل بها

٢- عشوائية الموضوعات وتناثرها وتناقضها أحيانا وذلك بسبب كثرة الفضائيات وعدم وجود أى تنسيق بينها

٣- الإباحية واستخدام بعض الألفاظ والتعبيرات التى لا يصح استخدامها داخل البيوت وأمام الأطفال أو الفتيات الصغار فى البيوت المحترمه

٤- تآكل منطقة المباح التى جعلها الله فسحة للناس ورحمة

٥- غرابة الموضوعات، ونعطى لذلك بعض الأمثلة:

* مسألة رضاعة الخدم الرجال من صاحبة البيت حتى تصبح أمهم فى الرضاعة فيستطيعون الدخول عليها دون حرج.

* مسألة التدخين فى نهار رمضان وأنه لا يفطر.

* البحث عن أسماء أصحاب الكهف وجنس النملة التى كلمت سيدنا سليمان وجنس كلب أهل الكهف واسم أخت سيدنا موسى عليه السلام واسم فرعون موسى

* هل أسلم فرعون قبل وفاته أم لا؟

* هل خلقت حواء من الضلع الأيمن لآدم أم من الضلع الأيسر، وهل خلقت وهو نائم أم كان مستيقظا؟

٦ – خطورة الموضوعات، ونضرب لها مثلا بالفتوى التى صدرت أيام الحرب على لبنان وتحت تأثير الغضب مما يحدث أفتى أحد الشيوخ بوجوب قتل أى إسرائيلى مدنيا كان أو عسكريا فى أى مكان يوجد فيه، وصرح من قدم هذه

الفتوى بأنه شخصيا لو وجدسائحا إسرائيليا فى شوارع القاهرة أو فى أى مكان من العالم لقام بقتله.

٧ – اختلاط مفسرى الأحلام بالدعاة وعلماء الدين، فهناك الآن ١٤ مفسر أحلام على الفضائيات العربية كلهم يلبس رداء علماء الدين ويعلنون انتسابهم للأزهر (بحق أو بغير حق)، وهؤلاء يمارسون نوعا من التدليس والتضليل ويوهمون العامة وبعض أنصاف المثقفين بأن هذه التفسيرات أشياء يقينية تنتسب للدين، والدين منها براء، بل هى آراء واجتهادات وتهويمات شخصية وخزعبلات ليس لها أى قواعد أو أصول تجعلها ضمن العلوم اليقينية.

وقد حذر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين من هذا المنزلق فى قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾ [المائدة ١٠١]. يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية: «أى مالم يذكره فى كتابه فهو مما عفا عنه فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها».وورد أن هذه الآية نزلت فى معرض أن رسول الله ﷺ أذن فى الناس فقال: «ياقوم كتب عليكم الحج» فقام رجل من بنى أسد فقال: يارسول الله أفى كل عام، فأغضب رسول الله ﷺ غضبا شديدا فقال: «**والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما استطعتم وإذا لكفرتم فاتركونى ما تركتكم وإذا أمرتكم بشئ فافعلوا وإذا نهيتكم عن شئ فانتهوا عنه**». ومن الأمثلة المشهورة فى القرآن قصة بنى إسرائيل حين أمرهم نبيهم موسى أن يذبحوا بقرة امتثالا لأمر الله فكانت أسئلتهم واستفساراتهم الكثيرة سببا فى التشديد عليهم. وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ذرونى ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**». وفى الحديث الصحيح أيضا: «**إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرّم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها**».

وكثرة الأسئلة تؤدى إلى تآكل مساحة المباح (المسكوت عنه) وإلى التضييق والبلبلة وأحيانا الفتنة فى الدين، فتأمل مثلا لو أن المسلمين الأوائل أصروا على معرفة تفسير

الآيات الكونية قبل أن يتقدم العلم ويكشف الكثير من أسرارها ويصبح العقل قادرا على فهمها واستيعابها.

رابعا: تساؤلات ومقترحات:

وبما أننا شعوب متدينة، ويشكل الدين أحد أهم روافد ثقافتنا وسلوكنا، وننظر إلى الرموز الدينية بتقدير واحترام، إذن فيجب أن يتم تنظيم موضوع الفتاوى الدينية على الهواء بما يحقق الغرض المطلوب، فليس الغرض تحقيق نجومية لبعض الدعاة أو تحقيق نجاح إعلامى للقناة، وإنما الغرض من هذه البرامج الدينية بالذات هو توصيل كلمة الله إلى الناس فى أنقى صورة وأوضح بيان.

فهل من الممكن أن توضع معايير لمن يقومون بالفتوى تلتزم بها القنوات الفضائية ووسائل الإعلام عموما؟.. وهل من الممكن إنشاء هيئة تابعة للأزهر تقوم بمتابعة برامج الفتاوى على الفضائيات وتصويبها حين يستدعى الأمر، بحيث تعتبر هذه الهيئة مرجعية يعود الناس إليها فى حالة الإختلاف أو البلبلة؟؟... وهل من المفيد أن تكون القنوات الفضائية ملزمة – وفق ميثاق شرف مهنى – بإذاعة تصويب الفتوى فى أقرب حلقة تالية من البرنامج؟؟... وهل يمكن أن نفعل كل هذا دون الإفتئات على حرية التعبير فى الفضائيات؟؟... وهل وضع المعايير المنظمة يكون أشبه ببرامج منع تسلل الفيروسات إلى برامج الكومبيوتر أو منع دخول الأطعمة الفاسدة عبر الموانئ والمطارات أو منع تداولها فى الأسواق ضمن برامج حماية المستهلك؟؟

***

بثينه ومنى... حدوته مصريه

تحيرت بأيهما أبدأ فكلا منهما تستحق أن تكون الأولى فى أى مكان تحل فيه وفى أى وعى تشرفه بالزيارة، لذلك قررت حل المشكلة باللجوء لحيلة الترتيب الأبجدى، وأستأذنهما فى ذكر اسميهما مجردا من الألقاب كما يحل فى الوعى الخاص والعام بشكل مباشر، فهما مناضلتان على خطوط الدفاع الأعمق، والمناضلات لايحتجن لألقاب حيث يصبح للإسم وحده وزنا وبريقا وعمقا يغنيه عن أى إضافة ربما يحتاجها بقية الناس ويحرصون عليها. وقصة كفاح هاتين البطلتين تصلح لأن تكون حدوته مصرية جميلة نحكيها لأبنائنا وأحفادنا ليس فقط قبل النوم وإنما عند الصحو، وهى حدوته ربما لاتحوى كلاما كبيرا أو لافتات ضخمة لا تحبها البطلتان، وإنما جهد حقيقى صادق وبسيط ومحب على مستوى إنسانى رفيع، وذات طابع جمالى فى الشكل والموضوع، حيث تصلح كلا من البطلتين لتكون أميرة فى عالم الأحلام واليقظة على السواء. والآن نكتفى بالمقدمات ونبدأ الحدوته:

كنت عائدا من مكة إلى الطائف فى ليلة من الليالى الشتوية فى نهاية الثمانينات من القرن الماضى (ألم أقل لك أنها حدوته) وبينما أنا أقود سيارتى على الطريق الجبلى يحوطنى الظلام من كل جانب، أدرت مفتاح المذياع وقلبت فى المحطات فسمعت صوتا أثار شجونى، لقد كانت بثينه كامل تقرأ النشرة أو تذيع برنامجا خاصا (لست أدرى على وجه التحديد فقد شغلتنى وجدانات الموضوع عن حقيقته) وجاء الصوت مصريا خالصا دافئا واثقا مطمئنا صحيحا على الرغم من تشويشات الإرسال، بل إن اختراق هذا الصوت الصافى للتشويشات أعطانى إيحاءا مهما وهو أن سلبيات الحياة المصرية والتى تركت مصر بسببها فى ذلك الوقت لا يمكن أن تحجب صوتا صادقا نقيا نافذا مطمئنا مثل صوت بثينه كامل، ولم تكن الإذاعة المصرية تصلنا فى هذا المكان من قبل لذلك كان وقع الصوت فى هذه الظروف كمفتاح لوجدانات وطنية مصرية تتأجج فى الغربة وفى ظلمة الليل ووحشة

الطريق، خاصة حين يكون الصوت مألوفا لسنوات عبر الإذاعة المصرية والتليفزيون المصرى مرتبطا بنشرة الأخبار (فى زمن كانت نشرة الأخبار فيه معزوفة وطنية) بحيث يشكل عامل ربط مع الحياة المصرية فى فترة كانت تتسم بالنقاء والصدق والوطنية الصادقة قبل أن يلوثها الأفّاقون والكذّابون والسماسرة. مرت سنوات على هذا الحدث ثم التقيتها بعد ذلك من خلال برنامجها الناجح «أرجوك إفهمنى» على قناة «أوربت» وكان ذلك عن طريق صديقى الحبيب إبراهيم عيسى (رئيس تحرير جريدة الدستوروالمناضل الوطنى العظيم)، وبدأت أعرفها عن قرب من خلال التواصل لعمل حلقات فى البرنامج المذكور ومن خلال متابعتى لنشاطها خارج هذا الإطار المهنى. لم تكن مجرد «مذيعه» تقدم برنامجا إذاعيا أو تليفزيونيا فتحضر قبل البرنامج خالية البال لتؤديه وتنصرف (كما رأيت بعينى فى بعض قنوات التليفزيون مذيعات يحضرن بفتور ولا يعلمن عن الموضوع شيئا إلا قبل التصوير بدقيقتين حيث يلقنهن المعد بعض الأسئلة)، ولكنها تحمل رؤية ورأيا (قد تتفق معه أو تختلف ولكنك تحترمه وتحترم صاحبته)، تناقش وتحاور قبل البرنامج وأثنائه وبعده، فهى ترى – كما أفهم منها وعنها – أننا نعيش حالة من الزيف والخداع لأنفسنا ولغيرنا على المستويات النفسية والإجتماعية والسياسية، وأننا نعيش حالة من الإزدواجية والنفاق تحجب عنا حقيقة أنفسنا وحقيقة ما حولنا، ولذلك فهى تحمل على عاتقها من خلال برنامجها الأسبوعى «أرجوك إفهمنى» وكتاباتها فى الصحف مهمة كشف طبقات الزيف، ومحاولة إيقاظ الوعى الشخصى والوعى العام بالحقوق والحقائق، كما أنها تكره التعصب والتحيز الأعمى، وعلى الرغم من انتماءاتها الفكرية الخاصة إلا أنها تكون مستعدة للدفاع عن أى تيار فكرى آخر تشعر أنه يتعرض للظلم أو القهر أو التمييز. وقد كانت لها تجربة سابقة لم أتابعها بكثرة فى برنامج إذاعى بعنوان «اعترافات ليلية» واجه العديد من الإعتراضات ربما بسبب مساحة الصراحة التى لم يحتملها الوعى العام فى ذلك الوقت المبكر قبل أن تخترق الفضائيات حدود المباحات والمحرمات، وقد توقف البرنامج وعانت بسببه الكثير من المشاكل ولكنها لم تتخل عن مشروعها فى كسر الحصار والوصول إلى الناس لتشاركهم مساحات محظورة أو مجهولة أو مزيفة فى حياتهم.

وهى على رقتها وشياكتها تحمل بداخلها قوة هائلة وإصرارا لا يلين، ورغبة فى تصحيح الأوضاع المعوجة – كما تراها – فى نفوس المتابعين والمتابعات لبرامجها، وأحيانا تقوم بهز بعض التقاليد والأعراف الزائفة بقوة وعنف يؤديان إلى حالة من الإنزعاج والإزعاج، ولكنها لاتتراجع شأنها شأن المناضلين الذين يعلمون ماذا يريدون وكيف يصلون إليه ولا يأبهون بالعقبات فى طريقهم أو طريقهن. وهى لا تكتفى بالنضال الراقى والرقيق أمام العدسات فى الأستوديو لمدة ٤ ساعات أسبوعيا، وإنما كثيرا ما تنزل إلى الشارع لتمارس نشاطها من خلال جمعية «شايفينكو» لتقاوم تزييف الإنتخابات ولتفضح المزورين وتواجه البلطجية، ولك أن تتخيل ما يمكن أن تتعرض له امرأة بمواصفات بثينه كامل من سخافات ومضايقات واعتداءات، وقد حدث كل هذا بالفعل، وتحملته برضى وفخر من أجل مصر ومن أجل الدفاع عما تعتقده من مبادئ. وفى أزمة القضاة ذهبت لتكون معهم وبينهم فوجدت قوات الأمن تحيط بالنادى وتمنع الوصول إليه، فاجتهدت وجاهدت حتى وصلت إلى النادى ولكن الأبواب كانت مغلقة بأوامر من الأمن فقفزت من فوق السور لتدخل النادى، وهى السيدة الأرستقراطية المرفهة، ولكنها روح النضال تتلبسها فلا تبالى بما يواجهها، وقد قامت بهذا العمل الشاق فى النهار ثم حضرت فى الليل لتقدم برنامجها الأسبوعى، وقد كنت أنا ضيفها فى هذا اليوم وتوقعت أن تكون مجهدة ومرهقة، ولكنها كانت متألقة ومتحمسة أكثر من أى وقت مضى، وهكذا من يؤدون رسالة يشعرون بقيمتها ومعناها. وعلى الرغم من أن عملها كإعلامية فى الفضائيات يضع أهمية لشكلها وشياكتها وعمرها إلا أن هذه الأمور تبدو ثانوية لديها فهى تشعر بثرائها الداخلى، ولذلك تتحدث بصراحة مذهلة عن سنها وتعلنه أثناء تقديم برنامجها بفخر واعتزاز، وتتحدث عن خبراتها الشخصية ومواطن ضعفها فى مقالها الأسبوعى «اعترافات شخصية» بشكل يتضح منه أنها لا تستخدم الدفاعات النفسية كثيرا، أو كما ذكرت هى فى عنوان مقال رائع «أسوارى الواطيه»، ولا يقدر على هذا الأمر إلا من يشعرون بأمان داخلى وثقة لا تهزها بعض مواطن الضعف الشخصية أو انتقادات الناس. ومن يتابع برنامجها الأسبوعى يرى إلى أى حد تقوم بتغيير الكثير من المفاهيم

والتصورات، وإلى أى مدى تحرك الوعى لدى جمهور واسع يتابعها، وكيف تعيد تشكيل الخريطة الإجتماعية من خلال استفساراتها وآرائها ومقترحاتها ومقترحات ضيوفها ومن خلال تحفيز الوعى والتحريض على التغيير الإيجابى والخلاص من المخاوف والمحاذير النمطية المعوقة والمعطلة. وعلى الرغم من أن البرنامج فى إطار اجتماعى ونفسى إلا أن تغيير المفاهيم والمعتقدات فى هذا النطاق ينسحب بعد ذلك على نطاقات أوسع ويحرض على تغيير فى مستويات أعلى ومساحات أكبر، وقد أثبتت نجاحا أعاد للإعلاميات المصريات مكانتهن بعد أن اهتزت هذه المكانة تحت تأثير زحف القنوات العربية الأخرى. وحين وجدت أن مساحة الحرية التى تحتاجها غير متوفرة بالتليفزيون المصرى لأسباب مختلفة (قد نتفق أو نختلف معها) تركت وظيفتها فيه بشجاعة (على الرغم من إغراء هذه الوظيفة للكثيرات)، وانتقلت بموهبتها الإعلامية وبمساحة وعيها الممتد وبرؤيتها ورؤاها إلى رحاب أوسع فى قناة أوربت، لتكون واحدة من أهم المناضلات على خطوط الدفاع الإجتماعى الأعمق. وقد سعدت كثيرا منذ أيام وأنا أتلقى رسالة منها على البريد الإلكترونى تعلن فيها ترشيحها لعضوية مجلس الشورى عن دائرة قصر النيل، وتمنيت فعلا أن يشرف مجلس الشورى بصوت وعقل بثينه كامل.

أما منى الشاذلى فقد عرفتها منذ ما يقرب من عشر سنوات حيث كانت تقدم برنامجا بعنوان «"بينى وبينك» على إحدى الفضائيات، وكان برنامجا ناجحا يسلط الأضواء على النواحى والمشكلات النفسية، وكان واضحا من خلال حواراتها فى البرنامج عمق ثقافتها النفسية وقد أفادها ذلك كثيرا فيما بعد فى لقاءاتها ببعض الشخصيات الهامة وفى اختراقها للدفاعات النفسية ومحاولات المراوغة التى يبديها بعض ضيوفها فى برامجها السياسية والإجتماعية. ولحسن حظى أننى كنت ضيفا على هذا البرنامج عدة مرات، وكنت شاهدا على ما تبذله من جهد غير عادى فى الإعداد والتقديم، وتظل فى حالة عمل وقلق حتى يخرج البرنامج فى أفضل صورة ممكنة، وهذا درس لا أنساه لها فى التفانى والإتقان. ويبدو أنها رأت أن إطار هذا البرنامج النفسى لا يستوعب طموحاتها المهنية وقدراتها الشخصية، فبدأت تقدم برنامج «القضية لم تحسم بعد» وهو برنامج نفسى واجتماعى قدمت من

خلاله عددا من القضايا الهامة التى شغلت الرأى العام أذكر منها قضية سفّاح شارع الهرم وقضية سعاد حسنى وغيرها، وقد أسعدنى الحظ أيضا للمشاركة فى بعض حلقات هذا البرنامج، وكان أهم ما يلفت النظر فى شخصية منى الشاذلى هو اهتمامها الشديد بما تقدمه، فقد كانت تتصل بالضيوف مرات عديدة وتطلب المزيد من المعلومات والإيضاحات قبل موعد تسجيل البرنامج بوقت كاف، وتتطلع هى على العديد من المصادر فى الصحف والكتب وعلى مواقع الإنترنت وتتصل بالمتخصصين، وتجرى نوعا من العصف الذهنى مع الضيف أو الضيوف قبل البرنامج، وهذا ماكان – وما زال – يجعل برامجها علامات فارقة فى الإعلام العربى، ويجعلها من افضل الإعلاميات فى الفضائيات المصرية والعربية. ولم يتوقف طموحها عند هذا الحد حيث انتقلت لقناة دريم لتبدأ عملا هائلا من خلال برنامج العاشرة مساءا تقود من خلاله كتيبة متميزة جدا من المعدين والمصورين والمخرجين ومساعديهم، لتدخل بهم البيوت المصرية والعربية فى لحظات استرخائها فى المساء أو تناولها العشاء، فقد أصبحت فردا أساسيا من العائلات المصرية تزورها كل ليلة. وهى تقوم بمحاورة ضيوفها بكل ما أوتيت من مهارات وقدرات وتعطى مثلا راقيا ومتحضرا فى الحوار وفى العمل المهنى المنضبط والمتميز. وهى تقوم كل ليلة بإعطاء نموذج رائع لطرق الحوار وطرق التفكير النقدى الموضوعى بعيدا عن محاولات الإستلاب والإستهواء والإثارة وبعيدا عن التفكير السحرى والخرافى، أى أنها تقوم بتصحيح آفات التفكير وآفات الحوار، وتكشف مناطق التشوه فى حياتنا ولكن بشكل رقيق وكأنها جراح ماهر يمسك مشرطا ويتحرك به بمهارة بين الأنسجة المريضة. وهى تفعل ذلك بحيادية الإعلامية الخبيرة وموضوعيتها فلا تتورط فى استقطاب هنا أو هناك (على الرغم من وضوح موقفها تجاه قضايا بعينها)، والحياد المهنى عندها لا يعنى اللاموقف، ولكنها الممارسة المهنية العالية المنضبطة التى تتيح للمشاهد فرصة الرؤية والمعرفة دون وصاية من مقدمة البرنامج فى حالة لو أعلنت عن موقفها بصراحة أو لو ظهر استقطابها. وهى لا تكتفى بتشريح سلبيات المجتمع المصرى، أو مناقشة القضايا الهامة، أو عرض آخر الأخبار والأحداث بأسلوب يجعل البسطاء من الناس وعلية القوم

على السواء يدركون مايجرى بسهولة (وهذا ما نسميه بالخطاب الإعلامى متعدد المستويات)، ولكنها تقوم من وقت لآخر باستضافة شخصية لها تميز واضح فى مجالها لتجرى معها حوارا مطولا وهادئا وعميقا وحميميا تستخدم فيه ثقافتها فى النواحى النفسية، وقدراتها ومواهبها فى إجراء الحوار متعدد المستويات، فتخرج من الشخصية أجمل ما فيها، ولا تكتفى بهذا بل تقوم بعمل اختراقات ذكية لمناطق مجهولة أو محظورة فى الشخصية، ونظرا للطفها وجمال أسلوبها ورقة اقترابها وبراءة مقصدها يقوم الضيف طواعية بفتح ملفاته المغلقة لأنه يشعر أنه فعلا فى أيد أمينة. وقد كان لها الفضل فى تعريف المصريين والعرب بشخصيات علمية أو فنية أو سياسية تستحق المعرفة والتقدير بأسلوب سهل ممتنع تتجول فيه فى جنبات الشخصية دون مقاومة من صاحبها، وإذا حدثت مقاومة تنتبه لذلك بشكل تلقائى فيما يشبه الإلهام، وتقوم بتلطيف الحوار بابتسامة رائعة أو تعليق ساخر لطيف، فإذا بدفاعات الضيف تتلاشى ليفصح عما كان يخشى الإفصاح عنه، ولتتكون فى النهاية صورة مكتملة عن شخصيته بقوتها وضعفها. وهى لاتقابل الشخصيات المهمة أو المتميزة لتنبهر بها أو تبهر بها المشاهدين أو لتلمعها إعلاميا أو لتضخم نرجسيتها وإنما تلتقى بهم لتكمل الصورة ولتعطى نماذج للصعود الإنسانى تغرى بالإتباع والتقليد وتغرى بالنجاح والنمو، فعلى قدر ما تقدم من حلقات تكشف فيها الأخطاء ومظاهر التلوث والتشوه، نحتاج منها أن تقدم لنا مواطن الجمال فى حياتنا لكى يحدث التوازن الطبيعى. وهى تحرص على هذا التوازن دائما، فهى تستضيف كافة التيارات والفئات بلا تحيز، وتحترم ضيوفها جدا حتى وإن كانوا فى وضع يدعو للشك أو الإشمئزاز، وربما يرجع هذا إلى موقفها الموضوعى وتقبلها وليس موافقتها للتوجهات المختلفة للبشر عموما، أو يرجع لطول تمرسها بالعمل الإعلامى وحرفيتها الهائلة فى ممارسته. وأنا أعتقد – من موقع المتخصص فى الطب النفسى – أن منى الشاذلى تقوم كل ليلة بعمل دورة فى تصحيح طرق التفكير، وتأكيد قيم الحوار الإيجابى، وإعلاء قيم الصدق والأمانة، وكشف محاولات الزيف والكذب والخداع، والقدرة على قراءة الأحداث بعيدا عن التهويلات والتهوينات، وتنقية التفكير المصرى من آفاته المتمثلة فى

التفكير السحرى أو الخرافى أو الإستقطابى ومن التعميمات الساذجة أو الإستنباطات المتعسفة، وبلغة العلوم النفسية تقوم منى الشاذلى بعمل نوع من العلاج المعرفى السلوكى لمجموعات غفيرة من البشر فى كل ليلة يساعدها فى ذلك موهبة القبول التى منحها الله إياها. كما تعطى بوجهها الجميل وذكائها المتوقد ومشاعرها الحية التلقائية المحترمة نموذجا رائعا للمرأة المصرية يضاف إلى نموذج نهى الزينى وغيرها من مناضلات عصرنا اللائى تفوقن على كثير من الرجال فى عطائهن كما وكيفا، ولهذا وجب علينا الإعتراف بالفضل والأثر أملا فى انتشار فضائل العمل الجاد المثمر، والسعى للتغيير النفسى والإجتماعى على خطوط الدفاع الأعمق لخلق قاعدة من الصدق والأمانة والإتقان يقوم عليها أى إصلاح حقيقى نسعى إليه، وهذا لا يتم بشعارات رنانة أو كلام كبير (كما اعتدنا)، وإنما يتم بفعل يومى مباشر ومتقن ومثابر وصادق يقوم به فى البداية عدد قليل من الرواد والرائدات مستخدمين كلمات بسيطة ولكنها صادقة وعميقة ونافذة ومؤثرة لتغيير منظومة نفسية واجتماعية وسياسية أصابها الكثير من العطب والعفن والتزييف، فشكرا لكل الرواد والرائدات، وشكرا لبثينه ومنى ، وتوته توته خلصت الحدوته.

* * *

أحمد عكاشه

المصري.. النجم.. المعلم

مهارتي في الكتابة على الكومبيوتر لم تتح لي إمكانية تشكيل الكلمة الأخيرة في العنوان «المعلم»، لذلك تستطيع قراءتها بضم الميم وفتح العين، أو بكسر الميم وفتح العين أو بفتح الميم وتسكين العين وفتح اللام، فكل هذه القراءات تؤدي المعنى الذي قصدته. وما سأقوله ليس مدحا في الدكتور عكاشة بقصد المدح، فهو ليس بحاجة لذلك فالرجل قد شبع مدحا وتقديرا عالميا أكثر من محليا، ولكنني حزنت لتجاهل الصحف القومية وحزنت أكثر لتجاهل صحف المعارضة فوز هذا العالم الكبير بجائزة الدولة التقديرية في العلوم، وخشيت أن تكون العلوم قد ضعفت أهميتها أو تلاشت، وأننا فقط نحتفي بالأدباء والفنانين ولاعبي الكرة والمدربين والإحتياط، وننسى الذين يعملون في المعامل الرطبة المظلمة الفقيرة، أو الذين يقفون في القاعات يبذلون عصارة خبرتهم وعمرهم وعلمهم دون أن تسلط عليهم كاميرات التليفزيون، لهذا قررت أن أقوم بواجبي في التحدث عن نموذج في الطب، والطب النفسي بشكل خاص، ذلك التخصص المهضوم حقه والمفترى عليه، والمنسي دائما في توزيع الأقسام في المستشفيات وتوزيع المناهج في الجامعات.

كان الدكتور عكاشه من أوائل دفعته، وكان أمامه فرصة الإلتحاق بالأقسام الطبية الرنانة واللامعة في ذلك الوقت كالجراحة والباطنة والأطفال، ولكنه اختار تخصصا غاية في الصعوبة حيث لم تكن هناك أدوية إلا القليل، وكانت أحوال المستشفيات النفسية مزرية، وكان الطبيب النفسي مسارا للسخرية ومادة للضحك في الأفلام والمسلسلات، أي أن التخصص في هذا الفرع من الطب كان وصمة في ذلك الوقت (أخشى أنه مازال)، ومع هذا يغامر الطبيب أحمد عكاشه بالدخول في هذا التخصص، ولست أدري إن كان دار في ذهنه في ذلك الوقت أنه سيغير هذه الصورة بعد سنوات وسيجعل الطبيب النفسي

نجما لامعا متألقا، وسيجعل مخرجي السينما والتليفزيون يتوقفون عن إسناد دور الطبيب النفسي لإسماعيل ياسين وفؤاد خليل، ليسندوه بعد ذلك إلى فاروق الفيشاوي وحسين فهمي ومرفت أمين وأحمد عبدالعزيز.

والأمم المتحدة والهيئات الصحية الدولية تبذل جهودا كبيرة للتغلب على وصمة المرض النفسي، تلك الوصمة التي تلحق بالمريض النفسي والطبيب النفسي والدواء النفسي والمستشفيات النفسية، وإنني أتذكر حين التحقت بقسم الطب النفسي كطبيب مقيم في مستشفى المنصورة الجامعي قابلني أحد الأقارب وحين علم بذلك الخبر راح يلومني ويؤنبني ويعنفني ويقول: لم فعلت ذلك بنفسك؟.. ولم تضحي بمستقبلك؟.. ولم تضيع تعب أهلك الذين ربوك ويأملوك أن تكون في مكانة محترمة؟.. ألم تفكر كيف ستتزوج؟؟.. ألم تفكر في أخواتك وسمعتهم حين يعرف المقبلون لزواجهم أن أخيهم دكتور مجانين؟؟.. روح يا شيخ الله يسامحك ويهديك؟!!. هكذا كانت صورة الطب النفسي في أيامنا فما بال الصورة في أيام الدكتور عكاشة وهي تسبقنا بسنوات طويلة. ولم يدر بخلد القائمين على محاربة الوصمة والتمييز ضد المرض النفسي وما حوله أن شخصية الطبيب يمكن أن تكون أحد وسائل مقاومة الوصمة، كما يمكن أيضا أن تكون أحد وسائل زيادة الوصمة، فمثلا كان أحمد عكاشه بشخصيته الموزونه وحضوره الرائع وكلامه العلمي الموضوعي عاملا حاسما في تغيير صورة الطبيب النفسي من شخص يتكلم كلاما غريبا وغير مفهوم إلى شخص يقول شيئا مفهوما وبلغة علمية رصينة تضع في المقدمة وظائف المخ وكيمياء الوظائف النفسية، ولا يتحدث كثيرا عن نظريات فلسفية أو نفسية يستعصي فهمها على المتخصصين فضلا عن عموم الناس. وليس هناك شك على الجانب الآخر أن أفكار وسلوكيات بعض الأطباء النفسيين كانت تؤكد الوصمة وتعززها وتظهر الطبيب النفسي مجنونا أو متطرفا أو غريب الأقوال والأفعال.

وإذا حاولنا الإقتراب من شخصية الدكتور عكاشه فإن لدينا ثلاثة أبواب تسهل لنا الدخول: الباب الأول هو كونه مصريا، فهو من أسرة مصرية أصيلة ارتبط تاريخها بثورة

٢٣ يوليو وبالحركة الوطنية قبلها، حيث كان أخوه أحد ضباطها الأحرار، وكانت والدته بمثابة أم لعبدالناصر ورفاقه، أما هو شخصيا فعلى الرغم من عالميته وطوافه بكل بلاد الدنيا إلا أن لهجته المصرية واضحة وضوح الشمس في نطقه للفصحى العربية وحتى للإنجليزية، فهو لم يطوع لسانه لأي لكنة أخرى، وهو مهموم بالشأن المصري ومستوعب للثقافة المصرية بكل تفاصيلها الدقيقة، ويعيش الحياة المصرية اليومية بعمق على الرغم من ظروف حياته التي تبدو أرستقراطية. وحين يتحدث عن مصر بفقرها ومشاكلها وأزماتها يظل مرفوع الرأس معتزا بها. وقد قال لي في اتصال تليفوني عقب فوزه بجائزة الدولة التقديرية: «لقد حصلت على تقديرات عالمية كثيرة ولكن التقدير الوطني له طعم آخر»، وكان حزينا وقتها أن شباب العلماء الذين حصلوا على جائزة التفوق العلمي والجائزة التشجيعية لم يسلط عليهم الضوء ولم تذكر أسماؤهم في الصحف، وقارن بين هذا وبين البريق الهائل الذي يحوط فئات أخرى ربما لاتبذل جهدا يقارن بما بذله هؤلاء العلماء الجادين الذين يصرون على التفوق والعطاء في ظروف مصر الصعبة. ولا تخلو محاضرة له من أرقام دقيقة عن أحوال مصر ليس فقط النفسية ولكن أيضا الإقتصادية، ولديه خريطة دقيقة لظروفها وتوجهاتها على المستويات السياسية والإجتماعية. وقد لا يعرف الكثيرون أن أحمد عكاشه قد جعل اسم مصر يتردد بشكل محترم في كل المحافل العلمية العالمية الرفيعة في الطب النفسي.

أما الباب الثاني الذي نلج إلى شخصيته منه فهو باب النجومية ، وأذكر حين رأيته أول مرة في بداية الثمانينات وكان يترأس الجلسة الإفتتاحية في مؤتمر عن المسنين فبدا في شياكته وتألقه وعنايته الشديدة بنفسه أشبه بنجم سينمائي لامع، وحين بدأ يتكلم تدفق علمه الغزير فبدا أكثر تألقا، وأذكر في هذا اليوم أنه حضر جلستين وكان في كل جلسة يلبس زيا مختلفا، ويمسك بالبايب في يده، ويتحدث بتركيز شديد وبسرعة من يدرك قيمة الوقت في الحياة. ونجوميته ليست عائدة إلى عنايته الفائقة بمظهره وشياكته ورشاقته فحسب، ولكنها تعود أكثر إلى إشعاع شخصيته، فهو أينما حلّ يلفت الأنظار بحضوره الطاغي وبحركته الدائبة والرشيقة، وبتعليقاته النافذة والسريعة، فهو شخصية لا يمكن

تجاهلها أو نسيانها. وأظن أنه من كثرة ما تعود على الحضور في الصف الأول لا يحتمل أبدا أن يكون في الصف الثاني أو في الظل، ومن كثرة ما انتخب رئيسا لجمعيات وهيئات ومجلات علمية محلية وعالمية لا يحتمل إلا أن يظل رئيسا. وقد زاد من نجوميته ظهوره المحسوب بذكاء شديد في وسائل الإعلام، ذلك الظهور الذي أعطى للأطباء النفسيين نجومية خاصة وجعلهم ضيوفا دائمين على القنوات الفضائية، وإحقاقا للحق فقد ساهم في هذه النجومية فرسان آخرين مثل الدكتور محمد شعلان والدكتور يحيى الرخاوي والدكتور عادل صادق (رحمه الله). وقد دفعه ذكاءه الإجتماعي أن لا يفرط في الظهور الإعلامي حتى يظل عزيزا على عين وقلب المشاهد، وهو ينتقي مواضع ظهوره بعناية. ولم تسلم نجوميته من النقد والهجوم، فقد استفزت بعض الناس وعزوها إلى سمات نرجسية، ولكن الواقع يقول بأن غالبية الناجحين لديهم قدر هائل من الإعتزاز بالذات على اعتبار أن ذواتهم بما تحويه من كنوز هي ثروتهم، ولذلك ربما اهتموا كثيرا برعايتها والإهتمام بها بل ربما تدليلها، فهي بالنسبة لهم عالية القيمة مثل قطعة الذهب يحوطونها بالأمن والحماية، ويحرصون على وضعها في المكان اللائق.

ونأتي إلى الباب الثالث من أبواب شخصيته، وهو أنه معلم، فكأنه خلق ليكون معلما، ولا أذكر أنني رأيته لحظة واحدة انصرف فيها عن وظيفة التعليم، حتى في طرائفه ونكاته وفكاهاته تسمع منه شيئا مفيدا وجديدا. ولست أدري كم قضى من ساعات في قاعات الدرس والتدريس وكم قضى من ساعات على منصات الندوات والمؤتمرات المحلية والعالمية، وكم رسالة أشرف عليها، وكم رسالة ناقشها، وكم طالبا امتحنه، وكم ورقة صححها أو قيّمها، وكم بحثا نشره. ولا يوجد طبيب نفسي في مصر أو العالم العربي لم يتتلمذ ساعات طويلة على يديه، بل إن جزءا كبيرا من التكوين العلمي للأطباء النفسيين ينتمي إلى الدكتور عكاشه ومدرسته، وربما يكون هذا قد أتى على حساب مدارس أخرى في الطب النفسي لم تجد نفس الرعاية ولم تحظ بذات البريق على الرغم من أصالتها وأهميتها وعمقها. وربما يكون هو نفسه قد استدرك ذلك خاصة حين بالغ تلاميذه في التركيز على البعد البيولوجي بمعناه الكيميائي وليس بمعناه الأشمل، لذلك

نراه منذ سنوات عديدة يلفت النظر إلى أهمية العلاجات والتدخلات غير الدوائية، ولعل هذا يصحح اعتقادا كان سائدا بأن مدرسة عكاشه في الطب النفسي هي مدرسة العلاج بالعقاقير دون غيرها، وأن تمدد هذه المدرسة وانتشارها ربما يعود إلى دعم شركات الدواء لتوجهها الذي يوافق هوى تلك الشركات. وللأمانة أذكر أنني سمعت الدكتور عكاشه في التسعينيات في إحدى الندوات بمدينة جده ينبه إلى أهمية التأثيرات غير الدوائية في العلاج وضرب مثلا بالحديث الشريف: «الكلمة الطيبة صدقة»، وتحدث كثيرا عما يمكن أن تحدثه الكلمة الطيبة في نفس الإنسان. وربما كان اهتمام الدكتور عكاشه بإعادة الطب النفسي إلى حديقة الطب كأحد فروعه الأصيلة، والإهتمام بالعوامل التشريحية والفسيولوجية وراء الإعتقاد بأنه يهمل الجوانب النفسية والإجتماعية والروحية، وهذا غير صحيح وأعتقد أنه قد أسيئ فهمه، وأن الإهتمام بالجوانب البيولوجية ليس بعيدا عن كل هذه المعاني بل إن البيولوجيا في معناها الأوسع تشمل كل نشاطات الإنسان كما علمنا أستاذنا الدكتور يحي الرخاوي. أو ربما يكون الدكتور عكاشه قد أعطى الجانب العقاقيري جل اهتمامه في مرحلة من مراحل تطوره العلمي، ولكنه بعد ذلك تكامل به مع الأبعاد الأخرى للعلاج وللإنسان، ولكن الدفعة العقاقيرية المبكرة مازالت مستمرة عند بعض التلاميذ لسبب أو لآخر وربما عليهم أن ينتبهوا لتطور وتكامل المدرسة التي ينتمون إليها. نترك هذا الخلاف المنهجي بين مدارس الطب النفسي ونعود إلى شخصية الدكتور عكاشه كمعلم، وننطق الكلمة بالعامية المصري (بكسر الميم وفتح العين)، بمعنى أنه «أسطى» في مهنته يعرف أدق أسرار المهنة ويعرف شيوخها وشبابها ليس فقط على مستوى مصر والعالم العربي بل على مستوى العالم كله، وإنني لأعجب حين أراه في المؤتمرات المحلية والدولية ينادي الناس بأسمائهم ولا ينسى أحدا، ويعرف الكثير عن تفاصيل نشاطاتهم العلمية وربما الإجتماعية.

وحين تنظر في سيرته الذاتية تدهش لهذا الكم من النشاط والإنتاج العلمي والتأسيس للكثير من المؤسسات والمجلات والجمعيات العلمية المحلية والعالمية، وتتساءل متى وكيف فعل كل هذا، ومن أين أتى بالوقت والجهد لتحقيق هذه الإنجازات

الهائلة، فهو ليس عالما متوقفا عند صفحات الكتب ومنصات المؤتمرات، وإنما هو صانع للكثير من المنظومات والمنظمات والهيئات المنتجة للعلم والراعية له، وإليك بعض الأمثلة وأرجو أن يكون لديك الصبر لقراءتها:

١ – أنشأ وأسس مركز الطب النفسي لمستشفيات جامعة عين شمس بالمجهود الذاتي والتبرعات، وهو مركز علمي حضاري ذو مستوى عالمي رفيع يضم نخبة من الأساتذة المتميزين في مجال الطب النفسي هم زملاء وتلامذة الدكتور عكاشه ويشكلون العصب الأساسي لمدرسته المتميزة

٢ – ساهم في إنشاء أقسام الطب النفسي في أكثر من جامعة إقليمية

٣- رئيس الجمعية المصرية للطب النفسي من ١٩٨٣-١٩٩٩ ثم من ٢٠٠٦ حتى الآن (قد يعتبر بعض الناس ذلك تمسكا بالرئاسة لفترات طويلة بل ومحاولة توريثها، وقد يكون لديهم منطقا في ذلك، ولكن في الحقيقة هو يحصل على رئاسة الجمعية من خلال انتخابات حقيقية متاحة لكل الناس، ولا يشوبها ما يشوب الإنتخابات الأخرى من تزوير أو تلاعب)

٤ – رئيس الجمعية المصرية للطب النفسي البيولوجي منذ ١٩٨٦ حتى الآن (أرجو من أستاذي دفع أحد تلاميذه لرئاسة الجمعية في أقرب فرصة حتى تنتفي مظنة التأبيد في الرئاسة والتي ينتقدها هو بصفة شخصية، وحتى يكون قدوة في تداول السلطة كما هو قدوة في أشياء كثيرة)

٥ – أنشأ وأسس مكتبة حديثة للطب النفسي مع اتصالات مع أنحاء العالم لتسجيل الأبحاث وطلبها من عدة مراكز

٦ – أنشأ وأسس الوصل بين أقسام علم النفس بكليات الآداب في جامعات القاهرة وعين شمس وكلية البنات مع كليات الطب

٧ – مؤسس ورئيس فخري لهيئة تحرير المجلة المصرية للطب النفسي، ورئيس مجلس

إدارة تحرير مجلة الطب النفسي المعاصر

٨ - عضو هيئة التحرير في المجلات العالمية التالية: الرأي المعاصر في الطب النفسي (لندن)، المجلة البريطانية للطب النفسي (لندن)، مجلة إنسيفال الفرنسية (باريس)، مجلة الأطباء النفسيين العرب (عمان)، المجلة الألمانية للطب النفسي، المجلة الروسية للطب النفسي، المجلة الإيطالية للطب النفسي، الموسوعة العالمية للطب النفسي، المجلة الطبية الأمريكية والطب النفسي والأعصاب (نيس، فرنسا)، مجلة اقتصاديات الصحة النفسية (ميلانو، إيطاليا) المجلة الإفريقية للطب النفسي، مجلة الطب النفسي البيولوجي، مجلة الجمعية الطبية الأمريكية (الشرق الأوسط)، مجلة أركيف للطب النفسي العام (الشرق الأوسط)، مجلة فايزر للطب النفسي (نيويورك)

٩ – له مائتان وثلاث وأربعين بحثا عالميا في مجالات الطب النفسي والعصبي والعلوم السلوكية والإجتماعية نشروا في المجلات العلمية، العالمية والمحلية

١٠ – أشرف على اثنين وستون رسالة دكتوراه في الطب والآداب، كما أشرف على مائة وسبع وعشرون رسالة ماجستير

١١ – له خمسون كتابا باللغة العربية والإنجليزية تم نشر واحد وثلاثين منها بالخارج

١٢ – مقرر اللجنة الدائمة لأساتذة الأمراض النفسية بالمجلس الأعلى للجامعات، ورئيس المجلس العلمي للطب النفسي في الزمالة المصرية للتخصصات الطبية بوزارة الصحة والسكان، ومستشار باللجنة العلمية للمجلس الأعلى للإدمان، ومستشار وزير العدل للطب النفسي الشرعي، وعضو محكمة القيم العليا

١٣ – رأس الكونجرس العالمي الثالث عشر للطب النفسي بالقاهرة عام ٢٠٠٥، وقد بذل جهدا هائلا لعقد هذا الكونجرس لأول مرة خارج أوروبا وأمريكا وفي بلد عربي

١٤ – مدير مركز البحوث والتدريب لمنظمة الصحة العالمية في منطقة الشرق الأوسط

١٥ – أمين عام الجمعية العالمية للطب النفسي للشئون العلمية

١٦ – رئيس اتحاد الأطباء النفسيين العرب

١٧– حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة لوزان، كما حصل على زمالة كل من: كلية الأطباء الملكية أدنبره، كلية الأطباء النفسيين الملكية لندن، الجمعية الأمريكية للطب النفسي، الجمعية الفرنسية للطب النفسي، كلية الأطباء النفسيين الأمريكية، كما حصل على الميدالية الذهبية والزمالة الفخرية للجمعية العالمية لطب نفس الأطفال والمراهقين، والزمالة الفخرية للجمعية العالمية للطب النفسي، وجائزة الرئاسة التقديرية للجمعية الأمريكية للطب النفسي

وقد كلل كل هذا الجهد والفخر برئاسته للجمعية العالمية للطب النفسي، حيث انتخب رئيسا للأطباء النفسيين على مستوى العالم عام ١٩٩٩، ليكون أول رئيس للجمعية من خارج قارتي أوروبا وأمريكا، وقد كانت له جهودا جبارة في الإرتقاء بنشاط الجمعية العالمية للطب النفسي، ولم ينس لحظة واحده جذوره وهويته، فقد نجح في إدخال اللغة العربية كأحد اللغات المستخدمة في نشاطات ومخاطبات الجمعية.

ولتعذرني عزيزي القارئ إذا كنت قد أرهقتك في قراءة السيرة الذاتية لهذا العالم الدؤب المثابر والمتعدد الأنشطة، وليكن ذلك نموذجا لنا ولأبنائنا في العمل الجاد وخدمة الوطن والإنسانية بأعمال رفيعة المستوى وعالية القيمة تفتح آفاقا محلية وعالمية، وتتيح لنا التواجد على الخريطة العلمية العالمية بهذا الشكل المشرف. والنتيجة لهذا هي أن مصر بفضل الله وبجهود الدكتور عكاشة وبقية زملائه الرواد وتلامذتهم أصبحت بحق دولة عظمى في الطب النفسي.

إذن لا عجب أن يكون الدكتور أحمد عكاشه أول طبيب نفسي يحصل على جائزة

الدولة التقديرية، وقبلها حصل على جائزة التفوق العلمي، وقبل كل هذا حصل على حب وتقدير تلاميذه المنتشرين في العالم طولا وعرضا، فحيثما حل وجد من يلقاه بكل حفاوة مرحبا بأستاذ تعلم منه الطب النفسي وتعلم منه طريقة التفكير العلمي وتعلم منه احترام المهنة واحترام التخصص واحترام المريض ومتابعة كل جديد لحظة بلحظة، والإهتمام بشئون الوطن وهمومه وقضاياه. وإحقاقا للحق فقد ساهم في هذا الوضع المتميز لمصر على الخريطة العالمية للطب والعربية للطب النفسي رواد عظام آخرين من أمثال الدكتور محمد شعلان والدكتور يحيى الرخاوي والدكتور محمود سامي عبدالجواد والدكتور عمر شاهين (يرحمه الله) والدكتور عادل صادق (يرحمه الله)، هؤلاء وتلاميذهم ارتقوا بهذا الفرع من الطب إلى مستوى العالمية نظرا لما تمتعوا به من علم عميق ووعي بالثقافة العربية والإسلامية، وبما استوعبوه من حكمة الشرق وعلوم الغرب ونظرا لما تمتعوا به من صفات شخصية جعلت لهم وزنا عظيما إذا قيسوا بأي عالم في الطب النفسي في أي مكان في العالم. وكل من عملوا في الطب النفسي في أي مكان في العالم وقارنوا بين خبرة وعلم وشخصية هؤلاء الرواد العظام وغيرهم من الأسماء العالمية يدرك كم تعلوا هاماتهم وتتميز عقولهم وأخلاقهم وأستاذيتهم. كل هذا رغم أن الطب النفسي في مصر لا يأخذ حقه في التدريس في الجامعات، ولا يفسح لأقسامه المجال في المستشفيات لأسباب يجب أن تزول لنرى كم نملك من مواهب وقدرات في هذا المجال خاصة وأنه لا يحتاج إلى تكنولوجيا عالية لا نقدر على شرائها أو امتلاكها وإنما يحتاج أولا وأخيرا الإنسان، وهو شئ ما زلنا نملكه، ويبدوا أن لنا في الإنسانية أعماقا تفوق غيرنا، تلك الأعماق التى كونتها الطبقات والرواسب الحضارية ورقائق الأديان، ودفء الحضارات وتنوعها.

أتذكر هذه المعاني وأنا أرى أستاذي وأستاذ الأجيال الدكتور عكاشه وهو يقف في كل مكان في مصر وخارجها كفارس على المنصة ينشر العلم النافع، ويثري عقول أبنائه وتلاميذه الذين يعتز بهم ويرعاهم ويهتم بشئونهم ويدفعهم للنجاح والتميز. وعلى الرغم من أنه زار كل بلد في العالم تقريبا، وله رؤية إنسانية عالمية إلا أن مصريته مؤكدة وهو يعتز بها بين أبناء قومه وبين الأجانب، فكثيرا ما قدم تاريخ الطب النفسي عند الفراعنة وعند

العرب والمسلمين، ولديه قدرة هائلة على الربط بين القديم والحديث في ولاف يظهر عظمة الإثنين ويجعلك مبهورا بتلك الشخصية الجميلة التي تلتقط الرقي والجمال في كل حقبنا التاريخية دون التصاق أو توقف أو تحجر أو تعصب. وعلى الرغم من اتصاله القوي بالغرب ثقافة ولغة وعلى الرغم من طلاقته في الحديث باللغة الإنجليزية إلا أنه يتحدث بها بلهجة مصرية ولا يتعمد اللكنة الأجنبية في النطق فهو ينطق الإنجليزية الفصحى بلسان عربي مبين، وإذا تحدث العربية فبسلاسة وانطلاق وتدفق ولا تعرف إن كان يتحدث بالفصحى أم بالعامية وذلك من بساطة وسيولة وصحة الألفاظ والكلمات.

وعلى الرغم من بلوغه قمة سامقة في تخصصه الدقيق إلا أنه لم يغرق في البحور الأكاديمية الجافة بل ظل متصلا بنبض الحياة اليومية، وعلى الرغم من عيشه في أجواء أرستقراطية إلا أن كلماته وتعليقاته تعكس إحساسا عميقا بمشاكل النالس على اختلاف طبقاتهم، فهو ملم بتفاصيل الحياة اليومية المصرية بشكل ميكروسكوبي وتلسكوبي معا، فلديه فرصة دائمة للقاء علية القوم وفي ذات الوقت لم يفقد صلته بالبسطاء من الناس ، ولم يبتعد عن نبض وعرق المصريين في زحام الشوارع وتكدس العشوائيات. ربما يعود ذلك – كما ذكرنا – إلى العروق الوطنية التي تمتد بعمق في أسرته من أمه ووالده، وأخيه الدكتور ثروت عكاشة والذي شارك في قيام ثورة يوليو كأحد الضباط الأحرار ثم ساهم في إنقاذ معابد فيلة وأبو سنبل إبان عمله في وزارة الثقافة، بجانب إبداعاته ذات المستوى الرفيع في الأدب والثقافة وغيرها. ويبدو أن هذه الأسرة العكاشية لديها ميل شديد للإتقان الراقي الحضاري في عملها وإبداعاتها، وهذا ما يبدو جليا في إنتاج الدكتور أحمد عكاشه والدكتور ثروت عكاشه فكلاهما في تخصصه قمة شامخة، وقيمة عالية، ورقيا رائعا وجميلا. وكلا منهما صنع لنفسه مجدا شخصيا كبيرا، ولكن هذا المجد لم يكن أبدا مقطوع الصلة ببلده، فارتقى بذاته وبمن حوله، وكبر بإنجازاته وبأهله وناسه.

قد تكون طبيبا صغيرا تدرس دبلوما أو ماجستيرا في الطب النفسي وتلقى الدكتور عكاشه فتجده مهتما بك كأنك شخصية عظيمة، ويحفظ اسمك ونادرا ما ينساه، وهذه

قدرة هائلة لديه فهو يحفظ أسماء الأطباء النفسيين المصريين والعرب والأجانب، ويعرف خصائص كل منهم بدقة، ويبهرك بذكائه المتقد وعينيه اللامعتين الصاحيتين، ولسانه الطلق وألمعيته الحاضرة وتعليقاته الواصلة إلى الجوهر من أقصر طريق.

قد يختلف معه البعض وقد ينتقدوه في أشياء ينكرونها عليه، ومع هذا تجدهم يقدرون أستاذيته وريادته، وإذا حضر يقدمونه على من سواه، فهو أب للجميع وأستاذ للجميع وقريب من الجميع، وهو لا يعلو فوقهم إذ يقدمونه ويرفعونه ولكن يعلو بهم ومعهم، وربما يتصل بأصغرهم يسأله عن شئ لا يعرفه أو يستفسر عن أمر استشكل عليه، وهو من هو علما وثقافة ورؤية. وبمناسبة الرؤية فهو لم يكتف بالإرتقاء الأكاديمي في مجال تخصصه وإنما له رأي ورؤية في مجالات الثقافة والدين والفن والأدب والإجتماع والسياسة، وهو يدلي برأيه في هذه المجالات وغيرها محتفظا بنطاق تخصصه فلا يتوه في مساحات يملكها غيره، ولا يستدرك إلى رمال متحركة يقع فيها آخرون حين يظنون أنهم يعلمون سر الكون. وحتى في مجال النفس الذي هو فارسه فإنه لا يتحدث عنها بغموض ولا يخوض في مناطق أسطورية وإنما يحترم وسائل الرؤية والرصد المتاحة ويفتح الباب أمام امتلاك وسائل جديدة لرؤية أكثر دقة وشمولا، ويقف بتواضع عند حدود الضوء المتاح في الوقت الحاضر وفي اللحظة الحاضرة.

أتعجب منه كيف يتابع أحدث مافي العلم وفي نفس الوقت يتابع الصحف والمجلات وكثير من البرامج والأحداث اليومية في مصر وغيرها ويشكل رؤية وموقفا ناضجا مبنيا على رؤية متسعة للناس والأحداث، رؤية لا تغفل الجانب الوطني والثقافي، وفي نفس الوقت ترى الآخر في الصورة، ذلك الآخر الذي تعامل معه الدكتور عكاشه كثيرا في حياته وتفهم ظروفه واحتياجاته وتحيزاته. وعلى الرغم من كثرة نشاطاته وتشعبها وتعددها إلا أن لديه نظاما في حياته يمكنه من يفعل كل هذا دون أن يلهث أو يتوتر أو يضطرب، وربما يكون لأسرته ولزوجته على وجه الخصوص إسهام كبير في ذلك كما ذكر هو في بعض أحاديثه.

دائما تلقاه غضا يقظا منتبها صاحيا نشطا مقبلا متفائلا متألقا مشعا دافئا دافعا ومحرضا ومحركا، يحوطه أبناؤه وتلاميذه أينما حل، وهو يقبل عليهم بروح الصديق القريب المتفحص لوجوههم والسائل عن أحوالهم والمداعب لهم والقريب منهم. متواضع في ترفع، وبسيط في كرم، ومحب بتعقل، ومتأمل في نظام، ومغامر بحساب. هو أكثر نشاطا وحيوية وسرعة في الحركة والتفكير من كل من حوله، ومع هذا فهو شديد التركيز وعميق الرؤية والإنتباه.

أحيانا تراه فيلسوفا متأملا، وأحيانا تراه براجماتيا واقعيا عمليا جدا، وأحيانا تراه ثائرا هادرا، وأحيانا تراه متفهما متقبلا، وحرصه على نجاحه وتألقه الشخصي يوازيه ارتباطا وثيقا بقضايا الوطن ورقي الناس. يخطئ من يقيسه بمقياس أحادي البعد، فهو متعدد المستويات والجوانب، وهذه التعددية قد تحير بعضا ممن يريدون أن يرونه كما يريدون. وعلى الرغم من إتقانه الهائل لفنون العلاج الدوائي إلا أنه يعالج كثيرا من مرضاه بتأثيره الشخصي الهائل وبكاريزمته المشعة، وبكلماته الطيبة الحازمة المؤكدة والمطمئنة بوعي وصدق وموضوعية، ويتحدث عن الوسائل غير الدوائية في العلاج باحترام وتقدير، وهذا يصحح سوء الفهم الذي لحق به من بعض من لم يعرفه بعمق من تلاميذه ومريديه. وليس هو وحده الذي ربما أسئ فهمه، فكثير من الرواد والمصلحين وأصحاب الرسالات قد أساء بعض تلاميذهم فهمهم ونسبوا إليهم مالم يقصدوه بالضبط، أو رأوا جانبا ولم يروا جوانب أخرى في شخصية متعددة الأبعاد والمستويات

قد يحسده البعض على استمرار تألقه وإشعاعه وجاذبيته ونجاحه وإنجازاته، وقد يلومونه على حرصه على كل ذلك متناسين أن كل الناجحين لديهم هذا القدر من الحرص على الصعود الدائم ، وأن حضور ذواتهم بقوة جزء من منظومة النمو الشخصي المحرك للتنافس الدافع نحو التسابق على طريق النمو العام.

لا تراه في مكان أو زمان إلا وتسمع منه أو عنه شيئا مفيدا، ولست أدري كم عدد الساعات التي رأيته فيها على المنصة معلما وفي القاعات مفهما، وهو قد جعل للطب

النفسي مذاقا خاصا حين مزجه بشخصيته وبروحه فأخرج مصطلحاته الصعبة ومفاهيمه العويصة في صورة سلسة وبسيطة وجذابة، ولهذا فهو فاكهة أي مؤتمر أو ندوة يعطيها بريقا ولمعانا وحضورا ودفئا وحرارة وأصالة. وحتى في الإمتحانات تغلب عليه صفة المعلم (وهي كما ذكرنا صفة محورية في شخصيته) فيمزج الأسئلة للطالب بكثير من المعلومات يعطيها إياه ومن حوله أثناء الإمتحانات، وكأنه لا يستطيع أن يتخلى عن دوره كمعلم حتى في الموقف الإمتحاني الذي يفترض فيه السؤال لا الإجابة من الممتحن. ومن النادر جدا أن يتخرج طالب دكتوراه دون أن يكون امتحنه الدكتور عكاشه، فرأيه في الطالب علامة مسجلة في تاريخه العلمي.

أما إذا تحدثت عن اعتزازه بنفسه وبكرامته، فهذا حديث يطول، فعلى الرغم من تواضعه وحديثه المتصل مع الكبير والصغير إلا أن له نفسا أبية لا يستطيع أحد ولا يقدر (مهما علا قدره) أن يقتحمها أو يتجاوز حدود الأدب والإحترام معها، وهذا هو ترفع العلماء.

وقد يكون الشخص ناجحا في العلم إلا أنه يخفق في مجالات النجاح الأخرى كالعلاقات الإجتماعية والمشروعات الكسبية، ولكن الدكتور عكاشة حقق معادلة الحكمة والملك، فعلى قدر نجاحه في علمه نجح أيضا في مشروعاته الخاصة وحقق إنجازات هائلة في عيادته ومستشفاه ومنتجعه وفي علاقاته العملية والإجتماعية، وهذا دليل على وجود أكثر من نوع من الذكاء لديه يتيح له الفرصة للنجاح المتألق على جوانب ومستويات عديدة.

نال جائزة الدولة التقديرية فشرفت به هذه الجائزة وفرحت بلقائه، فهو شخصية فريدة تشرف بها مصر والعالم العربي، ونشرف بها كأطباء نفسيين، فهو قد أعطى لهذا التخصص احتراما وتقديرا ومكانة من خلال احترامه لعلمه ولتخصصه ولمريضه. فعلى مستوى العلم تجد لديه كل جديد حتى آخر لحظة تقابله فيها، فهو يتابع بدقة شديدة أحدث التطورات في أرقى المجلات والدوريات العلمية العالمية والمحلية، وينقل كل معلوماته وخبراته إلى تلامذته في كل مكان بلغة بسيطة ومستقيمة ومحددة. وعلى الرغم من شهرته وذيوع صيته كطبيب ومفكر وأستاذ عظيم إلا أنه يهتم بتلاميذه –حتى الصغار

منهم – ويعرف أسماءهم وأحوالهم ويقبل على كل منهم وكأنه له وحده ويعطيه كل الإهتمام، ويعلق على أشياء كتبها هذا الشخص أو قالها. أذكر أنني كنت أكتب أشياء بسيطة ومتواضعة في بعض الصحف، ففوجئت به في أكثر من مرة يتصل بي ليعلق عليها أو يناقشني فيها أو يمتدحها، وكنت أتعجب: كيف لأستاذ كبير في هامة الدكتور عكاشة أن يجد وقتا لمتابعة ما يكتب في الصحف والمجلات بهذه الدقة، ثم يهتم بها وبكاتبها إلى هذا الحد. فهو لا تفوته شاردة أو واردة في مجال تخصصه وما يتعلق به، ولست أدري من أين يأتي بالوقت ليفعل كل هذا، وأجندته مشحونة بمواعيد مؤتمرات عالمية في كل مكان ولديه عيادته ومستشفاه ومرضاه.

لا يتردد في إعلان رأيه في الكثير من سلبيات السياسة أو المجتمع بشكل واضح وصريح ولديه شجاعة يحسد عليها في هذا الأمر على الرغم من حساسية مكانه ومكانته كشخصية علمية وشخصية عامة في نفس الوقت. وله كتاب جميل لخص فيه رأيه ورؤيته في كثير من سلبيات حياتنا السياسية والإجتماعية، وهو كتاب «ثقوب في الضمير»، ومن كثرة إعجابي بهذا الكتاب اشتريته أكثر من مرة ووضعته في أكثر من مكان حتى لا يضيع مني.

وحين يظهر على شاشة التليفزيون في أي قناة يتحدث بتلقائية شديدة وصراحة مؤكدة ويتطرق إلى نقاط حساسة، وهو مع كل ذلك لا يغادر نطاق الموضوعية والأدب الرفيع. تجده يعيد الأمور إلى نصابها ويخلع عنها المفاهيم الخرافية والمبالغات والترهات. وعلى الرغم من علمه وموضوعيته إلا أنه شيق الحديث لا تمل أبدا من سماعه، وربما يعود ذلك إلى ما يتمتع به من أنواع كثيرة من الذكاء، فهو ذو ذكاء لفظي منطقي عال وذو ذكاء عاطفي هائل وذو ذكاء اجتماعي متميز وذو ذكاء تأملي عميق وله اهتمامات واسعة تجعل حديثه ملئ بالعلم والطرائف والإحصاءات والأرقام والدلالات والمعاني والتحذيرات والفكاهات جنبا إلى جنب في تركيبة رائعة.

قد يلومني البعض على هذا المدح وعلى هذا الإعجاب بالدكتور عكاشه، وأنا لا أنكر إعجابي به وتحيزي له، ولا أنكر على منتقديه جوانب انتقاداتهم، فهو مثل أي إنسان لديه مزاياه ولديه عيوبه، ولكن النجاح كثيرا ما يتجاوز العيوب ويجعلها تبدو صغيرة أو يغفر

لصاحبه ما أضاف وأعطى، وقد يتساءل البعض مستنكرا: أما كان جديرا بك أن تكتب عن عيوب الدكتور عكاشه استكمالا للموضوعية وتوازن الرؤية، وهنا أقول بأن وقوف التلميذ أمام أستاذه يستلزم الكثير من الأدب، وأنا حين أقف أمام أستاذي لا أمد عيني لأتفحص عيوبه، وأكتفي بما وصلني منه من خير عميم، وأدعو الله أن يبارك في حسناته ويتجاوز عن سيئاته، وأن يكون ما كتبت عنه نموذجا للأجيال الجديدة التي تفتقر إلى القدوة والمثال وتتعجل الوصول إلى الغنيمة دون أن تبذل من الجهد والعرق ما بذله الرواد والعلماء. وأخيرا تحية عطرة أستاذي الجليل الجميل، أطال الله في عمرك ونفع بك، وجعل أعمالك كلها خالصة لوجهه الكريم، وأثابك عليها جنات النعيم، وأن تكون الشهادات المحلية والعالمية، وقبلها شهادة تلاميذك لك في ميزان حسناتك، وأن يمنحك الله الصحة لتعطي أكثر وأكثر، وتقبل اعتذاري إن لم أكن وفيتك حقك كعالم وكإنسان.

***

قراءة فى شخصية زويل

جلست أتابع تلك السهرة المميزة مع الدكتور أحمد زويل فى برنامج الساعة العاشرة وكنت أنوى مجرد الاستمتاع بحديث الضيف المتميز ولكننى فوجئت بأن الإعلامية الذكية الأستاذة منى الشاذلى تستفيد ببراعة من ثقافتها النفسية فتأخذ لقطات لشخصية زويل من زوايا مختلفة وتسلط الأضواء على ثنايا فكره ووجدانه،وهكذا استيقظت هوايتى- التى هى مهنتى - فرأيتنى أمسك بالورقة والقلم لأسجل هذه القراءة لشخصية فى حجم زويل خاصة وقد طمأنته المضيفة(المحللة) ببساطتها وتلقائيتها وحرفيتها فكانت دفاعاته فى أقل مستوياتها فاستطعت أن أراه- ربما لأول مرة - بهذا الوضوح النسبى، وقارنت صورته فى هذه المرة بصورته التى رأيتها مباشرةً(وجهاً لوجه)فى محاضرته العلمية الإنسانية التى ألقاها فى المؤتمر العالمى للطب النفسى فى المركز الدولى للمؤتمرات بالقاهرة، وقارنت ذلك بصورته فى مقابلات أخرى مع مذيعين كانوا فى حالة انبهار بالأضواء المحيطة به فلم يستطيعوا أن يروه انسانا، وربما يكونوا قد وضعوا عليه أقنعة فحجبوه عنا وحجبونا عنه، وأضفت إلى كل ذلك قراءتى لسيرته الذاتية فى كتابه «رحلة عبر الزمن» من إصدارات مؤسسة الأهرام بمصر عام ٢٠٠٣م.

كانت هذه مقدمة ضروريه توضح خصوصية الحالة التى كان عليها صاحب الشخصية فى هذه المرة حيث كان عفوياً بسيطاً سعيداً أحياناً ومتألماً أحياناً أخرى. وأول ما يلفت نظرك فى زويل وجهه فهو واجهته الحقيقية التى تستطيع قراءته منه، ذلك الوجه متعدد التعبيرات والإيحاءات فى براعة فهو أحياناً يأخذ طابع الجدية والصرامة العلمية ويغطى الجفنين العلويين جزءاً من العينين ويتهدل الخدين ويزم شفتيه فتظهر صورة عالم أضناه السهر فى المعامل، وأرهقت عيناه متابعة الجزيئات وتركزت حدقتاه المتسللتان من تحت جفنيه على شئ جديد يراه فيتأمله فى خشوع العالم. وفى هذه الحالة تجد أطرافه وجسده فى حالة سكون والتزام يليقان بجدية الموقف. ثم مع تحول مجرى الحديث (منه أو

من محدثه) تجد ابتسامة طفولية بريئة وتلقائية أشعت فى وجهه فلمعت عيناه وأضاءت وجنتيه، وانفرجت شفتاه فى سعادة حقيقية تعود به عشرات السنين إلى الوراء، ويواكب ذلك حركات مرحة فرحة باليدين والرجلين مع حركة الجسم يمنة ويسرة فى لطف، ثم سرعان مايلملم أطراف هذه الحالة ليجلس فى صمت الأب المستمع الحانى الودود أو الناقد فى حب وشفقة، ثم يخرج من هذه الحالة إلى حالة ابن البلد الظريف فترى وجهاً مألوفاً على المقاهى والحارات المصرية وفى جلسات الأحبة يلتقط الطرفة أو يصنعها ويأخذك بعيدا عن هموم الحياة.

إذن فنحن أمام وجه واسع الطيف من حيث الإيماءات والإيحاءات والتعبيرات وهو يفعل ذلك فى لحظات سريعة ولكنك لا تشعر بالنقلات نظراً لبراعة صاحبها فى جعلها منطقية ومفهومة من خلال مواكبتها بأفكار سريعة وملائمة وأيضاً مواكبتها والتجهيز لها بلغة جسم تخدمها وتعززها، لذلك تشعر بالارتياح والتناغم حين تسمعه على الرغم من وتيرته المتسارعة والمتغيرة فكراً ووجداناً. ولو كنت مخرجا سينمائيا فستجد نفسك أمام ملامح يمكن توظيفهالإنتاج كم كبير من الشخصيات، فهو فى لقطات معينة وبزوايا خاصة يصلح لأن يكون وجه عالم، وفى لقطات أخرى وبتعديلات بسيطة يصلح لأن يكون وجه ابن بلد شهم وفى لقطات ثانية يصلح لأن يكون وجه شاعر رومانسى حالم، وفى لقطات رابعة يصلح لأن يكون وجه حرفى ناصح ومتمكن من حرفته، وفى لقطات خامسة يمكن أن يكون صديق فى جلسة أنس. وهو فى قابلية ملامحه لإعطاء صورلشخصيات متباينة يشبه الفنان نور الشريف فى قدرته وقدرة المخرجين على تحويل ملامحه من ابن البلد فى حارة شعبية إلى هارون الرشيد إلى فيلسوف كابن رشد إلى شخص حالم ككمال عبد الجواد فى الثلاثية إلى تاجر إلى شيخ متصوف...إلى..إلى..... وهذا ربما يشير إلى حالة من الثراء أو الذكاء الوجدانى الذى يلتقط ثم يختزن ثم يعكس الكثير من الصور الإنسانية فى مرونة وتلقائية، ويعكس أيضا براعة الشخص فى التقمص والتفاعل مع الظروف المتغيرة بأقل قدر من التثبيت والدفاعات النفسية.

وإذا كنا مازلنا فى مرحلة قراءة الوجه فقد يلفت نظرنا تسريحة الشعر وطبيعته حيث

نجد الشعر مطروحا على الجبهة (سواء بقصد إخفاء منطقة خالية من الشعر أو بغير قصد) ويبدو وكأنه لم يمشط بعناية، وإذا أضفنا لذلك قصر السوالف وبساطة رسمها فإننا نكون أمام وجه أقرب للملامح الطفولية حيث الشعر الزاحف على الجبهة(عكس كبار السن الذين يزحف شعرهم متراجعاً عن الجبهة) وحيث عدم العناية بتصفيفه إلى الخلف أو إلى الجانب. وهذا المظهر الطفولى للشعر ربما يعكس ذاتا طفلية نشطة بداخل صاحبها، تلك الذات المتفائلة المنطلقة المبدعة الفرحة المندهشة. وهذا يجعل أحمد زويل بعيداً عن«برواز» العالم المتجهم والصارم، وبالتالى يغريك بعالمه الذى برع فيه وحقق فيه كل هذه الإنجازات ومع ذلك لم يفقد بساطته وتلقائيته ومشاعره الطفلية النشطة.

وربما يقول قائل:نحن نبالغ كثيرا فى قراءة الشخصية من ملامح الوجه أو من لغة الجسم، ولكن ثبت علميا أن اللغة اللفظية المباشرة تعطينا ٣٠٪ فقط من محتوى التواصل فى حين أن اللغة غير اللفظية (وضع الجسم، ملامح الوجه، نظرات العينين، حركة الأطراف، نغمة الصوت) تعطينا ٧٠٪ من محتوى التواصل.

وإذا جئنا إلى وضع الجسم وجدناه يجلس فى ثقة واعتزاز ومع ذلك لايخرج عن حدود التواضع فهو لايضع ساقاً فوق ساق احتراماً ومراعاةً للتقاليد المصرية رغم أن هذه العادة مقبولة جداً فى المجتمع الأمريكى الذى عاش فيه سنوات طويلة، وهو لايأخذ وضعاً متخشباً متحدياً أو متصلباً، بل يغير أوضاعه فى مرونة ويسر ولايأخذ أوضاعاً قلقة أو مستفزة وهذا يعكس بساطة وتواضعاً واحتراماً للآخر بقدر احترام الذات والإعتزاز بها.

ومن المهم عند قراءة أى شخصية أن نحاول معرفة مفتاح هذه الشخصية وذلك لكى يتسنى لنا ربط التفاصيل المتناثرة فى منظومة تعطينا إطارا واضحا ومنطقيا ومتناغما لصاحب الشخصية نفهم من خلاله الكثير من التفاصيل أو ما يبدو أحيانا أنه متناقضات. ومن خلال كلماته ومواقفه وملامح وجهه ولغة جسده يتضح أن مفتاح شخصيته هو: «عشق العمل والتفاؤل»، ويؤكد هذا المفتاح ما كتبه هو عن نفسه (فى كتابه رحلة عبر الزمن، صفحة ٧، مؤسسة الأهرام ٢٠٠٣) يقول: «ويعتقد كثير من الناس أنه بإمكان

المرء أن يدرك النجاح بسهولة معتمدا على النبوغ وحده. وفى حالتى لم يكن طريقى فى الحياة سهلا ميسورا – فقد اعترضت طريقى كثير من العوائق والتحديات، ولكن من ا لصغر وأنا أعرف قوة «عشق العمل» كما أننى بطبيعتى إنسان متفائل». هذه الحالة من ا لعشق والتفاؤل خلقت حالة من الإدراك الإيجابى الشغوف بالأشياء والناس والحياة ويظهر هذا فى كثير من المواقف نذكر منها مايلى:

١- إدراكه لشخصية والده حيث يقول عنه (فى كتابه السابق صفحة ١٧): كان شديد الإخلاص لعمله ولأسرته، كما أنه علمنا كيف نعيش فى بهجة وسعادة...... وكان يعتقد أن الحياة قصيرة ويجب ا لإستمتاعه بها..... ولوالدى صفات تدعو للحب والإحترام، فقد كان محبوبا من أصدقائه ومعارفه، وكانوا جميعا معجبين به ويكبرونه ويجلونه، وأنا بالفعل معجب به ومقدر لحكمته تلك وهى أن المرء يجب أن يتعلم فن الحياة، أى كيف يستمتع بأيامه فى رحلة حياته. وربما كان أعظم شئ تعلمته من والدى هو أنه لا يوجد تناقض البتة بين الحب الشديد للعمل والإخلاص له وبين حب الحياة والإستمتاع بها».

٢- إدراكه لشخصية وا لدته حيث يقول عنها (فى كتابه: رحلة عبر الزمن، صفحة ١٧): «واتسمت والدتى بالورع والتقوى وحرصها على أداء الصلوات الخمس فى ميعادها. وهى بالفعل اسم على مسمى، فاسمها روحية وهى روحانية بكل ما تعنى الكلمة».

٣- إدراكه لجامعة الإسكندرية التى بدأ فيها أولى خطواته نحو التخصص حيث يقول فى كتابه سابق الذكر فى عبارات عميقة الدلالة على إدراك إبداعى ونفس توّاقة للصعود ومتعلقة بالمعالى (صفحة ٣٠): «وما أن دخلنا حرم الجامعة حتى وجدنا أنفسنا أمام درج شديد الإنحدار يبدأ من سطح الأرض ويقف شامخا فى الهواء الطلق، وصعدنا درجات السلم حتى إذا ما انتهينا إلى الدرجة العليا وجدنا أنفسنا وكأننا نسران محلقان فى الهواء ونشرف من موقعنا هذا على مختلف أرجاء حرم الجامعة بمنشآته العشر على وجه التقريب..... وإننى أتذكر أثناء ارتقائى للدرج هذا بصحبة خالى رزق فى أول يوم لى فى

الجامعة، وكان ذلك فى صيف ١٩٦٣، وحتى قبل أن نصل إلى نهاية الدرج، أتذكر أن قطرات من الدمع قد تساقطت من مقلتى، ولم يكن ذلك عن حزن، إنما هى دموع الفرح لرؤيتى حرم الجامعة لأول مرة فى حياتى... حرم العلم والعلماء والذى تنطلق منه إبداعات العقول فى مجالات العلوم والفنون بأنواعها المختلفة... وعندئذ سرحت بخيالى وفكرى.. ووجدتنى أتساءل فى شئ من القلق والإنفعال: أأجد نفسى ذات يوم واحدا من هؤلاء العلماء؟ وجاء الجواب من مقلتى فى صورة قطرات من الدموع بلت وجنتى.. وكأنها تردد نفس السؤال!».

هذا الإستقبال الوجدانى الإيجابى للرموز العائلية والرموز العلمية وللحياة عموما يكشف بوضوح عن حالة العشق وحالة التفاؤل وحالة التواصل الرائعة مع الناس ومع الأشياء، ويكشف أيضا عن ملكة الإبداع الكامنة فى هذه النفس الحساسة، حيث أن المبدعون يتميزون برؤية خاصة للأشياء تجعلهم يرون مالايراه الناس ويدركون الأشياء بعمق غير مألوف ويسمعون همس الكون ووشوشة الطبيعة وتغريد الحياة. وتتصف الشخصية المبدعة بوضوح نشاط ذات الطفل فيها تلك الذات التلقائية الفرحة المندهشة المتفائلة والمتسائلة والمتجددة.

ويلاحظ من مسيرته حرصه على اللقاء بقادة العالم من العلماء والسياسيين وغيرهم وهو يحتفظ بصور تذكارية معهم، وهذا يعطى دلالة على تعلقه بالعظماء والعباقرة وعلى تعلقه بمعالى الأمور على وجه العموم وربما يضاف هذا كمفتاح آخر لشخصيته (إضافة إلى عشق العمل والتفاؤل)، وهو يعبر عن هذا بقوله: «وكنت على اقتناع تام بأن السبيل لمواصلة التقدم والنجاح هو أن يتعلم الإنسان من العباقرة وأن يقتفى أثرهم ويحذو حذوهم، وكان إسحاق نيوتن قد عبر عن ذلك بقوله:

«إنما تعود نظرتى البعيدة والعميقة للأشياء ومدلولاتها إلى أننى قد وقفت على مناكب العباقرة...»، وكان اسحاق نيوتن قد تعلم من جاليليو وغيره من كبار العلماء الذين سبقوه مما مكنه أن يواصل تقدمه ونجاحه.. ومن ناحيتى بدأت أقرأ فى تاريخ المشاهير والعلماء وإنجازاتهم وأدركت أن بحور العلم ليس لها حدود» (رحلة عبر الزمن، مؤسسة

الأهرام ٢٠٠٣).

وللزمن فى وعى زويل وضع خاص يرتبط بشخصيته، فلديه إحساس حاد بالزمن يجعله يحرص على أن لاتضيع منه لحظة، وهذا يتضح فى عباراته التى يختارها بعناية بحيث تؤدى ما يريده بشكل موجز ومباشر وسريع دون أى إطناب أو ترهل يستهلك الوقت بلا فا ئدة، ويتضح فى قوله: «وكنت توا قا ومتلهفا لمواصلة القرا ءة، وحرصت على أن لايضيع جانب من وقتى»، كما يتضح بشكل عملى فى مسيرته كلها حيث كانت إنجازاته كلها مبكرة فقد حصل عل جائزة الملك فيصل العالمية فى سن صغير نسبيا ثم جائزة بنيامين فرانكلين ثم توج ذلك بجائزة نوبل، كل هذا وغيره كثير وهو لم يتجاوز حين حصوله على نوبل الثانية والخمسين من عمره ومن يتابع عدد ونوعية أبحاثه وكتبه ونشاطاته ليتعجب من كثرتها وجودتها وتنوعها بشكل مذهل، ولا يكون هذا إلا من خلال إحساس دقيق وحاد جدا بالزمن، وربما يفسر هذا بحثه الأهم عن الفيمتوثانية تلك الوحدة الزمنية الأصغر ا لتى أضافها إلى العلم ورأى من خلالها حركة الجزيئات التى لم تكن ترى فى ظل وحدات زمنية أطول. ويؤكد أهمية الزمن لديه اختياره لعنوان كتابه (سيرته الذاتية): «رحلة عبر الزمن».

وزويل يتمتع بقدر هائل من الذكاء الوجدانى،وقد لانبالغ إذا قلنا أن ذكاءه الوجدانى يكمن وراء الكثير من نجاحه، فلديه رصيد هائل من المشاعر الحية الجياشة، ولديه طاقة هائلة على أن يُحِب ويُحَب،ولديه دافعية عالية للعمل والاستكشاف، ولديه قدرة عالية على تحمل الإحباط، ولديه قدرة على قراءة مشاعر محدثه والتجاوب معها، ولديه قدرة على الإحساس بالآخر وباحتياجاته وعلى التعاطف معها.

وهو لايتصرف فقط كعالم إنما يتصرف كنجم متألق يحافظ على نجوميته وعلى تألقه، فهو يجيد عرض نفسه علمياً وإعلامياً وشخصياً، وهذا قد أعطاه شهرة وتألقا لم يحظ بها علماء كثيرون حصلوا على نفس الجائزة وعاشوا فى ظل المعامل والمدرجات فى جامعاتهم أو معاهدهم العلمية. وهذه النجومية تجعله يتعامل مع الإعلام بذكاء وبحذر فهو يبدى ما يرى أنه يخدم هذه النجومية ويخفى ما يرى أنه ربما يؤثر سلبياً عليها، فمثلاً هو لايحب

الاقتراب من خصوصياته (خاصة زيجاته وأمه)، فمن الغريب أن أمه لم يرها أحد على شاشات التليفزيون تتحدث عن طفولة ابنها وعن ظروف حياته وحياتها رغم أنها- كما ذكر- شخصية محورية فى حياته، كذلك لم تظهر زوجته الأولى أو الثانية لتحدثنا عن صورته كزوج، ولم تظهر بناته أوأبناؤه ليتحدثوا عن زويل الأب، تلك الجوانب التى ربما لاتكون على نفس المستوى العلمى الذى وصل به إلى نوبل ربما لايجب أن تظهر للناس بما فيها من سلبيات وإيجابيات (شأن جميع البشر) لكى يحافظ على صورة ذهنية وعلمية وإعلامية خاصة ترسخت فى وجدان الناس عنه، وهذا ليس مما يذم أو يمدح وإنما يدخل فى باب الخيارات الشخصية والحسابات الاجتماعية، وإن كان فيه بعض الحساسية غير المبررة فالشخصيات القيادية فى أى مجال كثيرا ماتعطى خبرتها بحلوها ومرها للأجيال الجديدة للإستفادة منها، أما زويل فهو يحرص على ظهور مزاياه فقط للناس ويحرص بشدة على إخفاء أى نقطة ضعف أو أى أخطاء فى مسيرته وهذا يجعلنا نتحدث فقط عن نصف صورته التى نراها. ولدينا أمثلة كثيرة من مشاهير ونجوم فى العلم والفن والأدب تحدثوا بشجاعة فى سيرتهم الذاتية عن جوانب ضعفهم وأخطائهم ومعاناتهم ولم ينتقص هذا من صورتهم وتألقهم بل زادهم حبا وتقديرا وعمقا فى وعى الناس.

وحين أبرزت الأستاذة منى الشاذلى التركيبة الأسرية فى أن زويل هو الولد الوحيد على ثلاث بنات، فهذا يوضح جانب هام فى النشأة يترك أثرا هائلا بعد ذلك، فهذا الوضع يعطى تميزا للولد(الوحيد وسط أخوات) فيشعر باهتمام كبير من الأم ومن سائر من حوله، ذلك الاهتمام الذى يجعله فرحاً بذاته وفخوراً بها، وهذا الفرح والاهتمام والولع بالذات قد يأخذ منحى سلبياً فينشأهذا الولد الوحيد مدللاً مرفهاً، وقد يأخذ منحى إيجابياً حيث يعطى لصاحبه رغبة فى الحفاظ على صورة ذاته المميزة فى بقية مراحل عمره فيسعى إلى الإنجاز والتميزلكى يظل محتفظاً بالحفاوة والترحيب ويضع ذاته التى يحبها فى الوضع المناسب كما يراه ويراها.وهذا ربما نسميه نوع من النرجسية الإيجابية، وهى شعور عالٍ بالذات مع سعى حقيقى لوضعها فى أفضل المراتب من خلال إنجاز أصيل يعلى من قيمة هذه الذات واحترامها وتقديرها. وهذا الشعور العالى بالذات نجده فى أغلب

الناجحين والمتألقين، وربما يكون هذا الشعورأحد أو أهم دوافعهم للتميز والتفوق، فهم لايحتملون أن يكونوا فيغمار الناس، بل يسعون دائما للإنجاز والتألق والتفوق، وهذا بالطبع يختلف عن حالة النرجسية الفارغة والتى لاتقوم على إنجازات حقيقية أصيلة وإنما تقوم على وهم فى عقل صاحبها بالتفرد وعلو القيمة. وهو يصف هذا الجانب من نفسه بقوله: «وعاد السؤال الذى ألح على خاطرى أثناء ارتقائى درجات السلم فى أول يوم لى فى جامعة الإسكندرية... هل لى أن أكون يوما ما واحدا من هؤلاء العلماء البارزين؟ وإن المرأ ليعجب فى الوقت الحاضر من مدى أو درجة الجنون التى كنت فيها أو عليها وقتذاك وفى تلك المرحلة المبكرة من العمر.. أو أننى لم أشغل فكرى وبالى بالثروة والمال أو اقتناء سيارة فاخرة أو ما إلى ذلك من متع الحياة المعهودة ، ولكن الذى شغل فكرى واستولى على خيالى هو أن أحصل العلم وأن أتبوأ مركزا فى دنياه، والمرء د ائما حيث يضع نفسه».

والتواضع لدى زويل - رغم ارتفاع إحساسه بذاته - هو جزء من التميز لديه، فإدراكه لقيمة التواضع يجعله يتحلى به مثلما يحرص على التحلى بالبساطة والتلقائية والمرح، فهو فى النهاية يبنى منظومة شخصية يحرص جيداً على جمالها وتنوعها وتألقها وتزيينها بكل ما يمتدح من صفات وإخفاء كل ما ينتقد أو يذم.

ثم غاصت المحاوره فى أعماق بحار طموحاته وطارت فى سماء تطلعاته وخرجت بالكثير، فهو حريص على مقابلة الزعماء والناجحين على المستوى العلمى والسياسى والاجتماعى وحريص على التقاط الصور التذكارية مع هذه القمم، وباب طموحاته مفتوح على مصراعيه، وهو حريص على تركه للإختيارات مفتوحة، فلا ينفى حبه للعلم ورغبته فى التبتل فى محرابه، ولا ينفى فى ذات الوقت خيارات أخرى سياسية أو غيرها قد يختارها الشخص فى ظروف معينة. ولكن اقترابه من عالم السياسة والثقافة قد أصابه بصدمات فهو كعالم يميل إلى الحقيقة وإلى الموضوعية والصدق، ولكن عالم السياسة والثقافة فى مصر فى الوقت الحالى يبدو أنه ليس على هذا المستوى لذلك نراه يعبر فى ألم عن تجربته مع المسئولين فى موضوع إنشاء الجامعة التكنولوجية على أرض مصر وما حدث فيه من مراوغات لا تصلح فى المجال العلمى، ويعبر أيضا بألم عما وجده من اذدواجية

الخطاب لدى نخبة المثقفين فى مصر حيث يسمع منهم كلاما فى الجلسات الخاصة ثم يراهم يكتبون كلاما آخر فى صحفهم ومجلاتهم وكتبهم. وهو يريد أن يساهم فى نهضة بلده التى يحبها ويتعجب كيف ببلد مثل مصر لم تستطع أن تحقق ماحققته ماليزيا أو الهند، ويتأكد له أن هذين البلدين يتمتعان بديموقراطية حقيقية ، وكأنه بأدب العالم يريد أن يوجه الأنظار إلى أصل الداء الذى يكمن وراء تخلف هذا البلد العظيم تاريخا وحضارة.

وهو يريد أن يرى الدنيا (ويرى نفسه أيضا) فى وجهها الجميل المعطاء المتفائل ولايحب التركيز على السلبيات والأخطاء والنكبات، وهذه دائما رؤية المبدع النامى الناجح والمتطور حيث يتجاوز الحفر والصخور فى سبيل استكمال رحلة الصعود إلى أعلى الجبل وهو يرنو بعينيه نحو السماء الصافية ويوجه أنفه لاستنشاق النسيم الصافى من الطبقات الأعلى ولايبالى بما تحت قدميه من حصى وهوام يعرف مؤكداً أنه سيتجاوزها فى حالة الاستمرارفى الصعود. وقد عبر عن هذا بالمقارنة بين الوضع فى مصر حيث الميل للتركيز على السلبيات والعقبات وعلى محاولات إعاقة النجاح والناجحين، مقارنة بالوضع فى أمريكا حيث الحفاوة بالنجاح والناجحين وإتاحة كل الفرص للصعود.

أما عن الجانب العاطفى فى حياته فقد حاول التهرب منه بالعودة إلى سؤال مبكر فى المقابلة يعود بالحديث إلى موضوعات علمية وعامة.وعندما عاودت المحاورة سؤاله مع كل مالديها من مهارات لتخفيف قلقه تجاه هذه النقطة الانسانية فى شخصيته، رغم كل هذا وجدناه يحرص على إخفاء هذا الجانب ويغطيه بعبارات عامة، وربما يكون هذا بسبب جراح أليمة لايريد أن يفتحها أو بسبب فشل لايريد به أن يكون بقعة فى صورته التييحرص على جمالها وتألقها، أو يكون بسبب إنكار لجانب يخشى التورط فيه حديثاً أو ممارسة.

المهم أن حساسية زويل تجاه خصوصياته يعكس الحرص على ظهور الذات الاجتماعية والذات المثالية مع الاحتفاظ بالذات الحقيقية بعيدا عن أعين الناس. وربما يعذره البعض فى ذلك، فهناك بعض الناس لاهم لهم إلا البحث عن زلات الناجحين لأن وجود تلك الزلات أو مناطق القصور أو الضعف يريح أنفسهم الغيورة من النجاح

حيث تتشوه صورة الناجح فى أذهانهم فيسهل عليهم قبولهم لذواتهم. وهم بهذا يحرمون الشخصيات الناجحة حقها من الضعف الانسانى ومن الزلات الحتمية ومن جوانب القصور الطبيعية، وفى نفس الوقت يحرمون أنفسهم من استشعار التميز والنجاح على الرغم من نقاط الضعف وجوانب القصور.

وأخيرا فهذه قصة نجاح حقيقية تستحق تسليط الضوء عليها والإشادة بها لتكون نموذجا للإجيال الجديدة التى تعيش فى عالم يفتقد للقدوة فى كل المجالات، فينظرون فلا يجدون من حولهم إلا نماذج فاسدة ومشوهة، وهنا تصبح النماذج المضيئة فى العلم أو السياسة أو الدين بمثابة وسائل إنقاذ للبشرية حتى لا تغوص فى أعماق الفساد والتدهور، ليس هذا فقط بل إن هذه النماذج هى بمثابة قوة الدفع لأعلى لم تتوق أنفسهم لمعالى الأمور وجمال الوجود وعظمته.

***

عمرو خالد

(بائـــــع الـــورد)

دخل هذا الشاب الجميل صاحب الوجدان الفياض والروح الصافية إلى واحة الإسلام وتجول فيها بعيون طفل منبهر ترى كل شئ جديداً وجميلاً وهى لا تكف عن النظر والإندهاش، ثم راح يمد يديه ليقطف أجمل ما فى الواحة ويصنع منه باقات كتب عليها (ونلقى الأحبة) وخرج يوزعها على الناس فاستقبلوه واستقبلوها بكل الحب والانبهار وخاصة الشباب الذين التقطوا هذه الموجه المحبة المندهشة المستكشفة بمنتهى السهولة واليسر، ففروا من بائعى الشوك الذين انتشروا قبل ذلك على بعض المنابر وعلى الأرصفة، أولئك الذين تجولوا فى صفحات الكتب وفى أزقة التاريخ بقلوب قاسية وعيون جامدة فعادوا منها باشواك كتبوا عليها شعارات اسلامية وحاولوا إغراء الناس بها فاقتربوا منهم حتى سالت دماؤهم فانفضوا مذعورين أما ذلك الشاب الرائع عمرو خالد... بائع الورد فما يزال يتجول فى الواحة ويخرج أجمل ما فيها من ورود ومن كنوز، ويبدو أن معينه لن ينضب قريباً خاصة وأنه قد اقترب من الجانب الإنسانى والجانب الوجدانى فى شخصيات الصحابة رضوان الله عليهم وهما جانبان لم يأخذا حقهما من كثير من الدعاة نظراً لانشغالهم بالتحقيق النصى أو السرد التاريخى.

وهو يسلط الكاميرا على الشخصية التى يتأملها ويقترب من تفاصيلها وينقلها بمشاعرها وأفكارها وروحها طيبة نابضة مثيراً فى المشاهد مشاعر الغيرة والمحاكاة ومحركاً اياه نحو أفاق الجمال الإنسانى المتجسد فى شخصيات الصحابة (الأحبة) رضوان الله عليهم.

وهو قد استفاد من عبقريات العقاد وحل معضلة صعوبتها على كثير من الناس وأعاد إخراجها بشكل ميسر مضيفاً إليها الجانب الوجدانى الذى كان يفقده العقاد ذو

الطبيعة الفلسفية العقلانية.

وحين تسمع هذا الداعية العبقرى البسيط تشعر أنه يحدثك عن نفسك وأنه قد مر بالخبرات التى تمر بها وقد واجهته الصعوبات التى تواجهك، وأنه مازال يعالج كل هذه الأشياء مثلك تماماً ومن هنا لا تشعر أنه يلقى إليك الرسالة من علٍ كما يفعل كثير من باعة الشوك غلاظ القلوب جامدى العقول ذو المشاعر اليابسة أو المتجمدة وهو لا يعطيك أفكاراً سابقة التجهيز، ولا يلقى على سمعك كلمات لاكتها ملايين الألسنة من قبل، بل يخيل إليك أن الفكرة تتقد فى رأسه فى اللحظة والتو فليتقطها قلبه ويحوطها بمشاعره الحية الفياضة وحينئذ تلمع عيناه الطفوليتين من الدهشة والانبهار وتخرج الفكرة محاطة بورود المشاعر فى موكب جميل وسريع فلا تملك إلا استقبالها بنفس الفرحة والانبهار. وتأثيره فى المراهقين، والشباب غير مسبوق فهم يتكلم لغتهم ويمارس أو مارس كثيراً من أنشطتهم ويعانى أو عانى كثيراً من صعوباتهم وهو ينقل لهم كل ذلك فى تواضع شديد يبهرهم ويشعرهم بصدقه وقربه، لذلك يجلسون ويستمعون إليه كأن على رؤوسهم الطير، وهم الذين نفروا من دعاة غيره كثير كانوا يلقون إليهم الموعظة من علٍ ويشعرونهم بدونيتهم وحقارتهم وعدم استحقاقهم لأى رحمه، وفوق كل هذا ينقلون لهم كل هذا فى قوالب جافه وجامدة ومكرره وقاسية وباليه، فهم يتكلمون عن حياة غير حياتهم وعن بيئة غير بيئتهم فمازالوا يضربون الأمثلة بالبعير والخيام والشياه والسيوف والرماح، فى حين يتحدث عمرو خالد معهم بلغة النادى والموبايل والسيارة والانترنت.

وكان عبقرياً حين ابتعد عن النقاط الخلاقية فى الدعوه تلك التى استنزفت القوى دون فائدة وأهدرت جهود أجيال عديدة حتى تخطاهم التاريخ ومع هذا فقد اقتحم مناطق جديدة بواقعية وشجاعة فتحدث مثلاً عن سلوك المسلم فى المصيف، وربما ينزعج الكثير من الدعاه من هذه الفكرة حيث يرفضون فكرة التصييف من الأساس، ولكن الواقع الإحصائى يقول أن أكثر من نصف المسلمين يمارسون طقوس المصيف فكيف نسقط كل هذا العدد من الحساب الدعوى أو نقرر طردهم من رحمه الله بهذه البساطة.

وهو مقبول لدى الشباب والمراهقين بصفة خاصة لأنه يحدثهم كمذيع لامع يجرى حواراً تليفزيونياً يحترم فيه آراء الحاضرين ويقدرها، وهذا أسلوب جديد على الخطاب الدعوى الإسلامى الذى اعتاد فى مراحل التدهور على التلقين من الداعية والسلبية والتثاؤب من المتلقى، فإذا بهذا الداعية الشاب يحيى فريضة التحاور ويحترم المتلقى ويداعب عقله ومشاعره.

وفى عرضه لسلوك الشخصيات الإسلامية تجده يمتلك قدره فنية هائلة على تحويل ذلك السلوك والأحداث المحيطة به إلى حدث درامى حى وكأنه يعيد بعض هذه الشخصيات أمامك فى اللحظة الحاضرة بكل بشريتها وصعوباتها وتطلعاتها وضعفها وسموها ثم يدفعك بلطف إلى مقارنة ما فعلوه بما تفعله ولا يتركك تشعر بالعجز أمام هذه القمم البشرية السامقة بل يمهد لك الطريق ويقنعك أن بإمكانك أن تفعل شيئاً مثلهم لأن عظمتهم جاءت من أشياء بسيطة تستطيعها أنت لو أردت وقررت وصبرت وثابرت.

وهو قد تجنب حتى هذا الوقت (ونتمنى أن يستمر فى ذلك) الدخول فى مواجهات ساخنة ومعوقة مع الرموز التقليدية التى اصطدم بها الدعاة من قبله وأعاقت استمرار تواصلهم مع الناس، فهو لا يسفه أحداً ولا يفسق أحداً ولا يكفر أحداً، ولا ينال شخصيات أو هيئات أو مؤسسات بنقد أو لمز أو تلميح ونتمنى أن يستمر فى ذلك حيث أن دوره الذى يقوم به كبائع للورد لا يستلزم أى شئ من ذلك، والناس فى حاجة إلى وروده أكثر من حاجتهم إلى النقد واللجاجة والتآمر، فليبق فى هذه الساحة المتسامحة الرحيمة الدافعة والدافقة دون تجريح أو تخطيط سرى أو تعاملات من وراء الستار، فكل هذه آفات قد فتكت بالكثير من الدعاة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

ونتمنى أن تظل يا بائع الورد مستقلاً بحيث تكون لكل الناس مبتعداً عن الاستقطابات والتحزبات والجماعات والطوائف فأنت تحمل رسالة انسانية عالمية لا يجوز حصرها فى تنظيم أو حزب أو جماعة أو جمعية، بلى هى تسرى خالصة محبة متسامحة

تروى القلوب الصادقة المحبة للخير فى كل مكان على الأرض.

وهنيئاً لك يا بائع الورد أن فتح الله عليك وفتح لك القنوات الفضائية لتنقل وجهك الباسم الطيب البرئ إلى كل مكان فى الدنيا وتنقل أفكارك ووجداناتك وروحانياتك إلى كل العقول والقلوب والله نسأل أن يثبتك وأن يجعلك نموذجاً لجيل من دعاة الإسلام يبددون صورة المسلم الغليظ الجاف العدوانى التى رسمها الإعلام الغربى وساهم فى رسمها الكثير من أنصاف الدعاه، وهذا هو الأمل الذى يعطيه لنا الله ليظهر النور وسط الظلمة وينبت الورد من وسط الأشواك.

❊ ❊ ❊

سهرة مع سكان القبور

جاءنى صوته فى التليفون مؤكدا أنه قابلنى فى إحدى القنوات الفضائية التى يعمل فيها معدا ولكن معرفتى أنا به ليست مؤكدة، ودعانى للمشاركة فى برنامج تليفزيونى لإحدى القنوات الشهيرة فى ليلة التاسع والعشرين من رمضان، وكنت قد قررت أن أرفض أى دعوة فى الليالى الأخيرة من الشهر الكريم كى أعيشها فى سكينة وسلام بعد عام صاخب بالعمل والأحداث، وفعلا رفضت دعوات كثيرة كنت أحرص على تلبيتها، ولكنه لاحقنى قبل أن أجيب قائلا: سيكون التصوير ليلا بين مقابر الدرّاسة فى مدينة القاهرة وسيكون الموضوع عن معتقدات ساكنى القبور عن الجن والعفاريت والأرواح والمشاهد الغريبة التى يرونها فى حياتهم اليومية بين الأموات وتأثير ذلك على نمط حياتهم. بهرنى الموضوع وبهرتنى جسارة القائمين عليه ورأيت فيه جديدا يكسر الملل الذى أصابنى من برامج الفضائيات الحوارية التافهة والمكررة والنمطية، وأحسست أننا بهذا نقترب من أهل مصر المهمشين والمعذبين (أو كما يسميهم كاتبى الجميل بلال فضل: سكان مصر الأصليين).

وسألته عن موعد التصوير، وكأننى أريد أن أجد ثغرة للإفلات من هذا الأمر كى أنتهى من ختم المصحف (تبقى لى عشرة أجزاء) فى الوقت القصير المتبقى وكى أجلس مع أسرتى وأستشعر الجو العائلى الذى أحبه وأحرم منه فى أغلب الأوقات، وأشاهد ما تبقى من مسلسلات رمضان التى أرى أجزاء منها فى أوقات متفاوتة ثم أجمعها فى رأسى وأكمل ما نقص منها فى خيالى.

فقال لى متحمسا: سيكون التصوير ليلا من الثامنة مساءا وحتى الفجر. وهنا صدمت أكثر وتحمست أكثر، إذ كيف ندخل تلك المقابر ليلا وهى مخيفة وموحشة نهارا، ولكن حماسى كان قد دفعنى للموافقة، وبعد أن وضعت سماعة التليفون، نسيت هدوء وسكينة آخر ليلة من رمضان، وبدأت تدور فى رأسى سيناريوهات وتساؤلات عديدة:

من يدريك أن هذا فعلا برنامجا تليفزيونيا وليس كمينا لشئ آخر؟؟...

ودار فى ذهنى ما حدث لأيمن نور أيام زكى بدر حين استدرج لمنطقة نائية بحجة إعطائه معلومات خاصة جدا عن الجماعات الإسلامية إبان عمله الصحفى فى جريدة الوفد، ولفرط حماسه ذهب ولم يجد هناك إلا علقة ساخنة كاد يموت فيها (وكأنه بعد سنين لم يتعلم من الدرس فعاود الحماس وعاود الذهاب وعاودوا الضرب)، وتذكرت أحد الكتّاب الصحفيين حين نزعوا عنه ملابسه وتركوه وحيدا عاريا فى الخلاء، وتذكرت حوادث السطو المسلح والخطف والقتل والإستدراج التى أقراها فى الصحف كل يوم، وزاد من مخاوفى عدم معرفتى بمن دعانى لهذا العمل الغريب زمان ومكانا، وفكرت أكثر من مرة فى الإعتذار واعتبرت ذلك مخاطرة غير محسوبة ولكننى وضعت فى الإعتبار أن تكون مخاوفى هذه لا أساس لها من الصحة وأن يكون ذلك فعلا برنامجا حقيقيا وأنا أعرف كم يكلف الإعداد له من جهد ومال وفكر، إضافة إلى حماسى للإقتراب من هذه الفئة المنبوذة والمظلومة من أهل مصر والتى استوى عندها الموت بالحياة التعسة فقرروا الذهاب للمقابر قبل الأوان.

وبينما أنا أشق طريقى فى شوارع وسط القاهرة مرورا بمناطق الحسين والأزهر العامرة فى ليالى رمضان أحسست بالفرق الكبير بين ما أنا فيه الآن وما أنا مقدم عليه من مخاطر مجهولة (ربما تصل إلى الموت) بعد لحظات قصيرة، وبدأت أصحح نيتى كالعادة وأدعو الله أن يوفقنى لقول الخير وفعل الخير لعباده، وبعد عبورى للنفق فى نهاية شارع الأزهر دخلت إلى منطقة المقابر وبدأت أنتقل إلى عالم آخر مختلف تماما، ولم أجد أحد فى الإنتظار فاتصلت بمحدثى فطلب منى التوغل فى المقابر إلى أن أصل إلى قهوة «......».

وحاولت أن أجد أحدا أسأله دون جدوى، فمن النادر هنا أن تجد أحدا يمشى، وبعد وقت وجدت قهوة صغيرة فسألت صاحبها وعرفت أنها القهوة المقصودة وفكرت أن أجلس فيها لحين قدوم محدثى ولكننى ترددت حتى لا أضطر أن أشرب فيها شيئا لا أعرف طبيعته أو مكوناته فأنا أريد أن أظل مستيقظا فى هذه الظروف الغريبة، كما أن هذه

القهاوى المعزولة غالبا ما تحيط بها الشبهات أو تداهمها الحملات، فظللت فى سيارتى لبعض الوقت أنتظر وأنا ألمح صاحب القهوة فى المرآة ينظر إلى السيارة بشك يخالطه غضب. وبعد لحظات وصل اثنان من الشباب قادمين من أحد الحوارى الضيقة بين المقابر وسلما علىّ وركبا معى فى السيارة (أحدهما بجانبى والثانى من خلفى)

وطلبا منى الدخول فى تلك الحوارى واكتشفت أننى لا أعرف أحدا منهما فزاد هذا من توجسى وصرت ألوم نفسى على أننى بعد كل هذا العمر ما زلت أرتكب حماقات من هذا النوع فلم أطلب قدوم سيارة معلومة المصدر تأخذنى من مكان معلوم كما يحدث فى مثل هذه الأمور دائما. ثم قطع أحدهما تفكيرى وطلب منى التوقف والنزول من السيارة، ونزلت فلم أجد فى المكان ما يدل على وجود فريق عمل باستثناء شخصين آخرين وجدتهما واقفين ولا توجد سيارات أو معدات تصوير وازدادت الإحتمالات السيئة رجحانا، وسبقنى أحد الشباب وتبعنى أحدهما وبدأنا الدخول فى المقابر فى طرق ملتوية ومظلمة لا نكاد نرى إلا شواهد القبور وفى بعض الأحيان كنت أرى أحد الشواهد تتحرك وحين نقترب أكتشف أنه رجل واقف فى الظلام، أو أجد شيئا صغيرا يتدحرج أمامى فأكتشف أنه طفل أو طفلة أو كلب أو قطة لا أدرى على وجه التحديد، أو أرى صخرة سوداء تتحرك وحين أقترب أكثر أكتشف أنها امرأة أو شيئا نحو ذلك، وهناك شئ مشترك يجمع بين كل ذلك ألا وهو الصمت، ومن كثرة انحناءات الطريق وتعقيداته أصبحت متأكدا من استحالة العودة بمفردى إلى حيث تركت السيارة. والعجيب أننى رغم تفكيرى العقلى فى كل الإحتمالات الخطرة لم أشعر بخوف حقيقى على مستوى المشاعر، وربما يكون ذلك راجعا إلى مهنتى التى تعودت فيها على المفاجآت وغرائب الأحوال والأمور فكثيرا ما تعرضت لمواقف حرجة حين أذهب للكشف على مريض خاصة فى بيته.

ففى مرة احتجزنى أحد المرضى ذوى الشكوك المرضية وأغلق باب الغرفة من الداخل وليس بها إلا أنا وهو واعتبرنى جزءا من المؤامرة التى يعتقد فى وجودها وهددنى

بالقتل إن لم أخبره عن بقية أفراد العصابة التى تخطط لسرقته وقتله، ومرة أخرى دعيت لعلاج مريضة فى بيت أهلها فاكتشفت أنها طبيبة زميلة فى إحدى أقسام المستشفى الجامعى الذى أعمل به وهى تقف فى المطبخ ممسكة بسكين طويلة تلوح بها نحو رقبتى، وقصص أخرى كثيرة من هذا النوع جعلتنى أتوقع من البشر (كلهم) أى شئ دون استغراب أو مفاجأة.

وبعد رحلة طويلة وشاقة فى سراديب موحشة شاهدت من بعيد أضواءا خافتة وسمعت أصواتا مبهمة، وحين اقتربت أكثر وجدت كاميرات تصور ولكن المخرج يحاول التحكم فى درجة الإضاءة وألوانها حتى تعطى الجو الأسطورى والمخيف لهذا المكان الذى هو بطبيعته ليس بحاجة إلى أى تقنيات فنية.

عندئذ اتصلت ببيتى أطمئنهم حيث كانوا فى غاية القلق والضيق من تهورى (المعتاد لديهم ولكن هذه المرة كان متجاوزا للحدود المقبولة). وقبل التصوير وبعده دارت أحاديث مع من رأيتهم من ساكنى هذه القبور، كنت أسألهم أسألة تبدو لهم ساذجة ولكنها بالنسبة لى مهمة:

* منذ متى وأنتم فى هذا المكان؟

– لا نذكر ربما منذ خمسين سنة أو يزيد

* هل فكرتم فى الإنتقال إلى خارج المقابر لو أتيحت لكم الفرصة؟

– كيف ولماذا؟!!!!!!!

* بماذا تشعرون وأنتم بين الموتى فى هذا الصمت والظلام طيلة حياتكم؟

-؟؟؟!!!!

* هل توجد لديكم دورات مياه؟

– فى الأغلب لا... وإن وجدت فهى مجرد حفر تمتلئ ثم ننزحها بعد ذلك

* هل تخافون؟؟

- أتظننا لسنا بشرا؟؟!!

* كيف تشعرون بالسعادة وأنتم فى هذا الجو؟؟!!!

-؟؟؟؟!!!!!!!!!!!!!

* هل زاركم أحد المسئولين؟

-.......................

* هل اهتمت بكم الهيئات الدولية المهمومة بأطفال الشوارع والمرأة وحقوق الإنسان؟

-؟؟؟؟؟؟!!!!!!!!!!!!!!!

* (مازحا ومحاولا الخروج من هذا الجو الكئيب ومن جفاف أسئلتى وفرط فضولى) قل لى يا عم رشوان كيف قضيت ليلة زفافك هنا وماذا فعلت؟؟؟!!!!

- (متنهدا وسارحا بعينيه فى أسى) لا تذكرنى.... قضت زوجتى عدة أيام تبكى ولم تكن تتخيل أنها ستستطيع العيش فى المقابر حيث كانت تعيش قبل ذلك فى شبرا الخيمة فى غرفة واحدة مع خمسة من أخواتها وأمه وأبيها ولم تتعود على جو المقابر الهادئ إلا بعد شهور وكادت تطلب الطلاق... ومع هذا فهى الآن تفضل هذا المكان على بيتهم بعد أن زاد الزحام هناك

* هل ترون أشباحا أو خيلات أو عفاريت؟؟

- كثيرا لدرجة أننا تعودنا عليها نحن وأبناءنا وأصبحت جزءا من حياتنا، ولكننا تعلمنا أن لا نخاف منها فالجنى لا يحب المواجهة فبمجرد رؤيتك له يختفى فجأة لأنه فى حالة تشكله فى صورة إنسان أو حيوان يصبح قابلا للقتل أو الضرب وهو يخشى ذلك، هذا ما سمعناه من فضيلة الشيخ الشعراوى، وما سمعناه من أبائنا من قبل ونعلمه لأولادنا.

* هل تشعرون بالغضب من المجتمع الذى ألجأكم إلى هذه الأماكن تعيشون فيها؟؟!!!

- أحيانا...وهنا تدخل ابنه الطالب الجامعى قائلا: مصر هى البلد الوحيد الذى يعيش عدد كبير من أهله فى المقابر

* هل فكرتم فى الشكوى أو التقدم بطلبات للمحافظة للحصول على شقق فى المجتمعات الجديدة ومشروعات الإسكان العديدة؟؟؟

- (نظر إلىّ نظرة لم أفهم معناها)

* هل تشاركون فى الإنتخابات بأصواتكم؟

- دعنا من السياسة نريد أن نعيش ونربى أولادنا..... وهنا تدخلت زوجته: طب بس يا ريت يريحونا من التفتيش كل شوية مرة عن الإرهابيين ومرة عن المخدرات واحنا لا لينا دعوه بدول أو دول، إحنا عايزين ناكل لقمتنا بالحلال وننام فى فرشتنا آخر النهار

* كيف تتوزعون فى المقبرة أثناء نومكم؟؟؟

- نفرش للأولاد والبنات فوق المدافن وأنام أنا وزوجتى وطفلتنا الصغيرة على الأرض

* كم عدد الأولاد الذين ينامون معكم؟؟؟

- ثمانية

* فى غرفة واحدة؟

- تقصد حوش

* وكيف ت............؟؟؟

- ربك بيسهل ويستر وآدى احنا عايشين كده بقالنا سنين طويله

* هل يلعب أطفالكم ويستمتعون كما يفعل سائر الأطفال فى الدنيا؟؟؟

- هم يجرون فى الحوش بين الميتين

* هل تخافون من الأموات؟؟؟

- هم أطيب كثيرا من الأحياء

* هل تخافون العفاريت؟؟؟

- هم أرحم علينا من البشر... خمسون سنة وأنا أعيش هنا لم يؤذنى أحد منهم، أقصى ما يحدث أن أرى أحدهم يتحرك بجانبى بسرعة ثم يختفى، أو أرى قططا أو كلابا سوداء تملأ المكان على غير العادة ثم تختفى، وحتى أطفالنا يلعبون مع هذه القطط والكلاب ويكتشفون بعد لحظات اختفائها، وكثيرا ما نسمع أصواتا فى المكان ولا نرى أحدا، ولكن لم يمسنا منهم أذى، وربما لا تصدقنى إن قلت لك أننى أصبحت أكثر خوفا من الناس فقد أصبحوا وحوشا.

* كيف تقضون العيد؟؟؟

المقابر تكون عامرة بخيرات الله والناس فى العيد هنا أكثر من أى مكان آخر، والعيد بالنسبة لنا موسم

* كيف تفكرون فى الموت؟؟؟؟

- الموت راحه

* هل تفكرون فى المستقبل؟

- المستقبل بيد الله

* هل تحلمون؟

- رد مازحا ومنبها لى أننى زودتها: الحلم من غير سبب قلة أدب

* (لم أرتدع وأكملت مشوارى فى الأسئلة فأنا أشعر بأنها فرصة لا تعوض للغوص فى أعماق نوع مختلف من البشر يدفعنى فضولى المهنى لمعرفة تركيبتهم النفسية): هل تشاهدون التليفزيون؟؟؟

- أحيانا نذهب للحوش الكائن على رأس الشارع فيه تليفزيون ودش... ولكننى

أستمتع أكثر بالراديو أفتح على إذاعة القرآن الكريم وإذاعة لندن... دول ما بيكذبوش

مازال فى رأسى آلاف الأسئلة والإستفسارات، وفى نفسى شعور بالذنب تجاه تلك المخلوقات التى شاركنا بسكوتنا على وصولها إلى هذا الحال.

وحين انتهينا من التصوير رافقنى أحد الشباب ليدلنى على طريق الخروج، وحاولت التقاط بعض الصور بكاميرا المحمول من هذا العالم الغريب ولكن الظلام حال بين تسجيلها بوضوح، وطلب منى مرافقى أن انطلق بالسيارة ولا أتوقف لأحد حتى لا أتعرض لمشكلات فالمكان هنا غير آمن، وفهمت ذلك ولكن فضولى جعلنى أتوقف فى طريق عودتى أمام الكثير من الآماكن للإحتفاظ بها فى ذاكرتى ولتخيل حياة قاطنيها، وكانت كاميرات خيالى تنتقل فجأة إلى حيث حياة الترف والبذخ فى الفنادق والقصور وإلى الفيلا ذات الستة ملايين دولار التى أهداها رجل أعمال مصرى لمطربة لبنانية شابة فى أحد منتجعاته السياحية، وتلك الإحتفاليات الأسطورية التى نشهدها على شاشات التليفزيون ، وبعد لحظات وجدتنى خارج المقابر ولكن صورها وصور ساكنيها لم تبرح خيالى حتى الآن ولا أظن ذلك سيحدث فى المستقبل القريب، وفكرت أن أحمل هذه الرسالة وأذهب بها إلى الوالى ، ولكن شيئا غامضا منعنى.

***

رؤية تحليلية
لظاهرة العنف فى المجتمع المصرى

هل المجتمع المصرى فى أزمة؟

نعم فالملاحظ والمعايش لهذا المجتمع يدرك ذلك بسهولة بمجرد الخروج إلى الشارع والنظر فى وجوه الناس فسيدرك كم هم متأزمين ومتعبين وغاضبين، وتتضح الصورة أكثر إذا كان هذا الملاحظ يقارن وجوه الناس وأحوالهم بفترات سابقة، كانت الشخصية المصرية فيها تتسم بالطيبة والمرح والتفاؤل والإيثار، أما الآن فالصورة مختلفة كثيرا حيث حلت القسوة والكآبة والتشاؤم والأنانية والإنتهازية والفهلوة والرغبة فى الكسب السريع بأى شكل من الأشكال.

وتتضح الصورة أكثر لمن يسافر خارج مصر إلى أى بلد عربى أو أوروبى ثم يعود، فسيلاحظ الفرق شاسعا بين نوعية الحياة المصرية ونوعية الحياة خارج مصر، وبين حالة المواطن المصرى وغيره من المواطنين.

وإذا تجاوزنا الملاحظة الميدانية، وفتحنا الصحف أو الراديو أو التليفزيون فسوف يذهلنا استخدام كلمة «أزمة» فى كل الأحاديث والمقالات أو على الأقل معظمها، فترى الحديث عن الأزمة السياسية، والأزمة الإقتصادية، والأزمات الإجتماعية، والأزمة الثقافية، وأزمة السينما، وأزمة المسرح، وأزمة الضمير، وأزمة المؤسسات الدينية، وأزمة الفتنة الطائفية، وأزمة الفكر الدينى، وأزمة الرياضة، وأزمة الشباب، وأزمة البطالة، وكأننا مجتمع يسبح فى بحر من الأزمات.

والسؤال الآن لماذا وصلنا إلى هذه الحالة الإستثنائية من الأزمات والتى تجاوزت – كما وكيفا - الحدود المقبولة للأزمات فى المجتمعات البشرية وأصبحت تهدد أمننا واستقرارنا وإحساسنا الطبيعى بالحياة؟

السبب وراء ذلك هو تراكم المشكلات يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام دون وجود حلول علمية وعملية (حقيقية) لها، والإكتفاء بالحلول الشكلية أو الإعلامية أو الوهمية أو الفهلوية دون الدخول إلى جوهر المشكلات. فتراكم المشكلات دون حل حقيقى يؤدى إلى حالة من التأزم، وتراكم الأزمات دون حل حقيقى يؤدى إلى شعور متزايد بالإحباط، والذى يؤدى بدوره إلى تراكم شحنات الغضب والتى تظل كامنة إلى أن تصل إلى مستوى معين فيحدث الإنفجار فى ظروف مهيئة وضاغطة (وما أكثرها فى حالة المجتمع المصرى) فى صورة أعمال عنف ظاهرة، أو تتحول تلك الشحنات إلى غضب مزمن ومكتوم يؤدى إلى حالة من العدوان السلبى يظهر على شكل لامبالاة، كسل، تراخى، بلادة، عدم انتماء، عدم اتقان،.... الخ.

أما إذا أردنا معرفة أبعاد الأزمة بصورة إحصائية دقيقة فيكفى أن نرجع لإحصاءات المركز القومى للبحوث وغيره من الجهات البحثية، وسوف تصدمنا إحصاءات العنوسة (٩ مليون عانس)، نسب الطلاق (٢٦٪)، وأعداد الشباب العاطلين (حوالى ١٢ مليون)، ومعدلات الجريمة، والعنف الأسرى، والمخدرات، وغيرها.

إذن فنحن فى أزمة حقيقية ولا يجوز أن نهون منها، أو نمالئ أو نداهن لأن ذلك يزيد من حدة الأزمة ويجعلها أكثر خطورة وربما تصل إلى مرحلة اللاعودة فى وقت من الأوقات، إذا استمرت عمليات التغطية ودفن الرأس فى الرمال، وإذا استمرت الحلول القائمة على الخداع والفهلوة، والشكل دون المضمون، وهذه أمراض أخرى تفشت فى مجتمعنا فى السنوات الأخيرة.

هل هناك ظاهرة عنف فى المجتمع المصرى؟...
وهل هى آخذة فى الزيادة أم فى النقصان؟

والإجابة: نعم، توجد ظاهرة عنف مقلقة جدا فى المجتمع المصرى، وهى فى تنامى مستمر كما وكيفا. ونحن نطلق عليها ظاهرة لأنها أصبحت تتكرر بشكل ملفت للنظر ومؤثر فى حياتنا كشعب على كل المستويات، فهى قد تجاوزت أحداث العنف الإستثنائية

الموجودة والمتوقعة فى كل المجتمعات البشرية من لدن آدم حتى اليوم، وهذه الظاهرة قد دخلت مرحلة الخطر الحقيقى، فمنذ السبعينيات ونحن نعيش هذه الظاهرة والتى نضرب لها بعض الأمثلة فقط للتذكير والتنبيه:

أحداث العنف فى أسيوط على يد الجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد، أحداث العنف الطائفى فى الصعيد والوجه البحرى (الزاوية الحمراء، لكشح،الإسكندرية،...،.........، ....، ....)، وحادث المنصة الذى أودى بحياة أنور السادات، محاولات الإغتيال السياسى المتكرة (الصحفى مكرم محمد أحمد، وزير الإعلام صفوت الشريف، وزير الداخلية حسن الألفى، رئيس الوزراء عاطف صدقى، رئيس الجمهورية حسنى مبارك) وحادث الأقصر، وحادث ميدان التحرير، وحادث الأزهر، وحادث ميدان عبدالمنعم رياض، وحادث ميدان السيدة عائشة، ومظاهرات الغضب المتكررة فى الكاتدرائية بالعباسية، والغضب الصامت أو الظاهر على الجانب الآخر، وبين كل هذا مئات من الأحداث العنيفة.

وهذه الزيادة فى الكم والكيف تدل على وجود العديد من عوامل الخطورة الكامنة، والتى تحتاج لحلول حقيقية، وليست حلول إسمية أو شكلية، فقد أصبح فى مصر – للأسف الشديد – خبراء فى إعطاء الشكل دون المضمون، وإعطاء الإسم دون المحتوى، وممارسة خداع الذات والآخر طول الوقت، وهذه كلها جرائم كبرى خاصة فى موضوع كهذا أصبح يهدد أمن واستقرار هذا البلد.

وإذا أضفنا إلى هذه الأحداث الجماعية أحداث العنف الفردى المروعة والمبالغة فى القسوة، مثل الأب الذى قتل بناته الخمسة ونجت منه السادسة لأسباب خارجة عن إرادته، والأم التى قتلت ابنها المدمن حتى تستريح من مشاكله، والعاطلين الذين اغتصبوا فتاة فى ميدان العتبة على مرأى ومسمع من الناس وفى وضح النهار دون أن يتحرك منهم أحد، والطلبة الذين سرقوا شقة زميلهم ثم أشعلوا النار فيه وفى صديقه، كلها أحداث تنبئ عن كم هائل من الغضب المتراكم والخطر.

ومما يؤكد خطورة الموقف ذلك التكرار القريب لأحداث العنف الطائفى بالذات فى الشهور القليلة الأخيرة، فمثلا حادث وفاء قسطنطين تبعه بعد فترة قصيرة حادث مارى عبدالله ثم كنيسة الفيوم ثم حادث كنيسة مارى جرجس بمحرم بك بالإسكندرية، ومن الواضح أن هناك شحنات غضب هائلة قابلة للزيادة والإشتعال، وإنه لمن الخيانة لهذا الوطن أن لا نراها على حقيقتها، أو نركن إلى تماسك نسيج الشعب المصرى عبر العصور، فهذا وهم آخر حيث تغيرت الظروف والحسابات، والمصالح، وأصبحت هناك أطراف محلية وعالمية تدفع بالأمور إلى الحافة بغية إعادة ترتيب المنطقة وفق أولوياتها مستندة فى ذلك إلى الظروف الدولية غير المواتية لمصر والعالم العربى، ومستغلة أطماعا شخصية فى البقاء أو الإستمرار.

أشكال العنف السائد فى مصر:

العنف المباشر:

١- **لفظى**: وهو يتبدى فى استخدام ألفاظ بذيئة أو جارحة فى الشارع المصرى، وعلو الصوت، وحدة النبرة، والصراخ، والصخب، وكلاكسات السيارات بدون داع.

٢- **جسدى**: ويظهر فى الخشونة فى التعامل مع الدفع فى الشوارع ووسائل المواصلات، لكى يصل إلى التشابك بالأيدى لأتفه الأسباب، أو استخدام الأسلحة، واستأجار البلطجية والحراس الشخصيين لرجال الأعمال والفنانين والفنانات بهدف الدفاع أو الإرهاب.

العنف غير المباشر: (العدوان السلبى)

ممثلا فى اللامبالاة ، والتراخى، والكسل، وتعطيل المصالح، والصمت، والسلبية، والإهمال......الخ.

العنف المضاد:

ويتمثل فى عمليات الإعتقال المستمرة للمعارضين، وعمليات التعذيب (حتى الموت

أحيانا)، والإختفاء القصرى لبعض الناس (الصحفى رضا هلال كمثال)، واختطاف المعارضين وضربهم وتركهم عرايا فى الصحراء (عبدالحليم قنديل) وضرب ممثلى القنوات الفضائية خاصة قناة الجزيرة (حادث ضرب المذيع أحمد منصور) والقبض على مراسليها.

ويوضح التقرير الأخير للمنظمة العربية لحقوق الإنسان هذا الموقف (القاهرة ٢٠٠٤) بقوله: «بينما استمر العمل بقانون الطوارئ للعام الثالث والعشرين على التوالى، واستمر التقصير فى مواجهة ظاهرة التعذيب ونقص الرعاية الصحية فى السجون ومراكز الإحتجاز، وسقوط وفيات من جرائها، كما استمرت حملات الإعتقال فى صفوف الإسلاميين مع استمرار الإحتفاظ بقرابة تسعة آلاف منهم قيد الإعتقال (وفقا لأدنى التقديرات)، وكذا استمرار المحاكمات الإستثنائية، ومنع المسيرات السلمية أوتقييدها، ومنع تسجيل جمعيات أهلية ناشطة فى مجال حقوق الإنسان، وتقييد الحق فى التنظيم والنشاط الحزبى،........ وفى مجال الحق فى الحياة، شهد العام استمرار سقوط وفيات بشبهة التعذيب ونقص الرعاية الصحية فى السجون ومراكز الإحتجاز. وتستحق الظاهرة الوقوف أمامها بعناية شديدة، خاصة فى ضوء ما جرى توثيقه خلال السنوات الأربع الأخيرة، والتى بلغت ٤٢ حالة منذ عام ٢٠٠٠، بينها ١٥ حالة خلال الفترة التى يغطيها هذا التقرير، علما بأن المتوفين فيها ليسوا من الناشطين السياسيين الذين عادة ما يتعرضون لأصناف مختلفة من التعذيب......

وقد استمرت قرابة ٣٠ حالة اختفاء قسرى وثقتها تقارير سابقة للمنظمة المصرية لحقوق الإنسان دون إجلاء، فيما شهد العام ٢٠٠٢ أول حكم قضائى بالتعويض ضد وزير الداخلية بصفته بمبلغ ١٠٠٠٠٠ جنيه مصرى فى واقعة اختفاء

«مصطفى محمد عبدالحميد عثمان» عقب القبض عليه فى العام ١٩٨٩ فى أعقاب محاولة اغتيال وزير الداخلية السابق زكى بدر، ولم تتمكن وزارة الداخلية من إجلاء مصيره.

وفى مجال الحق فى المحاكمة العادلة، وعلى الرغم من إلغاء العمل بقانون محاكم أمن

الدولة منذ شهر مايو/ أيار بغرض تسهيل إجراءات التسليم القضائى مع الدول الأجنبية، إلا أن السلطات واصلت العمل بإحالة المدنيين إلى المحاكم العسكرية، ومحاكم أمن الدولة «طوارئ» المؤسسة على قانون الطوارئ.

وما يهمنا هنا هو التأثير النفسى لهذا العنف المضاد والذى يولد حالة من الكراهية للجهاز الأمنى ويخلق نوعا من الثأر المتبادل والمستمر بينه وبين المواطنين الذين يتعرضون لهذه الممارسات المؤسفة وغير الشرعية، ليسوا هم فقط بل وذويهم أيضا.

أما أولئك المطلوبين الذين يطاردهم الجهاز لأمنى، فلمعرفتهم بمصيرهم الغامض والمظلم الذى سيواجهونه فى حالة القبض عليهم (بعيدا عن أعين الشرعية)، فإنهم يمارسون أكبر قدر من العنف الإنتحارى فى حالة تعرضهم لخطر القبض عليهم لأن الموت – فى نظرهم – أهون من التعرض للتعذيب حتى الموت، وهذا يسقط القانون ويسقط الشرعية فى العلاقة بين الجهاز الأمنى والمواطنين عموما ويجعلهم ينظرون إليه بريبة ولا يبدون أى نوع من الألفة تجاهه، وبالتالى لا يتوقع تعاونهم معه فى تعقب المجرمين أو الخارجين عن القانون.

وهذه العلاقة السلبية بين الجهاز الأمنى وبين المواطنين تتبدى فى أوضح صورها فى استمرار العمل بقانون الطوارئ طوال ربع قرن، وهذا دليل على عدم الثقة المتبادل بين السلطة والشعب. وهذا القانون لم يمنع العنف فى مصر بل زاده، وقتل نبض الشارع المصرى، وكتم أنفاس المعارضين وغير المعارضين، وأعطى إحساسا وهميا بالسيطرة والإستقرار يسبح فوق بحر هائج ملئ باحتمالات الغضب والإنفجار.

أسباب العنف فى المجتمع المصرى:

١– أسباب نفسية:

– الإحباط: وهو أهم عامل منفرد يؤدى إلى العنف، ولدى الشعب المصرى كم هائل من الإحباط على مستويات متعددة نذكرها فى موضعها لاحقا

- التلوث السمعى والبصرى والأخلاقى: والمتمثل فى الضوضاء والصخب والقاذورات والأخلاقيات المتدنية فى الشوارع والميادين والدواوين مما يخالف الطبيعة الهادئة والنقية التى اعتادها الشعب المصرى فى مراحل سابقة من تاريخه

- الإحساس المؤلم بالدونية لدى المصرى داخل وخارج بلده، فالمصرى يشعر أنه مواطن من الدرجة الثانية سواء فى بلده أو خارجها، ويتأكد لديه هذا الإحساس كلما ذهب إلى قسم شرطة أو سفارة أو أى جهة رسمية فى الداخل والخارج، فهو بلا حقوق وبلا كرامة، ولا يدافع عنه أحد، وفى نفس الوقت يرى المواطنين من الجنسيات الأخرى سواء كانوا عربا أو أجانب يحظون بالرعاية والحماية والإحترام

- فقدان الأمل فى المستقبل على كل المستويات السياسية والإقتصادية والإجتماعية خاصة لدى طبقة الشباب الذين قضوا سنوات طويلة فى التعليم وأرهقوا أهلهم فى الدروس الخصوصية ثم اكتشفوا أنهم يحملون ورقة (شهادة) لا قيمة لها وأنهم لن يجدوا فرصة للعمل بها، وحتى لو وجدوا فستكون أعمالا دونية لا تتفق مع مستوياتهم الإجتماعية أو العلمية

- انسداد قنوات التعبير، وانسداد مسارات الحوار، وشيوع ألوان من الحوار السلبى مثل: حوار الطريق المسدود (لا داعى للحوار فلن نتفق)، وحوار الطرشان (قل ما تشاء فلن أسمعك)، والحوار السلطوى (اسمع واستجب)، والحوار الإلغائى أو التسفيهى (كل ما عداى خطأ)، والحوار المعاكس (عكسك على طول الخط)، وحوار العدوان السلبى (صمت العناد والتجاهل)، والحوار العدمى التعجيزى، وحوار المناورة (الكر والفر)، والحوار المزدوج، والحوار السطحى، وحوار البرج العاجى، والحوار المداهن (معك على طول الخط ورهن إشارتك وتحت أمرك)، والحوار الفهلوى (نفهمها وهى طايره، احنا اللى دهنا الهوا دوكو، احنا اللى خرمنا التعريفه و احنا اللى مشينا النمل طوابير، كله

تمام يا سعادة الباشا،......)

- انسداد قنوات التغيير السلمى والشرعى مما يؤدى إلى علاقة ملتبسة بين المواطن والسلطة، فهو يراها سلطة مستبدة يحمل تجاهها مشاعر الرفض والغضب وفى نفس الوقت يداهنها ويخشاها، وشيئا فشيئا تحدث تشوهات فى شخصية المواطن فإما أن ينفجر غضبه فى أعمال عنف تجاه السلطة ورموزها، أو يزيح هذا الغضب تجاه غيره من المواطنين فيقهرهم ويعذبهم، أو تجاه زوجته وأبنائه فيحيل حياتهم جحيما، أو يحول غضبه إلى عدوان سلبى يظهر فى صورة عناد وسلبية ولامبالاة وكسل وتراخ، أو يتحول إلى فهلوى وسيكوباتى يلاعب السلطة ويخادعها ويستفيد من سلبياتها ويتعايش معها. أما السلطة فإنها تنظر إلى المواطن بتوجس وحذر وترى فيه مخادعا أو متآمرا وبالتالى تحتاج لقانون طوارئ يحكمه ويتحكم فى نواياه الخبيثة (فى نظرها) التى لاتكفيها القوانين العادية، فهو فى نظر السلطة ماكر ومخادع ويمكنه الإحتيال على القوانين واستغلال ثغراتها

٢- أسباب سياسية:

*** داخلية:**

- الجمود السياسى والذى أصبح سمة واضحة منذ سنوات عديدة، ذلك الجمود الذى أصبح عاجزا عن استيعاب حركة المجتمع وأصبح عائقا أمام النمو الطبيعى للحياة، فهناك فجوة هائلة بين حركة الحياة والحركة السياسية، وهذه الفجوة تتسع يوما بعد يوم وتهدد دائما باحتمالات خطرة، ولا يجدى فى الوقت الحالى تلك المحاولات السطحية والمترددة للتغيير الشكلى دون الجوهر والمضمون.

- الصمم السياسى: وهو عدم الإستماع للأصوات الأخرى المنادية بالإصلاح أو التغيير رغم علو نبرة هذه الأصوات ووصولها إلى مرحلة التجاوز

- العناد السلطوى وعدم الإستجابة للمطالب الشعبية
- القهر السلطوى لكافة ألوان المعارضة (باستثناء المستأنس والمنتفع منها) مما يدفع إلى العمل السرى والتنظيمات التحتية
- انتشار الفساد بشكل وبائى ومستفز ومتجاوز لما هو مقبول فى المجتمعات البشرية و مع ضعف المحولات للسيطرة عليه بما يوحى بقبوله أو التورط فيه على كافة المستويات
- البيروقراطية الحكومية، وما تؤدى إليه من معاناة وعذابات يومية يعيشها المواطن المصرى بحثا عن حقوقه (صور هذا الموقف فى شكل كوميدى فيلم الإرهاب والكباب)
- الإحساس بالظلم لدى قطاعات عريضة من الناس مع عدم وجود آلية شرعية لدفع هذا الظلم نظرا لما سبق الحديث عنه من الجمود والصمم والعناد والفساد على كل المستويات
- التحايل والمناورة والإلتفاف على الضغوط الداخلية والخارجية المطالبة بالإصلاح الحقيقى، مع التظاهر بالإستجابة من خلال عمليات شكلية مفرغة من أى مضمون حقيقى، بما يعطى إحساسا باليأس من التغيير السلمى ويفتح الباب أمام مخططات العنف بهدف تعتعة هذا الجمود والعناد السلطوى القاهر
- غياب الديموقراطية الحقيقية والإكتفاء بأشكال هشة وخادعة للديموقراطية تكرس للأمر الواقع وتخفى تحتها وجها قبيحا للإستبداد. ونظرا لأن الشعوب ومن بينها الشعب المصرى أصبحت ترى ثمار الديموقراطية الحقيقية فى الدول المتقدمة (وحتى نصف المتقدمة) عبر القنوات الفضائية، لذلك أصبح غياب الديموقراطية عن أى شعب عملا مستفزا ينبئ بمخاطر جمة، فلم تعد المجتمعات مغلقة كالسابق، ولم يعد خداعها ممكنا فى وجود السماوات المفتوحة وقنوات

الإتصال الهائلة، ومن يعتقد أنه قادر فى مثل هذه الظروف على الإستمرار فى الخداع والمناورة وكسب الوقت والإبقاء على الأوضاع كما هى فهو يعيش وهما يؤدى إن آجلا أو عاجلا إلى أوضاع مأساوية تأتى على الأخضر واليابس

* **خارجية:**

- جرح الكرامة الإسلامية والعربية والمصرية من خلال القهر العالمى والأمريكى والإسرائيلى من خلال احتلال فلسطين وأفغانستان والعراق، وإذلال ليبيا، والتمهيد لاحتلال السودان وسوريا وربما مصر، مع صمت واستسلام وتخاذل رسمى تجاه كل هذا.

- زيادة التبعية للغرب بوجه عام ولأمريكا بوجه خاص، مما يثير الحفيظة وربما الغضب تجاه التابع والمتبوع على السواء

- القهر الخارجى وما صاحبه من تجاوز الشرعية الدولية بواسطة القوة الأمريكية الباطشة والغاشمة، مما يعطى تبريرا للبعض بتجاوز مماثل لكل أنواع الشرعية دفاعا عن الذات، ودفعا للإحساس المؤلم بالظلم

٣ - أسباب اجتماعية:

- تقلص المساحة الحضارية بسبب الزحام وسوء التوزيع والإختناقات المرورية وتفشى العشوائيات: ومفهوم المساحة الحضارية لدى علماء الإجتماع يعنى تلك المساحة المتاحة للفرد كى يتحرك فيها بحرية، ومن خلال التجارب العملية وجد أنه كلما ضاقت هذه المساحة كلما زادت دفعات العنف لدى الأفراد

- شيوع وغلبة عدد كبير من القيم السلبية مثل الفهلوة والإنتهازية والنصب والإحتيال والكذب ومحاولة الكسب السريع بغير جهد أو بأقل جهد، والرشوة والمحسوبية، والظلم الإجتماعى

- سفر عدد كبير من الآباء للعمل فى الخارج مما أدى إلى خلل فى الضبط الأسرى وفى التركيبة الإجتماعية

٤ - أسباب دينية وطائفية:

* تنامى الفكر الدينى الإستقطابى الذى يكفر الآخر أو يفسقه أو يلغيه ويستبعده

* تنامى النزعات الطائفية فى غياب الإنتماء الوطنى العام وضعف الحكومة والأحزاب السياسية (اتجه الأقباط إلى الكنيسة والبابا، واتجه المسلمون إلى الجماعات الدينية وأمرائها ومرشديها)

* ضعف التربية فى المدارس وانتقالها إلى الكنائس المغلقة والمساجد المنزوية والغرف المغلقة، وجارى الشحن والتسخين حتى إشعار آخر

* محاولات خارجية لتسخين الأجواء وتهيئتها لفتنة طائفية أكبر

* انشغال السلطة بجنى مكاسبها الشخصية والحفاظ على الكراسى (بالتديد أو التوريث)، وأحيانا اللعب بالورقة الطائفية لشد الأذن أو الضغط أو التحجيم أو التأديب و وهذه كلها ألعاب شديدة الخطورة على الوحدة الوطنية والأمن القومى

* التغطية والتمويه والإلتفاف على المشكلات الطائفية القائمة بمزيد من الأحضان والقبلات التليفزيونية بين القيادات الدينية الرسمية، والدعوات الرمضانية و وادعاءات الإستقرار الزائفة، كل هذا يشكل خطورة كبيرة لأنه يحول دون رؤية أوضاع تتزايد حدتها يوما بعد يوم، ويمكن أن تفلت وتخرج عن السيطرة فى أى لحظة ومع أى تسخين خارجى أو داخلى، وهناك الكثير من الإرهاصات المتصاعدة والتى تؤكد هذه الإحتمالات المرعبة

* الإرتكان إلى عمق العلاقة التاريخية بين المواطنين المصريين مسلمين وأقباط، مع عدم الإنتباه إلى التغيرات الداخلية والخارجية التى ربما تغير الصورة وتدفع إلى مزيد من اليقظة والحذر واتخاذ التدابير الحقيقية لاستعادة سلامة النسيج الوطنى الذى كان معروفا

لدى المجتمع المصرى

* إزاحة الكثير من الغضب الموجه تجاه السلطة نحو موضوعات طائفية ودينية بهدف الإحراج أو الإنتقام أو الزحزحة أو التنفيس اليائس

٥- أسباب أمنية:

* الإكتفاء بالضبط الأمنى (دون السياسى والإجتماعى والإقتصادى) مما أدى إلى حالة من الصراع والثأر تتزايد عنفا يوما بعد يوم

* تضخم المؤسستين العسكرية والشرطية على حساب المؤسسات المدنية مما أعطى إيحاءا بعسكرة الحياة المصرية وعسكرة الصراع مع المختلفين والمعارضين وبالتالى سيطرة الحلول العنيفة ولغة القوة (بدلا من الحوار والتفاهم السياسى والمدنى) لمواجهة هذا الطغيان العسكرى الذى لا يعرف – غالبا – لغة الحوار المدنى و وإذا عرفها لايستجيب لها، بل إنه غالبا يقف معاندا ومتعاليا على المطالب والمقترحات المدنية. أى أننا أمام ظاهرة يمكن تسميتها «عسكرة الحوار»، سببها تضخم المؤسسات العسكرية وشبه العسكرية، والمقصود بالأخيرة هو هذا العدد الهائل من أصحاب المناصب القيادية العسكرية على رأس المؤسسات المدنية بعد خروجهم من الخدمة العسكرية أو إحالتهم إلى المعاش، وهؤلاء وإن كان يفترض فيهم قدرتهم على الضبط والربط والحزم والحسم والإنضباط (بما لديهم من خلفية عسكرية)،إلا أنهم تنقصهم الحنكة والمرونة والتفهم لمتطلبات الحياة المدنية بتشابكاتها وتعقيداتها.

* العلاقة المشوبة بالخوف والحذر وأحيانا الكراهية بين السلطة الأمنية والمواطن، وذلك بناءا على خبرات سلبية متراكمة فى تعامله مع هذه السلطة مما يجعله يحجم عن التعامل معها أو حتى الإحتكاك بها بأى صورة، وتصبح كل أمنيته اكتفاء شرها. وقد ساهم فى ذلك قانون الطوارئ الذى استمر سنوات طويلة وأعطى سلطات استثنائية للسلطة الأمنية أدت فى كثير من الأحيان إلى تجاوزات قانونية وإلى انتهاكات لحقوق

الإنسان سجلتها تقارير المنظمات المحلية والدولية. ونظرا لقسوة وبطش الحملات الأمنية على المعارضين أو المخالفين أو المتهمين فقد يلجأ بعضهم إلى العنف الإنتحارى فى مواجهة تلك الحملات، وكأنه يفضل الموت على الوقوع فى أيدى السلطة الأمنية التى يعرف أنها ستتجاوز كل الحدود القانونية والإنسانية فى تعاملها معه، يؤدى هذا أيضا إلى القيام بأعمال عنف ثأرية مروعة (كما حدث فى حادثى الأقصر وشرم الشيخ)

الوقاية والعلاج:

لابد وأن نعترف بأن مواجهة ظاهرة العنف هى واجبنا جميعا بلا استثناء لأن الظاهرة تحرق الجميع بلا تفرقة، وتعطى صورة سيئة عنا فى الداخل والخارج، لذلك يجب أن نكف عن اتهام بعضنا البعض وإسقاط المشكلة على الآخرين أو إلقاء التبعة عليهم وانتظار الحل منهم. ومن المهم أن نعترف بأننا أصبحنا فى نظر العالم بيئة مصدرة للعنف والإرهاب، وأننا بالتالى نحتاج كمجتمع للتأهيل النفسى والإجتماعى والسياسى والدينى، وأن العالم الآن يفكر (بحسن نية أو بسوء نية) كيف يتم هذا التأهيل، فكأننا أصبحنا نمثل أحد عشوائيات العالم التى تحتاج للعلاج والتأهيل بعد أن كنا أرض الحضارة ومهبط الديانات.

مبادئ عامة فى الوقاية والعلاج:

١) **توجيه العناية نحو الفئات الهشة** (الأكثر قابلية لاستثارة العنف) للتعرف على مثيرات العنف لديها ومحاولة خفض هذه المثيرات.

٢) **دراسة حالات العنف دراسة علمية مستفيضة لاستكشاف** الجوانب العضوية والنفسية والاجتماعية التي تحتاج إلى علاج.

٣) **الحوار الصحي الإيجابي** لإعطاء الفرصة لكل الفئات للتعبير عن نفسها بشكل منظم وآمن يقلل من فرص اللجوء إلى العنف.

٤) **التدريب على المهارات الاجتماعية**، حيث وجد أن الأشخاص ذوي الميول نحو

العنف لديهم مشكلات كثيرة في التواصل والتفاعل الاجتماعي مما يضعهم في كثير من الأحيان في مواجهات حادة وخطرة مع من يتعاملون معهم، وهذا يستثير العنف لديهم. لذلك فإن برنامجاً للتدريب على المهارات الاجتماعية كمهارة التواصل ومهارة تحمل الإحباط وغيرها. يمكن أن يؤدي إلى خفض الميول العدوانية لدى هؤلاء الأشخاص.

٥) **العقاب**: أحياناً يؤدي العقاب المناسب (خاصة إذا كان قريباً من الفعل العنيف زمنيا) إلى تقليل حدة وتكرار السلوكيات العنيفة من خلال الارتباط الشرطي بين العنف والعقاب. ولكن إذا كانت هناك فترة زمنية طويلة بين الفعل العنيف وبين توقيع العقوبة، أو كان العقاب غير متناسب مع الفعل العنيف فإن العقاب ربما يؤدي إلى نتيجة عكسية فيزيد من احتمالات زيادة العنف، وهذا ملاحظ في الحالات التي تتعرض للإيذاء الجسدي والنفسي العنيف حيث يصبحون أكثر ميلاً نحو العنف، بل ويزداد عنفهم خطورة.

٦) **الاستجابات المغايرة**: وهذه الطريقة تقوم على مواجهة السلوك العنيف بسلوك مغاير تماما يؤدي إلى إيقاف العنف والتقليل من معاودته. وكمثال على ذلك إذا وجد الشخص ذوي الميول العنيفة أن الشخص المقابل يعامله بحب وتعاطف وشفقة فإن ذلك يقلل من إندفاعاته العنيفة، وهذا مصداق للآية «ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» ومثال آخر: أن تقابل الميول العنيفة بالدعابة من الطرف الآخر، وقد وجد فعلا بالتجربة أن الدعابة والطرافة في المواقف الحادة تقلل من احتمالات العنف. ووجد أيضاً أن إيقاظ الإحساس بالذنب أو الانغماس في نشاط ذهني معرفي، أو التعرض لبعض المثيرات المحببة للشخص، كل هذا يمكن أن يؤدي إلى انخفاض نزعات العنف.

٧) **العلاج الدوائي**: وهذا العلاج يصبح ذو أهمية خاصة في الحالات المرضية

كالاضطرابات العضوية أو النفسية وحتى في غير هذه الحالات وجد أن لبعض الأدوية مثل الليثوم والريسبيريدون وأدوية الصرع أثراً على نزعات العنف.

مسئولية السلطة السياسية:

- البدأ فورا ودون تراخ أو انتظار فى عملية الإصلاح السياسى الحقيقى الذى يؤدى وبسرعة وبلا خوف أو تردد إلى نظام ديموقراط تعددى يستوعب كل ألوان الطيف السياسى والإجتماعى دون نبذ أو وصم أو استبعاد أو إلغاء أيا كانت أسبابه أو مبرراته

- الكف عن اغتصاب السلطة التنفيذية أو التشريعية بالتزوير أو بغيره من المحاولات المكشوفة للجميع، والتى يمكن أن تعصف بكل شئ فى لحظة انفجار لا يعلم مداها أحد

- إلغاء قانون الطوارئ الذى أدى إلى تنامى أحداث العنف بدلا من أن يحد منها، وخلق حالة من الإحتقان الأمنى والسياسى لا مبرر لها

مسئولية السلطة الأمنية:

- الإلتزام الكامل بالقوانين العادية وبحقوق الإنسان فى التعامل مع المواطن

- الإبتعاد عن الصراعات السياسية والطائفية والتعامل مع المصريين جميعا بشكل متعادل وحيادى

- استعادة ثقة المواطن فى أجهزة الأمن وتشجيعه على أن يكون عونا لتلك الأجهزة فى السيطرة على المجموعات الإرهابية والخارجين على القانون

- محاسبة كل من ينتهك حقوق الإنسان من المنتمين إلى جهاز الشرطة

مسئولية وزارة التربية والتعليم:

- استعادة الدور التربوى للوزارة حتى لا يتم هذا الدور فى الأماكن المغلقة وفى التنظيمات السرية، أو لا يتم أصلا.

- تطوير التعليم بالشكل الذى يؤدى إلى انتهاء أزمة الدروس الخصوصية فعلا لا قولا

مسئولية الإعلام:

- إشاعة قيم التسامح والصدق والعدل والرحمة وغيرها من الأخلاقيات
- الكف عن الإستفزاز الإعلامى والإستهلاكى والأخلاقى فى مجتمع فقيرومتدين
- الكف عن الكذب والتضليل والخداع ونفاق الحكام لأن كل ذلك من شأنه فقد الثقة لدى الناس فى التغيير الحقيقى والتعبير الحقيقى بما يفتح احتمالات وخيارات التغيير العنيف
- إعطاء الفرص المتكافئة لكافة الأطياف السياسية والإجتماعية والدينية والثقافية للتعبير عن نفسها بحرية دون حجر أو وصاية أو إلغاء أو استبعاد

مسئولية المؤسسات الدينية:

- محاربة الفكر الدينى الإستقطابى والكف عن اللعب على الوتر الطائفى
- إشاعة قيم المحبة والقبول للآخر المختلف
- عدم الإكتفاء بالقبلات والأحضان التليفزيونية بل الدخول فى عمق المشكلات وحلها بأمانة وموضوعية
- ممارسة الأنشطة التربوية والدينية والثقافية فى جو مفتوح وبعيد عن السرية
- الكف عن الشحن الطائفى بكل الوسائل خاصة لدى الشباب

مسئولية الأسرة:

- رعاية الأبناء واحتوائهم
- إشاعة جو الحوار والتفاهم داخل الأسرة
- تعليم الأبناء قيم الإختلاف ومهارات حل الصراع

ذكرياتى فى حارة الكنيسة

كنت فى طريقى من النصوره إلى مدينة نبروه – مسقط رأسى ومحل ذكريات طفولتى – للكشف على السيدة (س أ) فى حارة الكنيسة، وكانت تنتابنى مشاعر كثيرة، فهذه السيدة تربطنى بها علاقة عميقة حيث أعالجها من أمراض الشيخوخة منذ كنت طبيبا مبتدئا وهى – كما تذكر ويذكر أبناؤها وبناتها – لا تستريح إلا إذا كشفت عليها وأعطيتها أى دواء، وعلى الرغم من ضعف بصرها وسمعها إلا أنها كانت تدرك وصولى إلى غرفتها بشكل خاص وتستقبلنى استقبالا حميما. إضافة إلى ذلك فقد مرت سنوات طويلة لم أزر حارة الكنيسة بسبب إقامتى لسنوات طويلة فى الخارج، وانتقالى فى مصر من مدينة لأخرى بحيث أصبحت زياراتى لبلدتى نادرة، وحين اقتربت من حارة الكنيسة تسارعت ضربات قلبى دون إرادة منى حتى أننى خفت أن يلحظ ذلك الأخ «مينا» مرافقى فى الطريق، وربما يرجع السبب فى ذلك تأثرى الشخصى بموضوع الذكريات وتعلقى بالأماكن بشكل ربما يفوق تعلقى بالأشخاص، وأن طفولتى وجزء من صباى قضيتهما فى منزل العائلة الواقع بين حى الشيخ عبيد (أقدم أحياء مدينة نبروه) وحارة الكنيسة، وقد شكل حى الشيخ عبيد بمسجده وأهله جزءا هاما جدا من وجدانى، وقد كتبت عنه من قبل كثيرا، ويبقى تأثيرا وجدانيا هاما فى نفسى مصدره حارة الكنيسة وأهلها، والتى هى موضوع حديثى اليوم. أعتذر عن هذه الإستطرادات غير المنظمة وأرجو أن يسامحنى القارئ فيما يتلوها من استطرادات وعدم تنظيم وليكن المبرر لذلك أننا نتناول مشاعر وذكريات وهى بطبيعتها غير مرتبة أو منظمة. ولقد سبقنى شريط الذكريات قبل وصولى إلى الحارة فحضرتنى أوقاتا سعيدة كنا نلعب فيها الكرة فى هذا المكان وتذكرت كيف كانت الكرة شسقط منا فى حديقة الكنيسة ذات السور المنخفض فنقفز من فوق السور لالتقاطها ونسرع فى ذلك حتى لا يرانا «المعلم»، وهذا هو اسمه الذى كان معروفا به لدى الناس، وأظن أن اسمه الحقيقى إبراهيم، وكان موكلا بدق أجراس الكنيسة أيام الآحاد والأعياد، وعلى الرغم من كونه كفيفا إلا أنه كان قادرا على

السير فى شوارع بلدتنا كلها دون مساعدة، كان فقط يعتمد على عصا فى يده اليمنى يحركها فيستشعر بها الطريق، وكنا أحيانا نداعبه (أو نشاغبه) ثم نجرى من أمامه قبل أن تطولنا عصاه، وكثيرا ما يرن فى أذنى أصوات من الماضى منها صوت الأذان من مئذنة جامع الشيخ عبيد بصوت الشيخ «عبداللطيف» وصوت أجراس الكنيسة يدقها «المعلم».

وجرى أمامى الشريط فتذكرت جيراننا المحيطين بنا من الإخوة الأقباط (أو النصارى كما كنا ندعوهم فى ذلك الوقت)، وأحتفظ فى ذاكرتى ببيت عم «وهبة» وكان صاحب «وابور الطحين» فى المدينة وكان صديقا حميما لوالدى رحمة الله عليه، وأذكر حين كنا فى سفر (وكثيرا ما سافرت معه ومع أبى) اشتد البرد فخلع «كلبوشا» كان يغطى رأسه ورقبته ويظهر وجهه فقط وألبسنى إياه فشعرت وقتها بدفء وسعادة لم أشعر بهما من قبل وظل هو يرتعش من البرد، واحتفظت بهذا الكلبوش لسنوات طويلة بعد ذلك. كنت فى مراحل طفولتى المبكرة لا أعرف الفرق بين بيتنا وبيت عم «وهبة» لذلك كنت أقضى معظم وقتى هناك حيث كان هو وزوجته يغمرانى بحنان لا أنساه ما حييت. وحين وصلنا إلى مدخل حارة الكنيسة استيقظت من ذكرياتى ورحت أتأمل المكان فلاحظت اختفاء بعض البيوت وظهور بيوت جديدة مكانها، وفوجئت بالكنيسة قد تغيرت حيث ارتفعت جدرانها وأغلقت نوافذها العالية الضيقة بالحديد وأصبحت مثل الحصن، ولست أذكر إن كانت حديقتها قد إلغيت أو رفعت أسوارها لدرجة يصعب معها رؤيتها، وصدمنى أكثر وجود الجنود يقفون أمام مدخلها خلف ساتر (رغم أن هذا المنظر مألوف فى المدن الأخرى إلا أننى لم أتخيل وجوده فى بلدتى التى لم تعرف أى حادث طائفى فى تاريخها)، وشعرت بتغيير هائل فى المكان وفى داخلى عكر على ذكرياتى الحلوة التى كنت أعيشها منذ لحظات، وتذكرت الصورة القديمة للكنيسة والتى كانت تسمح لنا بالدخول إلى حديقتها وإلى ساحتها دون مشاكل تذكر، وكنا قد اقتربنا من منزل مريضتى العزيزة السيدة (س. ا) فخرجت من عالم الذكريات وانشغلت بمريضتى وأبنائها وبناتها حيث تعودت أن يستقبلونى بترحاب شديد فهم يعلمون حبى وانتمائى للمكان وقاطنيه ومالى من ذكريات فيه أستمتع بالحديث عنها كلما جاءت الفرصة. وفى طريق عودتى إلى مدينة

المنصورة (حيث سكنى وعيادتى) استيقظت الذكريات بداخلى مرة أخرى خاصة حين ظهر أبى – رحمة الله عليه – فى الصورة حيث كان يصحبنى فى كل مجالسه وسفرياته، وكان له أصدقاء كثر من النصارى، لذلك كان من المألوف لدىّ لسنوات طويلة حضور مناسبات الأفراح والعزاء فى الكنائس فى بلدتنا وفى البلدان المجاورة لنا لدرجة أن مشهد الكنائس من الداخل ورائحة البخور والصور المنقوشة على الجدران تشكل جزءا هاما من مساحة ذاكرتى.

وأذكر أنه فى يوم من الأيام كان يقام قداسا فى الكنيسة وكنت أحضره مع والدى وإذا بى أبتعد عنه بعض الشئ حيث كنت أريد أن أقترب من القسيس (الذى يردد التراتيل بصوت رخيم يخرج من الأنف أكثر مما يخرج من الفم) كنوع من حب الإستطلاع ومحاولتى لمعرفة ماكان يردده بسرعة ولا أستطيع فهمه أو متابعته، وهنا شعر والدى بالقلق علىّ (حيث أننى ولده الأثير لديه) فراح ينادى اسمى «محمد»... «محمد».... لعلنى أسمعه، وهنا نظر إليه أحد أصدقائه النصارى وقال له مداعبا: «يعنى لازم تقول الإسم ده ساعة القدّاس علشان تبوظه» فانفجر المحيطين به فى الضحك وهم يحاولون إخفاء ذلك مراعاة لخصوصية المكان. وكثيرا ما سمعت أبى وأصدقاءه النصارى يتبارون فى سرد الطرائف والنكات التى كان يطلقها الناس فى ذلك الوقت على المشايخ والقساوسة، وأذكر من هذه النكات أن مجموعة من الصعايدة ذهبوا للعمل فى ترميم أحد الكنائس، وكعادتهم أثناء العمل راحوا يرددون: «هيلا هيلا.. صلى ع النبى... هيلا هيلا... صلى ع النبى» فجاءهم القسيس فى أدب وقال لهم: «ياجماعة بلاش تقولوا كده ما تنسوش إن انتم فى كنيسة»، فاستجابوا لرغبته بعض الوقت ولكنهم لم يستطيعوا العمل دون هذا الغناء، فقام أحدهم بكتابة: «صلى ع النبى» على جدار الكنيسة، وراحوا يرددون: «هيلا هيلا... بص ع الحيطه». ومنها أيضا أن قسيسا كان يقود سيارته قبل الفجر بساعة فتعطلت سيارته وتصادف أن حدث ذلك أمام بيت شيخ مسلم، فطلب منه القسيس أن يساعده فى دفع السيارة لكى تتحرك، وبدأ الشيخ فى دفع سيارة القسيس وهو يقول: «يا مارى جرجس مدد»، فاستغرب القسيس من ذلك واستفسر من الشيخ، فقال له الشيخ

مندهشا: «أمال عايزنى اصحيلك السيد البدوى فى الساعه دى؟». ولم تكن الجلسات تخلو من مداعبات كل طرف للآخر وكان الجميع يضحكون وأكواب الشاى تدور بينهم وحين يأتى موعد الطعام نأكل جميعا فى البيت أو المكان الذى وجدنا فيه.

وفى أحد الأيام ذهبنا لحضور فرح ابن الخواجه جرجس فى أحد البلدان المجاورة، وكان من عادتهم تقديم الطعام للمدعوين فى وقت العصر، ولكنهم عرفوا فى ذلك اليوم أن هناك عدد من المسلمين الحاضرين صائمين (ربما كان ذلك يوم عاشوراء حسب ما أتذكر) فقرروا تأجيل تقديم الطعام لكل المدعوين إلى وقت أذان المغرب، وكان هذا السلوك يتكرر منهم دائما فى رمضان فلم أر أحد منهم يتناول الطعام جهارا فى شهر رمضان، بل كنت أسمع أن كثيرا منهم يأكلون فى نفس المواعيد التى يأكل فيها جيرانهم المسلمون، ويضبطون مواعيد نومهم وسهرهم فى رمضان على نفس مواعيد المسلمين، ولى منهم أصدقاء كانوا يشعرون بالجو الرمضانى ويشاركون فيه ويستمتعون به. ومن الطرائف أننا كنا فى رمضان نذهب إلى ساحة مسجد الشيخ عبيد لنستمع إلى الأذان، وما أن يؤذن الشيخ عبداللطيف حتى تسابق سيقاننا الريح عودة إلى بيوتنا وكان ثلث الذين يجرون بيننا من النصارى، وكنا نردد ونحن نجرى: «المغرب ادن.. يا صايم افطر»، وكنت أصل إلى بيتنا قبل جورجى وجرجس فى حين يكملان هما طريقهما إلى بيتهما وهما يرددان فى حماس: «المغرب ادن.. يا صايم افطر».

وقد اشتهر الأقباط فى ذلك الوقت فى بلدتنا بشيئين: تربية النحل وبيع المصوغات، وكانت لهم طقوسا نسعد بها معهم فحين يأتى موسم جمع العسل يوزعون على جيرانهم من المسلمين أطباقا من العسل، وكانوا يختصوننا بزيادة فى كمية العسل مع أقراص من الشمع المشبعة بالعسل نظرا لعلاقتنا الخاصة بهم. أما فقراء النصارى فكانوا يوزعون مايسمى ب «ماء العسل» وهو سائل يتم طبخه فيصبح مثل المهلبية وله طعم قريب من العسل ولكنه مخفف. أما الصاغة منهم فكانوا يتميزون بصدق الحديث والأمانة فى التعامل وطول البال والصبر خاصة مع مساومات النساء وترددهن فى اختيار الحلى الذهبية.

أما جيراننا المواجهين لنا فكانوا بيت عم «إبراهيم سمعان» وأذكر زوجته الطيبة السيده «أم موريس» وابنه الكريم الأستاذ موريس (وله معى قصة سأرويها بعد قليل) وابنيه الآخرين محفوظ وسعد، وابنته صوره. وبيت عم إبراهيم سمعان كان يحتوى بلكونه كبيره من الخشب وكان أبناؤه مغرمون بوضع قصارى نباتات الزينة فى هذه البلكونة الخشبية المطلة على الشارع المؤدى للسوق، وكأنى الآن أرى قطرات الماء تتساقط من هذه القصارى بعد سقيا الزرع فيها.

وفى أحد الأيام كنت ألعب فوق سطح بيتنا فلدغتنى نحلة وتورم مكانها بشكل واضح آلمنى كثيرا، وهنا غضب أبى لأن عم «إبراهيم سمعان» كان يربى مجموعة من النحل فوق سطح منزله المجاور لنا، وحين علم عم «ابراهيم» بهذا الأمر ما كان منه إلا أن طيّب خاطر والدى ومسح على يدى المتورمة وأرسلت السيدة الفاضلة أم موريس إلينا طبقا من عسل النحل وقاموا بنقل خلايا النحل بعيدا عن البيت.

وحين بلغت السادسة من عمرى اصطحبنى والدى إلى مدرسة الرفاعى الإبتدائية وكان معه حينئذ صديقه عم «عبده بانوب» جاء ومعه ابنه «مجدى»، وجلست أنا ومجدى متجاورين، وكأن مجدى استوحش جو المدرسة فكان – كعادة كثير من الأطفال فى هذا السن – يبكى كثيرا فى الأيام الأولى ويضع وجهه الباكى على ساعديه فتسيل دموعه على الصليب المدقوق على يده، وكنت أنظر إليه مشفقا عليه وعلى الصليب الذى تكاد الدموع أن تمسحه وأحاول أن أخفف عنه شعوره بالوحشة، وفى آخر اليوم الدراسى نعود إلى بيوتنا القريبة من بعضها، وكنت كلما قابلته – بعد أن كبرنا – ذكرته بهذه الأيام مداعبا ومشاغبا.

وحين وصلت إلى الصف السادس الإبتدائى دعانى الأستاذ موريس ابن عم «إبراهيم سمعان» جارنا لإعطائى درس تقوية حيث أن الشهادة الإبتدائية تحتاج إلى استعداد خاص، ولم أكن متحمسا لأخذ درس خصوصى حيث كنا نعتبره فى ذلك الوقت عيبا ولا يصلح إلا للتلاميذ البلداء، ولكن الأستاذ موريس أصر على ذلك وشجعنى وأقنعنى، وأهم من ذلك طمأننى بأنه سيقوم بذلك بلا مقابل (رغم أنه لم يكن ممن يعطون

دروسا خصوصية)، وفعلا ذهبت وأخذت الدرس عنده وظهرت النتيجة وكنت الأول على المدرسة فى الشهادة الإبتدائية وشكرته وما زلت أعتز بأستاذيته لى حتى الآن وأدعو له بالصحة وطول العمر.

ولست أنسى عم «جرجس» المبيض (النقاش بلغة الوقت الحاضر) والذى كان مجيئه بسلمه وجردله إلى بيتنا إيذانا بإضافة مسحة جمال إلى البيت بما يضعه من ألوان زاهية (جير أو بلاستيك أو زيت..)، وكنت أستمتع برائحة البياض الجديدة، وأقف بجوار عم «جرجس» طول الوقت أرقبه وهو يعمل، وأستمتع بمداعبات أبى له عن الجنة والنار، ورده الضاحك المتسامح على تلك المداعبات.

وفى أحد الأيام حدثت مشادّة بين عم «حليم» وأخيه «جبران»، وكان عم «حليم» يشعر دائما بأن أخيه يستضعفه أو يستهين به فكان كلما حدثت مشكلة بينهما استغاث بأبى ليسانده فى مواجهة أخيه، ولم يكن أبى يتخلف عن هذا الواجب، وكان وجوده دائما سببا فى ضبط العلاقة بينهما.

أما عم إيليا فكان فنانا فى إصلاح الراديوهات الترانزستور (وهى أعلى تكنولوجيا فى ذلك الوقت) فكان أبى لا يأمن أحدا على إصلاح الراديو إلا عم «إيليا»، وتطوف بالذاكرة صورة عم «سعد بشاره» والذى كان يعرف الكثير من الأشياء ومنها اللغة القبطية، وكان أبى (وكذلك أنا) معجبا بنصاحته وفصاحته.

وفى أحد الأيام أحضر شخص ما شريطا مسجلا لقسيس أعلن إسلامه، وكان فى هذا الشريط هجوما شديدا على الإخوة المسيحيين، وتصادف وجود الخواجه «عزت» (وكان صديقا قديما لأبى) فى هذا المجلس، ويبدو أن ما كان فى الشريط جرح مشاعره ومن يومها لم أجده بعد ذلك فى هذا المجلس الذى اعتاد الجلوس فيه لسنوات

طويلة، وتذكرت أثر هذا الشريط حين وقعت أحداث الإسكندرية بسبب ال CD.

وحضر إلى ذهنى صورة زميلى فى كلية الطب رزق عوض الله والذى كان مستواه العلمى رائعا وكان ترتيبه الثالث على الدفعة، وكان فى الحقيقة يستحق الترتيب الأول،

ولكننى أعتقد أنه عانى من مشكلات مع بعض الأساتذه ورؤساء الأقسام الذين عمل معهم (لست أدرى إن كان ذلك بسبب ديانته أو لأسباب أخرى)، ولست أدرى إن كان ما يزال فى مصر أم هجرها بسبب تعصب بعض الأساتذة، وكانت حجة هؤلاء الأساتذة – كما سمعت فى حينه – أن رؤساء الأقسام المسيحيين يسخرون أقسامهم بشكل خاص لخدمة المسيحيين (وهذا ربما يجعلنا نفكر بجدية فى صدور قانون لمنع التمييز العنصرى فى مصر ليغلق الباب أمام ضعاف النفوس من الجانبين وليضمن تحقيق العدل بين الجميع فلا يستبعد أحد من وظيفة أو ترقيه بسبب دينه أو انتمائه السياسى).

ولاحظت بعد فترة ذهاب بعض المرضى يستشفون عند بعض القساوسة (كما يذهبون للمشايخ)، وقد أثار هذا حفيظة بعض المسلمين، وتبع ذلك انتشار شائعة أن شخصا مسيحيا يدعى «م» يقوم بعمل سحر يجعل الجن المسيحى يركب المريض المسلم، وهذا السحر لا يفكه إلا قسيس لأنه لا يستجيب إلا له، وقد تطوع بعض المشايخ من المسلمين بمحاولة إخراج الجن غير المسلم من جسد المسلم وكأنهم يقومون بحرب مقدسة وقد سجلوا أشرطة تصور معركة إخراج الجنى غير المسلم، والغريب أننى وجدت أناسا متعلمين يصدقون هذا الأمر ويتصرفون بناءا عليه، ويكنون عداوة لهذا الشخص الذى يعتقدون أنه يحارب المسلمين بالجن المسيحى، خاصة وأن لدى قطاع غير قليل من المسلمين إحساسا بأن أمريكا تساعد المسيحيين فى مصر، وأن الآخرين يستقوون على المسلمين بأمريكا، وهكذا تزداد الأمور تعقيدا بدءا بالمعتقدات الخرافية وانتهاءا بالقناعات أو الملاحظات السياسية والتى ربما يقويها سلوك وتصريحات أقباط المهجر الذين هاجروا من مصر وهم يحملون مشاعر سلبية تجاهها بحق أو بغير حق (نفس المشاعر التى يحملها المسلمون الذين اضطرتهم الظروف السياسية أو الإقتصادية الطاردة والضاغطة إلى الهجرة والعيش فى بلاد الغربة).

وقفزت الذكريات سريعا وانتقلت إلى وقت قريب نسبيا حيث بيتى الذى عشت فيه عدة سنوات فى أطراف مدينة طلخا وكنت أبنى فيه مسجدا وكان جارى المسيحى «المعلم عوض» (أو أبو فادى كما نناديه) يشاركنى بالمشورة والرأى فى كل الخطوات سواء فى بناء

البيت أو المسجد، وكان حارسا أمينا على البيت وعلى المسجد، والناس من حولنا يستغربون من دخوله المسجد وتقديم مشورته واقتراحاته فى تعديل الكثير من الأشياء، وكان بعض الشباب المتشدد يستنكرون ذلك ويلوموننى عليه، خاصة حين يرون تلك العلاقة الخاصة التى تربط أسرتى بأسرته وتلك الهدايا المتبادلة فى الأعياد والمناسبات، وأذكر أننى كنت كثير السفر، والبيت - كما قلت - فى منطقة جديدة فى أطراف المدينة، وكان وجود «أبو فادى» بالقرب من بيتى من عوامل اطمئنانى خاصة أنه كان صاحى العينين لكل شئ فى الشارع الذى نسكنه وكان حريصا على أمن المكان بمن فيه من مسلمين ومسيحيين، وزوجته السيده أم فادى تستقبل الجميع بالتحية والترحاب، وكنت أسعد بتناول كوب الشاى مع البسكويت الذى برعت فى إعداده وذلك فى وقت العصارى أيام الأجازات أو فى الأعياد.

كل هذه الأحداث والذكريات مرت بذهنى فى هذه الرحلة القصيرة، وربما ساعدنى على تذكرها والإسترسال فيها بهذا الشكل ما أراه وأسمعه كل يوم من أحداث طائفية مؤسفة ومحزنة وغبية فى الإسكندرية والصعيد وغيرها تكاد تحرق هذا الوطن، وكل ما يتم من إجراءات يزيد الأمر تعقيدا، وأصبحت الأحداث تتسارع يدير دفتها المتشددون على الجانبين فى حين يقف العقلاء والمعتدلون والمحبون صامتون مكتوفو الأيدى ومعقودو الألسنة بلا مبرر، ومما يزيد الأمر خطورة ذلك الحقد القادم من الخارج يريد أن يشعل النار بين أبناء الوطن مثيرا نعرات طائفية وأفكارا عنصرية لم نكن نعرفها فى ذلك الزمن الذى وصفت بعض لقطاته. وبالتأكيد من يفعلون ذلك لم يقرأوا قول الله تعالى: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم» (والبر كلمة جامعة لكل معانى الخير، والقسط هو العدل)، ولم يقرأوا قوله تعالى: «.. ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون»، ولم يقرأو قول الرسول محمد ﷺ: «**إذا دخلتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لكم فيها رحما وصهرا**»، ولم يقرأو قول السيد المسيح عيسى عليه وعلى نبينا السلام فى موعظة الجبل: «أحبوا أعداءكم، وباركوا لاعنيكم، وأحسنوا

معاملة الذين يبغضونكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم، فتكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات، فإنه يشرق بشمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار وغير الأبرار، فإن أحببتم الذين يحبونكم فأية مكافأة لكم؟ أما يفعل ذلك حتى جباة الضرائب؟، وإن رحّبتم بإخوانكم فقط فأى شئ فائق للعادة تفعلون؟ أما يفعل ذلك حتى الوثنيون؟، فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم السماوى هو كامل»

***

قانون منع التمييز العنصرى

يبدو والأحداث الطائفية والسياسية تتسارع بهذا الشكل المنذر بالخطر أنه أصبح من الواجب صدور قانون لمنع التمييز العنصرى، ذلكم القانون الذى يمنع اضطهاد أحد أو استبعاده من وظيفة أو ترقية بسبب انتمائه الدينى أو توجهه السياسى، وهذا القانون أصبح ضرورة فى الوقت الحالى لتحقيق العدل بين أبناء الوطن الواحد بشكل عملى وواقعى بحيث لا يترك هذا الأمر رهينة للضمائر والقلوب الرحيمة أو غير الرحيمة. وربما يبدو هذا الأمر مستهجنا من البعض مدّعين أننا فى مصر لا نعانى مشكلة تمييز عنصرى فليس لدينا بيض وسود، وإنما كلنا إخوة وكلنا مواطنون، وهذا كلام غير صحيح، ففى مصر الكثير من صور التمييز العنصرى التى تستدعى المحاكمة القانونية فى كثير من دول العالم المتقدم. وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر جميعا واقعة انتحار: «عبدالحميد شتا» خريج كلية الإقتصاد والعلوم السياسية والذى حرم من وظيفة ومكانة يستحقها لا لشئ إلا لكونه ابن رجل بسيط، وقد قيل فى قرار استبعاده أنه غير لائق اجتماعيا. ونذكر منع الكثير من المذيعات من الظهور على شاشات التليفزيون المصرى بسبب ارتدائهن الحجاب على الرغم من مخالفة ذلك للدستور الذى ينص على أن دين الدولة الإسلام وأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع. ونذكر استبعاد الملتحين والمنتمين إلى تيارات دينية أو سياسية بعينها من الوظائف الحكومية والجامعية ومن الإلتحاق بالشرطة أو الجيش وكأنهم أعداء للوطن. ونذكر يأس أى خريج لكلية الحقوق من الإلتحاق بالنيابة مالم يستوف شروطا أخرى بعيدة عن الكفاءة الشخصية، وأخيرا وليس آخرا ما يشكو منه الأقباط من تضييق عليهم فى بناء كنائسهم وترميمها وحرمانهم من وظائف بعينها بسبب ديانتهم، مع ما يتراكم بسبب ذلك من غضب واحتقان مذهبى وسياسى وطائفى ينفجر من وقت لآخر منذرا بمزيد من الإنفجارات لو لم يتم تصحيح الأوضاع وتدارك الأمور.

وإنه لمن الخطر بل من الخيانة لأمانة هذا الوطن أن نهون من هذه الأشياء أو نعتبرها أحداثا فردية تقيد فى كل مرة «ضد مخبول»، وكأننا نتعامل مع أطفال قصّر. وإننى لأخشى من سيناريوهات مرعبة أقربها أن يقوم مخبول آخر باغتيال أحد الشخصيات الهامة على هذا الجانب أو ذاك و وفى ظل هذا الإحتقان الشديد ربما لايستطيع أحد السيطرة على الغضب المتفجر و وقد تسعى القوى الخارجية بشكل أو بآخر لمثل هذه الأفعال وهى تدرى مدى الإحتقان والغليان القائم بحق أو بغير حق.

وقد يكون هذا القانون حبل إنقاذ لهذا البلد فى تلك الظروف لأنه سيضمن تحقيق العدالة بين أبناء هذا الوطن على اختلاف توجهاتهم الدينية والسياسية والإجتماعية، وعندها ستستريح النفوس وتطمئن حين ترى مسئولا يقدم للمحاكمة لمنعه قبطيا من وظيفة أو ترقية يستحقها، ومسئولا يقدم للمحاكمة لمنعه فتاة محجبة من الظهور على شاشة التليفزيون بسبب حجابها، ومسئولا آخر يمنع معيدا فى الجامعة من استلام وظيفته بسبب شبهة انتمائه إلى جماعة معينة أو تيار دينى أو سياسى لا يرتضيه هذا المسئول، ومسئولا آخر يقدم للمحاكمة لأنه تحيز لأبناء الأساتذة فى الجامعة التى يعمل بها وأهدر فرصا أمام الطلاب الجادين من غير ذوى القرابة أو الزمالة. وهكذا مع الوقت ومع تكرار تطبيق هذا القانون تتكون ثقافة العدل التى افتقدناها فى مجتمعاتنا مما أدى إلى تراكم وتصاعد حالات الغضب والغليان لدى قطاعلت عديدة من الشعب المصرى، وإلى وجود حالة من العدوان السلبى والعناد لدى كثير من الأطراف مما أدى إلى شلل الحياة فى كثير من جوانبها وقطاعاتها.

وأكاد أجزم أن تأخر صدور هذا القانون تحت أى دعوى من دعاوانا الزائفة قد يكون مبررا لوصاية أجنبية أو محاولات تدخل خارجى أو تدويل أحد قضايانا (بحق أو بغير حق) وخاصة قضية الأقباط، والتى يجد فيها المحقق الأجنبى جوانب كثيرة تستحق المساءلة، ولولا المواءمات السياسية وتبادل المصالح والغنائم لحدث هذا من زمن. وأتمنى ألا يضيع منا الوقت فى ترهات ومزايدات ثم نجد أنفسنا أمام مصير العراق أو مصير دارفور.

وفى الآية الكريمة يقول تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، ونلاحظ هنا أن الله ذكر البر وهو كلمة جامعة لكل المعانى الخير، ولكنه خص القسط (وهو العدل) بذكر خاص، لأن العدل أساس الملك وهو أساس الإستقرار والطمأنينة فى العلاقات بين البشر، فلا يكفى فى علاقتنا بالآخر أن نهنئه فى الأعياد وأن نتبادل معه القبلات والأحضان، بل الأهم من ذلك إقامة العدل فى التعامل معه حتى لو اختلفنا معه فى الديانة أو التوجه السياسى أو الإجتماعى.

***

شخصية محمد العطار

المتهم بالتجسس لصالح إسرائيل.. وأزمة الإنتماء

المعلومات المتاحة عن حياته الشخصية قليلة وغير كافية لتكوين صورة مكتملة عن تركيبته الشخصية، ولكن على قدر ما أتيح لنا يتضح الآتى:

هو ينحدر من أسرة مصرية عريقة ولها تاريخ وطنى فجده الأعلى هو الشيخ حسن العطار ويصفونه بأنه رائد النهضة المصرية الحديثة حيث كان أستاذا لرفاعة الطهطاوى وكثير من مشايخ الأزهر وقادة التنوير فى مصر. أما جده لأبيه فقد كان طبيبا قام بجهود مشهودة فى مكافحة مرض الكوليرا فى مصر ومنحه الملك فاروق وساما على ذلك، ثم شارك بعد ذلك فى الجهود الطبية إبان حرب ١٩٥٦ على بورسعيد وكافأه الرئيس عبدالناصر. أى أن تاريخه الوراثى لا يشوبه شئ.

انفصل أبوه عن أمه وهو بعد مازال جنينا وكانت العلاقة بينه وبين أسرة أبيه ضعيفة جدا حيث فاجأهم بالزيارة وعمره حوالى ١٥ سنة ليتعرف عليهم ثم اختفى بعد ذلك ولا يزورهم إلا لماما. وعاش مع أمه التى سافرت فترة إلى الجزائر (لاتوجد تفاصيل عنها). وبعض الأخبار تقول أنه عاش مع جدته بعد انفصال أمه عن أبيه. وما يهمنا هنا هو أنه عاش طفولة غير مستقرة بسبب تفكك الأسرة، وهنا تبدأ جذور مشكلة ضعف الإنتماء فعندما يتعدد المربون لطفل وتتغير أماكن إقامته ويعيش فى ظروف بعيدة عن دفء الأسرة وتماسكها تصبح مسألة الإنتماء محاطة بعلامات استفهام كثيرة.

يضاف إلى ذلك أنه لم يكن سعيدا بدراسته فى الجامعة فى كلية العلوم وكان يأخذ السنة فى سنتين حسب تصريحات عميد الكلية وتأخر فيها كثيرا، وهذه أزمة لا تواجه محمد العطار وحده وإنما يكتوى بها غالبية الشباب فى مصر حيث يعانون من المناهج الدراسية الصعبة والمنقطعة الصلة عن حياتهم العملية ويفتقدون الأمل فى الإستفادة منها بأى شكل فى حياتهم المستقبلية لذا نلاحظ منهم فتورا فى الإقبال على الدراسة التى لا

يجدون منها عائدا مشجعا.

والمحطة الأخيرة لمحمد العطار فى مصر كانت عندما استأجر سيارة من أحد المكاتب وحدثت بها تلفيات نتيجة حادث ووجد نفسه مطالب بدفع ٧٠ألف جنيه لا يملك منها شيئا وإلا فعليه أن يقضى عقوبة بالسجن لمدة ثلاث سنوات، وهنا اتخذ قراره بالهجرة النهائية من مصر، والتى أعلن قبل ذلك مرارا لأفراد أسرته أنه غير سعيد بحياته فيها، وأنه لا يجد نفسه فى بلده.

وحين وصل إلى تركيا لم يتجه إلى السفارة الإسرائيلية –كما يدّعى البعض – وإنما ذهب إلى مفوضية شئون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة طالبا اللجوء الإنسانى والهجرة إلى أى دولة غربية، وهنا التقطه ضابط الموساد – حسب الروايات – وساعده على الحصول على حق اللجوء الإنسانى، وتوالت أحداث استغلال الضابط له بعد ذلك طبقا لما أوردته التقارير الأمنية.

ونحن نترك التفاصيل الأمنية والقضائية للسلطات المسئولة تقرر فيها ما تشاء ولكن يهمنا هنا الجانب النفسى والإنسانى والذى شكل عامل خطورة فى سقوط محمد العطار ويمكن أن يشكل عامل خطورة مع أى شاب مصرى مغترب أو غير مغترب. فهذا الشاب قد تعرض لظروف أسرية صعبة خلخلت شعوره بالإنتماء العائلى رغم أنه ينتمى إلى أسرة عريقة فى نسبها ووطنيتها، وازدادت هذه الخلخلة بسبب تعثره الدراسى وشعوره باللاجدوى من التعليم الذى يرى (مثل كثير من الشباب) أنه لن يحقق له حلما، ثم يواجه أزمة مادية تهدد بوضعه فى السجن لمدة ثلاث سنوات، أى أنه وجد أن استمراره فى بلده يحمل مخاطر ضياع مستقبله تماما، وهنا تصبح الهجرة حلما (ليس لمحمد العطار وحده وإنما لغالبية شباب مصر، وهذا مؤشر خطير يجب أن نتداركه جميعا قبل فوات الأوان وسقوط المزيد من الضحايا)، وحين يهاجر شاب فى مثل هذه الظروف فإنه يعمل كل ما يستطيعه لتثبيت وجوده فى البلد الغريب لأن طريق العودة أمامه مغلق ومحاط بمخاطر كثيرة أقلها السجن. وهذا يجعل محمد العطار فى غاية الضعف أمام من يقدم له المساعدة على استكمال مشروع هجرته. ولا يخفى علينا المشاعر السلبية المتراكمة فى نفس

شاب خرج من بلده مضطرا بعد أن ضاقت به السبل وعانى الكثير من المشاكل الحياتية، تلك المشاعر التى تشكل أرضية لاتخاذ مواقف سلبية تجاه البلد الذى سبب له كل هذه المعاناة وتركه يواجه آلام الغربة ومصاعبها، وفى نفس الوقت تلوح الأيدى التى تبدو حانية فتأخذه وتسهل له سبل الحياة التى افتقدها وتساعده على تجاوز أزمته مقابل فاتورة يتم سداده ربما من وطنيته.

وهذا يجعلنا فى حاجة شديدة إلى مراجعة ظروف النشأة وظروف الحياة وظروف التعليم ومسألة غياب الحلم لدى الشباب المصرى ومسألة الإنتماء التى تضعضعت بسبب الظروف الإقتصاديةوالإجتماعية والسياسية التى تمر بها البلاد وتجعل حلم الشباب الهرب خارج بلادهم للحصول على فرصة للحياة وتحقيق أحلامهم التى أجهضت فى بلدهم الأم. وهذا ليس تبريرا للجريمة التى وقعت وإنما هو تفسير ووقاية حتى لا نفاجأ بالمزيد من الشباب المصرى يقع فريسة فى أيدى الموساد الإسرائيلى وغيره تحت ضغط الحاجة والضياع وضعف الإنتماء.

❊ ❊ ❊

الكراهية العادية والحب المسموم

(دراسة نفسية لمشهد الغضب وضعف الإنتماء)

سألنى أحد الأصدقاء: ما هو التحليل النفسى لشخصية الجاسوس محمد سيد صابر الذى صرح بأنه يحب إسرائيل؟.... ثم فاجأنى بما يشبه الإتهام: أنتم – الأطباء النفسيون – تتحدثون كثيرا فى قضايا هامشية وتتركون المسائل الخطيرة دون تعليق عليها، مع أن هذا الأمر أعتبره أنا واجبا وطنيا، وجهادا مدنيا، ودفاعا عن سلامة المجتمع. ورغم انزعاجى من هجومه غير المبرر علىّ وعلى أبناء وأشقاء وآباء مهنتى، إلا أننى انتبهت إلى أنه محق فى ذلك، وعاودت قراءة اعترافات محمد سيد صابر على مهل، وعدت إلى قصة محمد العطار الجاسوس السابق مباشرة، ووجدت خيطا نفسيا مهما يربط بينهما وهو محبة إسرائيل والإعجاب بها إلى الدرجة التى جعلتهما يهرعان إليها لتقديم الخدمات، وهذا تطور جديد فى هذا المجال يشبه توصيل الخدمة للمنازل، فقد كان ضباط أجهزة المخابرات الإسرائيلية يدفعون الكثير ويقومون بعمل استراتيجيات عديدة ويضعون الكثير من المغريات أمام من يرغبون فى تجنيدهم من الشباب المصرى والعربى، ويقومون بالكثير من المناورات قبل اصطياد الضحية، أما الآن فهم يجلسون فى مكاتبهم ويستقبلون الشباب المصرى المحبط والساخط والهارب من جحيم بلده ليعرض عليهم خدماته بمقابل زهيد (بضع آلاف من الدولارات) على الرغم من غلاء الأسعار، وأخشى أن يأتى الوقت الذى تضع فيه المخابرات الإسرائيلية قائمة انتظار لاختيار أفضل الجواسيس من الشباب المصرى المتقدم إليها بأعداد تفوق طاقتها فى التجنيد.

وسأحاول التقاط بعض العبارات الدالة من اعترافات محمد سيد صابر لنرى التركيبة النفسية والجو النفسى والإجتماعى الذى نشأت فيه فكرة التعاون ثم التخابر مع جهاز الموساد الإسرائيلى:

«أنا تركت عملى فى هيئة الطاقة الذرية لإحساسى بالقهر والإضطهاد وعدم تقدير

خبراتى العلمية وتخصصى فى مجال هندسة الطاقة النووية»...... «أنا ذهبت للسفارة بعدما فشلت فى الحصول على حقوقى كاملة سواء فى مفاعل إنشاص أو هيئة الطاقة الذرية، وأرسلت شكاوى للمسئولين بدءا من رئيس هيئة الطاقة الذرية فى ذلك الوقت ومجلس الوزراء والجهات الرقابية ثم رئاسة الجمهورية، لكن لم يصلنى رد مما دفعنى للذهاب للسفارة الإسرائيلية للإلتحاق بجامعة تل أبيب والحصول منها على درجة الدكتوراه».... «إسرائيل ليست عدوة، والحروب انتهت، وهى دولة كبيرة تتمتع بثقل علمى وأكاديمى على مستوى العالم وتعتبر جامعاتها أولى جامعات العالم والأكثر قدرة على استخراج أجيال وعلماء»...... «أحب إسرائيل لأنها دولة علمية من الدرجة الأولى.. ولماذا أكره إسرائيل؟».... «إنهم فى إسرائيل يقدرون الكفاءات ويقفون بجوارها و وأنا كمتخصص فى هندسة المفاعلات النووية يمكننى الحصول على كافة الدراسات فى جامعة تل أبيب»... «نعم ما قام به رؤسائى ولد لدىّ حقدا وكرها، لأنه كان هناك نظام شللية وكان يتم حرمانى من الترقيات والسفر للحصول على دورات فى الخارج»..... «أنا ذهبت للسفارة الإسرائيلية كنوع من الإحتجاج ولفت الأنظار إلىّ، وهذا ما حدث بالفعل، لكن إعجابى بدولة إسرائيل موجود عندى باعتبارها أصبحت فى مصاف الدول المتقدمة».... «الناس واخده فكره عن إسرائيل أنها دولة عدوة، لكن الحكومة تقيم معها معاهدة سلام، واحنا حاليا مفيش معاها حرب و ليه نكرهها؟»...... «المجتمع الإسرائيلى مجتمع منظم جدا، وتشعر أن هذا المجتمع لديه هدف يقدم التضحيات من أجل الوصول إليه».... «غالبا لا أقبل التنازل عن الجنسية المصرية والحصول على الجنسية الإسرائيلية لأننى عندى انتماء لوطنى، وبعدين أنا عايز أجلس فى معمل فقط وليس لى طموح أكثر من ذلك سوى الحصول على المعرفة».... «الحرب انتهت وأصبحت لدينا معاهدة سلام فلماذا لا توجد علاقات طبيعية بيننا؟».... «لا أحمل ضغينة تجاه إسرائيل»..... «أى إنسان يمكن أن تأتى إليه لحظات يكره فيها بلده... هناك أزواج يكرهون زوجاتهم وهى كراهية عادية»...... «قلت لهم وأنا على جهاز كشف الكذب أننى لا أحب مصر كده وكده علشان أهرب من الموضوع بعدما شعرت بالخوف»..... «نعم حين ذكرت أننى أكره مصر تذكرت واقعة

تعرضت فيها للضرب من مباحث أمن الدولة عندما ذهبت إلى التجنيد».......

هل يحتاج الأمر بعد استعراض هذه العبارات أن نقوم بتحليل نفسى لما ورد فيها؟.... أنا شخصيا أرى أنه لا يحتاج فالعبارات شديدة الدلالة وشديدة الوضوح، ومع هذا سأقوم بما يشبه إبراء الذمة لدفع التهمة عن نفسى وعن الأطباء النفسيين بالتقصير فى رصد مثل هذه الوقائع المهمة واستخلاص الجوانب النفسية والرسائل الواردة من خلالها بهدف تجنيب مزيد من الشباب خطر الوقوع فى هذا المأزق وتجنيب الوطن الذى نعيش عليه خطر كراهية بعض أبنائه له بسبب ممارسات بعض أبنائه الآخرين.

باختصار شديد مر محمد سيد صابر بصعوبات وأزمات الحياة اليومية المصرية الخانقة والمحبطة فعلى الرغم من عمله فى أحد الهيئات المميزة واحتمالات حصوله على مرتب معقول بالمقاييس المصرية إلا أن الأمر نسبى فشاب مثله لديه طموحات علمية عالية ومشروعة، والجوع لديه ليس جوع لقمة العيش وإنما الجوع للمعرفة والتميز –كما ورد فى كلماته- يضاف إليه جوع آخر للعدل فى فرص البعثات والترقى بعيدا عن الشللية والمحسوبية. وقد يعتبر البعض أن البحث عن المعرفة والجرى وراء البعثات والدورات العلمية والسعى نحو الترقى والإرتقاء فى العلم أمر ترفى لا يدفع الإنسان لكل هذا الغضب من بلده التى حرمته من كل هذا، ولكن هذا الأمر نسبى فلكل إنسان مستوى من الإحتياجات حين يحرم منه يشعر بالإحباط والغضب.

ومع كل هذا هناك رصيد متراكم من الإحساس بالمهانة، ولكن عندما سئل وهو جالس على جهاز كشف الكذب عن كراهيته لمصر أراد أن يشحن جهازه العصبى بشحنة كراهية تظهر على الجهاز فقفز إلى ذهنه حادثة محورية فى عقله الباطن والواعى وهى حادثة ضربه بواسطة مباحث أمن الدولة وهو ذاهب إلى التجنيد، ففى اللحظة التى يذهب فيها للإندماج فى الخدمة الوطنية يحدث انتهاك لكرامته يجعله يكفر بهذه الوطنية، ويجعل هذا الحدث يحتل مساحة من الوعى تبرز فى لحظة امتحان حقيقى تكشفه أجهزة رصد حساسة وغالبا نجح فى إخراج مكنون الكراهية لديه من بؤرة هذا الحدث المهم.

ويلاحظ أن محمد سيد صابر يكرر ما يقوله كثير من المسئولين فى مستويات مختلفة وما يفعلونه مما يؤكد انبهارهم بإسرائيل على مستويات مختلفة، فهذا أحدهم يصف شارون بأنه رجل سلام ورجل شجاع، وهذا آخر يصف حرب أكتوبر بأنها آخر الحروب، ويقول «بيجين صديقى»... وهذا مسئول رفيع يحتضن أولمرت بحميمية بالغة... وذاك مسئول بوزارة الزراعة يبعث بالعديد من خبراء وزارة الزراعة لتعلم فنون الزراعة الراقية فى إسرائيل.... وهذا رجل أعمال وعضو بارز فى الحزب لديه تعاملات اقتصادية هائلة مع الصهاينة.... وتلك صفقة غاز تباع لإسرائيل لمدة ١٥ سنة بالسعر الحالى، وهذا مسئول فى التعليم يقوم بحذف كل ما يشير إلى كراهية إسرائيل أو عداوتها فى المناهج الدراسية...... ألخ. وقد انعكس كل ذلك فى اذدواجية أو تعددية أو ضبابية أو اختلاط المشاعر تجاه الوطن وتجاه إسرائيل، وازدواجية أو تعددية أو لخبطة الإنتماء والإعجاب والمحبة والكره، تلك هى التركيبة النفسية المختلطة التى صنعتها المعاهدات الزائفة والتصريحات الكاذبة المتناقضة والمواقف المتلونة، والسياسات ذات الوجوه المتعددة، وضياع الهدف القومى العام وضياع الرؤى الوطنية المخلصة.

أى أن محمد سيد صابر مرآة نرى فيها كل سلبياتنا وتناقضاتنا وفشلنا وكذبنا على أنفسنا وعلى غيرنا. وهو فرصة نرى فيها أزمة الإنتماء التى يمر بها أغلب شبابنا وهم يقضون سنوات طويلة من عمرهم يتعلمون لكى يحصلوا على شهادة لا تسمن ولا تغنى من جوع ويكتشفون أن أهليهم أنفقوا كل ما لديهم واستدانوا ليعلموهم، ولكن ما تعلموه ليس له أى علاقة بسوق العمل، وأن سوق العمل مغلق بشكل شبه تام وأن الفرص القليلة الموجودة قاصرة على أصحاب النفوذ والمال، وأن الكفاءة لا سعر لها فى هذا الوطن، وأن العدل مفقود، والكذب والتزوير والفهلوة أهم سمات المجتمع، وهنا وفى هذه اللحظة الكاشفة تهتز كل الثوابت لدى هؤلاء الشباب وتنهار أحلامهم فى وطنهم ويبدأ الحلم يتشكل خارج الوطن ويصبح الأمل الوحيد هو الخروج من هذا الوطن المحبط الخانق إلى أى مكان فى الأرض، ولهذا لا يترددون فى ركوب سفينة تغرق بهم وهم فى طريقهم إلى استراليا أو إيطاليا، أو عبور غابة جليدية فى أوروبا يموتون فيها

بردا وتجمدا وكمدا. لا تستطيع أن تلزم مثل هؤلاء الشباب بالحفاظ على درجة انتمائهم إلا إذا افترضت فيهم قدرات غير عادية تجعلهم يتحملون كل هذا ويظلون يتغنون بحب الوطن وتحية العلم ليل نهار. طبعا من السذاجة أن يعتبر أحد هذا الأمر دعوة لضعف الإنتماء أو خلع الإنتماء، فهذا تصور قاصر وإرهاب فكرى يمنع رؤية الواقع كما هو بهدف إصلاحه، فالواقع أن ظروف الحياة فى مصر خاصة بالنسبة للشباب هى ظروف محبطة ومثيرة للغضب، ومهيئة لكل الآفات من التطرف إلى الجاسوسية إلى اللامبالاة إلى الإنهيار القيمى والأخلاقى. وأى محاولة للتخفيف أو التلطيف هى أشبه بمرهم نضعه على سرطان خطير حتى نوهم أنفسنا أننا عالجناه.

وإذا انتقلنا إلى محمد العطار، وهو الجاسوس السابق الذى حكم عليه بعقوبة ١٥ عاما لثبوت تهمة التجسس عليه فإن المعلومات المتاحة عن حياته الشخصية قليلة وغير كافية لتكوين صورة مكتملة عن تركيبته الشخصية، ولكن على قدر ما أتيح لنا يتضح الآتى:

هو ينحدر من أسرة مصرية عريقة ولها تاريخ وطنى فجده الأعلى هو الشيخ حسن العطار ويصفونه بأنه رائد النهضة المصرية الحديثة حيث كان أستاذا لرفاعة الطهطاوى وكثير من مشايخ الأزهر وقادة التنوير فى مصر. أما جده لأبيه فقد كان طبيبا قام بجهود مشهودة فى مكافحة مرض الكوليرا فى مصر ومنحه الملك فاروق وساما على ذلك، ثم شارك بعد ذلك فى الجهود الطبية إبان حرب ١٩٥٦ على بورسعيد وكافأه الرئيس عبدالناصر. أى أن تاريخه الوراثى لا يشوبه شئ.

انفصل أبوه عن أمه وهو بعد مازال جنينا وكانت العلاقة بينه وبين أسرة أبيه ضعيفة جدا حيث فاجأهم بالزيارة وعمره حوالى ١٥ سنة ليتعرف عليهم ثم اختفى بعد ذلك ولا يزورهم إلا لماما. وعاش مع أمه التى سافرت فترة إلى الجزائر (لاتوجد تفاصيل عنها). وبعض الأخبار تقول أنه عاش مع جدته بعد انفصال أمه عن أبيه. وما يهمنا هنا هو أنه عاش طفولة غير مستقرة بسبب تفكك الأسرة، وهنا تبدأ جذور مشكلة ضعف الإنتماء فعندما يتعدد المربون لطفل وتتغير أماكن إقامته ويعيش فى ظروف بعيدة عن دفء

الأسرة وتماسكها تصبح مسألة الإنتماء محاطة بعلامات استفهام كثيرة.

يضاف إلى ذلك أنه لم يكن سعيدا بدراسته فى الجامعة فى كلية العلوم وكان يأخذ السنة فى سنتين حسب تصريحات عميد الكلية وتأخر فيها كثيرا، وهذه أزمة لا تواجه محمد العطار وحده وإنما يكتوى بها غالبية الشباب فى مصر حيث يعانون من المناهج الدراسية الصعبة والمنقطعة الصلة عن حياتهم العملية ويفتقدون الأمل فى الإستفادة منها بأى شكل فى حياتهم المستقبلية لذا نلاحظ منهم فتورا فى الإقبال على الدراسة التى لا يجدون منها عائدا مشجعا.

والمحطة الأخيرة لمحمد العطار فى مصر كانت عندما استأجر سيارة من أحد المكاتب وحدثت بها تلفيات نتيجة حادث ووجد نفسه مطالب بدفع ٧٠ألف جنيه لا يملك منها شيئا وإلا فعليه أن يقضى عقوبة بالسجن لمدة ثلاث سنوات، وهنا اتخذ قراره بالهجرة النهائية من مصر، والتى أعلن قبل ذلك مرارا لأفراد أسرته أنه غير سعيد بحياته فيها، وأنه لا يجد نفسه فى بلده.

وحين وصل إلى تركيا لم يتجه إلى السفارة الإسرائيلية –كما يدّعى البعض – وإنما ذهب إلى مفوضية شئون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة طالبا اللجوء الإنسانى والهجرة إلى أى دولة غربية، وهنا التقطه ضابط الموساد – حسب الروايات – وساعده على الحصول على حق اللجوء الإنسانى، وتوالت أحداث استغلال الضابط له بعد ذلك طبقا لما أوردته التقارير الأمنية.

ونحن نترك التفاصيل الأمنية والقضائية للسلطات المسئولة تقرر فيها ما تشاء ولكن يهمنا هنا الجانب النفسى والإنسانى والذى شكل عامل خطورة فى سقوط محمد العطار ويمكن أن يشكل عامل خطورة مع أى شاب مصرى مغترب أو غير مغترب. فهذا الشاب قد تعرض لظروف أسرية صعبة خلخلت شعوره بالإنتماء العائلى رغم أنه ينتمى إلى أسرة عريقة فى نسبها ووطنيتها، وازدادت هذه الخلخلة بسبب تعثره الدراسى وشعوره باللاجدوى من التعليم الذى يرى (مثل كثير من الشباب) أنه لن يحقق له حلما، ثم يواجه أزمة مادية تهدد بوضعه فى السجن لمدة ثلاث سنوات، أى أنه وجد أن استمراره

فى بلده يحمل مخاطر ضياع مستقبله تماما، وهنا تصبح الهجرة حلما (ليس لمحمد العطار وحده وإنما لغالبية شباب مصر، وهذا مؤشر خطير يجب أن نتداركه جميعا قبل فوات الأوان وسقوط المزيد من الضحايا)، وحين يهاجر شاب فى مثل هذه الظروف فإنه يعمل كل ما يستطيعه لتثبيت وجوده فى البلد الغريب لأن طريق العودة أمامه مغلق ومحاط بمخاطر كثيرة أقلها السجن. وهذا يجعل محمد العطار فى غاية الضعف أمام من يقدم له المساعدة على استكمال مشروع هجرته. ولا يخفى علينا المشاعر السلبية المتراكمة فى نفس شاب خرج من بلده مضطرا بعد أن ضاقت به السبل وعانى الكثير من المشاكل الحياتية، تلك المشاعر التى تشكل أرضية لاتخاذ مواقف سلبية تجاه البلد الذى سبب له كل هذه المعاناة وتركه يواجه آلام الغربة ومصاعبها، وفى نفس الوقت تلوح الأيدى التى تبدو حانية فتأخذه وتسهل له سبل الحياة التى افتقدها وتساعده على تجاوز أزمته مقابل فاتورة يتم سدادها ربما من وطنيته.

وهذا يجعلنا فى حاجة شديدة إلى مراجعة ظروف النشأة وظروف الحياة وظروف التعليم ومسألة غياب الحلم لدى الشباب المصرى ومسألة الإنتماء التى تضعضعت بسبب الظروف الإقتصاديةوالإجتماعية والسياسية التى تمر بها البلاد وتجعل حلم الشباب الهرب خارج بلادهم للحصول على فرصة للحياة وتحقيق أحلامهم التى أجهضت فى بلدهم الأم. وهذا ليس تبريرا للجريمة التى وقعت وإنما هو تفسير ووقاية حتى لا نفاجأ بالمزيد من الشباب المصرى يقع فريسة فى أيدى الموساد الإسرائيلى وغيره تحت ضغط الحاجة والضياع وضعف الإنتماء.

ولا تكتمل الصورة إلا بإضافة مشهد ثلاثة آلاف من بدو سيناء يقفون محتجين وغاضبين على الحدود مع إسرائيل طالبين العبور إلى إسرائيل غضبا من وطن أهانهم وضيق عليهم معيشتهم وهز استقرارهم وأهان مشايخهم ونساءهم. ولا يكتمل المشهد بغير إضافة صورة القضاة وهم يقفون غاضبين محتجين أمام ما يحدث من انتهاكات للشرعية التى ينتسبون إليها وللعدل الذى يحرسونه، وصورة العمال الغاضبين المطالبين بتوفير الحد الأدنى من لقمة العيش. ورغم درامية هذا المشهد ودلالاته الخطيرة فيما يخص

الإنتماء والمحبة والكراهية وغيرها من المشاعر، ورغم الدراسات النفسية والإجتماعية والسياسية التى يقدمها المتخصصون إلا أننى أعتقد أن الأمور ستسير كما هى إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا ، فقد أصبحنا نحن أبناء مصر المحروسة أشبه بمجموعة من البشر وقفوا أمام مريض يحتضر، وكلنا يتحدث عن اسباب مرضه وخطورة حالته إلا أنه لا توجد حتى الآن يد قادرة مخلصة تمتد لمساعدته، والجميع ينتظر وقوع الكارثة أو قدوم الحل من الخارج أو هبوطه من السماء.

* * *

الغش فى الإمتحانات

أحد الأصدقاء كانت توكل إليه مسئولية الإشراف على لجان الإمتحانات فى أماكن مختلفة وكان موسم الإمتحانات بمثابة أزمة حقيقية له ولأسرته وللجان التى يشرف عليها، فقد كان الرجل من ذلك الطراز الذى برفض الغش بكل أنواعه وكل درجاته، ولا يقبل الحلول الوسط أو الحلول التوفيقية أو التلفيقية أو المواءمات أو المساومات أو المجاملات أو التهديدات، وفى أكثر من مرة كان ينجو من الموت بأعجوبة، فقد كان أهل الطلاب يتحرشون به وينتظرونه خارج اللجنة ليفتكوا به لأنه ضيق عليهم الخناق فلم يأخذوا حقهم فى الغش، وكان يتم هذا فى أحيان كثيرة بإيعاز من بعض المراقبين ومشرفى الأدوار الذين كانوا يرفضون أسلوبه المتشدد (فى نظرهم) فى المراقبة وكانوا يحرضون الأهالى عليه بشكل مباشر أو غير مباشر، وكان الخطر يتفاقم إذا كانت اللجنة فى أماكن ريفية نائية حيث العائلات والعصبيات وحيث انعدام وسائل الحماية لغريب جاء ليتحكم فى مصائر أبنائهم ويمنع عنهم حقا من حقوقهم التى اعتادوا عليها سنوات طويلة. وحين كان يحاول طلب الحماية من الأمن لم يكن يجد أذنا صاغية بل كانوا يعتبرونه مثيرا للمشاكل والقلاقل والشغب بسلوكه المتعنت تجاه محاولات الغش المعتادة، وكانوا يعتذرون له بلباقة (أو بدونها) بأن القوة غير كافية لمواجهة بلدة أو حى أو قرية، فما كان منه إلا أن يضع روحه على كفه ويخرج من اللجنة معرضا نفسه لأخطار عديدة. ونظرا لكثرة المشاكل فى هذا الشأن قرر الإعتذار عن رئاسة لجان الإمتحانات، وقبلت الإدارة اعتذاره بسرعة وسهولة (على غير عادتها فى هذا الشأن وفى غيره) ربما تفاديا لمشاكل كثيرة سببها لهم.

وعايشت محنة أحد رجال الأمن حين حاول التصدى لمحاولة غش جماعى بالميكروفون أمام أحد المدارس يقوده أحد الأعيان، وكانت النتيجة أن ذهبت شكاوى فى رجل الأمن تقول بأنه أهان هذا الرجل من الأعيان وأهان أهل هذه البلدة، فجاءت

حركة التنقلات لتدفع برجل الأمن هذا إلى إحدى محافظات الصعيد.

ورأيت فى يوم من الأيام مشادة بين اثنين من أعضاء هيئة التدريس فى أحد الجامعات وعلمت أن سببها أن أحدهما قد وصّى الآخر على أحد الطلاب ثم اكتشف أنه لم يقم بعمل اللازم كما يتوقع هو وهو الدرجة النهائية بلا نقصان على الرغم من أن هذا الطالب – كما ذكر عضو هيئة التدريس الآخر – لم يفتح فمه بكلمة إجابة واحدة تبرر إعطاءه أى درجة ناهيك عن الدرجة النهائية.

قد تكون شعرت بالضيق والملل أيها القارئ وتقول: وما الجديد فى ذلك؟.... وهذه هى المشكلة أن أمر الغش فى الإمتحانات لم يعد يثير انفعالا ذا قيمة عند مستقبله، فالأمر لا يعدو شقاوة طلاب أو رأفة مراقبين أو حرص أولياء أمور على نجاح وتفوق أبنائهم. وهذا جزء من الخلل الذى أصاب الضمير العام فأصبح لا يستنكر بعض الظواهر الإجتماعية مثل الرشوة أو الغش فى الإمتحان، وحتى لو تحدث عنها فإنه يتحدث عنها كأمر واقع لا مفر منه، وأن هناك أشياء أهم وأخطر جديرة بالحديث فيها وعنها.

والغش فى الإمتحانات تكمن خطورته فى أنه التجربة الأولى للغش فى الحياة لذلك فهو البذرة الأولى لكل أنواع الغش والتدليس فى أى مجتمع مثل التزوير فى الأوراق الرسمية (تذكر خروج الشباب فى مصر للدفاع عن مطرب شاب حوكم بسبب تزويره لشهادته الدراسية ولشهادة إعفائه من الخدمة العسكرية ودلالة ذلك على الميزان القيمى له ولهم)، وانتحال الشخصيات، والخداع فى الخطبة والزواج ، وتقديم ضمانات وهمية للبنوك للحصول على قروض يتم تهريبها والهرب معها، وتزويرالإنتخابات، واغتصاب حقوق الشعوب، إلى آخر ذلك من الجرائم التى تنتمى فى بداياتها إلى استحلال الغش فى الإمتحانات من الطالب ومن المراقب ومن المجتمع.

والآن نحاول أن نستقرئ التركيبة النفسية للغش فى الإمتحانات وذلك بقراءة طبيعة ودوافع أطراف هذه العملية كالتالى:

طبيعة ودوافع من يغش: من يقوم بفعل الغش يمكن أن يندرج تحت أحد الأنماط التالية:

١ – الطمّاع: وهو الذى يريد أن يأخذ أكثر مما يستحق وأكثر مما تسمح به ملكاته وقدراته

٢ – اللص: وهو الذى يسلب الآخرين ممتلكاتهم وحقوقهم (الفكرية فى هذه الحالة)

٣ – المغامر: وهو الذى يجد فى الغش نوع من المغامرة والمخاطرة يسعد بها لأنها خروج عن المألوف يعطى شعورا بالقدرة على الأعمال الإستثنائية وعلى اختراق الحواجز

٤ – المتمرد: فالغش هنا خروج على السلطة (المدرسية أو الإجتماعية أو السياسية) وكسر لقوانينها وخداع لها، وكل هذا يعطى الإحساس بكسر سلطة المدرس والمدرسة والمجتمع والحكومة.

٥ – السيكوباتى: الذى لا يحترم نظم وقوانين المجتمع ويعيش لرغباته ومكاسبه ولا يتعلم من أخطائه.

٦ – السلبى الإعتمادى: الذى لا يحب أن يتعب أو يجتهد فى تحصيل العلم ولكنه يعتمد دائما على جهود الآخرين ومساندتهم.

٧ – الإنتهازى: الذى ربما لايمارس سلوك الغش طول الوقت ولكنه على استعداد فى ظروف معينة أن يغير قيمه ومبادئه إذا وجد أن هذا سيحقق مصالحه فى ظرف بعينه.

طبيعة ودوافع من يغشش: أما من يتطوع بإعطاء معلومات للآخرين أثناء الإمتحانات فيمكن أن يكون أحد الإحتمالات التالية:

١ – فاقد الثقة بنفسه: لذلك يريد أن يثبت للآخرين أنه يعرف مالا يعرفونه وأن باستطاعته تقديم العون لهم

٢ – المتسول للحب: وهو شخص يفتقد الحب من الناس (أو على الأقل يشعر بذلك) لذلك فهو يتطوع لخدمتهم استجداءا لحبهم واهتمامهم

٣ – صاحب المروءة الكاذبة: والذى يتخيل أن مساعدة الزملاء والأصدقاء فى

الإمتحان نوع من المروءة والشهامة والإيثار

طبيعة من يرضى بالغش من المراقبين ورؤساء اللجان: هؤلاء يمكن أن يندرجوا تحت أحد الإحتمالات التالية:

١ – المشوه أخلاقيا والذى اختلطت لديه الأمور فلم يعد يرى فى الغش أى مشكلة بل بالعكس ربما يراه نوعا من الرأفة والرحمة للطالب ولأسرته وخدمة للمجتمع بأن ينجح أكبر عدد من الطلاب.

٢ – المجامل، الذى ربما لا يرغب فى تسهيل الغش ولكنه يحب المجاملات ويضعف أمامها فلا يستطيع أن يقول لا لمن يطلب منه شيئا

٣ – السلبى المستسلم الضعيف، الذى لا يستطيع أن يقول لا رغم رفضه الداخلى لهذا الأمر ومعرفته بعدم مشروعيته إلا أنه يؤثر السلامة ويتجنب المواجهة ويترك الأمور تسير كما يريد الآخرون

٤ – السيكوباتى، الذى يحقق منافع من وراء تسهيل الغش سواء كانت مكاسب مادية أو وظيفية أو اجتماعية أو غيرها، وهو فى سبيل ذلك يدوس النظم والقوانين والقيم لأنه منذ البداية لا يحترمها ويعتبرها قيودا غير منطقية على سلوكه

طبيعة المجتمع الذى ينتشر فيه الغش:

هو مجتمع سقطت فيه قيم كثيرة أهمها الصدق والعدالة واحترام العمل الجاد وجعله وسيلة للإرتقاء فى السلم العلمى والمهنى والإجتماعى، وهو مجتمع أصبح ضميره العام معتلا فأصبح لا يستنكر مثل هذه الظواهر بل يراها أمورا بسيطة لا تستدعى القلق والإستنفار وأنها مجرد شقاوة طلاب لا تستدعى أكثر من التنبيه أو الزجر اللطيف فى أصعب الأحوال، وهو مجتمع يقبل الرشوة ويقبل الكذب ويقبل تزوير الأوراق الرسمية وتزوير الإنتخابات وتلفيق القضايا وتشويه سمعة الناس، وهو مجتمع لم يعد للمصلحين فيه صوت مسموع بل علا فيه الباطل وتوحّش وأصبح يفرض قيمه وموازينه بلا حرج أو خجل.

والطالب حين يمارس الغش منذ صغره فإنما هو يتعلم هذا السلوك بكل تفاصيله، وفى كل عام يتفنن فى وسائل جديدة للغش مما يكسبه مهارات سيكوباتية تتراكم معه مع الزمن حتى إذا كبر صار سيكوباتيا كبيرا يخدع الناس ويسطو على حقوقهم دون أن يتمكنوا من فضحه أو إيقافه عن ذلك لأنه يكون مسلحا بقدرات غير عادية اكتسبها على مدار السنين من خبرات الغش المدرسى والغش الحياتى، وربما يصل هذا الغشاش الذكى الطمّاع السيكوباتى المحترف إلى مناصب قيادية تمكنه من نشر قيمه ومفاهيمه على مستوى أوسع فى المجتمع، وبهذا يهئ وجود قواعد أخلاقية فاسدة تحتمى بقشرة زائفة من الأخلاق الواهية يخدع بها الآخرين. ومع تزايد أعداد الغشّاشين فى مواقع مختلفة نجد أن المجتمع يصبح مخترقا ومهلهلا وقائما على أخلاق نفعية انتهازية غير أخلاقية، وربما يكون التبرير لهذا التدهور الأخلاقى أن الحياة العصرية تستلزم المرونة والتعامل بواقعية وأن ما دون ذلك هو المثالية الرومانسية التى لا تصلح للحياة اليومية بتعقيداتها، وهكذا يتدهور الميزان الأخلاقى للمجتمع ككل تحت دعوى الأمر الواقع الذى فرضه مجموعة من الغشّاشين الذين سكت عن غشهم المجتمع أو تواطأ معهم فيه. وفى المقابل نجد المكافحين والجادين والصادقين يكابدون مصاعب جمة حيث أصبحت المنظومة الإجتماعية فى صالح الكذّابين والمنافقين والمخادعين واللصوص ومن يدور فى فلكهم أو ينتفع منهم، وبهذا تسقط أو تضعف مع الوقت تلك الرابطة المقدسة بين العمل وقيمة العائد، فتنتشر قيم الفهلوة والنفاق والخداع.

هل ظن أحدنا فى يوم من الأيام أن الغش فى الإمتحانات له كل هذه الأبعاد المخيفة، وإذا كنا قد ظننا ذلك فلماذا تواطئنا بالسكوت أو بالضعف فلم نقاوم هذا الوباء المستشرى فى بلادنا والذى يفرخ لنا كل يوم فاسدين محترفين يهددون قيم المجتمع ويشوهون فطرته. ومن هنا نفهم قول الرسول ﷺ: «**من غشنا فليس منا**».

* * *

التحرش الجنسى

مايدفعنا للكتابة في هذا الموضوع هو ما نشر مؤخرا في مجلة «تايم الأمريكية» من أن مصر تحتل المركز الأول في العالم من حيث نسبة حدوث حالات التحرش الجنسي، وأن الكثير من السفارات الأجنبية تحذر رعاياها من التعرض للتحرش في مصر، يضاف إلى ذلك حوادث التحرش الجماعي التي هزت المجتمع المصري وتكررت في مناسبات الأعياد في شارع طلعت حرب وشارع جامعة الدول العربية بالقاهرة، وفي مصيف رأس البر. ويبدو هذا غريبا ومستهجنا في مجتمع عربي متدين على مستوييه المسلم والمسيحي، ويوجد فيه الأزهر وآلاف المساجد والكنائس. ومن هنا جاءت أهمية الدراسة لمحاولة سبر أغوار هذه المشكلة المزعجة والمشينة.

ويبدو أن الزمن الحالى والقادم سيشهدان حالات كثيرة مما نطلق عليه التحرش الجنسى وهو لفظ جديد على الثقافة العربية والتى عرفت الغزل (والمعاكسة)، والمراودة، وهتك العرض، والزنا والإغتصاب. وهنا يلزمنا تعريف هذه الأشياء ليسهل التفرقة بينها، وليتمكن الضحايا من معرفة حقوقهم القانونية فى الحالات المختلفة، ولنبدأ بتعريف الغزل وهو ذكر الصفات الجميلة للمحبوب بهدف التودد إليه وإسعاده، ففى المعجم الوجيز: غزل غزلا: شغف بمحادثة النساء والتودد إليهن. وغازل المرأة: حادثها وتودد إليها. وتغزّل بالمرأة: ذكر محاسنها ووصف جمالها. ويوجد لفظ عصرى آخر وهو «المعاكسة» وفيه يتلفظ الطرف المعاكس بعبارات الإعجاب بالطرف الآخر أو بعرض نفسه عليه للحب أو للزواج، وقد تكون تلك العبارات صريحة أو تكون رمزية، وهى فى الغالب غير جارحة، وأحيانا كثيرة تكون لطيفة وقد تعجب الطرف الآخر حتى ولو لم يستجب لها حياءا أو خجلا.

أما «المراودة» فهو لفظ ورد فى القرآن الكريم فى سورة يوسف، واللفظ يصف محاولة امرأة العزيز إغواء يوسف وإغرائه وإثارته لكى يقوم بمواقعتها، ولكنه عليه السلام صمد

أمام هذه المراودة. إذن فالمراودة تجمع معانى الإغواء والإغراء والإثارة فى كلمة واحدة.

أما هتك العرض فقد عرفه القانون المصرى فى المادة ٢٦٨ بأنه «فعل مخل بالحياء يقع على جسم مجنى عليه معين ويكون على درجة من الفحش إلى حد مساسه بعورات المجنى عليه التى لا يدخر وسعا لصونها وحجبها عن الناس أو إلى حد اتخاذ المجنى عليه أداة للعبث به فى المساس بعورات الغير». ويوجد فى القانون المصرى ١٣ مادة تتحدث عن هتك العرض وتحديدا فى قانون العقوبات فى الكتاب الثالث والرابع من المادة ٢٦٧ إلى المادة ٢٧٩. وفى المادة ٢٦٩ نص على أن «كل من هتك عرض صبى أو صبية لم يبلغ سن كل منهما ١٨ سنه كاملة بغير قوة أو تهديد يعاقب بالحبس ثلاث سنوات». وفى المادة ٣٠٦ مكرر ينص القانون على أنه «يعاقب بالحبس مدة لا تتجاوز سنه وبغرامة لا تقل عن مائتى جنيه ولا تزيد على ألف جنيه كل من تعرض لأنثى على وجه يخدش حياءها بالقول أو بالفعل فى طريق عام أو مكان مطروق...» ويسرى حكم الفقرة السابقة إذا كان خدش حياء الأنثى قد وقع عن طريق التليفون. وفى المادة ٢٦٨ نص صريح بأن «كل من هتك عرض إنسان بالقوة أو بالتهديد أو شرع فى ذلك يعاقب بالأشغال الشاقة من ثلاث سنوات إلى سبع سنوات، وإذا كان عمر من وقعت عليه الجريمة المذكورة لم يبلغ ١٦ سنة كاملة يجوز إبلاغ مدة العقوبة إلى أقصى الحد المقرر للأشغال الشاقة المؤقتة».

فإذا جئنا إلى الزنا كما ورد فى الشريعة الإسلامية نجد الأقوال التالية: قال أبو حنيفة:«الزنا هو الوطء الموجب للحد، وأنه فى عرف الشرع واللسان وطء الرجل المرأة فى القبل». وقال مالك بأن الزنا «هو تغييب الرجل حشفته فى فرج آدمى مطيق عمدا بلا شبهة». أما الماوردى فقد جعل الزنا شاملا القبل والدبر فقال فى تعريفه للزنا بأنه «تغييب البالغ العاقل حشفة ذكره فى أحد الفرجين من قبل أو دبر ممن لا عصمة بينهما أو شبهة». غير أن الرأى الراجح فى الفقه الإسلامى هو الذى يقصر الزنا على ما كان منه فى القبل دون الدبر، وخاصة أن الإتيان فى الدبر لا تتوفر فيه الحكمة من التحريم وهو ما يأخذ به القانون الوضعى الذى يعتبر الإتيان فى الدبر هتك عرض وليس زنا ويعاقب عليه بعقوبة أقل شدة.

وتستخدم بعض القوانين الجزائية العربية كلمة «مواقعة» ومعناها المباضعة والمخالطة. كذلك قد تستخدم كلمة «الجماع» ولها نفس المعنى. وعلى ذلك فإن الوطء والمباضعة والمخالطة والجماع هى أوصاف مختلفة لفعل واحد وهو الزنا الذى قد يوصف أيضا بالنكاح، وإن كان للنكاح معنيان، أحدهما عقد الزوجية، والثانى الوطء أو المواقعة أو الجماع وكلها سواء (عن كتاب زنا المحارم للدكتور أحمد المجدوب ٢٠٠٣، مكتبة مدبولى).

وهناك لفظ آخر فى الثقافة العربية وهو «المباشرة»، ويعنى الأفعال التى تسبق الوطء مثل اللمس والنظر إلى الأعضاء التناسلية، والتقبيل والعناق والمفاخذة، وقد يؤدى هذا إلى الوطء الكامل بعد ذلك أو لا يؤدى.

فإذا جئنا إلى تعبير التحرش الجنسى، وهو تعبير – كما ذكرنا – يبدو جديدا على الثقافة العربية فهو ترجمة للتعبير الإنجليزى:

Sexual Harrassment أو Sexual Assault

، وبالبحث عن معنى الكلمة فى القاموس وجدنا المعاتى التالية (المعجم الوجيز، عام ٢٠٠٠ طبعة وزارة التربية والتعليم، مصر، ص ١٤٤): حرشه حرشا: خدشه. وحرش الدابة: حك ظهرها بعصا أو نحوها لتسرع. وحرش الصيد: هيّجه ليصيده. والشئ الحرش: الخشن. وحرّش بينهم: أفسد بينهم. وتحرّش به: تعرّض له ليهيّجه.

ويتضح من هذه المعانى اللغوية أن لفظ التحرش يجمع بين القول والفعل، وأنه يحمل معنى الخشونة أو التهييج أوالإعتداء الخفيف. وهذا المعنى اللغوى العربى بالإضافة إلى دلالات المعنى الإنجليزى يتفقان على جمع معنى التحرش للقول والفعل، وهذا يدفع قول القائلين بأن التحرش يتوقف عند القول فقط دون الفعل، وأن الفعل يدخل فى نطاق هتك العرض. والحقيقة أن التحرش درجة أقل من هتك العرض بمعناه القانونى فالأول يتضمن إيماءات أو تلميحات أو نظرات أو كلمات أو لمسات أو همسات ليست بنفس درجة الفجاجة والعنف فى هتك العرض، ولكنها تجرح مشاعر أى أنثى محترمة تعتز

بكرامتها الإنسانية وبهويتها الأنثوية. ولهذا نقترح هذا التعريف للتحرش سواء كان من ذكر لأنثى أو من أنثى لذكر أو بين طرفين من نفس الجنس:

«التحرش الجنسى هو أى قول أو فعل يحمل دلالات جنسية تجاه شخص آخر يتأذى من ذلك ولا يرغب فيه».والتعريف بهذا الشكل يجمع بين الرغبة الجنسية والعدوان من طرف إلى طرف بغير تراض. والتحرش بهذا المعنى يجمع بعض عناصر المراودة التى ذكرناها من قبل والتى وردت فى سورة يوسف وبين هتك العرض، ولكنها لا تقتصر على أيهما. والتحرش قد يكون بنظرة فاحصة متفحصة داعرة ولكن هذا مما يصعب إثباته لذلك اكتفينا فى التعريف بالقول أو الفعل، ومع هذا إذا وجدت طريقة أو شهود يثبت بها تلك النظرة تصبح تحرشا. وقد نحتاج إضافة شئ فى القانون يغطى أعمال التحرش مع ذكر أمثلة لها استجدت فى واقع الحياة العصرية ولم تغطها عقوبات هتك العرض والتى صيغت فى ظروف مجتمعية كانت تتسم بالفصل بين الرجال والنساء فى أغلب الأحوال، أما الآن ومع هذا الحضور الأنثوى فى كل مكان وكل موقع، ومع هذا الإقتراب بين الجنسين فى الشارع والمواصلات وأماكن الدراسة أو العمل المفتوحة والمغلقة،أصبح هناك احتياجا لضبط وتقنين السلوكيات بشكل أكثر دقة وتفصيلا.

حجم الظاهرة:

فى دراسة للدكتور أحمد عبدالله (٢٠٠٦) تبين أن أكثر من ٦٠٪ من الفتيات يذكرن أنهن قد تعرضن للتحرش بصورة أو بأخرى خلال حياتهن. وفى دراسة للدكتور على إسماعيل وآخرين (٢٠٠٦) على المرضى المترددين على عيادة الأمراض النفسية بمستشفى الحسين الجامعى تبين أن ٩٪ من العينة قد عانوا من الإنتهاك الجنسى فى فترة من فترات حياتهم (أو حياتهن). وفى دراسات تمت فى المجتمعات الغربية تبين تعرض الفتيات للإنتهاك الجنسى بنسبة ١٣٪ وتعرض الفتيان بنسبة ٤٪، والإنتهاك هنا يتراوح بين هتك العرض والزنا والإغتصاب.

القيم الإجتماعية والتحرش:

يوجد فى بعض المجتمعات البدوية ما يعرف ب «صيحة الضحى» وهى تعنى أهمية

صيحة أى امرأة فى وقت الضحى (وقت الخروج للرعى وأداء المصالح) وسرعة الإستجابة لهذه الصيحة من أقرب شخص يسمعها وهبته للنجدة، مع العقاب الشديد الذى توقعه القبيلة على من تعدى على حرمة المرأة. وفى التاريخ الإسلامى قام المعتصم بتجييش الجيوش لغزو الروم استجابة لصيحة امرأة قالت فى لحظة غبن «وامعتصماه».

أما الآن فقد تراجعت هذه القيمة كثيرا ولم يعد الرجل (أو المجتمع) ينتفض لاستغاثة امرأة (اغتصبت فتاة فى ميدان العتبة فى القاهرة فى وضح النهار ولم يغثها أحد، وحدث تحرش جماعى بالفتيات فى يوم العيد فى شارع طلعت حرب فى وسط القاهرة ولم يتحرك أحد، أو تحرك القليلون متأخرا جدا)، وربما يكون هذا راجعا إلى نظرة المجتمع المعاصر للمرأة على أنها مخلوق أدنى أو مخلوق شرير أو أنها خرجت إلى الشارع وإلى الحياة لتزاحم الرجل وتخطف منه فرص العمل والتفوق لهذا يتركها تواجه مصيرها، وربما يشمت فيها الرجل إن تعرضت لسوء. وقديما كانت الأسرة ترفض أن يعاكس ابنها فتاة فى الشارع أو عن طريق التليفون، والآن لا نجد مثل هذا الرفض بل أحيانا تساعد الأم (أو تصمت) على علاقات ابنها العاطفية أو تفعل ذلك أحد الأخوات دون حرج.

طرق التحرش:

١ – **لفظية**: واللفظ هنا يختلف عن ألفاظ الغزل الرقيقة والمتوددة، فهو يميل إلى الفجاجة والصراحة الجارحة، ويميل إلى الدلالات الجنسية، وأحيانا يستخدم المتحرّش ألفاظا سوقية يعبر بها عن أطماعه فى الضحية، وأحيانا أخرى تأخذ معنى المراودة بما تتضمنه من إغواء وإغراء وإثارة.

٢ – **جسدية**: وجسدية هنا تتضمن النظرة الفاحصة المتفحصة، أو الإيماءة الفاضحة الجارحة، أو استعراض بعض أعضاء الجسم وخاصة الأعضاء الجنسية، أو أخذ أوضاع معينة ذات دلالات جنسية، أو اللمس أو التحكك أو الضغط، أو محاولة الإمساك بالضحية أو ضمها أو تقبيلها عنوة.

أماكن التحرش:

١ – خارج البيت: يمكن أن يحدث التحرش فى الشارع ويكون فى صورة كلمات بذيئة أو نظرات متفحصة أو اعتراض لطريق لضحية أو محاولة لمسها أو الإحتكاك بها، وقد يبدو هذا وكأنه غير مقصود بحيث إذا اعترضت الضحية ادّعى الجانى بأن هذا حدث صدفة دون قصد.وفى وسائل المواصلات يغلب أسلوب التحكك واللمس والضغط بحجة الزحام أو محاولة المرور من بين الناس، أو قد يظهر بعض الركاب أنه نائم فيلقى بيده أو رجله أو رأسه على أحد أجزاء جسد الضحية على اعتبار أنه ليس على النائم حرج، فإذا تقبلت الضحية أكمل مشوار التحرش أما إذا شكت أو تململت فإنه يبدى اعتذاره ويتعلل بنومه.ولهذا تم تخصيص عربات ترام للنساء (حتى فى لندن) لحمايتهن من التحرش (ومع هذا نجد الكثيرين من النساء والفتيات يفضلن الركوب فى عربات الرجال رغم أنها أكثر اذدحاما!!!!!!!)، وفى كثير من الأحيان يحرص من يقطع التذاكر فى القطارات أو الحافلات على أن يجعل النساء فى كراسى متجاورة حتى لا يعرضهن لمضايقات المتحرشين، وهذا تقليد جميل نرجو أن يقنن. وفى الأسواق حيث الزحام والصخب وانشغال الناس بالفرجة والمساومة على الأسعار تكثر اللمسات والإحتكاكات، ولذلك يقصد العابثون الاسواق بالذات لتحقيق أغراضهم. وعلى الشواطئ حيث تسود حالة من التراخى فى القيم والأعراف على اعتبار أن الشاطئ مكان للهو والمرح، تنطلق رغبات المتحرشين فى صورة تأمل وتفحص للأجساد العرية ثم تعليقات على صاحبات الأجساد وإذا أمكن محاولات الإقتراب فاللمس بدرجاته على غير رغبة من الضحايا.وفى حمامات السباحة حيث تتعري الأجساد وتقترب يجد المتحرشون فرصة للإقتراب أو الإصطدام الذى يبدو غير مقصود ولا مانع لديهم من التظاهر بالإعتذار، والإعتذار نفسه يعطى للمتحرش فرصة للإقتراب والحديث مع الضحية وتصويب النظرات إليها عن قرب. وفى السينما حيث الظلام والتجاور بين الناس من كل الجهات يجد المتحرش الفرصة للمس أو القرص أو الضغط بالإيدى أو الأرجل أو إصدار تعليقات سخيفة وخارجة وجارحة على مسمع من الضحية. وفى

أماكن العمل المزدحمة أو المغلقة أو المعزولة خاصة إذا كانت هناك فرصة للخلوة الآمنة تستيقظ رغبات المتحرش (أو المتحرشة) وتخرج فى صورة نظرات ذات معنى أو كلمات ذات دلالة أو حركات أو لمسات أو همسات. وفى السجون حيث الحرمان الجنسى للجنسين والوحدة والعزلة وفقد الأمل والفراغ، كل هذا يوقظ الغرائز الدنيا فى الإنسان ويدفعه دفعا للتحرش وربما هتك العرض أو الإغتصاب، ولهذا تدعو جمعيات حقوق الإنسان إلى إتاحة الفرصة للمسجونين والمسجونات بالإلتقاء بزوجاتهم وأزواجهن لتصريف هذه الطاقة فى مساراتها الشرعية وذلك للتقليل من دوافع الإنحراف داخل السجون ولتلبية الإحتياجات الإنسانية الفطرية بشكل صحيح. ولا تخلو بعض الأماكن الراقية مثل النوادى من محاولات التحرش بأشكالها المختلفة. وفى الدروس الخصوصية تم رصد الكثير من حالات التحرش بالفتيات أو بالأطفال بعضها تم الإبلاغ عنه وبعضها يتم التغطية عليه اتقاءا للفضيحة أو تجنبا للمشاكل، وبما أن الدروس الخصوصية أماكن لالتقاء الشباب والرجال بالفتيات والأطفال فى أماكن مغلقة لا تخضع لأى رقابة حكومية أو أسرية لهذا تكثر حالات التحرش وماهو أكثر من التحرش فى هذه الأجواء الخفية والمعزولة.

وقد يحدث التحرش فى بعض العيادات أو المستشفيات حين تمتد عين أو يد الطبيب أو التمريض أو المساعدين إلى جسد المريضة فى غير ذات ضرورة. وفى مكاتب المديرين ورجال الأعمال حيث السكرتيرة الحسناء والمدير المتألق ينشط الطمع الذكورى لدى الرجل النرجسى فيرى أن جسد السكرتيرة وجمالها ملك يمينه، وربما تتحرش هى أيضا به فالجو فى داخل المكتب المغلق والتواجد الطويل والمريح معا يساعد كثيرا على ذلك.أما فى دور العبادة فربما يصعب تخيل وجود حالات تحرش حيث الجو الروحانى وحيث أن الناس تذهب إلى هناك لأداء العبادات وليس لإشباع الرغبات، إلا أن الواقع يقول بأن ثمة حالات تحرش تمت وتتم فى بعض دور العبادة حيث يأخذ المتحرش دور الواعظ أو المعلم أو المحفظ ويختلى بالأطفال أو (تختلى بالفتيات) وهنا يحدث المحظور وقد يأخذ شكل لمسات أو أحضان قد تبدو أبوية ثم تتطور مع الوقت إلى أشياء أكثر وضوحا، وقد

يخشى أو يخجل الطفل من الإفصاح عنها لأبويه فيستمر الوضع لشهور أو سنوات والأبوين مطمئنين لوجود ابنهما أو ابنتهما فى أحد دور العبادة تحت رعاية شيخ أو واعظ أو محفظ يتظاهر بالتقوى والورع.

٢ – داخل البيت: وقد يحدث التحرش من أحد المحارم كالأب أو الأخ الأكبر أو الأم أو الأخت الأكبر، أو من أحد الأقارب كالعم أو الخال أو غيرهم. والإيذاء النفسى الذى يحدث من تحرش أحد المحارم أو أحد الأقارب يفوق بكثير ما يحدث من الغرباء فهو يأتى ممن يتوقع منهم الرعاية والحماية والمحافظة، لذلك حين يحدث تهتز معه الكثير من الثوابت وتنهار الكثير من الدعائم الأسرية والإجتماعية وتدع الضحية فى حالة حيرة واضطراب.

بيئة التحرش:

يبدو أن الظروف الحياتية الحالية تمثل ما يمكن أن نطلق عليه «بيئة محرضة على التحرش» ونذكر منها ما يلى:

١ – **الإذدحام:** فحين تتقارب الأجساد إلى درجة الإلتصاق فى البيت والشارع والمواصلات والمدارس والجامعات والنوادى والشواطئ وفى كل مكان فإن هذا يشكل أرضية مهيجة ومنشطة لدوافع التحرش لدى المهيئين لذلك، وربما لدى غيرهم لممارسة التحرش. وهناك لدى علماء الإجتماع ما يسمى بالمساحة الحضارية وهى المساحة التى يتحرك الفرد فيها داخل المجتمع، ومن المعروف أنه كلما تقلصت هذه المساحة الحضارية كلما كثرت الإحتكاكات والمشكلات فى التعامل بين الناس وزادت الميول العدوانية.

٢ – **اقتراب الجنسين فى كل مكان:** فنظرا لخروج الفتيات والنساء للدراسة والعمل فقد أصبح الحضور الأنثوى والإقتراب الأنثوى أحد مظاهر الحياة الحالية، وفى غياب الإشباع الكافى لاحتياجات الجنسين وغياب القيم الأخلاقية والدينية، تندفع النفوس المحرومة والمنفلتة تخطف ماليس من حقها متعللة بالحرمان أو القرب.

٣ – **العشوائيات:** وهى بيئة تجمع بين الإذدحام والفقر والحرمان والتلوث البيئى

والأخلاقى، ولذلك فهى بيئة نموذجية لتصدير كل الأمراض والتشوهات الأخلاقية والإجتماعية إلى بقية قطاعات المجتمع وطبقاته.

٤ - **الخطاب الدينى والإعلامى**: فالخطاب الدينى المتشدد الذى يصور المرأة على أنها جسد مدنس مسكون بالغواية والإغراء ويجب إخفاءه أو وأده بعيدا عن الأنظار، هذا الخطاب يجعل المرأة جسدا مرغوبا بالفطرة الطبيعية لدى الذكور ومكروها ومحتقرا فى نفس الوقت لدنسه وغوايته. وهذه التركيبة تشكل أرضية للتحرش فالمتحرش هنا يتوق إلى هذا الجسد ويرغبه وفى نفس الوقت يخافه ويحتقره. والخطاب الإعلامى على الرغم من تناقضه مع الخطاب الدينى المتشدد إلا أنه يصل تقريبا إلى نفس النتيجة فهو يعرض جسد المرأة عاريا ويستخدمه للترويج للسلع والأفلام والمسرحيات والأغانى فيبعث برسالة إلى المشاهد مفادها أن المرأة عبارة عن جسد جميل ملئ بالإغواء والإغراء ونداءات المتعة. إذن فكلا الخطابين يصلان إلى نتيجة واحدة (على الرغم من تناقضهما الظاهرى) مفادها أن المرأة ليست كيانا إنسانيا جديرا بالإحترام والحب والمودة والرعاية وإنما هى كائن شيطانى ملئ بألوان المتعة والغواية. ولهذا نجد المتحرش يحمل فى تكوينه كلا من الرغبة الجنسية والعدوان تجاه المرأة التى يتحرش بها فهو يريد أن يستمتع بجسدها دون اعتبار لها كإنسانة محترمة، فيخطف منها ما يريد ويتركها هملا بلا أى اهتمام أو رعاية.

٥ - **المسكرات والمخدرات**: وهى تساعد الشخص على إخماد قوى الضبط النفسى والأخلاقى، وبالتالى تحدث لديه حالة من الإنفلات وحالة من غيبوبة الضمير.

نماذج التحرش:

يأخذ التحرش أحد الصور التالية:

١ – **تحرش فردى**: مدير مع سكيرتيرته، موظف مع زميلته، مدرس مع تلميذته..... الخ.

٢ – **تحرش جماعى**: ويحدث حين يتجمع عدد من الأشخاص حول ضحية، وخطورة هذا النوع أن التجمع يعطى حالة من الجرأة وعدم الشعور بالمسئولية

الفردية وربما يدفع للتنافس بين المتحرشين فيأتون بأفعال يصعب قيام أحدهم بها على المستوى الفردى، وهذا ما حدث فى التحرش الجماعى فى وسط القاهرة أمام سينما مترو وفى شارع طلعت حرب فى عيد الفطر ٢٠٠٦ وأحدث حالة من الهرج والمرج والهلع الشديد لدى الضحايا ولدى غيرهم إذ ظهر الشباب المتحرش فى حالة انفلات غرائزى شديد ومتبجح وغير معتاد فى المجتمع المصرى.

٣ – **تحرش سلطوى**: ويتم فى الدول البوليسية المستبدة حيث يقوم الجهاز الأمنى بالتحرش بالمعارضين أو التحرش بزوجاتهم أو بناتهم بهدف نزع الإعترافات أو الضغط النفسى الشديد عليهم، وقد يتجاوز الأمر من التحرش إلى الإنتهاك أو الإغتصاب، وهذا يشكل قمة العدوان على كرامة الإنسان لأنه يصيبه فى شرفه وكرامته وكيانه الإنسانى يهدم فيه كل هذه المعانى. ويكثر التحرش الجنسى السلطوى تجاه المعارضات من الفتيات والنساء حيث يعلم النظام السلطوى المستبد حساسية هذه الأمور بالنسبة لأى فتاة أو امرأة فيعمد إلى تسليط أعوانه للتحرش بالمعارضات فى المظاهرات أو أثناء الإنتخابات وذلك لبث الرعب فى نفوسهن ونفوس غيرهن. وهذا التحرش السلطوى يحدث حين تنحدر أخلاقيات النظام الأمنى والسياسى إلى الدرك الأسفل من السلوك، وهو دلالة على فقد الشرعية وعلى فشل هذا النظام فى التحاور والمنافسة الشريفة.

٤ – **تحرش عكسى**: وهو يعنى أن تتحرش الأنثى بالرجل، وهو عكس المعتاد من تحرش الرجل بالأنثى على أساس أن الرجل هو الأقوى جسديا وهو المبادر بالتحرش فى أغلب الأحيان بسبب طبيعته الذكورية، ومع هذا نجد نماذج من تحرش المرأة بالرجل خاصة لو كانت أكبر سنا أو أكثر خبرة أو أعلى فى المنصب أو المكانة الإجتماعية، أو امرأة مسترجلة، أو لديها ميول جنسية مضطربة أو سادية النزعة.

سيكولوجية التحرش:

سوف نتتبع التركيبة النفسية لعملية التحرش على المحاور التالية:

١ – **المتحرش:** قد يكون المتحرش من النوع السادى الذى لا يستمتع بالعلاقات الجنسية العادية وإنما يسعده أن يأخذ ما يريده من الطرف الآخر بقدر من العنف والإجبار والقهر ،أو يكون من النوع الإستعرائى الذى يجد متعته فى استعراض أعضائه التناسلية أمام الضحية ويستمتع بنظرة الدهشة والإستغراب والخوف على وجه من يراه وكثير منهم تحدث له النشوة ويقذف لمجرد حدوث هذه الأشياء.وهناك النوع التحككى الذى يجد متعته فى الإلتصاق بالضحية فى الزحام والتحكك بها حتى يصل إلى حالة النشوة والقذف.أما النوع الهستيرى فيغلب وجوده فى النساء حيث تتحرش المرأة الهستيرية بالإغواء والإغراء للرجل الضحية لفظيا وجسديا حتى إذا تحرك نحوها صرخت واستغاثت بمن حولها لإنقاذها من هذا الحيوان الذى يريد اغتصابها، والشخصية الهستيرية تفتقد للثقة بنفسها لذلك تسعى للإغواء والإيقاع بالضحية لكى تطمئن على قدرتها على ذلك ثم تتعمد توسيع الدائرة لكى يعلم عدد من الناس كم هى مرغوبة ومطلوبة وكم هى جذابة لدرجة تخرج الناس عن طورهم. كل النماذج السابقة تعتبر نماذج مرضية مضطربة، والتحرش لا يقتصر على تلك النماذج بل يمكن أن يحدث من أشخاص عاديين فى ظروف تشجعهم على ذلك ، وهذا ما نسميه «التحرش العرضى» أو «التحرش الموقفى» ، بمعنى أنه سلوك عارض فى حياة الشخص أو سلوك ارتبط بموقف معين وليس بالضرورة أن يتكرر، على عكس التحرش المرضى الذى سبق وفصلناه ففيه الفرصة للتكرار لأن وراءه دوافع متجددة تدفع الشخص للتورط فيه من آن لآخر. وكون التحرش مدفوع باضطرابات مرضية لا يعفى صاحبه من المسئولية كما قد يظن البعض أو يتخوف، وإنما ربما يفسر لنا ما يحدث وينبهنا لإمكانية تكرار حدوثه، وربما فقط يخفف العقوبة فى بعض الظروف.

٢ – **المتحرش بها:** قد يكون التحرش بها عرضيا أو موقفيا بمعنى أنه يحدث فى ظروف معينة وأنها لا تقوم بسلوكيات مقصودة أو غير مقصودة تدفع لتكرار التحرش. أما القابلية لحدوث التحرش وتكراره فتكون أكثر فى الشخصيات الهستيرية والتى تقوم بالإغواء كما ذكرنا لتثبت لنفسها أولا وللآخرين ثانيا أنها جذابة ومرغوبة وهى لذلك

تحرص على التشهير بمن تحرش بها على الرغم من أنها لعبت دورا أساسيا فى حدوث التحرش فهى جانية ومجنى عليها فى ذات الوقت، وهذه الشخصيات لديها تاريخ طويل فى تحرش الناس بها فتحكى أن والدها قد تحرش بها وكذلك أخيها الأكبر وزميلها فى المدرسة ومدرسها الخصوصى والطبيب الذى يعالجها ورئيسها فى العمل، وكأن الرجال كلهم يتحرشون بها لفرط جمالها وجاذبيتها على الرغم من أن الشخصية الهستيرية تعانى فى داخلها من البرود العاطفى والجنسي لذلك تحاول أن تعوض ذلك بسلوك إغوائى .وهناك الشخصية السيكوباتية التى تدفع الآخرين للتحرش بها بهدف ابتزازهم وتحقيق مصالح معينة من هذا الإبتزاز، وقد يحدث هذا فى مجالات السياسة أو مجالات الجاسوسية أو فى وسط رجال الأعمال. أما الشخصية الماسوشية فهى تستمتع بالإهانة والإذلال والعنف الذى يمارسه المتحرش ضدها فلديها إحساس عميق بالذنب والإنحطاط وانعدام القيمة وأنها جديرة بالقهر والإذلال والإمتهان وهى تشعر بالراحة حين يمارس ضدها أى عنف جنسى أو جسدى، وهى لا تميل إلى الشكوى أو التشهير بالمتحرش (كما تفعل الشخصية الهستيرية) وإنما تكتفى بما تحصل عليه من إهانة وقهر وإذلال.

٣ - **الإحتياجات:** وضع عالم النفس الشهير أبراهام ماسلو ما يسمى بهرم الإحتياجات فوضع فى قاعدته الإحتياجات الأساسية (أو البيولوجية) وهى الطعام والشراب والمسكن والجنس، ويعلوها الإحتياج للأمن ويعلوه الإحتياج للحب، ويعلوه الإحتياج للتقدير الإجتماعى، ويعلوه الإحتياج لتحقيق الذات، ويعلوه الإحتياجات الروحية. فإذا فقد الإنسان أحد هذه الإحتياجات أو بعضها أو أغلبها فإنه يسعى لإشباعها من نفس نوع الإحتياج إن وجد أو من احتياج آخر أعلى أو أدنى حسب ما يتاح له. فمثلا إذا فقد الإنسان الحب أو فقد التقدير الإجتماعى أو فقد القدرة على تحقيق ذاته،أو فقد القدرة على التواصل الروحى فإنه ربما يلجأ إلى التحرش أو الإنغماس فى الجنس أو القمار أو المخدرات فى محاولة منه لسد فجوة الإحتياج المفقود. وقياسا على هذا نستطيع القول بأن الشباب الذين قاموا بالتحرش الجماعى فى وسط القاهرة كانوا يفتقدون ربما الإحساس بالكرامة أو الإحساس بالقيمة أو الإحساس بالحب أو الإحساس بالأمان

أو فقدوا القدرة على الإشباع الجنسي بطريق شرعى فانطلقوا يعوضون هذه الإحتياجات المفقودة من خلال التحرش.

٤ – **الدوافع والضوابط:** يتميز الإنسان الطبيعى بحالة من التوازن بين الدوافع والضوابط، وهذا ما يجعله يتمكن من السيطرة على دوافعه بناءا على الإعتبارات الدينية والأخلاقية والإجتماعية. وضوابط الإنسان ليست كلها داخلية متمثلة فى الضمير الشخصى، ولكن هناك الضابط الإجتماعى المتمثل فى ضغط الأعراف والتقاليد، وهناك الضابط القانونى الذى يمثل نوعا من الردع خاصة لأولئك الذين لم يردعهم الضمير ولم تردعهم الأعراف والتقاليد الإجتماعية. وإذا ضعف أى من هذه الضوابط أو ضعفت كلها، أو طغت الدوافع فإننا نتوقع خروج الرغبات (العدوانية والجنسية) فجة ومتحدية ومهددة للسلام الإجتماعى.

الآثار النفسية للتحرش الجنسي:

هناك آثار سريعة تظهر مباشرة أثناء حالة التحرش وتستمر بعدها لعدة أيام أو أسابيع وتتلخص فى حالة من الخوف والقلق وفقد الثقة بالذات وبالآخرين وشعور بالغضب من الآخرين وأحيانا شعور بالذنب. والشعور بالذنب هنا يأتى من كون المرأة حين تتعرض للتحرش كثيرا ما تتوجه لنفسها باللوم وأحيانا الإتهام، ولسان حالها يقول لها: «ماذا فعلت لكى يفكر هذا الشخص فى التحرش بك؟».... «يبدو أن فيك شيئا شجع هذا الشخص على أن يفعل ما فعل».... «يبدو أنك فعلا سيئة الخلق وعديمة الكرامة»..... «لماذا طمع فيك أنت بالذات؟؟»..... «إنه يظن أننى من أولئك النساء الساقطات».... «هل يكون قد سمع عنى شيئا شجعه على ذلك؟؟؟».

وهناك آثار تظهر على المدى الطويل وتتمثل فيما نسميه بكرب ما بعد الصدمة خاصة إذا كان التحرش كان قد تم فى ظروف أحاطها قدر كبير من الخوف والتهديد للشرف أو للكرامة أو لحياة الضحية وسلامتها، وهنا تتكون ذاكرة مرضية تستدعى الحدث فى أحلام اليقظة أو فى المنام وكأنه يتكرر مرات كثيرة كما يحدث اضطراب نفسى وفسيولوجى عند مواجهة أى شئ يذكر الضحية بالحدث، ويتم تفادى أى شئ له علاقة بالحدث، ويؤدى

ذلك إلى حالة دائمة من الخوف والإنكماش والتردد وسرعة التأثر. كما أن الضحية تفقد قدرتها على الإقتراب الآمن من رجل، وإذا تزوجت فإنها تخشى العلاقة الحميمة مع زوجها لأنها تثير لديها مشاعر متناقضة ومؤلمة.

طرق الوقاية من التحرش:

هناك استراتيجيتان للتعامل مع حالات التحرش:

١ -**التفادى:** وتعنى تجنب الأماكن والمواقف التى يتوقع فيها التحرش مثل الأماكن المعزولة أو المغلقة التى يسهل الإنفراد فيها بالضحية، أو الأماكن المزدحمة، أو التواجد مع أشخاص بعينهم يتوقع منهم هذا السلوك. وتتعلم الفتاة بشكل خاص أن تتجنب المواصلات المزدحمة، وأن تستفيد من وجود العربات المخصصة للنساء فى الترام، وإذا ركبت تاكسى أن لا تركب بجوار السائق فى الكرسى الأمامى وأن لا تتبسط إليه فى الحديث بدون داعى، وإذا ذهبت إلى عيادة الطبيب أن لا تذهب وحدها، وأن تعرف الأسرة ظروف وأماكن الدروس الخصوصية لبناتها وأبنائها........ إلخ. واستراتيجية التفادى قد تمنع حوالى ٧٥٪ من حالات التحرش ومواقفه دون مشكلات تذكر.

٢ – **المواجهة:** وفيها تواجه المتحرش بها الشخص المتحرش، إما بنظرة حازمة ومهددة، أو بكلمة رادعة ومقتضبة، أو بتغيير مكانها ووضعها، أو بتهدديده وتحذيره بشكل مباشر، أو بالإستغاثة وطلب المساعدة ممن حولها، أو بضربه فى بعض الأحيان. واستراتيجية المواجهة تحتاج لذكاء وحسن تقدير من الضحية، وليس هناك سيناريو واحد يصلح لكل المواقف، وإنما يتشكل السيناريو حسب طبيعة الشخص وطبيعة الظروف. وهناك طرق قد تبدو طريفة فى المواجهة تستخدمها بعض الفتيات مثلا فى وسائل المواصلات فبعضهن يستخدمن دبوسا ضد من يحاول التحكك بهن، وهى وسيلة دفاع صامتة وقد تكون مؤثرة ورادعة، وبعضهن يتعلمن وسائل الدفاع عن النفس مثل الكاراتيه والتايكوندو

والكونجفو لتتمكن من الدفاع عن نفسها دون الحاجة للمساعدة الخارجية، خاصة حين تضعف السلطات الأمنية أو تتغيب أو تنشغل بحماية أولى الأمر عن حماية الشعب أو تضعف النخوة والمروءة فى المجتمع.. ويعيب استراتيجية المواجهة أنها ربما تحدث ضجة أو فضيحة لا تحبذها المرأة أو الفتاة فى مجتمعاتنا المحافظة، على الرغم من أن فيها ردع قوى لكل من تسول له نفسه بالتحرش بأى فتاة.

وهناك تعليمات عامة لمن تواجه حالة تحرش نذكر منها:

حاولى الإنتقال قدر الإمكان إلى مكان أكثر أمانا بعيدا عن المتحرش فمثلا إذا كنت فى وسيلة مواصلات فعليك بالنزول منها أو تغيير مكانك فيها حسب ما يتطلب الموقف، وقد تطلبين من أحد الركاب الجالسين ممن تتوسمين فيه الخير أو المروءة أن يقوم لتجلسي مكانه ولا مانع من أن توصليه رسالة موجزة بأنك تتعرضين لمشكلة وهو سيفهم ويساعد فى الأغلب. وإذا كنت فى مكان مغلق فعليك الإنتقال فى أسرع وقت إلى مكان مفتوح حتى لا ينفرد بك المتحرش. أما إذا كان الإبتعاد عن المتحرش غير متاح فعليك أن تواجهيه بنظرة حازمة وغاضبة ورافضة ومؤكدة، وأن تعلنى رفضك بكلمات قليلة ومحددة، دون الدخول فى نقاش معه. لا ترفعى صوتك ولا تستخدمى كلمات جارحة. لاتقولى له من فضلك أو لو سمحت أو أى كلمات من هذا القبيل ولا تفتحى معه مجالا للمناقشة، ولا تجيبى على أى أسئلة يوجهها إليك المتحرش ولا توجهى أنت إليه أي أسئلة. باختصار اقطعى عليه الطريق باستخدام النظرة الحازمة الرافضة الغاضبة واستخدام كلمات قليلة محددة ومؤكدة ورافضة. والمتحرش فى أغلب الحالات يكون جبانا لذلك يتراجع عند أول بادرة رفض أو تهديد.

ولمزيد من التوضيح يمكننا تقسيم المواجهة إلى عدة مراحل أو مستويات كالتالى:

١ – **المواجهة الخفيفة**: وهى مناسبة للحالات التى تبدو عرضية أو استكشافية أو التى يبدو فيها المتحرش وكأنه يقوم بجس نبض الضحية. وفى هذه الحالة تكفى

النظرة الرافضة الغاضبة الحازمة، وقد تحتاج الضحية لكلمات قليلة تعبر عن كل هذا. فإذا ارتدع المتحرش فهذا يكفى، أما إذا لم يرتدع فتنتقل الضحية إلى أحد المستويات التالية:

٢ – **الإستعانة بالآخرين**: وهذه الإستراتيجية تلجأ إليها الضحية فى حالتين: الأولى عجزها الشخصى منفردة عن مواجهة المتحرش، الثانية: وجود مصدر مؤهل ومستعد للمساندة، وهذا المصدر قد يكون أحد الأقارب أو المعارف الموجودين قريبا من موقع الحدث، أو يكون أحد الأشخاص ذوى السلطة كرجل شرطة مثلا، أو أحد الأشخاص المحترمين فى المكان من ذوى الهيئة الإجتماعية، أو أحد الجمعيات المهتمة برعاية المرأة. وعلى الرغم من فعالية هذه الوسيلة فى ردع المتحرش فى كثير من الأحيان، إلا أن لها بعض المشكلات والمحاذير التى يجب أن توضع فى الحسبان، ومنها على سبيل المثال: احتمالات حدوث مواجهة عنيفة بين المتحرش والشخص المساند، أو احتمالات حدوث صخب شديد ووصول الأمر لصراعات أوسع على المستوى الإجتماعى أو الأسرى أو القانونى، واحتمالات انتشار خبر موضوع التحرش بها قد يدفع المتحرش للخوض فى عرض الضحية فى محاولته الدفاع عن نفسه. هذه الإعتبارات تستدعى أن تضعها الضحية فى الإعتبار، وأن تحسن اختيار الشخص الذى يقدم المساعدة بحيث يتصرف بحكمة وبالقدر المطلوب لإنهاء الموقف دون مشكلات كثيرة.

٣ – **المواجهة الثقيلة**: وهى مواجهة قد تضمن شيئا من العنف اللفظى أو الجسدى فى مواجهة المتحرش، وتلجأ إليها الضحية فى حالة استنفاذ كل الوسائل السابقة، وفى حالة إصرار المتحرش على الإستمرار فى تحرشه، وفى هذه الحالة قد ترفع الضحية صوتها فى مواجهة المتحرش، وقد تضطر للدفاع عن نفسها بدفعه بعيدا عنها، أو بصفعه إن كان شديد الوقاحة فى تحرشه، وقد يتطور الأمر لدى من تملك مهارات الدفاع عن النفس (كالكاراتيه والكونجوفو والتايكوندو) أن تضرب المتحرش وتردعه. وهذه الطريقة فيها ردع شديد للمتحرش ولكل من

تسول له نفسه بالتحرش، ولكن يعيبها حدوث صخب وضجيج ربما تكره أى فتاة أن تضع نفسها فى هذا الوضع إلا فى حالات الضرورة التى لا ينفع فيها إلا مثل هذا المستوى من المواجهة. والمتحرش فى أغلب الأحيان جبان بمعنى أنه يتراجع حين يواجه بهذا المستوى من الردع، ولكن بعضهم قد يقلب الأمر على الضحية فيتهمها فى سلوكها أو يدعى أنها هى التى حاولت إغواءه ومراودته. وقد ثبت أن المرأة فى مثل هذه المواقف تملك قدرات هائلة تستطيع بها الحفاظ على نفسها وشرفها وكرامتها، والواقع يؤكد ذلك فقد ثبت من خلال متابعة أحداث الإعتداءات ومحاولات الإغتصاب أن فتاة تبدو ضعيفة جسديا استطاعت أن تقاوم أربعة شباب أو أكثر حاولوا اغتصابها، وقد أثبتت تقارير الطب الشرعى فى حالة محاولة اغتصاب فتاة المعادى (وقصص أخرى مشابهة) أن الفتاة ظلت بكرا على الرغم من تكالب المعتدين عليها، وهذا يؤكد امتلاك المرأة لقدرات استثنائية تظهر فى حالة الإعتداء عليها.

٤ – **الإستعانة بالله**: وفى كل الإستراتيجيات السابقة يلزم وجود بعد إيمانى يعطى الضحية دعما معنويا هائلا ويوفقها لاختيار أفضل الوسائل للمواجهة، كأن تدعو الله أن يحميها من خطر المتحرش وأن يمدها بالقوة والطاقة لمواجهته، وأن يهيئ لها من يساعدها على الخروج من هذا المأزق. وفى التاريخ نموذج لهذا البعد الهام تمثل فى استعاذة السيدة سارة زوجة سيدنا إبراهيم بالله تعالى ليحميها من محاولة اعتداء فرعون مصر عليها، وهى لا تملك أى وسيلة لدفعه عنها، وهنا ظهر تأييد الله سبحانه وتعالى فى صورة عدم قدرة الفرعون على الإقتراب منها. وأيضا استعاذة السيدة مريم حين ظهر لها الملك ولم تكن تعرفه أو تعرف مقصده فقالت «إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا». وقد يظهر التأييد فى صور مختلفة ولكنه تأييد مؤكد لمن يؤمن بقدرة الله سبحانه وتعالى وقيوميته على كل شئ فى هذا الكون.

دور الأم في حماية أبنائها وبناتها:

وإذا كنت أما وتريدين حماية ابنتك من التحرش فافعلى ذلك دون إثارة حالة من

الرعب والفزع فى نفسها، فمثلا أوصها ألا تسمح لأحد غريب باصطحابها إلى أى مكان، أو أن يتحسس جسمها أو يكشف ملابسها، أو يعبث بها، وأن لا تدخل فى أماكن مغلقة مع رجل سواء فى محل بقالة أو مكتبة أوغيرها، وأن لا تمشى فى أماكن معزولة، أو فى أوقات متأخرة من الليل. ولا تلبسى هذه التنبيهات ثوبا جنسيا وإنما علميها إياها من خلال وجوب محافظتها على كرامتها وسلامتها.

دور المجتمع:

ويحتاج المجتمع لأن يقى أبناءه وبناته شر التحرش وأن يجنبهم آثاره وذلك بتيسير إشباع الإحتياجات الإنسانية بطرق مشروعة، والحد من المواد الإعلامية والإعلانية المثيرة للغرائز، وترشيد الخطاب الدينى الذى يصور المرأة على أنها جسد شيطانى شهوانى يجب تغييبه عن الحياة تماما وعزله بالكامل داخل غرف مغلقة بعيدا عن أعين الرجال الحيوانيين. ويحتاج المحتمع لأن يرعى وينمى فى أبنائه ضوابط الضمير والضوابط الإجتماعية والضوابط القانونية للحفاظ على التوازن الصحى بين الدوافع والضوابط. وعلى الآباء والأمهات أن ينموا فى أبنائهم صفات الحياء والمروءة والرجولة وحماية المرأة وحرمتها فى كل الظروف والأحوال، وأن لا تتسامح الأسرة مع ابنها الذى يقوم بالتحرش بأى صورة من الصور.

الوقاية من فرط الوقاية:

يبدو أن تجنب السلوك الوسواسى فى الوقاية لا يقل أهمية عن أمر الوقاية، فقد حكت لى أحد الأمهات أنها تسأل ابنتها البالغة من العمر عشر سنوات كل يوم حين عودتها من المدرسة أو من أى مكان تذهب إليه إن كان أحدا قد مسها أو لمسها أو تحرش بها أو حاول الإعتداء عليها، ولا تكتفى بذلك بل تقوم بفحصها أحيانا فحصا جسديا بحثا عن آثار الإعتداء الذى تخشاه أو تتوقعه. وهذا النموذج يتكرر بصورة أو بأخرى وبدرجات مختلفة بين نسبة غير قليلة من الأمهات، والأم هنا تعتقد أنها تقوم بواجبها الأمومى على خير وجه فى حين أنها تزرع فى ابنتها بذور الوسواس والشك تجاه مسألة العذرية وتجاه الأخطار المحيطة وتجاه الرجال «المتوحشين» أو «الحيوانيين»، ولا نتوقع بعد

ذلك نموا نفسيا طبيعيا لهذه الفتاة التى مارست معها أمها ما نسميه «فرط الوقاية» أو «الوقاية الوسواسية».

وبعض الأمهات أو الآباء من كثرة ما يسمعونه من حوادث التحرش والإعتداء الجنسى وخطف الأطفال واغتصابهم وقتلهم أحيانا، ربما يعمدون إلى منع أبنائهم وبناتهم من الخروج نهائيا من البيت، مع تحذيرهم من كل شئ يقترب منهم أو يحيط بهم، وهذا أيضا موقف مرضى يكون فى عقل الطفل (أو الطفلة) صورة مرعبة وغير حقيقية عن العالم المحيط به وعن الناس وهذا يحول بينه وبين الإحساس بالأمان ويحول بينه وبين الثقة بأى أحد من الناس، والناتج النهائى لكل هذه الصور من فرط الوقاية إما حالات قلق، أو وسواس، أو بارانويا.

❊ ❊ ❊

هل فعلها المجنون فى بنى مزار

ربما يكون أمر تسوية جريمة بنى مزار البشعة التى راح ضحيتها عشرة أشخاص شيئا مطلوبا لطمأنة الناس وتهدئة النفوس وإعطاء الفرصة لهذا الجرح المؤلم كى يلتئم، فاستمرار الحيرة والغموض ربما يؤديان إلى تداعيات خطرة خاصة إذا ذهبت الظنون فى اتجاهات العنف القبلى أو العشائرى أو العائلى أو الطائفى، هنا يصبح الأمر كارثيا لأن حجم الغضب والإنتقام سيكون متناسبا، بل ربما يكون متجاوزا، لبشاعة الجريمة وما صاحبها من تقطيع وتمثيل بالجثث.

وقد يكون هذا هو السبب فى التعجل بتقديم أحد المرضى بالفصام فى القرية على أنه الفاعل، وهذا حل مريح لجميع الأطراف، فبالنسبة للسلطات الأمنية يخف عنها الضغط الفوقى المتسائل عن السبب والفاعل، ويخف أيضا ضغط الرأى العام القلق والمترقب فى هلع، أما بالنسبة لأهل الضحايا فهم سيحتسبون الأمر عند الله ولا يفكرون فى القصاص حيث أن الفاعل مجنونا وليس على المجنون حرج، وبالنسبة لأسرة المجنون فقد حانت الفرصة أمام ابنهم لتلقى العلاج فى مستشفى نفسى كبير تحت رعاية السلطات المختصة ويخف ضغط مرضه عنهم، ربما يواجهون بعض المشاكل من نظرة الناس إليهم على أنهم ذوى القاتل ولكن هذا يمكن أن يتلاشى مع الوقت فهم ليس لهم دخل فيما حدث.

إذن هناك دوافع قوية لدى الجميع (شعورية وغير شعورية) لإلصاق هذه التهمة بشخص مجنون يحمل وزر ما حدث، ويقى الجميع شر تداعيات هذه الجريمة البشعة، وفى النهاية لن يواجه هذا الشخص المريض عقوبة قاسية مثل الإعدام، وإنما سيحال إلى أحد المستشفيات العقلية للعلاج، وهكذا يغلق هذا الملف مع أقل قدر من الخسائر، أما الضحايا فهم فى ذمة الله يعوضهم ويعوض ذويهم عما حدث.

ولكن هل هذا هو الحل الحقيقى أو الأمثل لمثل هذه الجريمة، وهل يستطيع فعلا

شخص مصاب بالفصام أن يقوم بهذا الفعل على الطريقة التى حدث بها وبهذا التخطيط المحكم وحده فى ثلاث بيوت متفرقة وتجاه عشرة أشخاص لم يقاومه أحد منهم؟؟؟؟؟؟؟

إن الذى يتعامل مع حالات الفصام أو حالات الجنون بوجه عام يصعب عليه تصديق هذا الإحتمال أو قبوله بأى درجة من الطمأنينة أو اليقين، فمريض الفصام لديه اضطراب تركيبى فى المخ ولديه اضطراب على مستوى الناقلات العصبية، وهذه الإضطرابات تؤثر فى قدرته على التخطيط والتنظيم المحكم، وتؤثر أيضا فى إرادته، وهذه التأثيرات تجعل لجريمة الفصامى خصائص معينة تتنافى مع ماهو قائم فى جريمة بنى مزار.

فالفصامى قد يرتكب جريمة عنف انطلاقا من معتقد خاطئ فى عقله كشعور بالإضطهاد أو الظلم أو الخطر من أحد، والفصامى يمارس العنف بدم بارد نتيجة تدهور مشاعره، ولكنه مع هذا لا يملك هذه القدرة الفائقة للتخطيط والتنفيذ فى أكثر من مكان وأكثر من شخص دون أن يترك اثرا يدل عليه.

بل الأكثر توقعا منه أن تكون جريمته اندفاعية عشوائية وغير منظمة، وتكون رد فعل مباشر أو شبه مباشر على استثارة أو استفزاز من أحد، وتكون موجهة – فى غالب الأحيان – لأشخاص لهم علاقة قريبة بالمريض كزوجته (إن اعتقد فيها الخيانة) أو أحد أقاربه (إن اعتقد أنه متآمر عليه) أو أحد زملائه القريبين (إن اعتقد أنه يخطط لإيذائه)، أما أن يقوم بهذا الفعل المركب شديد التعقيد تجاه هذا العدد من الناس الذين لا تربطهم رابطة ففيهم رجال ونساء وأطفال صغار، فهذا ما يصعب تصديقه من الناحية العلمية والواقعية.

وقد يقول قائل: إن عملية القتل بهذه القسوة والبشاعة وعمليات التقطيع والتمثيل، وقتل الحمام تشير إلى درجة عالية من القسوة المصحوبة بالبلادة الشعورية المصحوبة بالغرابة وكل ذلك يشير إلى فعل مجنون.

وربما يكون شكل مسرح الجريمة هو الذى أوحى بفكرة أن يكون مجنون قد ارتكبها، ولكن مع هذا فهناك احتمال أن يكون مرتكب الجريمة قد قصد هذا ليشتت انتباه المحققين ويضعهم فى حيرة، أو ليوجه أصابع الإتهام لوجهة معينة. أما بشاعة الجريمة وقسوتها فيمكن فهمها بدون افتراض جنون القائم بها، فقد اعتدنا فى السنوات الأخيرة على صور بشعة للقتل من أشخاص ليسوا بمرضى نفسيين ومع هذا مارسوا العنف بوحشية لا يتحملها عامة الناس.

وربما يكون السبب فى ذلك كثرة التعرض لمشاهد العنف الدموية فى الفضائيات وعلى الإنترنت، وفى الألعاب الإلكترونية، حيث يقضى الشخص وقتا طويلا يشاهد العنف والدم والتقطيع أو يمارسه هو من خلال ألعاب الفيديو وربما يستمتع بمنظر الضحايا وهم يتساقطون تحت ضرباته ثم ينهى اللعبة وهو شديد السعادة بما حققه من قتل وإبادة، ومع تكرار التعرض لهذه المشاهد تقل الحساسية تجاه القتل والدم والأشلاء، وتقل الحساسية تجاه ما يعانيه الضحية. يضاف إلى ذلك الإحباطالت الشديدة التى يعانيها كثير من الناس فتجعل نفوسهم مليئة بشحنات الغضب والقسوة والعدوان.

وهناك أشخاص لديهم ميول سادية (أى يستمتعون بعذاب الآخرين) دون أن يكونوا مرضى بالمعنى المعروف، وهناك شخصيات معادية للمجتمع يمكنها أن تقتل بدم بارد لأى سبب من الأسباب، وهناك من يحملون فى رؤسهم أفكارا انتقامية شديدة تؤهلهم لدرجات عالية من العنف والتدمير.

أى أننا لسنا فى حاجة لافتراض الجنون فيمن يقوم بفعل مثل هذا، بل إن دقة التخطيط والتنفيذ بهذا الشكل تستبعد المجنون، فالمجنون ليس حريصا على حياته بهذه الدرجة التى يتقن فيها كل ما يفعل حتى لا ينتبه إليه أحد، فهو يقتل اندفاعا دون حساب للعواقب، وهو لا يخطط بهذه الدقة لينجو من العقاب فليس لديه هذا القدر من الحذر والحرص على الحياة الذى يتميز به غير المرضى.

ولا ننسى أن تسوية الأمر بهذا الشكل ربما يؤدى على المدى القصير إلى نوع من التهدئة وتجنب بعض الإحتمالات المرعبة فى حالة معرفة القاتل الحقيقى، ولكن على المدى البعيد لن تختفى الحقيقة للأبد، إضافة إلى أن الإندفاع فى اتجاه اتهام المجنون (كحل أسهل) سوف يعطى الفرصة للمجرمين الحقيقيين للفرار من قبضة القانون.

ونحن هنا نقول مجرمين لأن طبيعة الجريمة بهذا الشكل المتوسع والمتزامن يعطى انطباعا حقيقيا بأن عدة أفراد قد قاموا بها، وبالطبع يصبح من السذاجة التفكير بأن هؤلاء الأشخاص جميعهم كانوا مجانين، أو أن مجنونا قادهم وخطط لهم.

❊ ❊ ❊

مزامير الصباحي

كان من حسن حظي أن عدت في هذا اليوم من عيادتي مبكراً لأشاهد لقاء الإعلامية اللامعة والعبقرية الأخت الفاضلة منى الشاذلي مع الحاج أحمد الصباحي مرشح الرئاسة، وفي البداية أشفقت على الرجل حين لاحظت آثار الشيخوخة عليه (٩١ سنة ونصف- مواليد عام ١٩١٥) مع صعوبة السمع مما كان يضطر السيدة / منى الشاذلي أن ترفع صوتها وتقترب من أذنه لكي يسمعها، وإذا سمعها فإن استجاباته تأتي مقيدة وبطيئة ونمطية ومرتبطة دائماً بتصورات شديدة الذاتية ومتمحورة حول إنجازات شخصية هائلة يستشعرها صاحبها ولا يجد حرجاً من التصريح والفخر بها فهو كما يذكر «يجاهد منذ ٩٠ سنة»، وهنا خطر في ذهني فكرة مشروع قانون يمنح المجاهدين القدامى فرصة الراحة بعد ٧٠ سنة جهاد لكي يعطوا فرصة للمجاهدين الجدد (فئة ال ٦٠ سنة) لإثبات وجودهم، ولكن الحاج أحمد فاجأني بتصريحه الذي سينفذه في حالة فوزه بالرئاسة وهو أنه سيلغي تماماً سن المعاش ويعطي الفرصة للمجاهدين وغيرهم للعمل حتى الموت (لهم أو لمن يجاهدون من أجلهم).

وحاولت الأستاذة القديرة منى الشاذلي (وكنت أشفق عليها أيضا من هذا اللقاء) بكل ما تملك من قدرات إعلامية أن تقف على البرنامج الانتخابي للحاج / أحمد فلم تفلح في الحصول عليه كاملاً، غير أنه قال بصراحة أن المسئولين في الحزب الوطني قد أخذوا نسخة من البرنامج للاستفادة منه (وهنا انكشف لي غموضاً حيرني كثيراً قبل ذلك)، ومع هذا لم يتركها ويترك المشاهدين في حيرة فصرح بالتالي: «أول امبارح كتبت كتاب أسميته مزامير الصباحي وفيه برنامجي الانتخابي»، وهنا فقد أدى الرجل ما عليه بوضوح شديد، فالبرنامج من الناحية العملية يستفيد به الحزب الوطني في حكم البلاد حالياً، وهو منشور في ثنايا «مزامير الصباحي» الذي وضعه بنفسه «أول امبارح» رغم مشاغل ومشاكل الحملة الإنتخابية.

ولكن السيدة / منى الشاذلي – كعادتها – لم تكف عن محاولات الاختراق لشخصية المرشح (رغم تصلب الطرق والشرايين ورغم صعوبة التواصل بين جيل الأجداد والأحفاد) فاستطاعت أن تسترق السمع حول بعض بنود البرنامج مثل:

١ – عودة الشعب المصري إلى لبس الطربوش كغطاء قومي للرأس (قومي تاني..!!) حيث لا يوجد شعب – في رأي الحاج أحمد – بدون غطاء قومي لرأسه غير الشعب المصري، وأن هذه قضية محورية في البرنامج

(أليست مسألة قومية مثل الأمن القومي والمجلس القومي.... و... القومي....!).

٢– عودة «غفير الدرج» كحل وحيد وجذري لمشكلة الإرهاب، وقد أكد الحاج / أحمد على أن وزارة الداخلية قد اقتنعت أخيراً (بعدما أتعبها الإرهاب) بهذا الاقتراح وأنها في طريقها لتنفيذه.. ولقد سألت الجالسين حولي عن «غفير الدرج» فاكتشفت أنهم لا يعرفون عنه شيئاً فخجلت لجهلنا الأمني والتاريخي بهذه الشخصية التي شعرنا في كنفها بالأمن والأمان إبان طفولتنا وصبانا السعيد.

٣– إلغاء سن المعاش إلى أجل غير مسمى، وهو قد أعطى مثلاً من شخصه، فهو يجاهد منذ ٩٠ عاماً دون كلل، وقد ألف أكثر من ثلاثين كتاباً مهماً ومؤثراً (بعض هذه الكتب حصل الكثيرون على شهادات دكتوراه فيها كما ذكر سيادته) وكان له رأي مؤثر في معاهد ١٩٣٦ (لم أسأل من حولي عنها لأنني شخصياً نسيتها تحت تأثير المادة ٧٦ وأحداث يونيو ٦٧).

٤– تخفيض الأسعار بنسبة ٢٥٪ ولم يذكر الحاج / أحمد كيف، وانتظرت أن تستفسر السيدة / منى عن ذلك – كعادتها – ولكنها لم تفعل، فوجدت أحداً بجانبي يسد هذه الثغرة المعرفية البرامجية الانتخابية بقوله: «سيتم ذلك من خلال عودة المليم كعملة مصرية قومية صديقة للطبقة الكادحة»، وهنا نهرت صاحب التصريح الجانبي، فرأيت الأستاذة منى تنفجر في الضحك وظننت أنها لا تعرف ماذا يعني «المليم»، ثم اكتشفت لاحقاً أنها لا تعرف ماذا يعني «ماليش صوت» تلك العبارة التي رددها المشاهد كثيراً «ماليش

صوت»... «ماليش صوت».. «مراتي لها صوت وأنا لأ».. وحاولت الاتصال بالتليفون لأوضح للأخت العزيزة الأستاذة / منى الشاذلي أنني أيضاً «ماليش صوت»، وقد فشلت كل محاولاتي لأن يكون لي صوتاً فلم أفلح رغم سنوات عمري (القليلة مقارنة بضيف البرنامج) في استخراج بطاقة انتخابية، وأخيراً حاولت إقناع نفسي بأن الأطباء لا يجب أن «يصوتوا» لأن مهنتهم تحتاج إلى الرزانة والعقل، كما أن الأطباء لا يجب أن ينحازوا إلى مرشح دون الآخر لأن مهنتهم تستوجب خدمة الجميع خاصة في المراحل المتأخرة من العمر حين تداهم المرشح أمراض تصلب الشرايين أو تصلب الرؤى والآراء أو جنون العظمة أو التفكير الهامشي العياني أو اجترار الماضي السعيد أو الاغتراب أو غيرها من أمراض المرشحين لهذا المنصب الخطير (يا مدام منى أنا كمان ماليش صوت...).

ولقد تماسكت الأستاذة منى كثيراً ولكنها في لحظة انفجرت في نوبة من الضحك المتواصل والمفهوم والمبرر والتلقائي والبرئ، وقد أصابتني ومن حولي عدوى الضحك فظللنا نضحك طوال الليل، ونحن الذين نسينا الضحك منذ ربع قرن.

وحين حاولت المحاورة أن تنقل للحاج / أحمد آراء بعض الناس فيه نبهها بحدة الشيوخ وحميتهم بأن كل آراءه صحيحة وأن صحته جيدة «غصب عنك وعنهم».

والحقيقة أني لم أستغرب هذا الكلام من الحاج / أحمد فلقد سمعته من مرشح آخر (أصغر منه طبعا) حين قال ما معناه: بأنه لا يغضب ولا يحزن ولا يتأثر ولا يخاف ولا يهتز من مكانه (لاحظ) وأنه ثابت (دائماً) وصلب، ولم أدر وقتها إن كانت تلك مزايا أو عيوب فعدت إلى المراجع الطبية النفسية لأنني اكتشفت أنني نسيت منها الكثير.

❊ ❊ ❊

الحلم بعد الأخير لنجيب محفوظ

رأيت فيما يرى النائم أننى أتمدد فى نعشى يحملنى جمع من الأحبة يخرجون بى من مسجد الحسين الشهيد وما أن وصلنا إلى الباب حتى انقض على النعش عدد من النسور من المؤكد أن لى بها سابق معرفة ولكنها غير مريحة، وقال كبير النسور دون اكتراث: «اطمئنوا سنواريه التراب بعد عمل الترتيبات الإعلامية الروتينية، والآن انصرفوا حفاظا على هدوء واستقرار الموتى»، ولكننى ساورنى شك قديم فقفزت من النعش ورحت أتجول فى حى الجمالية القديم أصافح أصدقاء الزمن الأول وأدعوهم لحضور الجنازة الشعبية ولكن أكثرهم حيانى بلطف معهود واعتذر بحجة الإنشغال فى العمل، وبعضهم قال: «اللى يعوزوا البيت يحرم ع الجامع»، ولكننى علمت من بعض المقربين أن شيخ الحارة أبلغهم أن يلزموا بيوتهم اتقاءا لحر الشمس وغضب الرب، وخاصة فى هذا اليوم الذى ينقل فيه الثور الأرض من قرنه الأيسر إلى قرنه الأيمن. وفى أحد أركان الحارة كان مجموعة من الصبية والفتيات العرايا يغنون ويرقصون فألقيت عليهم السلام ولكن أحدا منهم لم ينتبه وخيل إلىّ أنهم سكارى بمناسبة تدشين تمثال الحرية، بينما وقف بجوارهم رجل يبيع كتاب تفسير الأحلام وتذكرة داوود مقابل خمسة آلاف جنيه للنسخة الواحدة. وحين وصلت إلى بيتنا رمقتنى أمى بنظرة حازمة غاضبة وقالت: «إياك أن تموت دون أن تزيل صور المرشحين من على جدران الحارة وتطرد هؤلاء السكارى من أمام بيت السحيمى»، وحين هممت أن أفعل نزل وزير الإسكان السابق من صوره التى غطت بيوت الجمالية وحذرنى من تنفيذ الوصية، وأنذرنى بأنه قادر على إعادتى إلى قبضة النسور فهممت أن أصرخ ولكنى ترددت وأصابنى القلق. وسمعت مناديا ينادى: «لابد من العودة إلى القبر قبل أن يحل الظلام» فرأيت حشدا كبيرا من أهل الحارة بينهم سعد زغلول ومحمد عبده ومكرم عبيد وطلعت حرب يخرجون من قبورهم ويكسرون الحاجز الحديدى بين الحسين والأزهر ليعيدوا إلى الميدان اتساعه القديم وليضعوا مكبرات الصوت فى أركانه استعدادا للإحتفال بالمولد، ولكن كبير العسكر اقترب منا على غير

معرفة مؤكدة بنا وتفحص وجوهنا وقارنها بصور مسجلة فى تقرير لديه وقال:

«أنتم مطلوبون لدينا بتهمة تعليم أهل الحارة الطيران بدون تصريح رسمى»،وحاولنا إقناعه بأن أهل الحارة فى عداد الأموات منذ زمن، ولكنه لم يعبأبنا وأشار بيده فإذا جحافل سوداء من العسكر تتوافد لتملأ الميدان، وشعرت بشئ يجثم على صدرى فاستيقظت من نومى ونطقت الشهادة ورحت أدق على أبواب أهل الحارة والحارات المجاورة فى المقابر يحدونى الأمل فى أن يصحو قبل أن يهرب اللصوص.

(ملحوظة: هذا الحلم كتبه المؤلف مستلهما فيه روح نجيب محفوظ)

* * *

الرهينة

لافتة صغيرة توضع على مدخل القرية مكتوب عليها «عزبة عبدالجبار»، والعزبة فى عرف المصريين تعنى القرية الصغيرة التى يملكها شخص أو تملكها عائلة، وله أو لأفراد عائلته حق التصرف فيها بحكم السيطرة والغلبة، أو بحكم ملكية أكبر مساحة من الأرض الزراعية أوبرضا الناس أو تسليمهم أو خضوعهم، وهذه اللافتة تتغير كلما تغير كبير هذه العزبة، فقد كانت منذ عدة سنوات معروفة ب:«عزبة الحاج سالم»، وهذه مشكلة تواجه أهل العزبة فهم يحتاجون لتغيير بطاقاتهم الشخصية والعائلية كلما تغير اسم عزبتهم، وأحيانا كانت تسمى بأسماء غرباء عليهم وكان هذا يسبب لهم حرجا ومع هذا تعودوا على ذلك، وأصبحوا يتندرون عليه فى جلساتهم المسائية فى المقاهى حيث تدور عليهم «الجوزة» وتغمرهم السعادة خاصة فى ليالى الخميس حيث تعمّر الجوزة بالحشيش فتعلوا أصواتهم وتتفتق قرائحهم عن نكات وقفشات تذهب عنهم الهم والغم وتجعلهم يقضون ليلهم فى أحلام لذيذة تعوضهم عن شقاء أيام طويلة. وكان عبدالجبار أحد خفراء الحاج سالم المغمورين والعاديين جدا، ولسبب لا يعلمه أحد جعله الحاج سالم قبل موته شيخ الخفراء مقدما إياه على رجال لهم قيمتهم فى العزبة ولهم رأيهم الراجح وعقلهم الواسع، ولم يكتف بذلك بل زوجه من عزيزه أجمل بنات القرية على غير رغبة من أهلها أو من أهل القرية، فقد كانت عزيزة جديرة بمن هو أفضل من عبدالجبار بكثير بل إن عبدالجبار نفسه لم يكن يحلم بهذه الزيجة ولا تصل إليها تخيلاته فهو – إن شئنا الدقة – بلا تخيلات وبلا أحلام، ولم يكن يجيد فى حياته إلا تنفيذ أوامر الحاج سالم، وليست له أية ميزة يتميز بها فكل شئ فيه يدور فى إطار العادية – كما ذكرنا – أو ربما فرط العادية فهو لا يفعل إلا ما يفعله الناس من طبقته، ولا يعرف فى تاريخه أى فضيلة غير أنه كان «فى حاله»، وأنه فى أحد الليالى رأى لصا يحاول أن يسرق الماشية من أحد بيوت القرية فقفز من فوق سطح بيته وصرخ فهرب اللص، ومن يومها وهو يحكى هذه القصة لأهل العزبة حين يجلس معهم على القهوة على أنها من مآثره ومن دلائل شجاعته وحرصه على أهل

عزبته. وفجأة مات الحاج سالم فى ظروف غامضة لم تتضح حتى الآن (رغم حضور المأمور ورجال المركز وعمل التحقيقات اللازمة حول هذا الموت المفاجئ المثير للريبة) ووجد عبدالجبار نفسه يجلس مكان الحاج سالم فى الدوار وسلم له أهل العزبة – كما هى عادتهم – بأن يكون هو عمدتهم، ورضى بذلك وأظهر طيبة وتواضعا فى مبدأ الأمر، وكان يشاركهم فى البداية سهرهم وسمرهم على المصاطب والمقاهى، ويحضر أفراحهم ومآتمهم. ومع مرور الوقت فكر فى بناء دوّار جديد للعمودية فبناه مكان الدوّار القديم ولكن الناس فى القرية هالهم ارتفاع جدران الدوّار أكثر مما اعتادوا من قبل فالدوّار يبدو كقلعة شاهقة الإرتفاع لها شبابيك حديدية صغيرة يرى من خلفها بالكاد، وحول الدوّار أسوار عالية بها فتحات ضيقة للمرور وحوله حراسة لم يألفها أهل العزبة ولا يستدعيها الأمر بالنسبة لهم، ولكنهم فسروا ذلك بشعور عبدالجبار بالخوف من طمع بعض كبار العائلات المعروفين فى العزبة فى أن يحتلوا مكانه فى الدوّار، وقد بدا خوفه على العمودية واضحا، لدرجة أنه أصبح يخشى الخروج فى الليل خاصة وأن العزبة تحوطها حقول الذرة والقصب مما يزيد من احتمالات اختباء المترصدين له، وهم كثر حسب ما يذكر شيخ الخفراء، وشيئا فشيئا أصبح يخشى حتى الظهور فى النهار خشية أن يصيبه عيار مقصود أو طائش. ولم يكتف عبدالجبار ورجاله الذين يزداد عددهم يوما بعد يوم بهذا بل أتوا بكلاب شرسة تحوط الدوار وتملأ أفنيته. وأهل العزبة ينظرون إلى هذا التغير الذى طرأ على عبدالجبار ويستغربون هذا الدوار القلعة، ولم يعودوا يرون عبدالجبار إلا من خلال شبابيك الدوار الحديدية حيث يطل بوجهه الجامد الخالى من المشاعر ويتنقل من شباك إلى آخر ينظر باستعلاء وكبر نحو أهل العزبة الذين أكلهم الفقر وفاحت منهم رائحة البؤس والذل. وبعد أن كان عبدالجبار يقطن الطابق الأول من الدوّار صار يتنقل من طابق إلى طابق أعلى حتى أصبحت تتعذر رؤيته حين يظهر وجهه المقنّع من خلف حديد الشبابيك العالية فى الطابق العاشر. ويشاع فى العزبة أن عبدالجبار يلبس أقنعة حتى لا يظهر أثر الزمن على وجهه ولكى يظل على حالته التى عرفها به أهل العزبة قبل أن ينعزل عنهم فلا يطمعون فيه أو يفكرون فى الخروج عن طوعه. ولم يكتف عبدالجبار بمكان الدوار القديم

وإنما فكر فى التوسع بدواره الجديد فبعث برجاله يغرون أهل العزبة بشراء مساحات من بيوتهم القديمة وأرضهم الفضاء بأسعار عالية وكلما اشترى قطعة من أرض تمدد بالدوار فيها من الأمام ومن الخلف ومن الجوانب حتى أصبحت امتدادات الدوار أشبه بأذرع أخطبوط أو سرطان تتخلل بيوت وشوارع وحوارى العزبة الصغيرة وهذه الأذرع الشاهقة الإرتفاع غير المتساوية فى الطول تبدو مخترقة وضاغطة وساحقة لبيوت الفقراء بجوارها والتى تبدو كحبات رمل أو كنمل صغير بجوار هذا المبنى السرطانى الشاهق والمتمدد باستمرار. ونتيجة لهذا التمدد المتزايد حجما والشاهق ارتفاعا ضاقت شوارع العزبة وحواريها، وضاقت نفوس أهلها ، وأغلقت امتدادات الدوار عليهم كثيرا من المنافذ والطرقات وحجبت عنهم الشمس والهواء. وصار هذا الدوار السرطانى الشاهق يثير العجب ويثير الرهبة فى نفوس أهل العزبة بشكله غير المنتظم وحجمه الهائل، وقد أغرى هذا الأمر عمدا آخرين فى القرى المجاورة لبناء دوّارات مماثلة، ولم يقتصر الأمر على القرى بل امتد إلى أحياء شعبية وفقيرة فى المدن المزدحمة، وأصبح هذا الشكل السرطانى الشاهق والمتمدد فى الشوارع والحوارى نمطا هندسيا شائعا فى القرى والأحياء البائسة، وهو علامة جديدة على القوة والشكيمة والوجاهة والسيطرة، وأصبح مهندسوا المبانى يطلقون على هذا النمط الهندسى «دوّار عبدالجبار»، وأصبحوا يروجون له على الرغم من مخالفته لما تعارفوا عليه فى فنون الهندسة والبناء فشكل هذا البناء ليس دائريا ولا مربعا ولا مستطيلا ولا شبه منحرف، وقد راح بعضهم يقول بأن عدم انتظام شكل البناء يعبر عن خصوصية تناسب أحياء وقرى مصر والتى تتميز بالإلتواء والتعرج والإنسدادات وعدم الإنتظام وأن هذا يعرف فى علم الأشكال بال «شواش» وهو جمال الشكل غير المنتظم مثل الجبال وتشكيلات السحب. وأهل عزبة عبدالجبار لا يعنيهم هذه المجادلات الفلسفية أو النظريات الهندسية والجمالية، فهم يعانون من ضغط دوّار عبدالجبار على شوارعهم وحواريهم وأرزاقهم وأنفاسهم لسنوات طويلة ولا يبدو لهذا الأمر نهاية فى الأفق، وكلما ذهبوا للشكوى لدى مأمور المركز تلقوا وعودا مطمئنة وسمعوا عن تهديدات تعيد عبدالجبار إلى رشده وتزيل تعدياته على شوارع العزبة وطرقاتها وبيوت

أهلها، ولكن بعد وقت قصير يكتشف أهل العزبة أن عبدالجبار عرف كيف يتفادى كل هذا بطرقه الخاصة، فهو يعرف كيف يتعامل مع المأمور ورجاله، فكل شخص منهم له مدخله الذى يعرفه عبدالجبار جيدا، ويبدو أنهم استراحوا لهذا الوضع القائم خاصة أنهم يخشون إن ذهب عبدالجبار أن يسود الهرج والمرج وأن يتحكم الغوغاء فى مصير العزبة وهذا يشكل إزعاجا للسلطات وخللا بالأمن لا يحبه القائمون على الأمن ولا يرغبونه مهما كانت دواعيه. إضافة إلى أن محاولات إزالة الدوار أو امتداداته السرطانية فى الشوارع وبين البيوت وفوقها سيؤدى إلى انهيار الكثير من منازل أهل العزبة الآيلة للسقوط بطبيعتها، والتى أصبحت مستندة إلى جدران الدوار الأسمنتية المسلحة، أى أن الأمر تجاوز عبدالجبار وأهل عزبته إلى مشكلة هندسية يصعب حلها، وهذه المشكلة ليست قاصرة على أهل العزبة فقط بل يقال أن عبدالجبار يعانى منها هو شخصيا فنظرا للإمتدادات السرطانية للدوّار وسط الشوارع والبيوت لم يعد هناك مخارج مناسبة يخرج منها المقيمون فيه إن أرادوا الخروج، ولذلك اكتفوا بمعرفة ما يحدث فى الخارج عن طريق حرّاس الدوار المحيطين به من كل جانب والحصول على كل احتياجاتهم عن طريقهم، وقد أعطى هذا قوة وسطوة غير عاديين لشيخ الخفراء والذى أصبح يتباهى بين خاصته بأنه هو الذى يتحكم فى عبدالجبار وليس العكس ، وأحيانا يراهنهم على تحديد موعد ظهوره خلف الشبابيك الحديدية بإشارة منه. وأخيرا قرر أهل القرية الذهاب للمحافظ ليجدوا حلا نهائيا لمشاكلهم المزمنة مع عبدالجبار، فاستقبلهم بابتسامة أبوية ملؤها الطيبة والحزم ووعدهم بحل المشكلة فى أقرب وقت، وكان واضحا أنه غاضب من تجاوزات عبدالجبار التى تضعه دائما فى حرج أمام الحكومة وأمام مجلس الشعب الذى شهد استجوابات كثيرة حول ظاهرة عبدالجبار وشائعات احتمائه بالحكومة مقابل خدمات وتسهيلات متبادلة، وأنه قرر وضع حد لهذا التحدى السافر الذى يمارسه خارج إطار القانون خاصة وأن صحف المعارضة أصبحت تتحدث بصوت مرتفع عن فساد عبدالجبار ورجاله وعن تفشى هذه الظواهر السلبية فى القرى المجاورة وفى أحياء بعض المدن وأن هذا يهدد الأمن والسلام القوميين. وعلى الرغم من كل هذه الإعتبارات

والوعود علم أهل العزبة أن عبدالجبار قد قام بعمل الإتصالات اللازمة لاحتواء غضبة المحافظ، ووعده برصف مدخل العزبة وعمل نافورة فى وسطها وتعليق لوحات فى شوارعها تحمل صورا للمحافظ مع الإشادة بإنجازاته، وإرشاد رجال أمنه على مثيرى الشغب ولصوص المواشى والقتلة فى العزبة والقرى المجاورة، ويبدو أن السيد المحافظ قد رضى عن ذلك أو على الأقل سكت بعد أن كان يهدد ويتوعد، أو نصحه أحد معاونيه بأن هذه العزبة لا يصلح معها إلا شخص مثل عبدالجبار بقبضته الحديدية ورجاله الذين يعرفون كيف يسيطرون على نزعات الشغب والفوضى التى تراود بعض أهل العزبة وربما تنتقل إلى غيرهم.

وحين تزوج عبدالجبار من عزيزه وهى من أجمل بنات الحى، كان الجميع يرى أن عزيزه تستحق – لجمالها وعراقة أسرتها – زوجا أفضل بكثير، وأن عبدالجبار بطبيعته الجامدة ومشاعره الجافة والباردة لا يعرف قيمة عزيزة ولا يقدر جمالها وجاذبيتها وسحرها، ولكن من المؤكد أن الحاج سالم قبل وفاته هو الذى دفع بهذا الزواج كما هى عادته دائما مع أهل العزبة حيث يعتبرونه أبا لهم ويسلمون له بكل شئ حتى بناتهم، وهم لا يجدون فى ذلك حرجا فقد ورثوا هذه التقاليد عن آبائهم وأجدادهم ويغرسونها فى أبنائهم، وهم كثيرا ما يتفاخرون بها، فطاعة الكبير – أى كبير – مقدمة لديهم على أى شئ. ومنذ أن تزوجت عزيزه من عبدالجبار لم تخرج من القصر، ولم تزر أهلها، ولم يعلم عنها أحد شيئا، وعرف الناس أن عبدالجبار يمنعها من الخروج ربما لإدراكه بأنها كثيرة عليه وأنها تفوقه فى كل شئ فحاول تحجيمها داخل نطاق قصره حتى لا تتمرد عليه، وبعض الذين رأوها منذ سنوات قالوا أنها لم تصبح عزيزة التى يعرفها أهل العزبة والتى تغنى بجمالها شعراء الربابة والصييتة فى الموالد والأفراح، وإنما أصبحت كائنا شاحبا ذاهلا لا تتكلم ولا تغنى بصوتها العذب الذى كان يذيب القلوب فرحا وطربا، وتوقف عقلها الذى كان مضربا للأمثال فى رجاحته. ومن وقت لآخر كان أهل العزبة يرون عزيزه تطل من أحد الشبابيك الحديدية العالية، ومع الوقت بدأت علامات الكبر تتسلل إلى وجهها الجميل (أو الذى كان جميلا) وبدأت التجاعيد تعلن عن نفسها برغم محاولات التزين

المبالغ فيها أحيانا، وقد تأكد الآن أن عزيزه تمر بحالة شيخوخه قبل الأوان، وأنها لم تعد زوجة لعبدالجبار بل أصبحت أسيرة لديه، أو درعا بشريا له، فعبدالجبار كان يهدد بقتلها إذا فكر أهل القرية فى إزاحته عن العمودية أو فكروا فى اقتحام أسوار الدوّار، وهو يعرف جيدا مدى خوف أهل العزبة على عزيزة (وعلى أنفسهم قبلها). وحين توسل أهلها لعبدالجبار لرؤية ابنتهم عارض ذلك بكل ماهو معروف عنه من عناد وتصلب، وقد تسربت أخبار بأن عبداجبار قد ربط قدم عزيزه بقدمه حتى لا تستطيع الفرار، فعلى الرغم من حراسه الكثيرين إلا أنه لا يثق فى أحد، ويبدو أنه يعيش فى حالة خوف دائم على الرغم مما يشيعه هو عن نفسه من أنه لا يخاف ولا يتأثر بأى شئ. وقد شاع فى بعض الأوقات أن عبدالجبار قد مات وتنفس أهل القرية الصعداء فهم قد تعودوا أن يخلصهم الموت ممن يضيق عليهم حياتهم أو أرزاقهم، ولكن ماهى إلا أيام قليلة حتى بدأ وجه عبدالجبار يلوح من شبابيك الدوار الحديدية العالية وأصبح يتنقل من شباك إلى شباك بملامحه الجامدة المتيبسة والمتعالية، وحاول بعضهم أن يناديه ولكن يبدو أنه قد فقد سمعه لكبر سنه، أو هو يسمع ولكنه لا يشعر بالحاجة للرد على أحد (عنادا أو استكبارا أو احتقارا). ويعتقد بعض كبار السن فى العزبة أن الوجه الذى يظهر من شبابيك الدوّار العالية ليس لعبدالجبار وإنما هو وجه أحد أبنائه وهو يلبس قناع أبيه بعد موته، ولا يعرف الحقيقة إلا الله.

وهنا أسقط فى يد أهل العزبة وراحوا يطلقون الحكايات والنكات فى جلسات الحشيش حيث يضحكون ويمرحون ويبكون وينسون ويمارسون – كعادتهم – لعبة الإنتظار.

***

مولد سيدي «راعي البقر»

وقف الناس ينظرون ويتساءلون: لماذا ينفرد هذا المرعى بالذات بالبقر بينما المراعي من حوله كلها مليئة بالغنم؟... بل لماذا تبقى هذه المراعي أصلا بينما تحولت المناطق القريبة والبعيدة إلى مزارع وورش ومصانع وعمارات. ودائما تأتي الإجابة جاهزة عن السؤال الأول: إنه الماء المتوفر في المرعى والذي يسمح بزراعة البرسيم الذي يتغذى عليه البقر، مع أن هذا الماء أصبح شحيحا في السنوات الأخيرة، ولم يعد البرسيم بنضارته كما كان.

ليس هذا هو الغريب في الأمر، ولكن الغريب فعلا هو تلك العادة التي تحدث عنها الناس وتناقلوها، وهي تخص راعي البقر ويدعى «ثابت»، فقد قرر (وقراره دائما لا يرد) أن يشرب لبن المسمار من كل بقرة تلد ولمدة ٢٧ يوما بعد الولادة على الأقل، ولبن المسمار هذا لمن لا يعرفه هو اللبن الذي ينزل من البقرة عقب الولادة، وكان الرعاة والفلاحون يأخذون بعضه ويصنعون منه ما يسمونه «سرسوبة» وهي نوع لذيذ من «المهلبية».

ولا يعرف أحد على وجه التحديد سر غرام «ثابت» بلبن المسمار، ولكن الشائع عموما بين رعاة البقر والريفيين عموما أن هذا اللبن يمنح قوة غير عادية في الجسد ويمنح أيضا صلابة في الرأي، وربما يكون هذا هو السر في تسميته لبن المسمار، إذ لا توجد علاقة بين اللبن والمسمار لو أننا استبعدنا هذا التفسير الشائع. ومما يؤكد هذا التفسير تضخم جسد «ثابت» بعد اتباعه لهذه العادة وتصلب رأيه في كل شئ، وبالمناسبة فإن تصلب الرأي بين أهل المراعي وأهل القرى عموما صفة لها قيمتها فهي صفة الرجال عندهم، وهي تعني أن الرجل لا يخطئ، وكلمته «لاتنزل الأرض»، وإذا كان الرجل العادي لا يخطئ فكيف ب «ثابت» صاحب أكبر قطيع من البقر.

وكان «ثابت» لا يأتمن أحد ممن حوله في أن يحضر له لبن المسمار من الأبقار، لذلك

اعتاد أن يذهب بنفسه كل صباح إلى حيث تقف البقرة حديثة الولادة ويمص حلمات ثديها حتى تفرغ تماما من لبنها، وبعدها يصدر صوتا من أعلى ومن أسفل ثم ينطلق منتشيا يدب برجله في الأرض، وهو يشعر براحة هائلة. ولم يفهم الناس قيمة لبن المسمار على حقيقته إلا بعد أن رأوا «ثابت» وقد تضخم جسده أكثر ممن حوله بشكل واضح، فقد اذداد عرضا وإن بقي على قامته القصيرة كما هي.

وربما تكون القامة القصيرة هي الدافع وراء إصرار ثابت على هذا الأمر، فهو يدرك حقيقة قصر قامته وكان يخجل منها طيلة حياته، ولهذا فهو يشرب لبن المسمار على أمل أن تطول هذه القامة (هكذا قال له أحد الأطباء البيطريين الذين يأتون من وقت لآخر للكشف على أبقاره)، ولكن الذي يحدث أنه يزداد عرضا وليس طولا، وهذا يجعله أكثر قبحا، بل إن ملامحه يوما بعد يوم تقترب من ملامح البقر ففمه يزداد اتساعا وشفتاه تزدادان غلظة وترهلا، وعيناه تزدادان جحوظا، ولكنه لا يهتم بهذا الأمر، وعموما في المراعي لا يعيب الراعي مظهره، ولكن يعيبه ضعف جسده ولين قوله، وخضوعه لغيره مهما كان هذا الغير، و«ثابت» عموما لا يهتم برأي الناس ولا يعطيهم أدنى تقدير، ولا يصاحب أحدا منهم.

وكان بعض الرعاة العاملين عنده يحاولون التسلل من وقت لآخر لأخذ «شفطة» من لبن المسمار، ولكنه كان يعرف ذلك بطريقته، ويعاقب من يفعل ذلك منهم عقابا قاسيا، أو يستخدم هذا الأمر للضغط عليه لكي يفعل ما يريد بعد ذلك. وقد أصبح منذ فترة يغمض عينيه عن بعض الرعاة ليتسللوا و«يشفطوا» بعض اللبن، وذلك لضمان السيطرة عليهم بما يملكه عليهم من أدلة السرقة والخيانة، أو أنه يفعل ذلك ضمانا لاستمرار ولائهم له. وقد أدى هذا الأمر إلى تشابه في الرعاة مع اختلاف في الأحجام، فكلهم يتضخم بالعرض ولكن يظل طوله كما هو، وأصبح من السهل التعرف عليهم من بين جموع الناس الذين لا يطالون لبن المسمار فملامح الأبقار تعتبر عاملا مشتركا بينهم مهما اختلفت هيئاتهم.

ولم يكن التعرف على من يشربون لبن المسمار بالحجم والشكل والملامح فقط ولكن بما يصدر عنهم من ريح، فقد كان تناولهم المفرط والمتكرر للبن المسمار يؤدي إلى عفونة في بطونهم مع غازات هائلة تخرج من وقت لآخر في صورة انفجار، يتوقف حجمه على كمية لبن المسمار التي تناولها الشخص منهم. والناس قد اعتادوا هذا الأمر ولم يعودوا يتأففون منه كعادتهم، ولم يعد إصدار صوت الضراط (صوت يخرج من فتحة الشرج) مع الرائحة الكريهة شئ يخجل منه، بل كان أكثر الناس إصدارا لدفعات من الضراط هو «ثابت»، حيث يسمع خروج ريحه من مكان بعيد وكأنه بركان وانفجر، وكان أكثر ما يحدث ذلك ويسمعه أهل المرعى جميعهم في الصباح حين يفرغ «ثابت» من مص أثداء البقرات حديثة الولادة ويصدر بعدها صوتين يرتج لهما المرعى:

أحدهما من أعلى والآخر من أسفل، وصار الضراط ذو الصوت المرتفع أحد عادات أهل المرعى على الرغم من أنهم كانوا يتأففون منه في الماضي. وأصبح من المعتاد أن يقيموا مسابقات في الضراط يفوز فيها صاحب أعلى صوت وأبغض رائحة، وكان «ثابت» هو راعي هذه المسابقات وغيرها و وإن كان لا يشترك فيها ترفعا وحفاظا على الهيبة.

ولاحظت زوجة ثابت ما طرأ على زوجها من تغيرات بعد شربه الدائم للبن المسمار وكانت تشمئز منه من ناحية (شكلا ورائحة)، ولكنها تتقبل ذلك من ناحية أخرى وتفخر به حين ترى الهيبة والمكانة التي احتلها «ثابت» بسبب ضخامة جسده وصلابة رأيه (رغم قصر قامته)، فحاولت أن تشجع أبناءها لتقليد أبيهم، وكان «ثابت» يسمح بذلك في حذر، فهو يخشى كثيرا أن يصبح أحد منافس له في القوة أو الضخامة أو التصلب، حتى لو كان من أبنائه.

أما على مستوى البقر، فقد كان معروفا أن البقرة التي تلد حديثا لا تسمح بسهولة أن يقترب منها أو من وليدها أحد، ويصعب أن يمص أحد ثديها غير رضيعها، وإذا حاول أحد أن يقترب من ثديها «تنطحه» برأسها أو قرنها، ولكن مع تكرار «ثابت» وأتباعه لامتصاص أثداء البقر أصبح هذا الفعل مألوفا، ولم تعد الأبقار تمارس «النطح»، بل أصبحت أقرب إلى الرضى والإستسلام.

ومنذ عدة سنوات لوحظت بعض التغيرات على الأبقار الصغيرة التي حرمت من لبن المسمار، فقد وجد أنها تنمو ببطء شديد، وتظهر عليها علامات نقص التغذية من هزال وشحوب، وعلى الرغم من ضعفها وشحوبها وهزالها إلا أنها تنطح بعضها كثيرا، ولا تعرف الطريق بين المراعي، وحركتها تبدو عشوائية وغير منظمة، وأصبحت أكثر بلادة وخمولا وجبنا، وربما تأكل بعضها. وحين عرض الأمر على الأطباء البيطريين نظروا في استغراب وقالوا: «ربما يكون السبب هو التغيرات المناخية الحادثة في العالم كله بسبب ثقب الأوزون»، وأخذ كل منهم قيمة الكشف عدد من البقرات وانصرف عائدا إلى أهله وهو يكاد يطير من الفرح بنجاحه المهني.

وعرض الأمر على أحد المشايخ الملاصقين ل«ثابت» فقال: «إنه قضاء وقدر ولله في خلقه شئون، ولا يجوز الإعتراض على تصريف الله للكون في الإنسان أو البقر».

ولوحظ في الشهور الأخيرة تسارع في ضخامة جسد «ثابت» لدرجة أنه أصبح يتحرك بصعوبة، بل إنه يكاد يتدحرج بسبب عرض جسمه وانتفاخه الهائل مع قصر قامته، وحين حاولت زوجته أن تلفت نظره لهذا الأمر كان هو يهون عليها ويقول بأن هذا أمر طبيعي، وربما كان في دخيلة نفسه يفرح بضخامة جسده حتى ولو كان على حساب حركته، بل إن الحركة أساسا لم تكن تهمه فهو يعشق الجلوس في مكانه وحوله أتباعه من الرعاة المنتفخين، بشرط أن لا يكون أحدهم بدرجة انتفاخه.

وكان «ثابت» يعرف ولاء من حوله بحجم أجسادهم، فإذا وجد أحدهم وقد انتفخ جسده وتضخم كثيرا عرف أنه تجاوز حصته المسموح بها (أو المسكوت عنها) في لبن المسمار، وهنا يبدأ ثابت في محاصرته أو حرمانه، أو التشهير به، أو إقصائه، أو التخلص منه بأية طريقة.

وسرت شائعة بين أهل المرعى بأن من يشرب لبن المسمار يوميا لمدة ٦ سنوات لا يموت، أو أنه يعيش طويلا جدا، وقد سر «ثابت» بهذه الشائعة ونظر إلى نفسه مبتهجا بمعرفته «سر» لبن السمار الذي لم يعرفه من سبقوه وكانوا يتركونه للبقر يشربونه، وقد

سلم الناس بأن «ثابت» لن يموت، أو على الأقل لن يشهدوا هم موته وربما أبناؤهم وأحفادهم، وقد رتبوا أمورهم على هذه الفكرة، فلا يوجد دليل واحد على احتمال موته فهو يزداد قوة وضخامة وصلابة مع الوقت... ونظرا لثبات «ثابت» وطول عمره فقد أطلق على المرعى «مرعى ثابت» وعلى الطريق الذي يمر به «طريق ثابت».

وفي يوم من الأيام صحى أهل المرعى على صرخة هائلة سبقها انفجار شديد، وهرعوا إلى مصدر الصوت المختلف هذه المرة عما عهدوه فوجدوا زوجة ثابت تصرخ في ذهول وهي تقول: لقد مات «ثابت»، ووقف أهل المرعى مذهولون، وهم لا يصدقون ويحسبون أن في الأمر خطأ ويريدون أن يتأكدوا، ولم يكن في المنطقة أو قريب منها طبيب يفحص «ثابت»، فاستعانوا بأحد الأطباء البيطريين المتواجدين قريبا من المرعى فأكد فعلا أن «ثابت» قد مات.

والغريب في الأمر أن «ثابت» بعد موته أخذ ينتفخ وينتفخ بشكل متسارع، ويبدو أن آلية إخراج الريح من بطنه قد توقفت أو ضعفت بموته (هكذا قال الطبيب البيطري) بينما العفونة الناتجة عن الكميات الهائلة من لبن المسمار مازالت تتزايد، وقد أدى هذا إلى مشكلة عند تغسيل ثابت إذ لم يجدو شيئا يمكن أن يضعوه عليه لكي يغسلوه، فقال أحد الواقفين إنه كبيرنا ولا يحتاج إلى تغسيل فجسده طاهر بطبعه، فنظر إليه الواقفون وهم يضعون أيديهم على أنوفهم اتقاءا للرائحة الصادرة عن جسد «ثابت» ومن فتحات جسده، ولكنهم وافقوا على هذا الرأي للخروج من المأزق، فحملوه وذهبوا لدفنه، ولكنهم لم يستطيعوا إدخاله في القبر، حيث لا يوجد قبر يتسع لهذا الجسد الضخم المنتفخ، فأشار عليهم بعض أولي الرأي بأن يصرفوا نظرا عن مسألة القبر، وأن يحفروا له حفرة هائلة تتسع لجسده، فظلوا يحفرون عدة أيام حتى تستوعب الحفرة هذا الجسد، وقد عانوا تلك الأيام من رائحة الجسد التي كانت تشم على بعد هائل. وبينما انشغلوا هم في الحفر والدفن، تسلل أعوان ثابت إلى البقرات الوالدات حديثا يحاولون ارتشاف لبن المسمار قبل أن يأتي أحد أبناء «ثابت» ويستأثر بذلك اللبن كما استأثر أبوه.

ويذكر أهل القرية والقرى المجاورة أن جسد «ثابت» كان يبرز من الأرض من وقت لآخر، فيقول البعض إن الأرض تلفظه ويقول آخرون بل هي كرامة تظهر له بعد مماته، وبعد أن يختلفوا يضطرون إلى تغطية الجسد المنتفخ المتعفن بالطين والرمال حتى ارتفع المكان بشكل ملحوظ وأصبح يسمى «هضبة ثابت»، وكانت تصدر منه رائحة يصعب تسميتها أو وصفها، وكان الناس يأتون من أماكن بعيدة ليروا الهضبة التي يقبع فيها الجسد المتمدد، تلك الهضبة التي تعلو وتتسع على حساب المرعى وبيوت الناس، ولكي يحدوا من تمدد الجسد والهضبة أشار عليهم أحد المهندسين بعمل حجرة هائلة من المسلح تحيط بالهضبة من كل جوانبها، وأن يبطنوها ويطلوها بال «بيوتامين» حتى تحجب الرائحة المنبعثة، وأصبحت «هضبة ثابت» مزارا يتبرك به أهل المرعى والقرى المحيطة بهم، ويقيمون لذلك مولدا سنويا يسمونه «مولد سيدي راعي البقر».

***

إيجار قديم

حين ترك قريته وحضر إلى القاهرة ليعمل في مصنع الحديد والصلب بحلوان ربما كان غاية أمله أن يجد غرفة فوق «سطوح» أي بيت قديم في حي شعبي، ولكن يبدو أن الحظ كان مواتيا حيث رأى رئيس الوردية أن عبدالدايم «حمار شغل»، وأنه يطيع الأوامر بشكل حرفي، وليس له في السهر أو شرب الجوزة، تلك الأشياء التي اعتادها كثير من العاملين بالمصنع في ذلك الوقت حتى أنهكت قواهم، إضافة إلى ذلك أن ليست له أطماع كبيرة في مرتبه أو وظيفته، لذلك توسط له في استئجار شقة في حي مصر القديمة، وقد فرح عبدالدايم بشقته الجديدة القديمة، ولكنه لم يظهر فرحته خوفا من الحسد من ناحية ومن ناحية أخرى لأنه بطبيعته الجامدة لا يعرف كيف يعبر عن مشاعره في مثل هذه المواقف أو في غيرها، وادّعى بأنه لن يمكث فيها كثيرا فهي أكبر من احتياجاته، إذ ليس لديه أسرة كبيرة تملأ هذه الشقة غير زوجته وولديه الصغيرين، وكان دائما يتحدث عن نيته في الرجوع إلى قريته فور بلوغه سن المعاش ليبني بيتا صغيرا وسط القراريط البسيطة التي ورثها عن والده، وأن يعيش حياة هادئة فيما تبقى له من العمر، غير أن بعض زملائه في العمل كانوا يتعجبون من قوله خاصة وأنهم يعرفون أن عبدالدايم لا يحب قريته ولا يحب أهلها من الفلاحين ولا يحب غيرهم ولا يحب أحدا، وقد تمر سنوات دون أن يفكر في زيارة أقاربه هناك، بل ويتحاشى الحديث عنهم، وليس له أصدقاء من قريته (أو من غير قريته).

وأصبحت الشقة تشغل بال عبدالدايم أكثر من العمل ومن الناس، وكلما خرج منها أو عاد إليها وقف ليتأمل العمارة العتيقة بواجهتها الممتدة في الفضاء ونقوشها وبروزاتهاالأثرية. وعلى الرغم من عدم معرفته بمعنى هذه النقوش أو تلك البروزات ولا بنوع طراز العمارة الكبيرة إلا أنه كان يشعر بالفخر أنها تشبه سرايات الباشوات التي عاش هو وأجداده ينظرون إليها بمزيج من الإعجاب والحسد والرهبة. وعلى الرغم من

أن العمارة عتيقة إلا أنها تحمل آثار عز قديم، فمدخلها هائل الإرتفاع والإتساع ويحمل سقفه أعمدة رخامية ضخمة، ومطلع الدرج يسع لعشرة أشخاص يصعدون معا دون مشقة، وغرفها واسعة وأسقفها عالية، وطراز بنائها يوحي بأن من بناها كانت لديه وفرة من الوقت والمال وراحة البال واتساع الصدر فجعل فيها كل هذه الأعمدة والنقوش والبروزات والتماثيل بما يفوق ضرورة احتياجات المكان للسكنى. وكثيرا ما كان عبدالدايم يتعجب من وجود مثل هذه الأشياء في مكان معد أساسا للسكن وليس للسواح الأجانب، وقد قام بالفعل بتكسير بعض الأعمدة والتماثيل والنقوش البارزة الموجودة في شقته ليتمكن من وضع سرير أو كنبة أو كرسي في مكان يرغبه.

ولم يكن عبدالدايم يدرك معنى كلمة «إيجار قديم» حتى صدر قانون «الإيجار الجديد»، والذي يحدد مدة معينة للإيجار يتم بعدها إخلاء الشقة أو تغيير بنود العقد طبقا للأسعار الجديدة، وهنا أدرك الرجل أنه يضع يده على ثروة هائلة، إذ بموجب العقد الذي معه يعتبر وكأنه مالك للشقة طوال عمره، وإيجارها لا يتعدى ثلاثة جنيهات يرميها لصاحب العمارة آخر كل شهر وحين يرفض الإيجار يودعه باسمه في المحكمة، ولا يستطيع أحد مهما علا أن يخرجه من هذه الشقة فالقانون معه. ولأول مرة في حياته يشعر بأنه يملك شيئا ثمينا بهذا الحجم وبهذه القيمة خاصة بعد أن عرض عليه صاحب العمارة إخلاء الشقة مقابل مبلغ كبير من المال وصل إلى مليون جنيه، وهذا مبلغ جديد جدا على سمع عبدالدايم وعلى تصوره للمال. وقد جعله هذا الشعور يصرف نظره عن العودة إلى القرية (تلك العودة التي كان يدّعيها ويشكك في مصداقيتها كثير ممن يعرفونه)، خاصة وقد كبر ولديه وأصبح أحدهما يعمل بالتجارة والسمسرة في الحي، وصار وسيطا في أغلب عمليات البيع والشراء في المنطقة، وقد طلب هذا الإبن من أبيه تخصيص غرفة من الشقة لتكون بمثابة مكتب سمسرة وغرفة أخرى لتكون مكتبا للإستيراد والتصدير، وتدفقت الأموال على أسرة عبدالدايم، وأيقنوا أن هذه الشقة كانت «وش السعد» عليهم، وما كان يؤرقهم إلا شيئين: الأول، هو اتجاه الإبن الأكبر للدروشة وزهده في الدنيا وجلوسه مع الدراويش حول مسجد الحسين أغلب الوقت، والثاني، هو أن هذه العمارة

قديمة وثمة تلميحات بتفكير صاحبها في استصدار قرار إزالة لها وإعادة بنائها، وهذا يستلزم طرد السكان منها. وعلى الرغم من هذين الشيئين المؤرقين إلا أن عبدالدايم كان يحاول أن يتناساهما ويعيش حياته بشكل سعيد، فاشترى جلابيب صوف وعباءة خليجية وطاقية شبيكة، وراح يعمل بالسمسرة في الحي مع ابنه، ويشتري بيوتا وأراضي حتى تضخمت ثروته وأصبح قادرا على أن يبني لنفسه بيتا مستقلا أو حتى قصرا يعيش فيه هو وأسرته ولكنه كان يرفض هذه الفكرة حرصا منه على الشقة التى رأى فيها أحلى أيامه وانفتحت له من خلالها أبواب «العز» و «السعد». وحاول صاحب العمارة أن يقنعه مرات ومرات بإخلاء الشقة مقابل زيادة «خلو الرجل» بشكل فلكي على أساس أن العمارة فعلا أصبحت آيلة للسقوط ولم يعد فيها سكان غير عبدالدايم وأسرته، إلا أنه رفض كل هذه المحاولات على الرغم من وجود تقارير هندسية تؤكد بأن العمارة على وشك الإنهيار فعلا في أي لحظة، وراح من خلال علاقاته في مجلس المدينة يستصدر تقارير مضادة تفيد بأن حالة العمارة جيدة، ويحمل التقارير إلى ساحات المحاكم وهو يعلم أن الإستشكالات القضائية ستأخذ وقتا طويلا. ولما ثبت أنه لن يترك الشقة طلبت منه رئاسة الحي السماح للعمال والمهندسين ليقوموا ببعض الإصلاحات والترميمات في الشقة فوافق على مضض، ولكن بعد فترة احس بأنهم يتوسعون في الإصلاحات والترميمات أكثر من اللازم، وأحس أن مسألةالترميمات خدعة يراد بها طرده من الشقة فقام هو بطرد العمال والمهندسين، وأقنع رئاسة الحي أن الترميمات قد تمت وأن الشقة بحالة ممتازة.

ولم يعد عبدالدايم يخرج من الشقة خوفا من أن يداهمها صاحب العمارة أو أهل الحي أو مهندسو الحي خاصة وأن العمارة أصبحت تهدد ما حولها إذا سقطت فجأة، وظل سنوات يظهر فقط من «بلكونة» الشقة أو أحد شبابيكها يراقب حركة الناس في الشارع ويتوجس منهم خيفة، ويتوقع أن كل واحد منهم قادم لإخراجه من شقته، وكثيرا ما كان يظهر ممسكا ببندقية يصوبها نحو من يقترب من العمارة حتى أصبح الناس يخشون المرور من الشوارع المجاورة لها. ولما ازداد خوفه وترقبه استدعى عدد من شباب قريته وأعطى كل واحد منهم «نبوتا» ووزعهم على باب الشقة وسلم العمارة ومدخلها والشوارع المؤدية

إليها، وطلب منهم البطش بكل من تسول له نفسه الإقتراب من الشقة أو حتى من العمارة، وعلى الرغم من تهافت صحة هؤلاء الشباب حيث أغلبهم مصاب بالبلهارسيا وأمراض الكبد المختلفة وسوء التغذية إلا أن عددهم وأصواتهم التي كانوا يصدرونها والأقنعة التي كانوا يلبسونها كل ذلك سبب رعبا لأهل الحي فلم يفكروا في الإقتراب منهم.

ولم يكتف عبدالدايم بذلك بل راح يستدعي كل من يعرفه من المحامين الضليعين في معرفة ثغرات القوانين لكي يدعموا موقفه القانوني في التمسك بإيجاره القديم الذي يتيح له الإنتفاع بالشقة طوال حياته، وحين ذكرت كلمة «طوال حياته» راح القلق يساوره، إذ ماذا يكون الأمر لو أنه مات؟.. أيأخذون الشقة ويطردون ابنه وزوجته؟؟.. وصار هذا الخاطر يؤرقه ليل نهار، لذلك أصبح يقضي ساعات طويلة مع المحامين الذين يتوافدون على شقته يوميا ليبحثوا كيف ينتقل الإيجار القديم إلى أبنائه وأحفاده، فالشقة بسعر اليوم تساوي ملايين وليس من المعقول أن يفقد هذه الملايين بمجرد وفاته فهي حق لأولاده وأحفاده من بعده (كما يذكر دائما). واختلف المحامون، فمنهم من قال بأن من حق زوجته وابنه الإقامة في الشقة بعد موته دون تغيير العقد، ومنهم من قال بأن موقفهم قد يتغير إذا ثبت أن الإبن غير مقيم بالشقة بشكل «دائم» أو أنه قد غيّر في بنية الشقة وطرق الإنتفاع بها. وراحت كلمة «دائم» تدرو في رأس عبدالدايم، وأصبح يحذر ابنه من ترك الشقة لأي سبب من الأسباب حتى لا تأتي لجنة معاينة فلا تراه فيها، واقتنع الإبن بذلك وراح يدير أعماله التجارية سرا من داخل الشقة حيث يتجمع أصدقاؤه وشركاؤه في المكتب الذي اقتطعوه من الشقة.

ومن طول الوقت وثبات الموقف كما هو اعتاد أهل الحي على هذا الوضع الغريب وكيّفوا حياتهم عليه، كعادتهم، ولكن لوحظ منذ عدة أيام صدور رائحة كريهة جدا من ناحية الشقة، ولوحظ أيضا زيادة أعداد المحامين المتوافدين على الشقة، وعرف أهل الحي بعد محاولات مضنية أن عبدالدايم قد مات وأن زوجته وابنه يرفضون إخراج جثمانه من الشقة خوفا من فقدانهم حق الإقامة فيها بعد موته، وأنهم يتباحثون مع المحامين حول

الطريقة التي تتيح للزوجة والإبن حق الإنتفاع «الدائم» بالشقة على الرغم من موت «الأب» صاحب العقد. واستمر هذا الوضع عدة أسابيع حتى أصبح أهل الحي لا يطيقون الرائحة الصادرة من شقة عبدالدايم، وحاولوا إقناع الزوجة والإبن بضرورة دفن الجثة إلا أنهم رفضوا بإصرار، فما زالوا يحتاجون لبعض الوقت لضبط الأمور القانونية التي تتيح لهم نقل عقد الإيجار القديم إلى الزوجة أو الإبن، ولكن أهل الحي لم يحتملوا هذا الوضع على الرغم من صبرهم الطويل الذي اشتهروا به وتسليمهم للأمر الواقع «دائما»، وقد أفتى لهم بعض الشيوخ بضرورة دفن جثمان الميت حتى ضد إرادة أهله، وهنا تجمعوا،لأول مرة منذ زمن بعيد، واقتحموا باب الشقة ووجدوا منظرا عجيبا، فقد تمدد جسد عبدالدايم في كل أرجاء الشقة الواسعة، حيث كان رأسه الضخم العنيد وجزءه المنتفخ يملآن الصالة بينما امتد ذراعاه وساقاه كل في غرفة من الغرف، ليس هذا فقط، بل لقد تحول جسده إلى ما يشبه شجرة قديمة متعفنة لها جذور تمتد في كل مكان بالشقة متشبثة بأي شئ يمكن التشبث به، ووجدوا زوجته وابنه منزوين في ركن من الشقة ممسكين بعقد الإيجار القديم. وهنا دخل أحد المحامين الذين كان يستخدمهم عبدالدايم، وأظهر تنازلا عن العقد بإمضاء وبصمة عبدالدايم وبموافقة صاحب العمارة، وبموجب هذا التنازل تنتقل الشقة إلى المحامي بإيجارها القديم مقابل دفع مبلغ لصاحب العمارة، واندفع أهل الحي، كعادتهم في مثل هذه المناسبة وفي غيرها، وحملوا المحامي الفائز على أعناقهم وطافوا به شوارع مصر القديمة وهو يلوح بعقد الإيجار القديم بعد تعديله.

❋ ❋ ❋

مراجع الدراسة

- جمال حمدان (١٩٩٣). شخصية مصر (دراسة فى عبقرية المكان)، كتاب الهلال، عدد ٥٠٩
- حماده حسين، الفهلوة المتوحشة، روزاليوسف ٣٠/ ٣/ ٢٠٠١(٣٧٨٩)
- حمدى عبدالرحمن حسن (١٩٩٣). الفساد السياسى فى إفريقيا، الطبعة الأولى، دار القارئ العربى، القاهره
- رجب البنا، «من الفهلوى إلى الهباش» عن كتاب «المصريون فى المرآه»، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠
- طارق حجى (١٩٩٩). نقد العقل العربى. سلسلة «إقرأ» الصادرة عن دار المعارف، القاهرة.
- على سالم. «وشاح الفهلوة»، روزاليوسف، ٣٠/ ٣/ ٢٠٠١ (٣٧٩٨)
- عزه عزت (٢٠٠٠). التحولات فى الشخصية المصرية، كتاب الهلال، العدد ٥٩٨، القاهرة
- فهمى هويدى (٢٠٠٧). عن الفساد وسنينه، الطبعة الثانية و دار الشروق، القاهره
- نبيل راغب (١٩٩٢). الشخصية المصرية بين الحزن والمرح، دار الثقافة، القاهرة
- يوسف القرضاوى (١٩٩٤). فتاوى معاصرة، الطبعة الثالثة، الجزء الثانى، دار الوفاء، المنصورة
- Saint Hilaire، Lettres sur l `Egypt، Paris 1857، p 191